مكتبة

أهلا بك في بيت القرود

كورت فونيجت

ترجمة: محمد أ. جمال

أدب أمريكي معاصر

المحروسة

أهلًا بِكَ في بَيتِ القُرود

كورت فونيجت

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!

telegram @soramnqraa

عنوان الكتاب: أهلًا بكَ في بَيتِ القُرود
Welcome to the Monkey House
Kurt Vonnegut كورت فونيجت
ترجمة: محمد أ.جمال
مراجعة لغوية: محمود شرف

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٥٣٦٦/ ٢٠٢١
الترقيم الدولي: 978-977-313-874-5
جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2021

Welcome to the Monkey House
Copyright © 1950, 1951, 1953, 1954, 1955, 1956, 1958, 1960, 1961, 1962, 1964, 1966, 1968, Kurt Vonnegut,Jr.
All rights reserved

مجموعة قصصيّة

مكتبة
t.me/soramnqraa

أهلًا بِكَ في بَيتِ القُرود

كورت فونيجت

ترجمة

محمد أ. جمال

الطبعة الأولى 2021

t.me/soramnqraa

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

جونير، كان كورت فونيجت، 1922-2007

أهلا بك في بيت القرود: مجموعة قصصية/ كورت فونيجت؛ ترجمة: محمد أ. جمال.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2021

424 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 978-977-313-874-5

1 - القصص الامريكية

أ-جمال، محمد (مترجم)

ب- العنوان

823

رقم الإيداع 2021/25366

مُقدّمة

هـا هـو ذاك، اسـتعراضٌ تاريخـيٌّ لأعـمال كـورت فونيجـت چونيـور القصـيرة، ولا يـزال فونيجـت معنـا، وأنـا لا أزال فونيجـت جـدًّا. يوجـد في مـكانٍ مـا بألمانيـا مجـرى ميـاه يُدعـى فـوني، هـذا هـو مصـدر اسـمي الغريـب.

صِرتُ كاتبًـا بـدءًا مـن 1949. علَّمـتُ نفـسي بنفـسي. ليـس عنـدي أيُّ نظريـات عـن الكتابـة قـد تسـاعد الآخريـن. عندمـا أكتـب أتحـوَّل ببسـاطة إلى مـا يبـدو أنِّي بحاجـة للتحـوُّل إليـه. طـولي سِـتُّ أقـدام وبوصتـان، ووزني يقـارب مائتـي رطـل، وأتحـرَّك كأخـرق، إلا عندمـا أعـوم. كل ذلـك اللحـم الزائـد هـو مَـن يضطلـع بالكتابـة.

لكنني في الماء جميل.

أبي وجـدِّي لأبي كانـا مهندسـين معماريَّـيْن بمدينـة إنديانابوليـس بولايـة إنديانـا، حيـث وُلِـدتُ. جـدِّي لأمــي امتلــك معــصرة بــيرة هنـاك. فـاز

بميداليـة في معـرض باريـس ببيرتـه، والتـي كان اسـمها "ليـبر لاجـر". مُكوِّنُهـا الـسِّرِّيُّ كان القهـوة.

أخـي الوحيـد، الـذي يكـبرني بثمانيـة أعـوام، عالِـمٌ ناجـح. تَخصُّصـه هـو الفيزيـاء المتعلِّقـة بالسُّـحُب. اسـمه بيرنـارد، ودمـه أخـفُّ منـي بكثـير. أذكر الخطـاب الـذي كتبـه بعـد ولادة طفلـه الأول، بيـتر، وعودتـه بـه إلى البيـت. بـدأ خطابـه بقـول: "هـا أنـا ذاك، أنظِّـف خـراء كُلِّ شيء تقريبًـا".

أختـي الوحيـدة، التـي تكـبرني بخمسـة أعـوام، ماتـت في سـن الأربعـين. كانـت أطـول مـن سـت بوصـات أيضًـا، بمقـدار أنجسـتروم أو مـا شـابه. كانـت جميلـةً كالسـماء، ورشـيقة، في المـاء وخارجـه. كانـت نحَّاتـةً. اسـمها عنـد العـماد كان "أليـس"، لكنهـا اعتـادت عـلى إنـكار كونهـا في الواقـع أليـس. وافَقتُهـا عـلى ذلـك، الـكلُّ وافقَهـا. يومًـا مـا، في حلـم مثـلًا، سأكتشـف اسـمها الحقيقـي.

كلماتهـا الأخـيرة كانـت: "بـلا ألم". تلـك كانـت كلـمات أخـيرة طيِّبـة. مـا قتلهـا كان السَّرطـان.

وأدرك الآن أن التيمتـين الرئيسـيَّتين لرواياتي صاغهـما أخـواتي: "هـا أنـا ذاك، أنظِّـف خـراء كل شيء تقريبًـا" و"بـلا ألم". محتويـات هـذا الكتـاب هـي عيِّنـة مـن أعـمالي التـي بِعتُهـا لتمويـل كتابـة الروايـات. هنـا يجـد المـرءُ ثمـارَ التجـارة الحُـرَّة.

عملـتُ كموظِّـف علاقـات عامَّـة لشركـة جـنرال إليكتريـك، ثـم صِرتُ كاتبًـا حُـرًّا لمـا يُدعـى بــ "الأدب الأملـس"[1]، كثـيرًا مـماً كتبـتُ كان خيـالاً

(1) أدب أملـس Slick Fiction: صفـة (Slick- أملـس) كان تُطلـق عـلى المجـلات الفاخـرة المطبوعـة عـلى ورق مصقـول (جلـوسي) في أمريـكا بـدءًا مـن ثلاثينيـات القـرن العشريـن. كانـت هـذه المجـلات باهظـة التكلفـة، وأغلـب مـا نـشرت مـن أعـمال أدبيـة كانـت خيـال علمـي. في المقابـل كانـت المجـلات والكتـب الرخيصـة تُطبـع عـلى ورق مـن خشـب (اللـب- Pulp)، وهـو ورق خَشِـنٌ رخيـص، فشـاع مصطلـح (أدب اللـب- Pulp Fiction)؛ تعبـيرًا عـن الأعـمال الأدبيـة الأقـل جـودة. [المترجـم]

علميًّـا. أنـا غـير مسـتعدٌّ لتحديـد إن كنـتُ عملـت في نفـسي معروفًـا أخلاقيًّـا بهـذا التغيـير أم لا. ذلـك أحـد الأسـئلة التـي سـألقيها عـلى الـرَّبِّ يـوم القيامـة، ذلـك، والسـؤال عـن اسـم أختـي الحقيقـي.

قد يكون ذلك، بسهولة، الأربعاء القادم.

طرحـتُ هـذا السـؤال بالفعـل عـلى مُـدرِّس جامعـي، وأكَّـد لي بينـما كان يركـب سـيارته المرسـيدس- بنـز جـران توريزمـو 300SL، أن رجـال العلاقـات العامَّـة وكُتَّـاب الأدب الأملـس عـلى نفـس درجـة الدَّنـاءة؛ فكلاهـما يعبـث بالحقائـق لأجـل المـال.

سـألته عـن أدنى نـوع مـن الخيـال في رأيـه، فقـال لي: "الخيـال العلمي". سـألته إلى أيـن يتوجَّـه بهـذا التَّعجُّـل، فعرفـتُ أنـه عليـه اللحـاق بطائـرة. كان سـيلقي كلمـة في لقـاء جمعيـة اللغـة المعـاصرة في الصبـاح التـالي في هونولولـو. هونولولـو كانـت عـلى بُعـد ثلاثـة آلاف ميـل.

دخَّنَـت أختـي كثـيراً. دخَّـن أبي كثـيراً. دخَّنَـت أمـي كثـيراً. أُدخِّـن كثـيراً. دخَّـن أخـي كثـيراً، ثـم أقلـع عـن التدخـين، وتلـك معجـزة لا تَقِـلُّ عـن معجـزَتَيْ الخبـز والسـمك[1].

وذات مـرَّة اقترَبَـت منـي فتـاة جميلـة في حفلـة كوكتيـل، وسـألتني: "مـاذا تفعـل هـذه الأيـام؟".

أجبتُ: "أنتحر بالسجائر".

اعتَـبَرَت الفتـاة إجابتـي ظريفـة نوعًـا. لكنـي لم أفعـل. فكَّـرتُ أن ازدراء الحيـاة لهـذه الدرجـة، عـبر امتصـاص عِصِيّ السرطـان تلـك، لهـو أمر بَشِـع. الانتحاريُّـون الجـادُّون يبحثـون عـن البـول مـول، أمَّـا الهـواة فيبحثـون عـن بيـل ميلز.

---

(1) معجزتـان للمسـيح، قـام فيهـما -بحسـب الأناجيـل- بتوزيـع كميـات محـدودة مـن الطعـام عـلى أعـداد كبـيرة مـن الفقـراء، فكـثر الطعـام وكفـى الجميـع. [المترجـم]

لي قريب يكتب سرًّا تاريخَ بعض فروع العائلة، عرض عليَّ بعضًا منه، وأخبرني عن جَدِّي المعماري بالتالي: "مات في أربعيناته، وأحسبه كان سعيدًا بالخلاص منها". الهاء في "منها" كان يعني بها بالطبع الحياة في إنديانابوليس. أنا أيضًا عندي نزعة توجُّس من الحياة مشابهة.

سُلطات الصِّحَّة العامَّة لا تذكر أبدًا السبب الرئيسي وراء تدخين الأمريكيين بغزارة، وهو أن التدخين وسيلة مُشرِّفة ومضمونة للانتحار.

لا يشرِّفني قول إني أردتُ ذات يوم الخروج "منها"، ولم أَعُد أريد ذلك بعد الآن. لديَّ سِتَّة أبناء: ثلاثة لي، وثلاثة لأختي، كبروا ليصبحوا أشخاصًا رائعين. زواجي الأول نجح، ولا يزال ينجح. ولا تزال زوجتي جميلة.

لم أعرف قطُّ زوجةَ كاتِبٍ لم تكن جميلة.

على شرف ذلك الزواج الناجح، ضَمَّنتُ في هذه المجموعة قصَّة حب ملساء إلى درجة الابتذال نُشرت في (سَتْرَك يا رب) مجلة "ليديز هوم چورنال"، بعنوان أطلَقَته المجلة عليها: "تمشية طالت إلى الأبد". العنوان الذي أسمَيتُها به، على ما أظنُّ، كان "تَفاهُم مع الجحيم".

تحكي عن ساعة عصرٍ قَضيتُها مع مَن ستكون زوجتي. إنه لمن العار أن يعيش المرء مَشاهِدَ من مجلة سيِّدات.

قالت النيويوركر ذات مرة إن أحد كتبي -بارك الرَّبُّ فيك يا مستر روزوتر- كان "... سلسلة من الضحكات النرجسية". ربما تلك سلسلة أخرى. قد يساعد القارئ أن يتخيَّلني كفتاة الوايت روك[1]، تركع على صخرة مرتدية قميصَ نومٍ، إمَّا تبحث عن سمكة أو تهيم بانعكاسها.

(1) فتاة الوايت روك White rock: الوايت روك شركة مشروبات أمريكية قديمة، كانت تبيع زجاجات مياه معدنية. شعارها مستوحى من لوحة بعنوان "بسايكي في مرآة الطبيعة Psyche at Nature's Mirror" للفنان الألماني بول ثومان Paul Thumann. يُظهر الشِّعارُ واللوحةُ الفتاةَ بسايكي الجميلة عارية الصدر في قميص نومٍ شفَّاف تتأمَّل انعكاسها في نبع مياه. [المترجم]

حيث أعيش

قبل وقت ليس ببعيد، دخل بائع موسوعات جوّال أقدمَ مبنى مكتبة في أمريكا، والتي كانت مكتبة ستورجيس الجميلة ببلدة بارنستيبل، على الساحل الشمالي لكيب كود بماساتشوستس. قال لأمينة المكتبة -التي تتوتَّر بسهولة- إن أحدث مراجعهم العامَّة كان نُسخةَ بريتانيكا 1938، تُدعِّمها نسخة أميريكانا 1910. وقال إن العديد من الأشياء الهامَّة قد وقعت بعد 1938؛ ذكر منهم البنسلين واحتلال هتلر لبولندا وأشياء أخرى.

نُصح بأن يأخذ أعاجيبه وحماسه إلى مديري المكتبة. وتلقَّى قائمة بأسمائهم وعناوينهم. كان على القائمة كابوتا ولويلا وكيتريدجا، وآخرون. قالت له الأمينة إن لديه فرصة للحاق بعددٍ من المديرين في وقت واحد، إن ذهب إلى نادي يخت بارنستيبل. هكذا اتَّخَذ طريق نادي اليخت الضيق، وكاد يكسر رقبته عندما ارتطم بعدد من

المطبَّات الموضوعة هناك لتهدئة حماس المتسرِّعين، أو لقتلهم لو كان ذلك ممكنًا.

أراد مارتيني، وتساءل إن كان البار هناك يخدم غير الأعضاء. بُهت عندما اكتشف أن النادي ليس إلا كوخًا عرضه أربع عشرة قدمًا وطوله ثلاثون، لمسة أوزاركية[1] في ماساتشوستس. احتوى الكوخ على مائدة كرة طاولة منصوبة بشكل مثير للسخرية، وسلَّة مفقودات سلكية محتوياتها رملية عَطِرَة، وبيانو عمودي موضوع تحت شقٍّ في السقف منذ سنوات.

لم يكن هناك أي بار، ولا هاتف ولا كهرباء. لم يكن هناك أي من الأعضاء أيضًا. وفوق كل ذلك لم تكن هناك حتى قطرة ماء في المرفأ. فالمدُّ، الذي كان يرتفع أحيانًا حتى أربع عشرة قدمًا، كان منحسرًا بالكامل. وتلك التي يُطلق عليها يخوت، أي الأنتيكات الخشبية من طراز رود أي. 8 وبيتلكاتس وبوسطن ويلرز، كانت مستقرَّةً على طينٍ بُنِّيٍّ يميل للزُّرقة في قاع أرض المرفأ. أسراب النوارس والخرشناوات كانت تتصايح بشأن كل تلك الطينة، وبشأن كل ما يصلح للأكل الذي يجدونه فيها.

وكان هناك أيضًا قليل من الرجال الذين يستخرجون محارةً ضخمة كالعصافير من حافَّة ساندي نيك، الأصبع الرملي البالغ عشرة أميال طولًا، الذي يفصل المرفأ عن الخليج المثلَّج. وكان هناك أيضًا، في المستنقع الملحي العظيم الذي يحدُّ المرفأ من الغرب، بطٌّ وإوزٌّ ومالك الحزين، وكثير من الطيور المائية. وبالقرب من فم المرفأ الضيق، رقد على جانبه مركبٌ شراعيٌّ من ماربلهيد ذو أرينة طولها ستة أقدام،

(1) أوزراك Ozarks: منطقة جبلية في وسط الولايات المتحدة، كان يُعرف عن الحياة فيها التقشُّف والبساطة. [المترجم]

ينتظر عودة الماء ليقوم من جديد. لم يجدر به أن يأتي قَطٌّ إلى بلدة بارنستيبل، ليس بأرينة مثل تلك.

ذهب البائع الجوَّال، مكتئبًا، لا مباليًا بالجمال الوحشي المحيط به، ليتناول الغداء. بما أنه كان في قلب أكثر المقاطعات ازدهارًا في نيو إنجلند، مقاطعة بارنستيبل، وبما أن الازدهار كان سياحيًّا، كان لديه أسبابٌ لتوقُّع تجربة مثيرة للحواس نسبيًّا في مكان الأكل. لكن ما اضطرَّ للقبول به كان مقعدًا بلا ظهر من الكروم أمام كاونتر من خشب الفورمايكا، في مكان لا يمكن وصفه أبدًا بالفخامة أو اللُّطف يُدعى بارنستيبل نيوز ستور، لمسة أوزاركية أخرى، متجر تجزئة أوزاركي. شعار المكان هو: "لو كان ذا قيمة فهو عندنا، لو كان بلا قيمة فقد بعناه".

بعد الغداء، عاد لتَصيُّد الإداريين مُجدَّدًا، قيل له أن يجرِّب متحف البلدة، وهو مبنى حجريٌّ كان مصلحة الجمارك ذات يوم. المبنى نفسه كان نصبًا تذكاريًّا لزمن ولَّى، كان فيه المرفأ تستخدمه سُفُنٌ أكبر حجمًا، قبل أن يمتلئ بكل ذلك الطين البني المزرقّ. لم يكن أي من المديرين هناك، والمعروضات كانت مُضجِرَةً إلى درجة مؤلمة. شعر البائع المتجوِّل أنه يختنق من فرط اللامبالاة، وهو وباء يصيب في العادة زُوَّار بلدة بارنستيبل العاديين.

تناول الدواء المعتاد، أي قفز في سيارته والتهم الطريق إلى بارات وموتيلات وصالات بولنج ومحلات هدايا ومطاعم بيتزا بلدة هاينيس، القلب التجاري لكيب كود. أفرغ إحباطه في ملعب جولف مصغَّر يُدعى بلاي- لاند. حينها، كان في ذلك الملعب بالذات سِمَة مثيرة للغيظ والشفقة تُميِّز الوحشية العشوائية للشاطئ الجنوبي لكيب كود. بُني الملعب على ما كان حديقةً لأحد مقرَّات الفيلق الأمريكي[1]،

---

(1) الفيلق الأمريكي The American Legion: منظَّمة أمريكية غير ربحية من المحاربين

وبين الكباري الصغيرة الماكرة والممرَّات ذات الرمال الحُبَيبيَّة، كانت هناك دبَّابة شيرمان، وُضِعَت هناك في زمن أبسط وأُخفِيَت كنصب تذكاري للمحاربين القدامى بالحرب العالمية الثانية.

نُقل المقرُّ من هناك، لكن الدبابة لا تزال في الجانب الجنوبي، حيث لا مناص من أن تجرفها الإهانات مجدَّدًا.

كرامة الدبابة كانت لتصير أكثر أمنًا في بلدة بارنستيبل، لكن البلدة لن تقبلها أبدًا. فسياستها هي عدم قبول أي شيء على الإطلاق. العاقبة السعيدة لذلك، هي تُبدِّل البلدة بنفس سرعة تَبدُّل قواعد الشطرنج.

أكبر تَبدُّل وقع لها في السنوات الأخيرة كان في الانتخابات. حتى سِتَّة أعوام مضت، كان مراقبو الانتخابات الديموقراطيُّون ومراقبو الانتخابات الجمهوريُّون كلهم جمهوريين. الآن مراقبو الانتخابات الديموقراطيُّون والجمهوريُّون كلهم ديموقراطيُّون. عواقب هذا الثورة لم تقترب حتى من السوء المُتوقَّع، حتى الآن.

وثمَّة قطيعة أخرى مع الماضي تتعلَّق بميزانية مجتمع هواة المسرح المحليِّين، نادي كوميديا بارنستيبل. كان للنادي مديرٌ ماليٌّ يرفض بغضب، مرَّة كل شهر على مدار ثلاثين عامًا، الإفصاحَ عن الميزانية؛ خوفًا من أن ينفقها النادي بحماقة. استقال العام السابق. وأعلن المدير المالي الجديد أن الميزانية أربعمائة دولار وبضعة سنتات، فأنفقها الأعضاء على ستائر جديدة بلون سمك السلمون المتعفِّن. بالصدفة، الظهور الأول لهذه الستائر العَطِنة كان خلال إنتاج مسرحية "المحاكمة العسكرية لتمرُّد كين"، التي فيها لم يُقَعقِع كابتن كويج

القدامى، تأسَّسَت عام 1919، تساعد في التجنيد والأنشطة الخيرية والتذكارية المتعلِّقة بالجيش. [المترجم]

بالكرات المعدنية بين يديه في توتُّر. حُذفت الكرات بدعوى أنها ذات إيحاءات.

تَغيُّر كبير آخر وقع قبل ستِّين عامًا، كان ذلك عندما اكتشفوا أن التونة طعامٌ طيِّب. اعتاد صيَّادو السمك في بارنستيبل أن يطلقوا على التونة لقب "ماكريل الحصان"، وإطلاق السباب كلَّما اصطادوها، ويستمرُّون في السباب بينما يقطعونها ويلقونها مرة أخرى في مياه الخليج، على سبيل التحذير لبقيَّة ماكريل الحصان. لكن التونة، إمَّا لشجاعتها أو لغبائها الخالص، لم تذهب من هناك، وصار من الممكن الآن إقامة مهرجان بعد عيد العُمَّال يُدعى مسابقة بارنستيبل للتونة. يأتي المتنافسون بصنانير كبيرة كساعات المحكمة من جميع أنحاء الساحل الشرقي لهذه المناسبة، ويصعب على أبناء البلدة دومًا فهم سبب قدومهم، ولا أحد يصطاد شيئًا أبدًا.

اكتشاف آخر لا يزال يكمن لأبناء البلدة في المستقبل، وسيكون عليهم تَعلُّمه وتَقَبُّله: بلح البحر، يمكن أكله دون أن يؤدِّي إلى الموت الفوري. أماكن عديدة في مرفأ بارنستيبل تعجُّ به. ولا يزعجه أحدٌ أبدًا. ربما أحد أسباب تجاهل الناس له، هو أن المرفأ يزخر بنوعين آخرين شَهيَّيْن للأكل، وأسهل في التحضير: القاروص المخطَّط والمحارة. للحصول على المحارة، يستطيع المرء الحفر في أي مكان تقريبًا عند انحسار المد. للحصول على القاروص، على المرء اتِّباع الطيور، والبحث عن تشكيلاتهم المخروطية، ونصب فخاخه حيث يشير رأس المخروط. هناك يتغذَّى القاروص.

أمَّا بخصوص ما يحمله المستقبل أيضًا: لدى قليل من بلدات كيب كود فرصة في تجاوز الازدهار الجشع عديم المذاق الحالي بأرواحهم سليمة. قال إتش. إل. مينكين ذات مرَّةٍ شيئًا بمعنى أن "لم يخسر قَطُّ شخصٌ بالَغَ في تقدير فظاظة الشعب الأمريكي"، والثروات

التـي تُصنـع الآن مـن الفظاظـة في كيـب كـود تؤكِّـد ذلـك. أمَّـا روح بلـدة بارنسـتيبل فربمـا تنجـو.

مـن أسـباب ذلـك أنهـا ليسـت بلـدةً مُجوَّفـة، كل شيء فيهـا للإيجـار، ونصـف منازلهـا خاويـة في الشـتاء. يعيـش أغلـب النـاس هنـاك طـوال العـام، وأغلبهـم ليسـوا شـيوخًا، وأغلبهـم يعملـون: نجّـارون وبائعـون وبنّـاؤون ومهندسـون وكُتّـاب، ومـا إلى ذلـك. إنـه مجتمـع بـلا طبقـات، وأحيانًـا مـا يكـون مجتمعًـا حنونًـا حسَّاسًـا.

هـذا البيـوت العامـرة -المُبتَـلاة عـادةً بالنَّمـل الأبيـض والعَفَـن الجـاف، لكنهـا سـتظل بخـير عـلى الأرجـح لعـدَّة قـرون قادمـة- بُنِيَـت متلاصِقـةً عـلى الشـارع الرئيـسي منـذ نهايـة الحـرب الأهليـة. لم يجـد المقاولـون هنـاك مسـاحة واسـعة لممارسـة نَهبِهـم الـوَرِع. في الغـرب يبـدو وكأن هنـاك مسـاحة شاسـعة مـن المـروج الخضراء، لكنهـا في الواقـع مسـتنقعات مِلحيَّـة، توَّجَتهـا الطينـة البُنِّيَّـة المزرَقَّـة ببُسـاطٍ مـن عُشـب الحبـل [نبـات ملحـي]. وكان ذلـك العشـب الطبيعـي بالمناسـبة، هـو مـا أغـرى المسـتوطنين بالهبـوط مـن بلايمـاوث في 1639. المسـتنقع، الـذي تقطعـه الجـداول العميقـة التـي يمكـن استكشـافها بقـوارب صغـيرة، لا يمكـن أن يبنـي عليـه أي شـخص عاقـل. تُغطِّيـه الميـاه كلَّ مَـدٍّ قمـري، ولا يقـدر عـلى حمـل مـا يزيـد عـن رَجُـلٍ وكَلبِـه كثـيراً.

تحمَّـس المراقبـون والمقاولـون لبعـض الوقـت لاحتماليـة تطويـر سـاندي نيـك، الحاجـز الطويـل النحيـل ذو الكثبـان المذهلـة الـذي يحـدُّ المرفـأ شـمالًا. ثمَّـة غابـات مُنفِّـرة مـن الأشـجار الميتـة، وأشـجار دَفَنَتهـا الرمـال ثـم عـادت لتنكشـف مـن جديـد. والشـاطئ الخارجـي هنـاك صالِـحٌ لأغـراض عمليـة لا نهائيـة، يجعـل شـاطئ أكابولكـو ينكمـش خجـلًا بالمقارنـة. والمفاجـئ أيضًـا أن الميـاه العذبـة هنـاك يمكـن اسـتخراجها مـن آبـار غـير عميقـة نسـبيًّا. لكـن الحكومـة المحليـة -حمـدًا للـه- تشـتري سـاندي نيـك

بالكامل، عدا حافَّته، فم المرفأ، وستحوِّله إلى حديقة عامة، ليظل بلا تطوير إلى الأبد.

هناك مستعمرة صغيرة عند حافَّة ساندي نيك، الحافة التي لم تأخذها الحكومة. مستعمرة مُتكتِّلة حول المنارة المهجورة، وهي منارة كانت ذات أهمية عندما كانت هناك مياه كثيرة كفاية للسماح بدخول وخروج السفن الكبيرة. المستعمرة الباهتة المتهالكة تلك لا يمكن بلوغها إلا بقارب أو بدراجة مائية [بيتش باجي]. لا توجد هناك هواتف أو كهرباء. إنها منتجع خاص يبعد أقلَّ من ميل من بلدة بارنستيبل، حافة ساندي نيك التي يذهب إليها كثر من أهل البلدة عندما يرغبون في قضاء عطلة.

كل تلك الغرابة العتيقة الساحرة المعادية للأغراب إلى حدٍّ ما لبلدة بارنستيبل، كانت لتجعلها تستحقُّ كُنية "آخر معقل للكيب كوديين الحقيقيين"، لولا أمر واحد: لا يكاد يكون في البلدة مَن وُلد في كيب كود. بالضبط مثلما يتكوَّن الخشب المتحجِّر بفعل التمعدن عبر استبدال مواده الطبيعية ببطء بمرور الوقت، تشكَّلَت بارنستيبل المتحجِّرة من أشخاص من إيڤانستون ولويسفيل وبوسطن وبيتسبرج ومن حيث يعلم الله وحده من أين، حَلُّوا تدريجيًّا مَحلَّ يانكيِّي الريف الأصليِّين.

إن تسنَّى للكيب كوديِّين الحقيقيِّين القيام من مقابرهم في باحة الكنيسة، وإزاحة شواهد قبورهم المُرصَّعة بحروف جميلة، وحضور أحد اجتماعات الجمعية المدنيَّة لبلدة بارنستيبل، كانوا ليؤيِّدوا ما يحدث هناك. كل اقتراح وُضع في أي وقت أمام تلك المؤسسة، يواجه بمعارضة ساخنة ويُصوَّت على رفضه، باستثناء شراء سرينة جديدة لشاحنة الإنقاذ. صوت الشاحنة الجديدة بويب-بويب-بويب بدلًا من

روووورررر، وسماع صوتها من على مسافة ثلاثة أميال أمرٌ مفروغ منه.

المكتبة تمتلك الآن -بالصُّدفة- بريتانيكا جديدة، وأميريكانا جديدة أيضًا، شراؤهم كان بلا جهد، بما أن أموالها صارت أكثر ممَّا تحتاج. لكن درجات الأطفال في المدارس وتَحفُّظ الناضجين لم يتعرَّضا لذات التطوُّر.

بما أن البلدة تقوم بنفسها وليس بالعابرين فيها، وبما أنها متخصِّصة في حَثِّ السُّيَّاح على البحث عن الجنَّة في مكان آخر؛ يعيش الزُّوَّارُ جحيمًا في محاولة البحث عن شيء يعجبهم فيها. على سبيل العيِّنة السريعة التي تُوضِّح مدى الروعة التي قد تصل إليها: قد يمرُّ الزائر بكنيسة سانت ماري في الشارع الرئيسي، والتي فيها أجمل حدائق الكنائس في أمريكا، برغم عدم الإعلان عن ذلك في أي مكان. الحديقة هي حصيلة شغل رجُلٍ واحد: روبرت نيكلسن، القس البروتستانتي، رجل طيِّب مات شابًّا.

في إحدى حفلات الكوكتيل بالبلدة ذات مرة -يشرب أهلها كثيراً- كان الأب نيكلسن يتحدَّث مع قسٍّ روماني كاثوليكي ويهودي، محاولًا البحث عن كلمة تصف الوحدة الروحية الكامنة في بارنستيبل، ووجدها. "إننا درايد"[1].

(1964)

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) درويد Druid: الكاهن/ الساحر/ الطبيب- عند الشعوب السلتية القديمة في أزمنة ما قبل المسيحية. [المترجم]

هاريسون بيرجيرون

إنـه العـام 2081، عندمـا صـار الجميـع أخـيراً متسـاوين. ليسـوا فقـط متسـاوين أمـام الـرَّبِّ والقانـون، بـل هـم كذلـك بـكل طريقـة مُمكِنـة. لا أحـد أذكى مـن غـيره، لا أحـد أجمـل مـن غـيره، لا أحـد أقـوى ولا أسرع مـن غـيره. كل تلـك المسـاواة كانـت بفضـل التعديـلات 211 و212 و213 في الدسـتور، وبفضـل العيـون السـاهرة لعُمـلاء هيئـة الإعاقـة الأمريكيـة العامَّـة.

برغـم ذلـك لا تـزال بعـض تفاصيـل الحيـاة لا تعمـل كـما ينبغـي. فأبريـل مثـلًا لا يـزال يثـير جنـون النـاس عندمـا لا يتـصرَّف كالربيـع.

وكان في ذلـك الشـهر الرطـب أن أخـذ رجـال هيئـة الإعاقـة هاريسـون، ابـن چـورچ وهيـزل بيرجـيرون، ذا الأربعـة عـشر عامًـا، بعيـدًا عنهـما. تلـك كانـت مأسـاة بـلا شـك، لكـن چـورچ وهيـزل لم يقـدرا عـلى التفكـير في الأمـر كثـيراً. ذكاء هيـزل كان متوسِّـطًا بجـدارة؛ مـا يعنـي أنهـا لم تكـن

قادِرةً على التفكير في أي شيء إلَّا لِلَحظات قصيرة. أمَّا چورچ، رغم أن ذكاءه كان فوق المتوسِّط بكثير، فقد كان لديه في أذنه راديو عقلي مُعيق صغير، يجبره القانون على ارتدائه طوال الوقت. كل 20 ثانية تقريبًا، تُرسل ضوضاء حادَّة مُصمَّمة لمنع أمثال چورچ من استغلال عقولهم للحصول على أفضلية غير عادلة.

كان چورچ وهيزل يشاهدان التليفزيون، وعلى وجنة هيزل كانت هناك دموع، لكنها نسيَت مؤقَّتًا سبب نزولها.

وعلى شاشة التليفزيون كانت راقصات باليه.

انطلق طنين في رأس چورچ. هربت أفكاره مثل لصٍّ يهرب من سرينة الشرطة. قالت هيزل: "تلك كانت رقصة جميلة فعلًا".

قال چورچ: "هه؟".

قالت هيزل: "الرقصة... كانت لطيفة".

قال چورچ: "نعم". حاول التفكير قليلًا في الراقصات. لم يَكُنَّ جيِّداتٍ جدًّا، لسن أفضل من أي شخص آخر على أي حال. كُنَّ مُحمَّلات بأثقال مثبتة في أحزمة وحقائب، ووجوههن كانت مُقنَّعة، حتى لا يشعر أي شخص يرى إيماءة حُرَّة رشيقة أو وجهًا جميلًا، أنه قبيح مثل شيء جلَبَته قطَّةٌ من الطريق. كان چورچ يعبث بفكرة مبهمة مفادها أن إعاقة الراقصات قد تكون فكرة غير جيدة. لكنها فكرة لم تتطوَّر كثيرًا قبل أن تأتي موجة راديو جديدة في أذنه لتبعثرها وغيرها من الأفكار.

جفل چورچ، وكذا فعلت راقصتان من راقصات الباليه الثمانية.

رأته هيزل يجفل. ولأنها لم تكن لديها إعاقة عقلية، اضطرَّت لسؤال چورچ عن كيف كان وَقْعُ الصوت الأخير.

قال چورچ: "وكأن أحدهم ضرب زجاجة حليب بمطرقة كروية".

قالـت هيـزل بقليـل مــن الحسـد: "أعتقـد أن سـماع تلـك الأصـوات المختلفـة هـو شيء مُسـلٍّ جـدًّا، كل تلـك الأشـياء التـي يبتكرونهـا!".

قال چورچ: "همم".

قالـت هيـزل: "أتعلـم مـاذا كنـت لأفعـل لـو كنـت مـن أفـراد هيئـة الإعاقـة العامـة؟". كانـت هيـزل في الواقـع شـبيهة إلى حَـدٍّ كبـير بإحـدى مُعيقـات الهيئـة، امـرأة تحمـل اسـم ديانـا مـون كلامـبرز. قالـت هيـزل: "لـو كنـت ديانـا مـون كلامـبرز، كنـت سأرسـل قـرع أجـراس يـوم الأحـد، لا شيء غـير قـرع الأجـراس. عـلى سـبيل تمجيـد الديـن".

قال چورچ: "سأستطيع التفكير لو لم يأتِ شيءٌ غير وقع الأجراس".

قالـت هيـزل: "حسـنًا، ربمـا أجعلهـم عالـين للغايـة. أعتقـد أني كنـتُ لأكـون معيقـة عامَّـة جيـدة". قـال چـورچ: "جيـدة مثـل أي شـخص آخـر".

قالت هيزل: "مَن ذا الذي يعلم ما هو العادي أكثر مني؟".

قـال چـورچ: "بالطبـع". بـدأ بالتفكـير جامحًـا في ابنـه غـير الطبيعـي الـذي هـو الآن في السـجن، في هاريسـون، لكـن تحيـة عسـكرية بإحـدى وعشريـن طلقـة رصـاص تـردَّدَت في رأسـه أوقفـت ذلـك.

قالت هيزل: "يا جدع! كانت هذه المرة شديدة، أليس كذلك؟".

كانـت شـديدةً لدرجـة أن الـدم انسـحب مـن وجـه چـورچ وأخـذ يرتعـش، ووقفـت الدمـوع عـلى حافَّـة عينيـه الحمراوَيْـن.

انهـارت راقصتـان مـن الثـماني عـلى أرض الاسـتوديو، بأيـادٍ تضغـط عـلى أصداغهنَّ.

قالـت هيـزل: "تبـدو متعبًـا فجـأة، لمـاذا لا تتمـدَّد عـلى الأريكـة؟ هكذا تسـتطيع أن تريـح حقيبـة إعاقتـك عـلى الوسـادة يـا عزيـزي". كانـت تشـير إلى الحقيبـة القماشـية التـي تحمـل أثقـالًا قَدرُهـا سـبعة وأربعـون رطـلًا

المثبتة حول رقبة چورچ. قالت: "هيا، أَرِح حقيبتك قليلًا، لا يهمني إن كنتَ غير مساوٍ لي لبعض الوقت".

وزن چورچ الحقيبة بيديه، قال: "لا تضايقني، لم أَعُد ألاحظها، باتت جزءًا مني".

قالت هيزل: "كم صِرتَ مُتعَبًا مؤخرًا، وكأن شيئًا يأكلك من الداخل. لو كانت هناك طريقة لصنع حفرة صغيرة في أسفل الحقيبة، ونزع بعض من تلك الكرات الرصاصية، قليل منها فقط".

قال چورچ: "عامان في السجن وغرامة ألفَيْ دولار مقابل كل كرة ننزعها؟ لا أعتبر تلك صفقة رابحة".

قالت هيزل: "لو كان بوسعك إزالة بعضهم في البيت فقط عندما تعود من الشغل، أقصد... أنت لا تنافس أحدًا هنا، أنت فقط تجلس في مكانك".

قال چورچ: "إن حاولت الإفلات بفعلي ذاك، فسيفعل مثلي آخرون، وقريبًا سنجد أنفسنا وقد عُدنا إلى العصور المظلمة مُجدَّدًا، حيث ينافس الجميعُ الجميعَ. أنتِ لا تحبِّين حدوث هذا، أليس كذلك؟".

قالت هيزل: "سأكره ذلك".

قال چورچ: "بالضبط. ماذا تظنين قد يحدث للمجتمع في اللحظة التي يبدأ فيها الناس في غشِّ القانون؟".

لو لم تكن هيزل قادرةً على إجابة سؤال چورچ، لم يكن هو ليقدر على توفير إجابة، فقد انطلقت سرينة في رأسه.

قالت هيزل: "أعتقد أنه سيتداعى". ردَّ چورچ بلا تعبير: "ما الذي سيتداعى؟".

قالت هيزل بغير ثقة: "المجتمع، ألم يكن ذلك ما قلتَه لتَوِّك؟". قال چورچ: "مَن يعلم!".

انقطع البرنامج التليفزيوني فجأة لنشرة أخبار عاجلة. لم يكن من الواضح في البداية عمّا كانت تلك النشرة؛ بما أن المذيع، مثل كل المذيعين، كان ذا إعاقةٍ تَخاطُب. استمرَّ لحوالي نصف دقيقة، في حالة من الحماس الشديد، يحاول أن يقول: "سيداتي سادتي...".

ثم استسلم أخيراً، وسلَّم محتوى النشرة لراقصة باليه.

قالت هيزل عن المذيع: "لا بأس، لقد حاول. ذلك شيء عظيم. لقد بذل أقصى ما في وسعه بما وهَبَه له الرَّبُّ من قدرات. يجب أن ينال علاوة طيبة لمحاولته تلك".

قرأت راقصة الباليه من النشرة: "سيداتي سادتي...". لا بُدَّ أن جمالها كان استثنائيًّا؛ فالقناع الذي ارتدته كان قبيحًا، ويسهل تمييز أنها الأقوى والأرشق بين الراقصات، فحقائب إعاقتها كانت بضخامة تلك التي يرتديها رجالٌ يَزِنون مائتي رطل.

وكان عليها أن تعتذر فورًا عن صوتها، والذي كان صوتًا من المجحف أن تستخدمه امرأة؛ نغمته كانت دافئة مُشرِقة سرمديَّة. قالت "اعذروني..."، وبدأت من جديد بعدما جعَلَت صوتها غير منافس على الإطلاق.

قالت بصوت كزَبِيط البط: "هاريسون بيرجيرون، ذو الأعوام الأربعة عشر، هرب لتوِّه من السجن، بعدما كان مُحتَجَزاً للاشتباه في تخطيطه للإطاحة بالحكومة. إنه عبقري ورياضي، وبلا إعاقة، ويجب اعتباره شديد الخطورة".

لمعت على الشاشة صورة الشرطة لهاريسون بيرجيرون، بالمقلوب، ثم بالجانب، ثم بالمقلوب مُجدَّدًا، ثم بالشكل العادي. أظهرت الصورة خلف هاريسون خلفية عليها مقياس طول بالقدم والبوصة. كان طوله سبعَ أقدام بالضبط.

بقية مظهر هاريسون كان أقربَ لتَنكُّر الهالوين أو أدوات الورش. لم يرتدِ شخصٌ قَطُّ إعاقاتٍ أثقلَ منه. كان ينمو متجاوزًا العوائق أسرع من قدرة الهيئة على التفكير في الجديد منها. بدلًا من راديو صغير للأذن كإعاقة عقلية، ارتدى زوجَ سمَّاعات هائل الحجم، ونظارة ذات عدسات سميكة متموِّجة. الغرض من النظارة لم يكن فقط جعله نصف أعمى، بل وإصابته بصداع عنيف أيضًا.

وتدلَّت الخردة المعدنية من جميع أنحاء جسده. عادة ما يكون هناك نوع من التَّماثُل والدِّقَّة العسكرية في الإعاقات التي تُفرض على الأشخاص الأقوياء، لكن هاريسون بدا وكأنه مكبُّ خُردَة مُتحرِّك. في سباق الحياة، كان هاريسون يحمل ثلاثمائة رطل.

ولتعويض وسامته، تجبره الهيئة طوال الوقت على ارتداء كرة مطَّاطيَّة حمراء في أنفه، وحلق حاجبيه تمامًا، وتغطية أسنانه البيضاء المستوية بتركيبات سوداء مُتعرِّجة عشوائيًّا.

قالت راقصة الباليه: "إن رأيتم هذا الفتى، لا تحاولوا، أُكرِّر، لا تحاولوا الحديث معه بالمنطق". ثم دوَّى صوت اقتلاع باب من مفاصله.

جاءت من التليفزيون صرخات رُعبٍ ونحيب هلع. وأخذت صورة هاريسون بيرجيرون تقفز على الشاشة مرة تلو أخرى، وكأنها تتراقص على أنغام زلزال.

چورج بيرجيرون خمَّن بنجاحٍ سببَ الزلزال، ولا عجب في ذلك؛ فكثيرًا ما رقص بيته على نفس النغمة المزلزلة. قال: "يا ربي، لا بُدَّ أنه هاريسون!".

فوراً طار ذلك الإدراك من عقله بعد صوت اصطدام سيارة داخل رأسه.

عندما استطاع چورچ فتح عينيه مُجدَّدًا، كانت صورة هاريسون قد اختفت. ملأ الشاشة مَحلَّها هاريسون حقيقي، حيٌّ ويتنفَّس.

وقف هاريسون ضخمًا في منتصف الاستوديو، بأنف مُهرِّج وأثقال تُقَعقِع، لا تزال قبضة الباب المُقتلع في يده. جثم التقنيُّون والموسيقيُّون والمذيعون والراقصات على رُكَبهم أمامه، حاسبين أنهم سيموتون.

صاح هاريسون: "أنا الإمبراطور! أتسمعونني؟ أنا الإمبراطور! على الجميع أن ينصاع لما أقول في الحال!". ضرب بقدمه الأرض واهتزَّ الاستوديو.

وجأر: "حتى وأنا واقف هنا، عاجزًا مُقيَّدًا سقيمًا، أنا حاكم أعظم من أي إنسان عاش في أي وقت. انظروا إليَّ بينما أصير ما أستطيع أن أصير".

مزَّق هاريسون الأشرطة التي تربطه بإعاقاته مثل أوراق مناديل مبتلَّة، مزَّق أشرطة قادرة على تَحمُّل خمسة آلاف رطل.

حطَّمت أثقال إعاقات هاريسون الحديديَّةُ الأرضَ.

دفع هاريسون بإبهاميه تحت قضيب القفل الذي يثبِّت لجام رأسه. تحطَّم القضيب مثل عود خسٍّ. ألقى هاريسون السَّمَّاعات والنظارات على الحائط مُهشِّمًا إيَّاهم.

انتزع الأنف المطاطية، ليكشف عن رجل كان ليُبهر ثور إله الرعد نفسه.

قال: "والآن سأختار إمبراطورتي"، ونظر إلى الجاثمين. "إن أول امرأة تجرؤ على الوقوف على قدميها هي القادرة على المطالبة بزوجها وعرشها".

مرَّت لحظة، ثم نهضت راقصة باليه، تتمايل كالصفصاف.

انتــزع هاريســون إعاقتهــا العقليــة مــن أذنهــا، وهشَّــم إعاقاتهــا الجســدية برقَّــة مُذهِلــة. وأخــيرًا، أزال قناعهــا.

كانت جميلةً لدرجة تعمي العيون.

قــال هاريســون وهــو يأخــذ يدهــا: "الآن، هــلَّا عرَّفنــا هــؤلاء النــاس معنــى كلمــة رقــص؟"، ثــم أمــر: "موســيقى!".

هــرع الموســيقيون عائديــن إلى مقاعدهــم، ونــزع عنهــم هاريســون إعاقاتهــم أيضًــا. قــال لهــم: "اِعزفــوا بأفضــل مــا عندكــم، وســأجعلكم نبــلاء وأمــراء ووزراء".

بــدأت الموســيقى. كانــت عاديَّــةً في البدايــة، رخيصــة وســخيفة ومُزيَّفــة. لكــن هاريســون رفــع عازفــين مــن عــلى مقاعدهــم، ولــوَّح بهــم مثــل الهــراوات، فيــما هــو يغنِّــي الموســيقى كــما أرادهــا أن تُعــزف، ثــم قذفهــم عــلى مقاعدهــم مــن جديــد.

صدحت الموسيقى وقد أصبحت أحسنَ بكثير.

هاريســون وإمبراطورتــه اســتمعا للموســيقى فقــط لوهلــة، اســتمعا بجدِّيَّــة، وكأنهــما يُزامنــان دقَّــات قلبَيْهــما معهــا.

ثم جعلا مراكز أثقالهم في أصابع أقدامهم.

وضــع هاريســون يديــه الضخمتــين عــلى خــصر الفتــاة الصغــير، جعلهــا تشــعر بالخِفَّــة المُطلَقــة، الشــعور الــذي ســيصبح ملكهــا عــمَّا قريــب.

ثم، مثل قنبلة سعادة ورشاقة، قفزا في الهواء.

لم يهجــرا قوانــين الأرض فقــط حينهــا، بــل هجَــرَا معهــا قوانــين الجاذبيــة والحركــة أيضًــا. فقــد لفَّــا ودارا وتمايَــلَا وتقافَــزا وترنَّحَــا ونَطَّــا وحجَــلَا.

وَثَبَا مثل غزالان على القمر.

سقف الاستوديو كان على ارتفاع ثلاثين قدمًا، لكن كل قفزة أخذها الراقصان جعلتهم أقرب إليه. بات من الواضح أن نِيَّتهم هي تقبيل السقف.

وقبَّلاه.

ثم حينها، بعد تحييدهم للجاذبية بحُبِّهم وإرادتهم الصافية، ظَلَّا مُعلَّقَيْن في الهواء تحت السقف ببضع بوصات، وقبَّلا بعضهما لوقت طويل جدًّا.

ثم كان في ذلك الوقت أن جاءت ديانا مون كلامبرز، تحمل بندقية خرطوش مزدوجة الفوهة عيار 10 مللي. أطلقت النار مرتين، ومات الإمبراطور والإمبراطورة قبل أن يرتطم جسداهما بالأرض.

عمرت ديانا مون كلامبرز سلاحها مرة أخرى، صوَّبته على الموسيقيين وأخبرتهم أن أمامهم عشر ثوان ليرتدوا إعاقاتهم مُجدَّدًا.

وكان حينها أن مات تليفزيون آل بيرجيرون.

استدارت هيزل لتعلق على ذلك الانطفاء لچورچ، لكن چورچ كان قد ذهب إلى المطبخ ليحضر قنِّينة بيرة.

عاد چورچ مع بيرته، توقَّف لوهلة بينما تهزُّه إشارة الإعاقة. ثم جلس مُجدَّدًا. قال لهيزل: "أكنتِ تبكين؟".

قالت: "نعم".

قال: "لماذا؟".

قالت: "نسيت، شيء ما حزين على التليفزيون". قال: "ماذا كان؟".

قالت هيزل: "أشياء كثيرة، تداخَلَت كلها في رأسي". قال چورچ: " انسي الأشياء الحزينة".

قالت هيزل: "دائمًا ما أفعل".

قـال چـورچ: "هـذه هــي فتـاتي". ثـم جفـل. كان في رأسـه صـوت مثقابٍ كهربـائي. قالـت هيـزل: "يـا ربي! تبـدو هـذه المرة شـديدة".

قال چورچ: "بوسعك قول هذا مُجدَّدًا".

قالت هيزل: "يا ربي! تبدو هذه المرة شديدة".

(1961).

مَن أنا هذه المرَّة؟

نادي القناع والباروكة في نورث كروفورد، وهو مجتمع لهواة المسرح أنتمي إليه، صَوَّتَ على اختيار نَصٍّ تينيسي ويليامز "عربة اسمها الرغبة" مسرحيَّةَ هذا الربيع. قالت دوريس سوير، المخرجة الدائمة، إنها لن تقدر على الإخراج هذه المرة لأن أمها مريضة، وقالت إن النادي بحاجة إلى تجهيز مزيد من المخرجين على أي حال؛ فهي لن تعيش إلى الأبد، مع أنها وصلت إلى الرابعة والسبعين بنجاح.

هكذا علَّقتُ أنا في دور الإخراج، رغم أن الشيء الوحيد الذي أخرجته في حياتي كان تركيب نوافذ وستائر الرياح التي أبيع. هذا أنا، بائع نوافذ وستائر رياح، ومن حين لآخر وحدات إحاطة لأحواض الاستحمام. أمَّا فيما يخصُّ التمثيل، فأعلى ما وصلت إليه كان دور كبير الخَدَم أو رَجُل الشرطة، أيُّهما أعلى.

كانـت لي عـدَّة اشـتراطات لأقبـل دور المخـرج، أهمهـم كان أن يلعـب هـاري نـاش، الممثِّـل الحقيقـي الوحيـد في النـادي، دورَ مارلـون برانـدو في المسرحيـة. لتكـون فكـرة عـن مـدى تنـوُّع هـاري؛ فلتعلـم أنـه خـلال عـام واحـد كان كابـتن كويـج في المحاكمـة العسـكرية لتمـرُّد كـين، ثـم آبي لينكولـن في آبي لينكولـن في إلينـوي، ثـم المهنـدس الصغـير في القمـر أزرق. وفي العـام التـالي هـاري نـاش كان هـنري الثامـن في آن ذات الألـف يـوم، ودوك في عـودي يـا صغـيرتي شـيبا، وأنـا كنـتُ أسـعى لجعلـه يلعـب دور مارلـون برانـدو في عربـة اسـمها الرغبـة. لم يكـن هـاري حـاضرًا في الاجتـماع ليجيـب عـلى إن كان سـيلعب الـدور أم لا. لم يحـضر الاجتماعـات قـطُّ، كان شـديد الخجـل. لم يتجنَّـب الاجتماعـات لأن وراءه أشـياء أهـم ليفعلهـا؛ فهـو لم يكـن متزوِّجًـا، ولم يخـرج مـع نسـاء، ولم يكـن لـه أصدقـاء رجـالٌ مُقرَّبـون أيضًـا. ظـلَّ هـاري بعيـدًا عـن كل أنـواع التجمُّعـات لأنـه لم يكـن في وسـعه قـطُّ التفكـير في شيء ليقولـه دون نـصٍّ مكتـوب.

لـذا كان عـليَّ أن أذهـب في اليـوم التـالي إلى محـل مُعِـدَّات ميلـر -حيث يعمـل هـاري بائعًـا- لسـؤاله إن كان مسـتعدًّا لأخـذ الـدور. عرجـتُ قبـل ذلـك عـلى شركـة الهاتـف لتقديـم شـكوى بخصـوص فاتـورة مكالمـة إلى هونولولـو لم أَقُـم بهـا، لم أتَّصِـل بهونولولـو في حيـاتي قَـطُّ.

كانـت هنـاك حسـناء خلـف مكتـب اسـتقبال شركـة الهاتـف لم أرهـا مـن قبـل، شرحـت لي أن الشركـة ركَّبَـت آلـة فواتـير أوتوماتيكيـة، وهـي آلة لا تـزال بعـض أعطالهـا قيـد الإصـلاح وترتكـب الأخطـاء. قلـت لهـا: "ليـس فقـط أنـا لم أتَّصِـل بهونولولـو، بـل أعتقـد أن أحـدًا في نـورث كروفـورد لم يتَّصِـل بهونولولـو أو سـيفعل أبـدًا".

هكـذا تولَّـت أمـر الفاتـورة، وسـألتُها إن كانـت مـن نـورث كروفـورد. قالـت لا، هـي جـاءت مـع آلـة الفواتـير الجديـدة لتـشرح للفتيـات هنـا كيـف يتعاملـن معهـا. بعدهـا قالـت إنهـا سـتذهب مـع آلـة أخـرى إلى

مكان آخر. قلت: "لا بأس، طالما لا يزال الناس بحاجة إلى المجيء مع الآلات، فنحن على ما يرام".

قالت: "ماذا؟".

قلت: "عندما تبدأ الآلات في توصيل نفسها، فسيكون ذلك الوقت الذي على الناس فيه أن تقلق على ما أظن".

قالت: "أوه". لم يَبدُ عليها أنها شديدة الاهتمام بهذا الموضوع، وتساءلت إن كانت مُهتمَّةً بأي شيء على الإطلاق. بدت مُخدَّرَة نوعًا ما، أقرب إلى آلة، آلة شركة هواتف مهذبة أوتوماتيكيًّا.

سألتُها: "إلى متى ستبقين في المدينة؟".

قالت: "أبقى في كل مدينة ثمانية أسابيع يا سيدي". كانت لها عيون زرقاء جميلة، لكن لم يكن فيهما الكثير من الأمل أو الفضول. قالت لي إنها تنتقل بين مدينة وأخرى منذ عامين، غريبة على الدَّوام.

خطر لي أنها قد تكون مناسبة لدور ستيلا في المسرحية. ستيلا كانت زوجةَ شخصيَّة مارلون براندو، زوجة الشخصية التي أردت هاري ناش أن يلعبها. فأخبرتها بموعد ومكان إقامة اختبارات الممثِّلين، وقلت إن النادي سيسعد إن جاءت.

بدت مُتفاجِئةً، وتحمَّسَت قليلًا. قالت: "أتعرف، هذه أول مرة يطلب مني أي شخص المشاركة في نشاط مجتمعي".

قلت: "حسنًا، لا توجد طريقة أسرع للتعرُّف على العديد من الأشخاص اللِّطاف من المشاركة في مسرحية معهم".

قالت إن اسمها هيلين شو. قالت إنها قد تفاجئني وتفاجئ نفسها. قالت إنها قد تأتي.

* * *

قد تحسب أن نورث كروفورد قد سَئِمتْ من هاري ناش بعد كل المسرحيات التي شارك فيها. لكن الحقيقة أن مدينة نورث كروفورد ربما قادرة على الاستمتاع بهاري ناش إلى الأبد، لأنه لم يكن هاري قطُّ على المسرح. عندما يرتفع الستار الكستنائي عن المنصَّة في صالة ألعاب المدرسة الثانوية الموحَّدة، فهاري، بجسده وروحه، يكون بالضبط ما يطلب منه النصُّ والمخرج أن يكون.

قال أحدهم ذات مرة إن على هاري الذهاب إلى طبيب نفسي حتى يستطيع أن يصير شيئًا مُهمًّا وبرَّاقًا في الحياة الواقعية أيضًا. هكذا قد يستطيع أن يتزوَّج، وربما يحصل على وظيفة أفضل من البيع في متجر ميلر للمُعِدَّات مقابل خمسين دولارًا في الأسبوع. لكني لا أرى ما الذي قد يكتشفه فيه طبيبٌ نفسيٌّ لا تعرف بشأنه المدينة كلها. مشكلة هاري كانت أنه قد وُجِد على عتبة باب الكنيسة التوحيدية عندما كان رضيعًا، ولم يعرف قَطُّ مَن هُما والداه.

عندما أخبرته في متجر ميلر بأني عُيِّنتُ مُخرجًا، وأني أريده في مسرحيتي، قال ما يقوله دومًا لأي شخص يطلب منه أن يكون في مسرحية، وهو شيء حزين نوعًا إن فكَّرتَ فيه.

قال: "مَن أنا هذه المرة؟".

أقَمتُ اختبارات الممثِّلين في المكان الذي تقام فيه على الدوام، في غرفة الاجتماعات بالطابق الثاني من مكتبة نورث كروفورد العامة. جاءت دوريس سوير، المرأة التي كانت تُخرج عادة، لتفيدني بخبرتها. جلس كلانا بالطابق الأعلى بينما انتظر مَن أرادوا لعب الأدوار بالأسفل. ناديناهم إلى أعلى تِباعًا.

جاء هاري للاختبارات، برغم أني رأيت في ذلك إضاعة للوقت. أعتقد أنه أراد أن يحظى بوهلة إضافية من التمثيل.

لإمتاع هاري، ولإمتاعنا أيضًا؛ جعلناه يقرأ من المشهد حيث يضرب زوجته. الطريقة التي فعل بها هاري ذلك كانت في ذاتها مسرحيَّةً لم يكتبها تينسي ويليامز كلها. لم يكتب تينيسي ويليامز مثلًا الجزء حيث هاري، الذي يَزِن حوالي مائة وخمسًا وأربعين رطلًا وطوله خمس أقدام وثماني بوصات، يضيف خمسين رطلًا لوزنه وأربع بوصات لطوله بمجرَّد أن يلتقط كتاب المسرحيات. كان يرتدي معطف بدلة تَخَرُّج من المدرسة مزدوج الصدر، منتفخ الظهر، وربطة عنق حمراء صغيرة أنيقة، عليها رأس حصان. خلع المعطف وربطة العنق، فتح ياقته، ثم أدار ظهره لي ولدوريس، مستجمعًا قواه للدور. في ظهر قميصه كان هناك قطع كبير، وبدا أنه قميص جديد أيضًا. كان قد مزَّقه عَمدًا؛ ليكون أقرب إلى مارلون براندو، جاهزًا من البداية.

عندما واجهنا مُجدَّدًا، بات ضخمًا وسيمًا مختالًا قاسيًا. قرأت دوريس دور ستيلا، زوجته، وأرهب هاري هذه السيدة العجوز جدًّا حتى اقتنعت أنها فتاة جميلة حبلى، متزوِّجة بذَكَر الغوريلا الجذَّاب هذا الذي سيهشِّم رأسها. وجعلتني أصدِّق ذلك أيضًا. وقرأت أنا سطور بلانش، شقيقتها في المسرحية، وكم أخافني هاري حتى شعرت أني حسناء جنوبية سكيرة وباهتة.

ثم بعد ذلك، وفيما كنتُ أنا ودوريس نحاول أن نفيق من تجربتنا الشعورية مثل مَن يفيق من غيبوبة، وضع هاري كتاب المسرحيات، ارتدى معطفه وربطة عنقه، وعاد بائِعَ المُعِدَّات الشاحب مرَّةً أخرى.

قال: "هل... هل كنتُ جيِّدًا؟"، وبدا شِبهَ مُتيقِّن أنه لم يُتقِن الدَّور. قلت: "حسنًا، بالنسبة لقراءةٍ أولى، لم يكن ذلك سيئًا".

قال: "أهناك فرصة أن أحصل على الدور؟". لا أعرف لماذا يتظاهر دومًا أن ثمَّة شَكًّا في حصوله على الدور، لكنه يفعل.

قلت له: "أعتقد أن بوسعي القول إننا نميل بشدَّة ناحيتك". بدا سعيدًا جدًّا. قال: "شكرًا، شكرًا جزيلًا!"، وصافحني. قلتُ: "هل توجد فتاة جميلة جديدة بالأسفل؟"، قاصدًا هيلين شو.

قال هاري: "لم ألاحظ".

اتَّضح أن هيلين شو جاءت بالفعل للاختبارات، وانكسر قلبي وقلب دوريس. حسبنا أن نادي القناع والباروكة في نورث كروفورد سيضع أخيرًا فتاة جميلة فعلًا، صغيرة فعلًا على المسرح، بدلًا من إحدى الأربعينيَّات المُنهَكات اللواتي نتظاهر جميعًا أنهن فتيات.

لكن هيلين شو لم تتمكَّن حتى من أقل التمثيل. أيًّا كان ما أعطيناها لتقرأ، ظلَّت نفس الفتاة، بنفس الابتسامة التي تقابل بها أي شخص يشتكي فاتورة هاتفه.

حاوَلت دوريس أن تُحفِّزَها قليلًا، أن تجعلها تفهم أن ستيلا في المسرحية فتاة ملتهبة العواطف، فتاة تحبُّ غوريلا لأنها بحاجة إلى غوريلا. لكن هيلين قرأت سطورها بنفس الطريقة مرة أخرى. لا أعتقد أن ثورة بركان قادرة على إثارة هذه الفتاة كفاية لتقول: "أوه!".

قالت دوريس: "عزيزتي، سأسألك سؤالًا شخصيًّا". قالت هيلين: "حسنًا".

قالت دوريس: "هل وَقَعتِ في الحب من قبل؟"، وقالت: "مغزى سؤالي هو أنَّ تَذكُّرَ حُبٍّ قديم قد يستحضر بعض الدفء في تمثيلك".

عبست هيلين وفكَّرَت بعمق. قالت: "أنا أسافر كثيرًا كما تعلمين. ويكاد يكون كل الرجال في الشركات المختلفة التي أزورها متزوجين، ولا أبقى في مكان ما كفاية لأعرف آخرين غير متزوجين".

قالـت دوريـس: "مـاذا عـن المدرسـة؟ مـاذا عـن الحـب الأول وكل أنـواع حـب المراهقة؟".

هكـذا فكَّـرَت هيلـين بعمـق في هـذا أيضًـا ثـم قالـت: "حتـى في المدرسـة كنـت أتنقَّـل باسـتمرار. كان أبي عامِـلَ بنـاء، يتتبَّـع الوظائـف هنـا وهنـاك، هكـذا كنـتُ عـلى الـدوام أقـول مرحبًـا أو وداعًـا في مـكان مـا، دون يتخلَّلهــما شيء".

قالت دوريس: "هممم".

قالـت هيلـين: "هـل حـب نجـوم السـينما يُحتسـب؟ لا أقصـد في الحقيقـة، لم أعـرف أيًّـا منهـم. أقصـد فقـط عـلى الشاشـات".

نظرت دوريس إليَّ وقلَّبت عينيها، قالت: "أعتقد أن ذلك حبًّا ما".

تحمَّسَـت هيلـين قليـلًا. قالـت: "اعتَـدتُ الجلـوس أمـام نفـس الفيلـم مـرَّةً تلـو أخـرى، والتظاهـر بـأني متزوِّجـة مـن نجـم الفيلـم أيًّـا كان. أولئـك كانـوا النـاس الوحيديـن الذيـن يأتـون معنـا. أينـما ذهبنـا، يوجـد نجـوم السـينما".

قالت دوريس: "آها".

قلـت: "حسـنًا، شـكرًا لـك يـا آنسـة شـو، اذهبـي إلى الطابـق الأسـفل وانتظـري مـع البقيـة، سـنخبرك بـأي جديـد".

هكـذا حاولنـا البحـث عـن سـتيلا أخـرى. ولم تكـن هنـاك واحـدة، لم توجـد في النـادي امـرأة لم تجـفَّ قطـراتُ النـدى مـن عليهـا. قلـت: "كل مـا لدينـا هـو بلانشـات"، أي أن كل مـا لدينـا هـو نسـوة باهتـات بوسـعهن لعـب دور بلانـش، شـقيقة سـتيلا الشـاحبة. "هـذه هـي الحيـاة عـلى مـا أظـنُّ، عـشرون بلانـش لـكل سـتيلا".

قالت دوريس: "وعندما تجد ستيلا، تجد واحدة لا تعرف ما هو الحب".

قـرَّرتُ أنـا ودوريـس أن هنـاك شـيئًا أخـيرًا بوسـعنا تجربتـه. يمكـن أن نـأتي بهـاري نـاش ليُمثِّـل مـع هيلـين. قلـت: "ربمـا يجعلهـا تـشرق ولـو قليـلًا".

قالت دوريس: "لا أظن أن بهذه الفتاة أي نور".

هكــذا اتصلنــا بالطابــق الســفلي لندعــو هيلــين للصعــود، وأرســلنا أحدهـم للذهـاب والبحـث عـن هـاري. لم يجلـس هـاري قَـطُّ مـع باقـي النـاس خـلال الاختبـارات، ولا خـلال البروفـات أيضًـا. في اللحظـة التـي لا يعـود هنـاك دورٌ يلعبـه، يختبـئ في مـكان يكـون بوسـعه فيـه سـماع مـن يناديـه، لكـن لا يسـتطيع أحـد أن يـراه. خـلال الاختبـارات في المكتبـة كان يختفـي عـادَةً في غرفـة المراجـع، حيـث يضيـع الوقـت في النظـر إلى أعـلام البـلاد المختلفـة عـلى القواميـس.

عـادت هيلـين إلى فـوق، وكـم أَسِـفنا وتفاجأنـا لرؤيـة أنهـا كانـت تبـكي. قالـت دوريـس: "فتـاتي العزيـزة! مـا الـذي يُبكيـك بهـذا العـالم؟".

تدلَّت رأس هيلين وقالت: "كنتُ مُريعةً، أليس كذلك؟".

قالــت دوريــس الــشيء الوحيــد الــذي بوســع أي شــخص قولــه في مجتمـع هـواة المـسرح عندمـا يبـكي أحدهـم: "بالطبـع لا يـا عزيـزتي، كُنـتِ مُذهِلَـة".

قالــت هيلــين: "لا لم أكــن، كنــتُ صنــدوقَ ثَلــجٍ يمــشي عــلى قدمــين، أعلـم ذلـك". قالـت دوريـس: "لا أحـد يقـدر عـلى أنْ يقـول ذلـك بعـد أن ينظـر إليـك".

قالـت هيلـين: "عندمـا يعرفونـي يَقـدِرون. عندمـا يعرفنـي النـاس هـذا مـا يقولـون عنـي". زادت دموعهـا سـوءًا. قالـت: "لا أريـد أن أكـون مـا أنـا عليـه، لكنـي لا أعـرف الحيـاة إلا بالطريقـة التـي عشـتُ بهـا طـول حيـاتي. كل مـا عرفـت مـن خـبرات كانـت أحلامًـا مجنونـة بنجـوم السـينما. عندمـا

أقابل شخص لطيف في الحياة الواقعية، أشعر أني في زجاجة ضخمة من نوع ما، وأني غير قادرة على لمس هذا الشخص، مهما حاوَلتُ". ودفعت هيلين الهواء بيدها وكأن هناك زجاجة ضخمة حولها.

قالت لدوريس: "تسألينني إن كنتُ قد وقَعتُ في الحب؟ لا، لكني أريد أن أفعل. أعلم عمَّا تدور هذه المسرحية. أعلم ما يفترض أن تشعر به ستيلا ولماذا تفعل. أنا...أنا..."، ولم تدعها دموعها تكمل.

قالت دوريس برقة: "أنتِ ماذا يا عزيزتي؟".

قالت هيلين: "أنا..."، ودفعت الزجاجة المتخيَّلة مُجدَّدًا. قالت: "أنا فقط لا أعلم من أين أبدأ".

ثم كان هناك دبيب على سلالم المكتبة، وقعه كان وكأن غطَّاسَ أعماقٍ يصعد السلم بحذائه الرصاصي الثقيل. كان هاري ناش وهو يُحوِّل نفسه إلى مارلون براندو. دخل وهو يكاد يجرجر يديه على الأرض مثل غوريلا حقيقية. كان متقمِّصًا للشخصية، لدرجة أن رؤية امرأة تبكي جعلته يشخر ساخرًا.

قلتُ: "هاري، يسعدني أن أُعرِّفَكَ بهيلين شو. هيلين، ذلك هو هاري ناش. إن حصَلتِ على دور ستيلا، سيَكُن زوجَكِ في المسرحية". لم يقدِّم هاري يدًا ليصافحها، وضع يديه في جيوبه، وانحنى مُتفحِّصًا إيَّاها من رأسها لقدميها، نظراته أشعرتها أنها عارية. توقَّفَت دموعها عن النزول.

قلتُ: "لِم لا تُمثِّلان مشهد الشِّجار، ثم مشهد لم الشَّمل بعده؟". قال هاري: "لا بأس"، عيناه لا تزال عليها. تلك الأعين كانت تحرق الملابس بأسرع ما تستطيع هي ارتداءها. قال: "لا بأس، إن كانت ستيلّ موافِقةً".

قالت هيلين: "ماذا؟". تحوَّلَت إلى لون عصير التوت.

قال هاري: "ستيلَّ... ستيلا. هذه أنتِ، ستيلَّ زوجتي".

أعطيتهـما كتـابي مسرحيـات. انتـزع هـاري نسـخته منـي بـلا كلمـة شـكر. يـدا هيلـين لم تعمـلا كـما ينبغـي، كان علـيَّ أن أثنيهـما حـول الكتاب.

قال هاري: "سأحتاج إلى شيء أستطيع رميه". قلت: "ماذا؟".

قـال هـاري: "هنـاك لحظـة أرمـي فيهـا الراديـو مـن الشـباك. مـاذا أسـتطيع أن أرمـي؟".

فقلـت إن ثقَّالـة الـورق المعدنيـة هـي الراديـو، وفتحـت النافـذة عـلى اتسـاعها. بـدت هيلـين مرعوبـة حتـى المـوت.

قـال هـاري: "أيـن تريـدني أن أبـدأ؟"، ثـم هـزَّ كتفيـه مثـل ملاكـم شـوارع يُسـخِّن قبـل المبـاراة. قلـت: "ابـدأ قبـل رميـك للراديـو مـن النافذة بسـطور قليلـة".

قـال هـاري: "حسـنًا حسـنًا"، وأخـذ يُسـخِّن ويُسـخِّن. تفحَّـص أرجـاء المنصَّـة، قـال: "لِـنَرَ، بعدمـا أرمـي الراديـو هـي سـتجري خـارج المـسرح، وأنـا سـأطاردها، ثـم أصفعهـا".

قـال هـاري لهيلـين بعيـون مسـبلة: "حسـنًا يـا فتـاتي". مـا كان عـلى وشـك الحـدوث كان أكـثرَ ضراوةً مـن سـباق العربـات في فيلـم بـن هـور. قـال هـاري: "عنـد الإشـارة... اسـتعدِّي يـا فتـاتي، انطلـق".

عندمـا انتهـى المشـهد، كانـت هيلـين سـاخِنةً مثـل عَتَّـال، واهنـة مثـل ذبابـة. جلسـت بثَغـرٍ مفتـوح ورأس يتـدلَّى إلى جانبـه. لم تكـن هنـاك زجاجـة تحميهـا وتحفظهـا سـالمة نظيفـة، راحـت الزجاجـة.

هبَّ فيَّ هاري: "هل سأحصل على الدور أم ماذا؟". قلت: "ستفعل".

قـال: "أحـلى كلام!"، قـال لهيلـين: "سـأطير أنـا الآن... أراكِ لاحقًـا يـا سـتيلا"، وذهـب. رزع البـاب خلفـه.

قلت: "هيلين؟ آنسة شو؟".

قالت: "همف؟".

قلت: "دور ستيلا صار لكِ، كُنتِ رائعة". قالت: "أنا؟".

قالت لها دوريس: "لم أكن أتخيَّل أن بداخلك كل تلك النار يا عزيزتي".

قالت هيلين: "نار؟". لم تكن تعلم إن كانت ماشية أم راكبة.

قالت دوريس: "صاروخ! قنبلة! ألعاب نارية!".

قالت هيلين: "همف". وكان ذلك كل ما قالت. بدت كما لو أنها ستجلس على الكرسي بثغر فاغر إلى الأبد.

قلت: "ستيلا".

قالت: "هاه؟".

"بوسعك الانصراف".

هكذا بدأنا في إقامة البروفات أربع ليالٍ في الأسبوع، على مسرح المدرسة الثانوية الموحدة. والوتيرة التي عمل بها هاري وهيلين أصابت كل المشاركين في المسرحية بالجنون من فرط الحماس والإنهاك، قبل حتى أن نقيم أربع بروفات. عادةً ما يضطرُّ المخرج للتوسُّل إلى الناس ليحفظوا سطورهم، لكنني لم أواجه مثل تلك المشكلة. عمل هاري وهيلين معًا بتناغُمٍ جعل كلَّ مَن في الفريق يؤمن أن الواجب والشرف يُحتِّمان عليه مساندتهم.

كنتُ محظوظًا بكل تأكيد، أو هكذا حسبت. مَضَت الأمور بسلاسة وحماسة وهِمَّة من بداية اللعبة، لدرجة أني اضطررت لأن أقول لهاري وهيلين بعد مشهد حُبٍّ: "هلَّا وفَّرتما شيئًا من ذلك للعرض الحقيقي إذا سمحتم؟ ستستهلكان نفسيكما".

قلـتُ هـذا في البروفـة الرابعـة أو والخامسـة، وليديـا ميلـر، التـي كانـت تلعـب دور بلانـش، الأخـت الباهتـة، كانـت تجلـس بجـواري في مقاعـد الجمهـور. في العـالم الواقعـي كانـت زوجـة فـيرن ميلـر. فـيرن هـو صاحـب متجـر مُعـدَّات ميلـر، رئيـس هـاري في العمـل.

قلت لها: "ليديا، يبدو أننا عملنا مسرحية حقيقية".

قالـت: "نعـم، ويـا لهـا مـن مسرحيـة". جعلـت جملتهـا تـرنُّ وكأني ارتكبـت جريمـة مـن نـوع مـا، فعلـت أمـرًا مُريعًـا. "لتَكُن فخـورًا بنفسـك".

قلت: "ماذا تقصدين بذلك؟".

قبـل أن تجيـب، صـاح هـاري علـيَّ مـن المـسرح، سـأل إن كنـتُ لم أَعُـد بحاجـة إليـه، كي يعـود لبيتـه. قلـتُ لـه أن يفعـل، ومـضى وهـو لا يـزال مارلـون برانـدو، يـركل الأثـاث في طريقـه ويـرزع الأبـواب، تـاركًا هيلـين وحدهـا عـلى المـسرح، جالسـة عـلى الأريكـة بنفـس النظـرة البلهـاء التـي كانـت عـلى وجههـا بعـد الاختبـارات. كانـت الفتـاة مُسـتَنزَفَة.

اسـتَدرتُ إلى ليديـا مُجـدَّدًا وقلـت: "حتـى الآن، لـديَّ كل الأسـباب التـي تجعلنـي سـعيدًا فخـورًا. أهنـاك شيء يـدور لا أعلـم بـه؟".

قالت ليديا: "أتعرف أن تلك الفتاة واقعة في حب هاري؟".

قلت: "في المسرحية؟".

قالـت ليديـا: "أي مسرحيـة؟ لا توجـد أي مسرحيـة الآن، انظُـرْ لهـا عـلى المـسرح". صـدرت عنهـا طقطقـة حزينـة. "أنـت لا تخـرج هـذه المسرحيـة".

قلت: "مَن الذي يفعل إذن؟".

قالـت ليديـا: "الطبيعـة الأم. فكِّـر فيـما سـتفعل تلـك بالفتـاة عندمـا تكتشـف مـا هـو هـاري في الحقيقـة"، ثـم صحَّحَـت لنفسـها: "أو بالأحـرى مـا ليـس هـاري في الحقيقـة".

لم أفعـل أي شيء حيـال الأمـر؛ لأني لم أعتقـد أن ذلـك شـأني. وسـمعت ليديـا ذات مـرَّة تحـاول فعـل شيء بهـذا الخصـوص، لكنهـا لم تفلـح كثـيراً.

قالـت ليديـا لهيلـين ذات ليلـة: "أتعلمـين، ذات مـرة لعبـتُ دور آن روتليـدچ وكان هـاري إبراهـام لينكولـن".

صفَّقَت هيلين بيديها. قالت: "لا بُدَّ أن هذا كان كالجنة".

قالـت ليديـا: "إلى حـدٍّ مـا، نعـم. أحيانًـا مـا كنـت أنخـرط بشـدَّة، كنـتُ أحـب هـاري مثلـما أحـبُّ إبراهـام لينكولـن. فيكـون عـليَّ أن أعـود إلى الأرض وأُذكِّـر نفـسي أنـه لـن يُحـرِّر العبيـد أبـدًا، وأنـه مُجـرَّد بائـع في متجـر مُعِـدَّات زوجـي".

قالت هيلين: "إنه أعظم رجل قابلته في حياتي".

قالـت ليديـا: "بالطبـع، لكـن هنـاك شيء يجـب أن تُجهِّـزي نفسـك لـه عندمـا تكونـين في مسرحيـة مـع هـاري، وهـو مـا يحـدث بعـد العـرض الأخـير".

قالت هيلين: "ما الذي تتحدَّثين عنه؟".

قالــت ليديــا: "مــا إن ينتهــي العــرض، أيًّــا كان مــا حَسَــبتِه هــاري الحقيقــي، يتبخَّــر في الهــواء". قالــت هيلــين: "لا أصــدق ذلــك".

قالت ليديا: "أعترف أنه شيء صعب التصديق".

ثـم تحفَّـزَت هيلـين بعـض الـشيء، قالـت: "عـلى أي حـال، لِـمَ تقولـين لي ذلـك؟ حتـى لـو كان ذلـك حقيقيًـا، مـا الـذي يهمُّنـي؟".

قالـت ليديـا مُتراجِعَـة: "أنـا... أنـا لا أعلـم، أنـا فقـط حسـبتُ أنـك قـد تجديـن ذلـك مثـيراً للاهتـمام".

قالت هيلين: "حسنًا، لا أجده كذلك".

وانسلَّت ليديا مبتعدة، تشعر بالازدراء والكره مثلما يفترض أن تشعر في المسرحية. بعد ذلك لم يَقُل أيُّ شخص أيَّ شيء آخر لهيلين لتحذيرها من هاري، ولا حتى عندما ذاع نبأ أنها قالت لشركة الهاتف إنها لم تَعُد تريد الترحال، وأنها تَودُّ البقاء في نورث كروفورد.

وحان أخيراً وقت عرض المسرحية. أقمناها ثلاث ليال، خميس وجمعة وسبت.

وكسرنا الدنيا. صدَّقت الجماهير كل جملة قيلت على المسرح، وعندما نزل الستار الكستنائي، كانوا مُستعدِّين للذهاب إلى مصحَّة المجانين مع بلانش، الأخت الباهتة.

ليلة الخميس، أرسلت بقية فتيات شركة الهاتف لهيلين دستة ورود حمراء. عندما كان هيلين وهنري يُحيِّيان الجمهور معًا، مُرِّرَت الورود إليها تحت الأضواء. خَطَت إلى الأمام تجاه الورود، أخذت من الباقة وردةً واستدارت لتُقدِّمها إلى هاري. لكن عندما دارت لتعطي هاري وردةً أمام الجميع، كان قد اختفى. نزل الستار على ذلك المشهد الإضافي الصغير، مشهد فتاة تعطي وردة للهواء.

ذهبت إلى الكواليس، فوجدتها لا تزال واقِفةً تحمل هذه الوردة. ووضعت الباقة جانبًا.

في أعينها كانت دموع. قالت لي: "هل ارتكبتُ أي خطأ؟ هل أهنته بشكل ما؟".

قلت: "لا، إنه يفعل ذلك دائمًا بعد أي عرض. لحظة النهاية، يبتعد بأسرع ما يستطيع".

"وغدًا سيختفي مُجدَّدًا؟"، "دون حتى أن يزيل مكياجه".

قالت: "والسبت؟ سيحضر الحفل مع باقي الفريق يوم السبت، أليس كذلك؟".

قلـت: "هـاري لا يحـضر حفـلات أبـدًا. عندمـا ينـزل السـتار يـوم السبت، سـتكون تلـك آخـر مـرّة يـراه أي شـخص حتـى يذهـب إلى عملـه مُجـدَّدًا يـوم الاثنـين".

قالت: "هذا شيء حزين".

أداء هيلـين ليلـة الجمعـة لم يكـن بقـدر جودتـه ليلـة الخميـس. بَـدَت وكأنهـا تفكِّـر في أمـور أخـرى. تابَعَـت هـاري وهـو يذهـب بعـد تحيـة الجماهـير دون أن تنبـس بشـفة.

السـبت كان أفضـل أداء لهـا عـلى الإطـلاق. عـادة مـا يكـون هـاري هـو مَـن يُحـدِّد وتـيرة العمـل، لكـن في ليلـة السـبت كان عليـه أن يجاهـد ليلحـق بهيلـين.

عندمـا نـزل السـتار بعـد آخـر تحيـة جماهـير، أراد هـاري الذهـاب، لكنـه لم يسـتَطِع. لم تـترك هيلـين يـده. باقـي الفريـق وطاقـم عمـل المسرح والعديـد مـن الجماهـير المهنِّئـين كانـوا يحيطـون بهـاري وهيلـين، وهـاري يحـاول أن يسـتعيد يـده.

قال: "أنا بحاجة إلى الذهاب". قالت: "إلى أين؟".

قال: "أوه، إلى البيت".

قالت: "هلّا أخذتني إلى حفلة الفريق؟".

احمَـرَّ وجهـه. قـال: "أخـشى أننـي لسـت مـن رُوَّاد الحفـلات". ذهـب كل مـا كان فيـه مـن مارلـون برانـدو. صـار مُقيَّـد اللسـان، خائفًـا، خجـولًا، صـار كل مـا كان هـاري مشـهورًا بـه بـين المسرحيـات.

قالت: "حسنًا. سأدعك تذهب إن وعدتني بشيء واحد".

قـال: "ومـا هـو؟"، فكَّـرَت أنـه سـيقفز مـن النافـذة إن تركتـه يذهـب. قالـت: "أريـدك أن تَعِـدَني أن تبقـى هنـا حتـى أحـضر لـك هديتـك".

قال: "هدية؟"، ازداد هلعًا على هلع. قالت: "أتَعِدُني؟".

وعدها. تلك كانت الطريقة الوحيدة التي ستعيد له يده. ووقف مكانه بائسًا بينما ذهبت هيلين إلى غرفة ملابس السيدات لتحضر الهدية. وبينما انتظر، هنَّأه الكثيرون على كونه مُمثِّلًا رائعًا لهذه الدرجة. لكن التهاني لم تجعله سعيدًا قط. لم يرغب إلا في الذهاب.

عادت هيلين بالهدية. اتَّضح أنها كانت كتابًا أزرق صغيرًا، ذا شريط أحمر لتحديد المكان. كان نسخة من روميو وچولييت. غمر هاري الحرج. كل ما استطاع قوله كان: "شكرًا لك".

قالت هيلين: "الشريط يُحدِّد مشهدي المفضَّل".

قال هاري: "همم".

قالت: "ألا تريد أن ترى مشهدي المفضَّل؟". هكذا اضطرَّ هاري لفتح الكتاب على موضع الشريط الأحمر.

اقتربت منه هيلين، وقرأت سطر چولييت[1]. "قُل كيف جِئتَ إلى هنا ولأيٍّ أسبابٍ أَتَيتَ؟ جدران هذا البيت والبستان عالية تشقُّ على التَّسلُّق، ولو رآك من أقاربي أحد... فهو الهلاك لك!". أشارت للسطر التالي. قالت: "والآن انظُرْ ماذا يقول روميو".

قال هاري: "همم".

قالت هيلين: "اقرأْ ما يقول روميو".

نظَّف حلقه. لم يرغب أن يقرأ السطر، ولكنه اضطرَّ لأن يفعل. قرأ عاليًا بصوته العادي: "رَبُّ الغرام لديه أجنحة يطير بها على الأسوار". ثم اعتراه بعض التغيُّر. اعتدل وقرأ: "هيهات، ليس يَصدُّه سَدٌّ من

---

(1) الاقتباسات من مسرحية روميو وچوليت من ترجمة د. محمد العناني، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب. [المترجم]

الأحجـار"، بـدا وكأنـه صَغُـر ثمانيـة أعـوام، صـار شـجاعًا مختـالًا. قـرأ: "فالحـب ذو بـأس وليـس تَـردُّه الأخطـار، وليـس أَهلـوكِ جِـدارًا".

قالـت هيلـين: "إن شـاهَدوكَ هـا هنـا قتلـوكَ"، وأخذتـه ومشـيا إلى الأجنحـة.

قـال هـاري: "سِـحرُ اللِّحـاظ أشـدُّ فتـكًا مـن طِعـانٍ بالسـيوف". قادتـه هيلـين إلى مَخـرَج الكواليـس. تابـع هـاري: "فلتُبْـدِ لي عَـينَ الرِّضـا لأردَّ أخطـار الحتـوف".

قالـت هيلـين: "غايـة مـا أتمنَّـى ألَّا يلمَحـكَ أحـد". وكان ذلـك آخـر مـا سـمعناه. خـرج كلاهـما مـن البـاب وذَهَبَـا.

لم يظهرا في حفلة الفريق، وبعد أسبوع باتا مُتزوِّجَيْن.

تبـدو عليهـما السـعادة، برغـم شـذوذٍ يعتريهـما مـن وقـت لآخـر، بحسـب أي مسرحيـة يقرآنهـا لبعضهـما في ذلـك الوقـت.

عرجـت عـلى مكتـب شركـة الهاتـف ذات يـوم، بسـبب خطـأ أحمـق آخـر ارتكبتـه آلـة الفواتـير مُجـدَّدًا. سـألتها أي مسرحيـة تقرأهـا مـع هـاري مؤخَّـرًا.

قالـت: "في الأسـبوع السـابق، كنـتُ مُتزوِّجـةً مـن عطيـل، وأَحَبَّنـي فاوسـت، واختطفنـي باريـس. ألا تعتقـد أني أكـثر الفتيـات حظًّـا في المدينـة؟".

قلـتُ لهـا إن ذلـك رأيـي، وأن ذلـك رأي أغلـب نسـاء المدينـة أيضًـا. قالـت: "كانـت أمامهـم فرصـة".

قلـتُ: "لم تسـتطع أغلبهـن تَحمُّـل الحـماس". وأخبرتهـا أني طُلِـبَ منـي إخـراج مسرحيـة جديـدة. سـألتها إن كانـت وهـاري مُتفَرِّغَيْن للمشـاركة فيها. ارتسـمت عـلى وجههـا ابتسـامة كبـيرة وقالـت: "مَـن نحـن هـذه المـرَّة؟".

(1961)

أهلًا بك في بيت القرود

ثـم ذات مسـاء، جـاء بِيـت كروكـر، رئيـس شرطـة مقاطعـة بارنسـتيبل، والتـي هـي في الواقـع كيـب كـود كلُّهـا، إلى صالـون الانتحـار الفيـدرالي الأخلاقـي في هاينيـس بشـهر مايـو. قـال للمضيِّفتَـيْن اللتـين تبلغـان الأقـدام السِّـتَّ طـولًا، أنَّهـن لسـن بحاجـة للقلـق، لكـن يُقـال إن خـاوي الـرأس سـيئ السُّـمعة بيـلي الشـاعر، قـادِمٌ إلى كيـب كـود.

خـاوي الـرأس هـو الشـخص الـذي يرفـض أخـذ حبـوب التحكُّـم في النسـل الأخلاقيـة ثـلاث مـرات في اليـوم. عقوبـة ذلـك كانـت غرامـة عـشرة آلاف دولار وعـشر سـنوات في السـجن.

كان ذلـك في الوقـت الـذي بلـغ فيـه تعـداد البـشر عـلى الأرض 17 مليـار نسـمة. بالنسـبة لكوكـب بهـذا الصِّغَـر، فهـذا عـددٌ أكـبر بكثـير مـمَّا يُحتمـل مـن ثدييَّـاتٍ بهـذا الحجـم. بـات النـاس فعليًّـا متلاصقـين كالحسـلات.

الحسلات هي النتوءات الصغيرة المتكتّلة التي تنبتها أشجار التوت.

هكذا بدأت حكومة العالم في شَنِّ هجومٍ ذي شِقَّيْن على الاكتظاظ السكاني. الشِّقُّ الأول كان تشجيعَ الانتحار الأخلاقي، ويحدث ذلك بذهابك إلى أقرب صالون انتحار، وسؤالك المضيفة أن تقتلك بلا ألم، بينما تسترخي على شيزلونج. الشِّقُّ الثاني كان حبوبَ التحكُّم في النسل الأخلاقية الإجبارية.

قال رئيس الشرطة للمُضيِّفَتيْن -اللتين كانتا جميلتين عنيدتين بالِغَتَيْ الذَّكاء- إن من أجل القبض على بيلي الشاعر أقاموا حواجز طُرُقٍ وشرعوا في بحث واسع النطاق. لكن العقبة الرئيسية تكمن في أن الشرطة لا تعلم كيف يبدو. القليلون الذين رأوه وعرفوا حقيقته كُنَّ نساءً، واختلفن جميعًا إلى حدٍّ غير معقول في وصف طوله ولون شَعره وصوته ووزنه ولون بشرته.

تابع رئيس الشرطة: "لا أحتاج لتذكيركُنَّ يا بنات، أن ذوي الرؤوس الخاوية شديدو الحساسية تحت البطن. إن جاء بيلي الشاعر هنا بشكل أو بآخر وسبَّب المشاكل، ركلة واحدة جيِّدة في مكانٍ بِعَينِه ستقوم بالواجب".

كان يشير إلى حقيقة أن حبوب التحكُّم في النسل الأخلاقية -الوسيلة الأخلاقية الوحيدة للتحكُّم في النسل- تجعل الناس مُخدَّرين من الخصر إلى الأسفل.

يقول أغلب الرجال إن إحساسهم بنصفهم السُّفلي صار أقرب إلى الحديد البارد أو الخشب. وتقول أغلب النساء إن إحساسهن بنصفهن السُّفليِّ بات مثل القطن المبتلِّ أو بيرة الجنزبيل الفاسدة. كانت الحبوب فعَّالة لدرجة أنك بوسعك تغطية عين رَجُلٍ أخذ حبَّة،

وأَمـرُه بتـلاوة خطـاب جيتيسـبيرج[1]، وركلـه في خصيتيـه بينـما يفعـل، ولـن يخطـئ في كلمـة.

كانـت الحبـوب أخلاقيـة لأنهـا لم تتدخَّـل في قـدرة المـرء عـلى التكاثـر، والـذي كان ليصبـح أمـرًا غـير طبيعـي وغـير أخلاقـي. كل مـا تفعلـه الحبـوب هـو القضـاء عـلى مُتعَـة الجنـس.

هكذا اتَّفق العِلمُ والأخلاق أخيراً.

* * *

المضيفتـان في هاينيـس كانتـا نانـسي مكلوهـان ومـاري كرافـت. نانـسي كانـت ذات شـعر أشـقر يميـل للحُمـرة، مـاري كان شـعرها أسـود لامِعًـا. زِيُّهـما الرسـمي كان طـلاء شـفاه أبيـض، ومكياجًـا ثقيـلًا عـلى العيـون، وجـوارب بنفسـجية تغطـي كامـل الجسـد بـلا شيء تحتهـا، وحـذاءً جلديًّـا أسـود طويـلَ الرَّقبـة. كانتـا تديـران مؤسسـة صغـيرة ليـس فيهـا سـوى سـتِّ مقصـورات انتحـار. في أسـبوع مزدحـم، مثـل ذلـك الـذي يسـبق الكريسـماس، قـد يصـل عـدد مـن تُطْفِئـا شُـعلَتَهم إلى سِـتِّين. وسـيلتهن لذلـك هـو مِحقَـنٌ تحـتَ جلـديٍّ.

قـال كروكـر: "رسـالتي الأساسـية لَكُـنَّ يـا فتيـات هـي أن كل شيء تحـت السـيطرة، تابِعـنَ أعمالكـنَّ كـما هـو معتاد".

سألته نانسي: "ألم تنس جزءًا من رسالتك الأساسية؟ لا أفهمك".

"لم أسمعك تقول إنه متجه على الأرجح إلينا مباشرة".

هزَّ كتفيه في براءةٍ خرقاء. "لا نعلم ذلك يقينًا".

---

(1) خطـاب ألقـاه إبراهـام لينكولـن رئيـس الولايـات المتحـدة، ويُعَـدُّ مـن أشـهر الخطابـات في التاريـخ الأمريـكي. المترجـم]

"حسبت أن هذا كان كل ما يعرفه أي شخص عن بيلي الشاعر: أنه متخصِّص في فَضِّ بكارة مُضيفات صالونات الانتحار الأخلاقي". كانت نانسي عذراء، كل المضيفات كنَّ كذلك، وكانت لديهن جميعًا أيضًا شهادات في علم النفس والتمريض، وكلهن ممتلئات متورِّدات، ويبلغ طول الواحدة منهن على الأقل ستُّ أقدام.

تغيَّرَت أمريكا في مناحٍ عديدة، لكنها لم تتبنَّ النظام المِتريّ.

اغتاظت نانسي مكلوهان من محاولة رئيس الشرطة لحمايتها وماري من حقيقة بيلي الشاعر الكاملة؛ لاعتقاده أنهما ستهلعان إن سمعاها. أخبرته بذلك.

قالت: "إلى متى تظنُّ أن فتاةً تخاف بهذه السهولة قد تستمرُّ في خ.أ.أ؟"، تقصد خدمة الانتحار الأخلاقي.

عاد رئيس الشرطة خطوة للوراء ورفع ذقنه وقال: "ليس طويلًا على ما أظنُّ".

قالت نانسي: "هذا صحيح"، وقصرت المسافة بينها وبينه بسماحها له باستنشاق حافَّة يدها، التي صارت مُشهَرةً مثل حافَّة سِكِّين في وضع الكاراتيه الشهير. كل المضيفات كُنَّ خبيرات في الچودو والكاراتيه. "إن أردت أن ترى إلى أي مدى نحن عاجزات، حاول مهاجمتي وكأنك بيلي الشاعر".

هزَّ رئيس الشرطة رأسه، وابتسم بزجاجيَّةٍ. "أُفضِّل ألَّا أفعل".

"هذا أذكى شيء قلته اليوم". قالتها نانسي فيما أدارت له ظهرها وضحكت ماري. "نحن لسنا خائفات، بل غاضبات. أو نحن لسنا حتى كذلك. فهو لا يستحقُّ. نحن ضَجِرات. كم هو مُملٌّ أن يأتي كل تلك المسافة ويُسبِّب كل تلك الضَّجَّة، فقط من أجل..."، وتركت الجُملَة تموت هنا، "إن ذلك لَعَبَث".

قالت ماري: "أنا لست غاضبة منه بقدر ما أنا غاضبة من النساء اللواتي تركنه يفعل لهنَّ ذلك دون مقاومة، اللواتي تركنه يفعل ذلك ثم لم يستطعن أن يخبرن الشرطة كيف يبدو. كيف يمكن أن يَكُنَّ مُضيفات انتحار؟". قالت نانسي: "لا بُدَّ أنهن لم يتدرَّبن بما يكفي على الكاراتيه".

* * *

لم يكن بيلي الشاعر وحده مَن ينجذب لمضيفات صالونات الانتحار الأخلاقي، كل الرؤوس الخاوية كانوا كذلك. فهم يرون -وقد ضرب جنونُ الجنس الناجم عن عدم تناولهم للحبوب عقولهم- في شفاه المضيفات البيضاء وأعيُنِهنَّ الواسعة والجوارب على أجسادهنَّ نداءً للجنس والجنس والجنس.

والحقيقة كانت -بالطبع- أن الجنس هو آخر شيء قد يخطر على عقل أي مضيفة.

قال رئيس الشرطة: "إن اتَّبع بيلي نهجه المعتاد، فسيدرس روتينكم وشكلَ الحَيِّ. ثم سيختار إحداكما أو الأخرى ليرسل إليها قصيدة سافلة بالبريد".

قالت نانسي: "جذَّاب".

"وعُرف عنه أنه أيضًا يستخدم الهاتف".

قالت نانسي: "يا لشجاعته". ومن فوق كتف رئيس الشرطة، كان بوسعها رؤية ساعي البريد قادمًا.

واشتعل من خلف باب إحدى المقصورات المسؤولة عنها نانسي ضوءٌ أزرق. أراد الشخص في الداخل شيئًا ما. كانت المقصورة الوحيدة المستخدمة ذلك الوقت.

سأل رئيس الشرطة عن احتمال كون ذلك الشخص بيلي الشاعر، فقالت نانسي: "حسنًا، إن كان هو، فأنا قادرة على كسر رقبته بسبَّابتي وإبهامي".

قالت ماري التي رأته أيضًا: "إنه جَدٌّ مكَّار". الجد المكَّار هو أي رجل عجوز لطيف ومُخرِّف، يمزح ويراوغ ويتذكر الماضي لساعاتٍ قبل أن يسمح للمضيفة بإطفائه.

امتعضت نانسي: "قضينا الساعتين المنقضيتين نحاول اختيار الوجبة الأخيرة".

ثم جاء ساعي البريد بخطاب واحد، مُوَجَّه إلى نانسي بخطٍّ رصاصي مُلطَّخ. بغضب عارم وقرف شديد فتحت الخطاب، وهي تعلم أنه كتلة بذاءة من بيلي.

وكانت مُحِقَّة. داخل المظروف كانت قصيدة. ولم تكن قصيدةً أصليَّة، كانت أغنية من أيام زمان صار لها معنى جديد بعدما بات الخَدَر الذي تُسبِّبه حبوب التحكُّم في النسل الأخلاقية عالَميًّا. هذه كانت القصيدة، بالقلم الرصاصي الملطَّخ مرَّةً أخرى:

كنَّا نتمشَّى في الحديقة، نتحسَّس مؤخِّرات التماثيل في الظلام

إن كان حصان شيرمان لا يمانع، لِمَ تفعلين؟

عندما دخلت نانسي مقصورة الانتحار لرؤية ماذا يريد، كان الجَدُّ المكَّار مُمدَّدًا على الشيزلونج الأخضر كالنعناع، حيث مات قبله مئاتٌ بسلام على مَرِّ السنين، يفحص قائمة مطعم فندق هاورد چونسون المجاور، ويضيع الوقت بالإنصات للموسيقى الناعمة الآتية من السماعات المثبَّتة على حائطٍ أصفر كالليمون. كانت الغرفة قالَبًا أسمنتيًّا مَطليًّا، بها نافذة واحدة ذات قضبان وستائر معدنية.

يوجد فندق هاورد چونسون بجوار كل صالون انتحار أخلاقي، والعكس صحيح. لهاورد چونسون سقفٌ برتقاليٌّ، ولصالون الانتحار سقف بنفسجي، لكن كلاهما حكومة. فعليًّا كل شيء كان حكومة.

وفعليًّا كان كل شيء مؤتمتًا أيضًا. كان نانسي وماري ورئيس الشرطة محظوظين لعملهم في وظائف. يقضي المواطن المتوسط وقته مكتئبًا في بيته يشاهد التليفزيون، والذي كان حكومة. كل خمس عشرة دقيقة كان تليفزيونه يحثُّه على التصويت بحِكمَةٍ أو الاستهلاك بحِكمة أو العبادة في الكنيسة التي يريدها أو محبَّة رفاقه من الناس أو طاعة القانون، أو الاتصال بأقرب صالون انتحار أخلاقي ليكتشف إلى أي مدى تستطيع المضيفات أن يَكُنَّ ودوداتٍ ومُتفهِّمات.

الجَدُّ المكَّار كان شيئًا يَندُر مصادفة مثله؛ إذ كانت الشيخوخة قد علَّمت عليه، فقد كان أصلعَ، مرتعشًا، مُبقَّع اليدين. بدا أغلب الناس في الثانية والعشرين بفضل الحُقَن المضادَّة للتقدُّم في العمر التي يأخذونها مرَّتين في السنة. كون مظهر الرجل العجوز عجوزًا، كان دليلًا على أن تلك الحقن اكتُشِفت بعدما ذبلت زهرة عمره.

سألته نانسي: "هل قرَّرنا عشاءنا الأخير أم ماذا؟". سمعت في صوتها غيظًا، سمعت نفسها وهي تفضح سخطها من بيلي الشاعر وضجرها من العجوز. اعتراها الإحراج من سقطتها غير الاحترافية. "كستلاتة اللحم المخبوز رائعة جدًّا".

هزَّ العجوز رأسه. بالدَّهاء الجشع لمن يعيش طفولة ثانية، لاحظ سقطة الاحترافية والعطف منها، وشرع في معاقبتها على ذلك. "لا تبدين شديدة الودِّ، حسبت أن من المفترض أنَّكنَّ جميعًا ودودات. ظَنَنتُ هذا المكان يفترض كونَه مَسرَّة للزائرين".

قالت: "أستميحك العذر إن بدوت غير ودودة، فأنتَ لستَ السبب". "حسبت أني أَصَبتُكِ بالملل".

قالت بشجاعة: "لا، أبدًا. أنت بلا شكٍّ تعرف الكثير من التاريخ المثير للاهتمام". من بين أشياء كثيرة، ادَّعى الجَدُّ المكَّار أنه كان يعرف چي. إدجار نيشن، الصيدلي الذي يُعتبر أبو التحكُّم في النسل الأخلاقي.

قال لها: "إذن فليَبدُ عليك أنك مهتمَّة". كان بوسعه الإفلات بوقاحته، فالأمر كان أنه يقدر على المغادرة في أي وقت يحب، حتى تحين لحظة طلبه للحقنة، وكان يجب أن يطلب بنفسه الحقنة. هكذا كان القانون.

فَنُّ نانسي، وفَنُّ كل المضيفات، كان يكمن في تأكُّدِهنَّ من عدم مغادرة المتطوِّعين، بتملُّقهم ومُداهَنَتهم ومجاملتهم بصبرٍ على طول الخط.

هكذا اضطرَّت نانسي للجلوس في المقصورة، والتظاُهر بالذهول من طزاجة الحكاية التي يحكيها العجوز، حكاية يعرفها الجميع عن كيف حدث اكتشاف چي. إدجار نيشن، الصيدلي من مقاطعة جراند رابيدز، للتحكُّم في النسل الأخلاقي.

قال الجَدُّ الماكر: "لم تكن لديه أدنى فكرة أن حبوبه سيتناولها البشر ذات يوم، حلمه كان تقديمَ الأخلاق لبيت القرود في حديقة حيوانات جراند رابيدز". وسألها في حدَّة: "هل كنت تعرفين ذلك؟".

"لا، لم أعرف، كم أن هذا يثير الاهتمام".

"ذهب مع أطفاله الأحد عشر إلى الكنيسة يوم عيد فصح. وكان اليوم لطيفًا، وقُدَّاس الفصح جميلًا ونقيًّا، لدرجة أنه قرَّر أن يتمشَّى مع أولاده في حديقة الحيوانات، كانوا سعداء كمن يتمشَّى فوق السحاب".

"هممـم". المشـهد الـذي وصفـه كان من مسرحيَّةٍ تُعـرض في التليفزيون كل عيـد فصح.

أدخـل الجَـدُّ الماكـر نفسـه في المشـهد، وجعـل نفسـه يتحـدَّث مـع نيشـن قبـل وصولهـم لبيـت القـرود. "قلـت لـه: "صبـاح الخـير مسـتر نيشـن، إنـه لَصبـاحٌ جميـل". قـال لي: "صبـاح الخـير لـك أيضًـا يـا مسـتر هـاورد، ليـس هنـاك شيءٌ مثـل صبـاح عيـد الفصـح لجعـل الرَّجُـل يشـعر بالنقـاء وكأنـه وُلِـدَ مـن جديـد، وعـلى وفـاق مـع خطـة الـرب"".

"همـم". كان بوسـعها سـماع رنـين الهاتـف الباهـت المزعـج عـبر البـاب شـبه العـازل للصـوت. "هكـذا مضينـا معًـا إلى بيـت القـرود، ومـاذا تحسـبين أننـا رأينـا؟".

"لا أسـتطيع التخيُّـل"، ردَّ أحدهـم عـلى الهاتـف، "رأينـا قـردًا يلعـب بأجزائـه الخاصـة!"، "لا!".

"بـلى! وانزعـج جـي. إدجـار نيشـن جـدًّا، لدرجـة أنـه ذهـب مـن فـوره إلى البيـت وعمـل عـلى تطويـر حبَّـة تجعـل القـرود في وقـت الربيـع أشـياء لا تـؤذي العائلـة المسـيحية رؤيتهـا".

كان هناك طَرقٌ على الباب. قالت نانسي: "نعم...؟".

قالت ماري: "نانسي، تليفون لأجلك".

عندمـا خرجـت نانـسي مـن المقصـورة، وجـدت رئيـس الشرطـة يـكاد يختنـق مـن فـرط سـعادة تطبيـق القانـون. تنصَّـت رجـال الشرطـة عـلى الهاتـف مـن مكمنهـم في هـاورد چونسـون، اعتقـدوا أن المتَّصِـل هـو بيـلي الشـاعر. تعقَّبـوا المكالمـة، وكانـت الشرطـة في طريقهـا بالفعـل للقبـض عليـه.

همـس رئيـس الشرطـة لنانـسي: "أبقيـه عـلى الخـط"، ومنحهـا الهاتـف وكأنـه سـبيكة ذهـب.

قالت نانسي: "نعم...؟".

قال الرجل: "نانسي مكلاهون؟"، بدا صوته مُموَّهًا، وكأنه يتحدَّث عبر أنبوب. "أهاتفك نيابة عن صديق مشترك".

"أوه؟".

"طلب مني إبلاغك برسالة".

"أرى ذلك".

"إنها قصيدة"، "حسنًا"، "جاهزة؟".

كان بوسع نانسي سماع صراخ صافرات الشرطة في خلفية المكالمة.

لا بُدَّ أن المتصل سمعها أيضًا، لكنه تلى القصيدة دون أي مشاعر، كانت كالتالي:

دَلِّعِي نفسك واغتبطي ونامي

ها قد جاءك رجل الانفجار السكاني

قبضوا عليه، وسمعت نانسي كل شيء، الخبط والرَّزع، واللغط والصياح.

الاكتئاب الذي شعرت به بينما تُنهي المكالمة كان جسديًّا. جسدها الشجاع استعدَّ لقتال لن يحدث.

هرع رئيس الشرطة من صالون الانتحار بتعجُّل، ليرى المجرم الشهير الذي ساعد في القبض عليه، لدرجة وقوع حزمة أوراق من معطفه الطويل.

التقطتهم ماري، ونادت رئيس الشرطة. توقَّف لوهلة، ثم قال إن الأوراق لم تَعُد تهمُّ، وسألها إن كانت تَودُّ القدوم معه. دار نقاش قصير بين الفتاتين، نانسي تحاول إقناع ماري لتذهب، مُعلِنَةً أنها لا تشعر بأي فضول تجاه بيلي. هكذا ذهبت ماري، وبلا اهتمام أعطت الأوراق لنانسي.

اتَّضح أن الأوراق نُسَخٌ ضوئية من قصائد أرسلها بيلي للمضيفات في أماكن أخرى. قرأت نانسي أوَّلَها، كانت تستخدم العرض الجانبي الغريب لحبوب التحكُّم في النسل الأخلاقية، فهي لا تُخدِّر النصف السفلي من الناس فقط، بل تجعل أيضًا لون بولهم أزرق. اسم القصيدة كان "ما قاله ممتلئ الرأس لمضيفة الانتحار"، وكانت كالتالي:

أنا لم أزرع، أنا لم أحصد، وبفضل الحبوب، أنا لم أُذنِب

أحبُّ الزحام والجلبة والحَرَّ، وبَولي أزرق مثل البحر

تحت السقف البرتقالي تَغدَّيتُ، وبالتَّطوُّر الحضاري تعشَّيتُ

وتحت السقف الموف أتيت، وفي الأزرق... حياتي رميت

مضيفتي البتول، ذراع الهلاك، الحياة حلوة، وأنتِ ملاك

ابكِي على أيري يا طفلتي البنفسجية، كل ما مضى كان مياهًا كُحليَّة

أراد الجَدُّ الماكر أن يعرف: "لم تسمعي هذه القصة من قبل؟ تلك عن كيف اخترع چي. إدجار نيشن حبوب التحكُّم في النسل الأخلاقية؟". صوته كان مشروخًا.

كذبت نانسي: "لم أفعل قَطُّ".

"اعتقدت أن الجميع يعرفها".

"بل هي جديدة بالنسبة لي".

"بعدما انتهى من بيت القرود، صار لا يمكنك تمييزه عن محكمة ميتشيجان العليا. في الآن ذاته، كانت هناك أزمة مشتعلة في الأمم المتحدة. قال مَن يفهمون العلوم إن على الناس التوقُّف عن التكاثر كثيرًا، وقال مَن يفهمون في الأخلاق إن المجتمع سينهار إن كان غرض الناس من الجنس لا يزيد عن المتعة".

قـام الجَـدُّ الماكـر مـن الشـيزلونج، اتجـه إلى النافـذة، باعَدَ بـين شريحتين مـن السـتار المعـدني. لم يكـن هنـاك الكثـير لينظـر إليـه، فالرؤيـة كانـت تحجبهـا خلفيَّـة مـا يشـبه الترمومـتر عـلى ارتفـاع عشريـن قدمًـا، والـذي كان يواجـه الشـارع. كان معيـاره يتـدرَّج مـن صفـر إلى عشريـن مليـار نسـمة. خـزَّان السـائل العمـودي كان يحتـوي عـلى شريحـة نصـف شـفَّافة مـن البلاسـتيك الأحمـر، تعـرض تعـداد النـاس عـلى الأرض الآن. بالقـرب مـن القـاع كان هنـاك سـهم أسـود يشـير إلى مـا يعتـبره العلـماء التعـداد المثـالي للبـشر.

كان الجَـدُّ الماكـر يشـاهد الشـمس الغاربـة مـن خـلال البلاسـتيك الأحمـر، وعـبر السـتار أيضًـا، هكـذا أمـسى وجهـه مخطَّطًـا بالأحمـر والظـلال.

قال: "أخبِريني، عندما أموت، كم سينخفض هذا الترمومتر؟ قَدَمًا؟"

"لا".

"بوصة؟".

"ليس بالضبط".

قـال: "تعلمـين الإجابـة، أليـس كذلـك؟"، اسـتدار وواجههـا. ذهـب كل أثـر للخـرف مـن صوتـه وعينـه. "كل بوصـة تسـاوي 83.333 إنسـانًا. تعلمـين هـذا، أليـس كذلـك؟".

قالـت نانـسي: "ربمـا... ربمـا يكـون ذلـك صحيحًـا، لكـن تلـك ليسـت وجهـة النظـر في الأمـر المناسـبة في رأيـي".

لم يسـألها عـن وجهـة النظـر المناسـبة في رأيهـا. بـل اسـتكمل أفـكاره الخاصَّـة بـدلًا مـن ذلـك. "سـأخبرك بـشيء آخـر صحيـح: أنـا بيـلي الشـاعر، وأنـت امـرأة في غايـة الجـمال".

بإحـدى يديـه، أخـرج مُسدَّسًـا ذا سـاقية دوَّارة وماسـورة قصـيرة مـن حزامــه، وبالأخـرى قَـشَّر عــن رأســه الصَّلعــةَ والجبـينَ المتجعِّــدَ، الــذي اتَّضَـح أنــه قنــاعٌ مطَّاطــيٌّ. وصــار الآن يبـدو في الثانيـة والعشريــن.

قــال لنانسي بابتسـامة خبيثـة: "سـترغب الشرطـة في أن تعـرف كيـف أبـدو بالضبـط عندمـا ينتهـي كل شيء. في حــال إن كُنــتِ غــيرَ ماهـرة في وصـف النـاس، وهـو شيء فاجـأني شـيوعُه بـين النسـاء:

فأنا خمس أقدام وبوصتان، عيناي زرقاوان

بشَعرٍ بُنِّيٍّ، على الكتف يتدلَّى

أشبهَ بجِنِّيٍّ، في ذاته يتملَّى

تقول النساء، منه لا يوجد أحلى

كان بيـلي أقـصر مـن نانـسي بعـشر بوصـات، وكانـت يزيـد وزنهـا عنـه بحـوالي أربعـين رطـلًا. قالـت لـه إنـه ليـس لديـه أدنى فرصـة، لكنهـا كانـت مُخطِئـة. كان قـد حـلَّ قضبـان النافـذة في الليلـة السـابقة، وجعلهـا تخـرج منهـا، ثــم تدخــل في فتحــة المجــاري السُّــفليَّة التــي كان يحجبهــا عــن الشـارع الترمومـتر العمـلاق.

أخذهـا معـه عـبر مجـاري هاينيـس. كان يعلـم إلى أيـن يتَّجـه، وكان معـه مصبـاحٌ يـدويٌّ وخريطـة. اضطـرَّت نانـسي للمـشي أمامـه في الممـر الضيـق، ظِلُّهـا الوحيـد يتراقـص أمامهـا بسـخرية. حاولـت تخمـين أيـن هـم الآن بالنسبة للعـالم الحقيقـي في الأعـلى. صَحَّ تخمينهـا عندمـا مَـرًّا تحـت هــاورد چونســن، خمَّنَــت مــن الضوضــاء التــي ســمعت. كانــت الآلات التــي تجهـز وتُقـدِّم الطعـام صامِتَـةً. لكـن كيـلا يشـعر النـاس بالوحـدة عندمــا يأكلــون هنــاك؛ وضــع المصمِّمــون مؤثِّــراتٍ صوتيَّــةً للمطبــخ. وهـذا مـا سـمعته نانـسي، شريـط تسـجيل لخبـط الأواني وضحـك الزنـوج والبورتريكيــين.

بعـد ذلـك تاهـت تمامًـا. عـدا إرشـادات عـلى غـرار "يمـين" أو "يسـار" أو "لا تحـاولي أي شيء أحمـق يـا جونـو، وإلا سـأُفجِّر رأسـك الكبـير اللعـين هـذا"، لم يكـن لـدى بيـلي الكثـير ليقولـه.

مـرَّة واحـدة فقـط دارت بينهـما مـا يشـبه المحادثـة، بيـلي هـو مـن بدأهـا وأنهاهـا أيضًـا. سـألها مـن ورائهـا: "مـا الـذي يجعـل فتـاة ذات أوراك مثـل أوراكك تبيـع المـوت؟".

جَـرُؤَت عـلى التوقُّـف. قالـت لـه: "أسـتطيع أن أجيبـك عـلى هـذا". كانـت واثقـة أن بوسـعها تقديـم إجابـة ستشـويه كـما النابـالم.

لكنه دفعها، وعرض عليها أن يُفجِّر رأسها اللعين مرة أخرى.

قالـت مُعنِّفـة: "أنـت حتـى لا تريـد أن تسـمع إجابتـي، أنـت خائـف مـن سـماعها".

قـال مُتهكِّمًا: "أنـا لا أسـمع امـرأة أبـدًا إلَّا بعـد زوال مفعـول الحبوب". هـذه كانـت خُطَّتـه إذن، أن يحتفـظ بهـا سـجينةً لثـماني سـاعات عـلى الأقـل. المـدة الكافيـة لـزوال مفعـول الحبـوب.

"تلك قاعدة حمقاء".

"المرأة ليست امرأةً إلَّا بعد زوال الحبوب".

"أنتَ قادر بلا شك على جعل المرأة تشعر وكأنها شيء لا شخصًا".

قال بيلي: "اشكري الحبوب على ذلك".

* * *

كان يوجـد ثمانـون ميـلًا مـن المجـاري تحـت هاينيـس الكـبرى، والتـي كان تعدادهـا 400,000 حسـلة، 400,000 روح. فقـدت نانـسي إحساسـها بالوقـت بالأسـفل. عندمـا أعلـن بيـلي أنهـما بلغـا وجهتهـما، كان يسـهل عليهـا أن تتخيَّـل أن سَـنةً قـد مـرَّت.

لتختبر صِحَّة ذلك الاحتمال المخيف، قرصت فخذها لتشعر بما لدى ساعة جسدها الكيميائية لتقول. كانت فخذها لا تزال مُخدَّرةً.

أمرها بيلي أن تتسلَّق حلقات معدنية مُثبَّتة في حائط مُبتلٍّ. كانت هناك دائرة من ضوء هزيل بالأعلى، اتَّضح أنه ضوء القمر بعد مروره من مُضلَّعات بلاستيكية لقُبَّة جيوديسية هائلة.

لم تسأل نانسي سؤال الضحايا التقليدي: "أين أنا؟"، كانت هناك قُبَّة واحدة مثل تلك في كيب كود، في ميناء هاينيس، وكانت تُغطِّي مُجمَّع كينيدي العتيق.

كان مُتحَفًا للشكل الذي كانت عليه الحياة في أَزمِنةٍ أكثر رَحابَةً. وكان يُفتح فقط خلال الصيف.

الفتحة التي خرج منها نانسي وبيلي كانت داخل امتدادٍ من الأسمنت الأخضر، الذي يُمثِّل المكان الذي كانت فيه حديقة كينيدي. على الأسمنت الأخضر وأمام بيوت العَرض النموذجية العتيقة، هناك كانت تماثيل لرؤساء آل كينيدي الأربعة عشر، الذين كانوا رؤساء الولايات المتحدة أو رؤساء العالم، يلعبون التاتش فوتبول.

رئيسة العالم في وقت اختطاف نانسي، بالصُّدفة، كانت مضيفة انتحارٍ سابقة تُدعَى "ما" كينيدي. لن ينضمَّ تمثالها لمباراة كرة القدم تلك أبدًا. كان اسمها كينيدي فعلًا، لكنها لم تكن كينيدي حقيقيَّةً. تَذَمَّر الناس من افتقارها للذَّوق، واعتبروها فَظَّة. على حائط مكتبها كانت ثمة لافتة تقول "لست مُضطرًّا لأن تكون مجنونًا لتعمل هنا، لكن ذلك سيساعد"، وأخرى تقول "THIMK"[1]، وثالثة تقول "يومًا ما سنحتاج لترتيب أمورنا هنا".

---

(1) منذ الثلاثينيات، كان شعار شركة IBM الأمريكية هو "THINK!"، أي فَكِّرْ. انتشرت لافتات تحمل الشعار وبات نوعًا من الموضة في أمريكا. ومع بداية الخمسينات، انتشرت موضة مضادة، تسخر من الشعار الأصلي، وتقول لافتاتها "THIMK!"، في إشارة إلى أن صاحب

مكتبها كان في تاج محل.

* * *

حتى وصلا متحف كينيدي، كانت نانسي مُتيقِّنة أنها عاجلًا أم آجلًا ستجد فرصة لتكسر كل عظمة في جسد بيلي الضئيل، وربما حتى تُطلِق عليه النار بمسدسه ذاته. لم تكن لتمانع فعل أي من تلك الأشياء، فقد شعرت أنه مقرف أكثر من عضوٍ ذكريٍّ منفوخ بالدماء.

لم يكن العطف هو ما غَيَّر رأيها، بل اكتشاف أن لبيلي عصابة. كان هناك على الأقل ثمانية أشخاص حول الفتحة في الأرض، يساوي عدد الرجال فيهم النساء، بجوارب مشدودة على رؤوسهم. وكانت النساء هُنَّ مَن وضعن أيديهن الحازمة على نانسي، وقالوا لها أن تهدأ. كانوا بنفس طول نانسي على الأقل، واحتفظوا بها في مكان حيث يَسَعُهنَّ إيذاؤها بشدَّة إن أرادوا.

أغلقت نانسي عيناها، لكن هذا لم يَحمِها من الحقيقة الواضحة: تلك النسوة المنحرفات هُنَّ أخوات من خدمة الانتحار الأخلاقي. أغضبها هذا جدًّا إلى حَدٍّ أنها سألت بصوتٍ عالٍ غاضب: "لأجل هذا نَكثتُنَّ عهودَكنَّ؟".

انكسر قلبها من فوره فانطوت على نفسها وانفجرت في البكاء.

عندما اعتدَلَت مُجدَّدًا، كان لديها المزيد لتقوله، لكنها حافظت على فمها مطبقًا. تساءلت في صمت عن السبب الذي قد يجعل مضيفة انتحار تنقلب على كل مبادئ الحشمة الإنسانية. خواء الرأس وحده لا يفسِّر ذلك. لا بُدَّ أنهم يُخدِّرونهن إلى جوار ذلك.

اللافتة لم يُفكِّر حتى كفايةً ليتهجَّى الحروف بشكل سليم. [المترجم]

بحثـت نانـسي في كل أرجـاء عقلهـا عـمّا تعلّمتـه في المدرسـة عـن كل المخـدِّرات الرهيبـة، وأقنعـت نفسـها أن تلـك النسـاء يتناوَلـن الأسـوأ منهـا. أخبرتهـا مُعلِّمتهـا أن ذلـك المخـدِّر كان قويًّـا، لدرجـة أن حتـى الشـخص المُخـدَّر مـن خـصره إلى أسـفله، سيُجامع بحـماسٍ عـدَّة مـرَّات متتاليـة بعد كأسٍ واحـد منـه. لا بُـدَّ أن تلـك هـي الإجابـة: تلـك النسـاء، وعـلى الأرجـح هـؤلاء الرجـال أيضًـا، يشربـون الجِـن.

* * *

أخـذوا نانـسي إلى البيـت النموذجـي الأوسـط، الـذي كان مظلـمًا مثـل البقيـة، وسـمعت نانـسي الرجـال يقولـون لبيـلي الأخبـار. وكان في هــذه الأخبـار أن وجَـدَت نانـسي بريقًـا مـن الأمـل، أمـل أن ربمـا هنـاك مسـاعدة في الطريـق.

عضـو العصابـة الـذي تحـدث بالفاحشـة لنانـسي عـلى الهاتـف، أوهـم الشرطـة بأنهـم قبضـوا عـلى بيـلي الشـاعر، وهـو أمـر سيِّئ لنانـسي. قـال رجـلان لبيـلي إن الشرطـة لم تعلـم بَعـدُ أن نانـسي مفقـودة، وأن هنـاك برقيـة أُرسِـلَت إلى مـاري كرافـت باسـم نانـسي، تعلـن أن شـؤون عائليـة طارئـة اسـتدعت نانـسي للذهـاب إلى نيويـورك.

وذلـك كان حيـث رأت نانـسي بريـق الأمـل: مـاري لـن تصـدق هـذه البرقيـة. مـاري تعلـم أن ليـس لنانـسي أسرة في نيويـورك. مـن بـين الثلاثـة وسـتين مليـون إنسـان الذيـن يعيشـون هنـاك، لا يوجـد قريـب واحـد لنانـسي.

أبطَلَـت العصابـة نظـام الإنـذار في المتحـف. وقطعـوا أيضًـا كثـيرًا مـن السلاسـل والحبـال التـي يُفـتَرض بهـا منـع الـزُّوَّار مـن لمـس أي شيء ذي قيمـة. لم يكـن هنـاك أي غمـوض فيـما يخـصُّ مَـن قـام بالقطـع وبمـاذا. أحـد الرجـال كان مُسـلَّحًا بمقـصٍّ حديـد مُرعِـب.

ذهبـوا بنانـسي إلى غرفـة نـوم الخـدم في الطابـق العلـوي. الرجـل ذو المقـص قطـع الحبـال التـي أحاطـت بالسريـر الضيـق. وضعـوا نانـسي في السريـر، وأمسـك بهـا رَجُـلان، فيـما أعطتهـا امـرأةٌ حُقنـةً مُخـدِّرة.

واختفى بيلي الشاعر.

فيما كانت تدوخ، سألتها المرأة التي حقنتها عن عمرها.

كانــت نانــسي عازِمــةً عــلى ألَّا تجيــب، لكنهــا اكتشــفت أن المُخــدِّر جعلهــا بــلا إرادة للامتنــاع عــن الإجابــة. تمتمــت: "ســتة وثلاثــون".

"كيف هو شعورك وأنت عذراء في السادسة والثلاثين؟".

سـمعت نانـسي إجابتهـا قادمـة مـن وراء ضبـابٍ مخمـليٍّ. اندهشـت مــن الإجابــة، وأرادت أن تحتــجَّ بــأن تلــك لا يمكــن أن تكــون إجابتهــا. قالــت: "بــلا معنــى".

بعد هنيهة، سألت المرأة بتثاقُلٍ: "ماذا كان في تلك الحقنة؟".

"تسألين عن الحقنة يا عسلية؟ يُسمُّونها "مصل الحقيقة"".

* * *

كان القمـر غائبًـا عندمـا اسـتيقَظَت نانـسي، لكـن الليـل كان لا يـزال بالخـارج. السـتائر كانـت مسـحوبة، وكانـت هنـاك أضـواء شـموع. لم تَـرَ نانـسي مـن قبـل قَـطُّ شُـموعًا مشـتعلة.

مـا أيقظهـا كان حلـمًا عـن النحـل والبعـوض. كان النحـل والبعـوض منقرضـين، وكذلـك كانـت الطيـور. لكـن نانسي حلمـت أن ملايـين الحشرات تحـوم حولهـا، مـن الخـصر إلى الأسـفل. لا يلسـعونها، وإنمـا يَهـوون عليهـا بأجنحتهـم. صـارت نانـسي خاويـة الـرأس.

عـادت للنـوم مُجـدَّدًا. وعندمـا اسـتيقظت المـرة التاليـة، كانـت ثـلاث نسـاء يَقُدنهـا إلى الحـمام، لا يزلـن يُغطِّـين رؤوسـهن بالجـوارب. كان الحمَّام

لا يـزال مُفعـمًا بالبخـار الناتـج عـن اسـتحمام شـخص آخـر، وعـلى الأرض تتقاطـع آثـار أقـدام مُبتلَّـة، والهـواء يعبـق بعطـر إبـر الصنوبـر.

عـاد إليهـا ذكاؤهـا وإرادتهـا بعدمـا اغتسـلت وتعطَّـرَت وارتـدت قميـص نـوم أبيـض. عندمـا تراجَعَـت النسـاء خطـوة ليتأمَّلـن جمالهـا، قالـت لهـنَّ بهـدوء: "ربمـا صِرتُ خاويـة الـرأس، لكـن هـذا لا يعنـي أني مضطـرَّة للتفكـير أو التـصرُّف مثلهـم".

لم يجادلها أحد.

* * *

أخـذوا نانـسي إلى الطابـق السـفلي مـن المنـزل. توقَّعـت أنهم سيُنزلونها عـبر فتحـة المجـاري مُجـدَّدًا، سـيكون ذلـك المـكان الملائـم تمامًـا لينتهكهـا بيـلي، أو هكـذا اعتقـدت.

لكنهـم أخذوهـا عـبر الأسـمنت الأخـضر، حيـث كان العشـب يومًـا، ثـم عـبر الأسـمنت الأصفـر، حيـث كان الشَّـطُّ يومًـا، ثـم عـبر الأسـمنت الأزرق، حيـث كان المرفـأ يومًـا. كان هنـاك سـتة وعـشرون يختًـا، كل منهـا كان يومًـا ملـكًا لكينيـدي أو لآخـر، مغموريـن حتـى خـطِّ الميـاه في الأسـمنت الأزرق. وكان إلى أقـدم هـذه اليخـوت، مارلـين، الـذي كان ملـكًا لچوزيـف بي. كينيـدي، أن أخـذوا نانـسي.

أصبـح الوقـت فجـرًا. وبسـبب مبـاني الشُّـقَق العاليـة في كل مـكان حـول متحـف كينيـدي، لـن تصـل قبـل سـاعة أي أشـعة شـمس مباشرة للعـالم الصغـير تحـت القُبَّـة الچيوديسـية.

اصطحبـوا نانـسي عـبر سُـلَّم يقـود إلى مقصـورة مارلـين الأماميـة. ثـم أشـارت النسـاء صامتـات مثـل مُمثِّـلات بانتومايـم إلى أنهـا ينبغـي عليهـا النـزول السُّـلَّم عـبر فتحـة المقصـورة وحيـدة.

تجمَّدَت نانسي لوهلة، وكذا فعلت النساء. كان هناك تمثالان عند تابلوه لوحة القيادة. على الدقَّة كان تمثال لفرانك ويرتانين، الذي كان قبطان مارلين ذات يوم، وبجواره تمثال ابنه وضابطه الأول كارلي. لم يبديا أدنى اهتمام بنانسي المسكينة، كانا يُحدِّقان عبر الزجاج الأمامي في الأسمنت الأزرق.

نانسي، حافية القدمين، في قميص نوم خفيف، نزلت بشجاعة إلى المقصورة الأمامية، والتي كانت حوضًا من ضوء الشموع وعطر أعواد الصنوبر. خلفها أُغلِقَت فتحة سُلَّم المقصورة وأُحكم غلقها.

مشاعر نانسي والفرش العتيق للمقصورة كانت متشابكةً لدرجة أنها لم تستطع تمييز بيلي الشَّاعر ممَّا يحيط به، من كل خشب الماهوجني والزجاج المعشَّق. ثم رأته في أقصى نهاية المقصورة، بظهره يستند إلى باب غرفة القبطان الأمامية. كان يرتدي بيچامة بنفسجية حريرية ذات ياقة روسية، مخطَّطة بالأحمر، وعلى صدرها الحريري يتلوَّى تِنِّينٌ ذهبيٌّ يتجشَّأ النيران.

غير أنه كان يرتدي نظارة، ويحمل كتابًا.

تَمَوضَعَت نانسي على السُّلَّمة قبل الأخيرة، وأمسكت الدرابزين بقبضة حازمة. كشفت عن أسنانها، قَدَّرت أنهم بحاجة لعشرة رجال في حجم بيلي ليحرِّكوها من هنا.

بينهم كانت مائدة ضخمة. توقَّعَت نانسي أن يهيمن على المقصورة سرير، على شكل بجعة على الأرجح، لكن مارلين كان يختًا للاستخدام النهاري، مقصورته كانت أبعدَ ما يكون عن الحرملك. كان مكانًا شهوانيًا بنفس قدر شهوانيَّة غرفة سُفرة طبقة متوسِّطة بمدينة أكرون في أوهايو عام 1910.

على المائدة كانت شمعة، ودلو ثلج وكوبان وربع جالون من الشامبانيا.

كانت الشامبانيا ممنوعة قانونًا كالهيروين.

خلــع بيــلي نظارتــه، ابتســم لهــا ابتســامة خجــلى مُحرَجــة، قــال: "مرحبًــا".

"لن أتحرّك من مكاني".

تقبل ذلك. "أنت جميلة حيث أنت".

"بِـمَ يُفـتَرَض أن أرد؟ أنـك وسـيم لدرجـة مذهلـة؟ أن الرغبـة تقتلنـي لأقـذف نفـسي بـين ذراعيـك القويتـين؟".

قــال بتواضــع: "إن أرَدتِ جعــلي ســعيدًا، فهــذه بــلا شــك طريقــة مناســبة".

"وماذا عن سعادتي أنا؟".

بــدا أن الســؤال قــد حــيَّره. "نانــسي، ســعادتك هــي الهــدف مــن كل هــذا".

"ماذا إن كانت فكرتي عن السعادة لا تتوافق مع فكرتِكَ عنها؟".

"وماذا تحسبين فكرتي عن السعادة؟".

قالــت نانــسي: "أنــا لــن ألقــي نفــسي بــين ذراعيــك، ولــن أشرب ذلــك السُّــمَّ، ولــن أتزحــزح مــن مــكاني إلا إذا أرغمنــي أحدهــم. هكــذا أظــنُّ فكرتــك عــن الســعادة لــن تزيــد عــن ثمانيــة أشــخاص يُثبِّتــوني في تلــك المائـدة، بينـما تصـوِّب أنـت بشـجاعة إلى رأسي مسدَّسًـا، وتفعـل مـا تريـد. لــن يحــدث شيء إلا بهــذه الطريقــة، فهيًّــا، نــادِ عــلى رفاقِــكَ".

وهو ما فعله.

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

لم يؤذها. فضَّ بكارتها بمهارة جراحيَّة عَدَّتها مريعة. عندما انتهى، لم يَبدُ مُتبجِّحًا أو فخورًا، بالعكس، كان شديد الاكتئاب، وقال لنانسي: "صدِّقيني، إن كانت هناك أي طريقة أخرى...".

ردُّها على ذلك كان وجهًا جامدًا كصخرة، ودموعَ مَذلَّة صامتة.

أنزل مساعدوه من الحائط سريرًا مُعلَّقًا، كان بالكاد أعرَضَ من رَفِّ كُتُبٍ مُثبَّت بسلاسل. برغم ضخامتها، مثل كونترباص مثبَّت بصعوبة على ذلك الرف الصغير، شعرت مثل شيء صغير حزين مثير للشفقة. لَفُّوها في بطانية خَشِنة من مُخلَّفات الحرب. تغطية وجهها بطرف البطانية كان فكرتها.

نانسي شعرت من الأصوات بما يفعله بيلي، وهو ما لم يكن الكثيرَ. كان يجلس على المائدة، يتنهَّد أحيانًا، يستنشق أحيانًا، يقلِّب صفحات كتابٍ. أشعل سيجارًا فاحت رائحته تحت بطانيتها. أخذ بيلي منه نَفَسًا، ثم سعل وسعل وسعل.

عندما سكن سعاله، قالت نانسي باستحقار من خلال البطانية: "إنك لقويُّ البدن، صحيحه، وذو سُلطَة. لا بُدَّ أنه من الرائع أن تكون بهذه الرجولة".

لم يَرُدَّ بيل إلا بتَنهِدَة.

قالت: "أنا لست كباقي الرؤوس الخاوية، لقد كرهت ذلك، كرهت كلَّ جزء منه". استنشق بيلي، قلب صفحة.

"أعتقد أن باقي النساء أحببن ذلك، ولم يكتفين منه قطُّ".

"كلَّا".

أزالت الغطاء عن وجهها. "ما الذي تعني بـ "كلَّا"؟".

"كُنَّ جميعًا مثلك".

كان ذلـك كافيًـا لجعـل نانـسي تجلـس معتدلـةً وتُحـدِّق فيـه. "النسـاء اللـواتي سـاعدنك الليلـة؟".

"ماذا عنهن؟".

"فعلتَ بهنَّ ما فعلته بي؟".

لم يرفع عينه عن كتابه. "هذا صحيح".

"إذن لماذا لا يقتلنك بدلًا من مساعدتك؟".

"لأنَّهن يتفهَّمن"، ثم أضاف بهدوء، "إنَّهنَّ مُمتنَّات".

نزلـت نانـسي مـن السريـر، اتَّجَهـت إلى المائـدة، جذبـت حافَّتهـا، انحنـت عليـه. قالـت لـه بأعصـاب مشـدودة: "أنـا لسـت مُمتنَّـة".

"ستكونين".

"وما تحتاجه تلك المعجزة للحدوث؟".

قال بيلي: "الوقت".

أغلـق بيـلي كتابـه، نهـض. ارتبكـت نانـسي مـن جاذبيتـه. بشـكل مـا بـدا مسـيطرًا مُجـدَّدًا.

قـال: "مـا مَـرَرتِ بـه لتَـوِّكِ يـا نانـسي هـو ليلـة زفـاف تقليديـة لفتـاة متحفِّظـة قبـل مائـة سـنة، عندمـا كان الجميـع رؤوسًـا خاويـة. كان العريـس يفعلهـا دون مسـاعدين؛ لأن العـروس لم تكـن في العـادة مُتحفِّـزة لقتلـه. عـدا ذلـك كانـت روح المناسـبة لا تختلـف كثـيرًا. تلـك البيچامـا كانـت نفـسَ مـا ارتـدى جَـدُّ جَـدِّ جَـدِّي ليلـة زفافـه في شـلالات نياجـرا.

طبقًـا لمذكراتـه، بكـت عروسـه طـوال الليـل، وتقيَّـأت مرتـين. لكـن بمـرور الوقـت، صـارت مولَعـةً بالجنـس".

كان ذلـك دور نانـسي لـتردَّ، بعـدم الـرد. فهمَـت حكايتـه. والسـهولة التـي فهمـت بهـا كيـف يمكـن أن يتولَّـد وينمـو الوَلَـعُ بالجنـس مـن البدايـات المريعـة، أثـارت رعبهـا.

قـال بيـلي: "أنـتِ خاويـةُ رأسٍ تقليديَّـة، إن جـرؤت عـلى التفكـير في الأمـر، سـتدركين أنـك غاضبـة لأني حبيـب رديءٌ، مُضحِـكُ الهيئـة كـما الجمـبري. ومـا لـن تستطيعي التوقُّـف عـن الحلـم بـه مـن الآن فصاعـدًا، هـو رفيـق مناسـب لجونـو مثلـك.

سـتجدين واحـدًا، طويـلًا وقويًـا ورقيقًـا. حركـة خـواء الـرأس تنمـو بقفـزات هائلـة".

قالـت نانـسي: "لكـن..."، ثـم صمتـت. نظـرت مـن كـوة اليخـت إلى الشـمس المشرقـة.

"لكن ماذا؟".

"العـالم اليـوم في حـالٍ مُزريـةٍ بسـبب خـواء رأس الأزمنـة المنقضيـة. ألا تـرى ذلـك؟"، تحدَّثَـت بضعـفٍ بـادٍ، "إن العـالم لم يَعُـد قـادِرًا عـلى تحمُّـل الجنـس".

قـال بيـلي: "بالطبـع هـو قـادر عـلى تحمُّـل الجنـس، مـا لا يقـدر عـلى تحمُّلـه فعـلًا هـو التكاثـر".

"إذن لماذا توجد القوانين؟".

قـال بيـلي: "إنهـا قوانـين سـيئة. إن أبحـرتِ عـبر التاريـخ، سـتجدين أن النـاس الأكـثر حماسـةً للحُكـم، ولِسَـنِّ القوانـين وتنفيذهـا، ولإخبـار النـاس بمـا يريـد الـرَّبُّ منهـم أن يفعلـوا بالضبـط عـلى الأرض، يسـامحون أنفسـهم وأصدقاءهـم عـلى أي شيء وكل شيء. لكنهـم كانـوا عـلى الـدوام مُتقزِّزيـن ومرتعبـين إلى أقـصى درجـة مـن النشـاط الجنـسي الطبيعـي لعمـوم الرجـال والنسـاء.

ما سبب ذلك؟ لا أعرف. ذلك واحد من أسئلة عديدة أتمنَّى لو يسألها أحدهم للآلات. غير أني أعلم ذلك: انتصار ذلك النوع من التقزُّز والرعب بات الآن كاملًا. كل رجال ونساء العالم تقريبًا يبدون ويشعرون مثل شيء جلبته قِطَّةٌ من الطريق. صار نوع الجمال الجنسي الوحيد الذي بوسع إنسان عادي اليوم رؤيته هو في المرأة التي ستقتله. صار الجنس هلاكًا. إليكِ تلك المعادلة القصيرة البذيئة: "الجنس = هلاك، وهو المطلوب إثباته".

هكذا يا نانسي، أنا قضيت تلك الليلة، مثل ليالٍ عديدة أخرى، محاولًا استعادة قدر من المتعة البريئة إلى عالم يفتقر للمتعة أكثر من اللازم".

جلست نانسي بهدوء، وخفضت رأسها.

قال بيلي: "سأخبرك بما فعله جُدِّي في فجر ليلة عرسه".

"لا أعتقد أني أَودُّ سماعه".

"ليس في ذلك عنفٌ، يفترض به أن يكون رقيقًا".

"ربما لذلك لا أود سماعه".

"قرأ لعروسه قصيدة". أخذ الكتاب من على المائدة، فتحه. "تقول مُذكِّراته أي قصيدة كانت. رغم أننا لسنا عروسًا وعريسًا، ورغم أننا قد لا نلتقي مُجدَّدًا لسنوات عديدة، أودُّ أن أقرأ لك تلك القصيدة، لتعرفي أني أحببتك".

"أرجوك، لا أتحمَّل ذلك".

"حسنًا، سأترك الكتاب هنا، بعلامة على مكان القصيدة، في حالة رَغبتِ أن تقرئيها لاحقًا. إنها القصيدة التي تبدأ كالتالي:

كيف أُحبُّكِ؟ دعيني أعد الطُّرُق

أحبك لمبلغ روحي من عُمقٍ واتِّساعٍ وارتفاع

حين أشعر بمنأى عن الأنظار

أحبُّكِ حتى نهاية الوجود، وكمال النعيم".

وضـع بيـلي زجاجـةً صغـيرة عـلى الكتـاب. "سـأترك لـك أيضًـا تلـك الحبـوب هنـا. إن أخـذتِ واحِـدةً كُلَّ شـهر، لـن تنجبـي أبـدًا، وسـتظلين مـع ذلـك خاويـةَ الـرأس".

ثم خرج، وخرجوا جميعًا عدا نانسي.

عندمـا رفعــت نانــسي عينيهـا إلى الكتــاب والزجاجــة، رأت أن عــلى الزجاجــة مُلصَقًــا.

ما كان على الملصق كان كالتالي: أهلًا بك في بيت القرود.

(1968).

تَمشِيَة طالَت إلى الأبد

كَـبرَا في بيـوت متجـاورة، عـلى هامـش المدينـة، بالقـرب مـن الحقـول والغابـات والبسـاتين، في نطـاق رؤيـة بـرج الجـرس الجميـل لمدرسـة مكفوفـين.

الآن قـد صـارا في العشريـن، ولم يَـرَ أحدهـما الآخـر منـذ مـا يقـارب العـام. كان يوجـد دومًـا بينهـما دفء مَـرِح مريـح، لكـن الحـب لم يُذكـر قـطُّ.

كان اسـمه نيـوت، وكان اسـمها كاثريـن. وفي عـصر أحـد الأيـام، طـرق نيـوت عـلى بـاب كاثريـن الأمامـي.

فتحـت كاثريـن البـاب. في يدهـا مجلَّـة سـميكة لامعـة كانـت تقرؤهـا، مجلـة مُخصَّصـة بالكامـل للعرائـس. تفاجـأت برؤيتـه، قالـت: "نيـوت!".

قـال: "تعـالي نتمـشَّى". كان شـخصًا خجـولًا، حتـى مـع كاثريـن. دارى خجلـه بالتحـدُّث في شرود، كـما لـو أن مـا يهمـه فعـلًا هـو أمـر آخـر في

مكان بعيد، كما لو أنه عميل سرِّيٌّ مُتوقِّف لوهلة بين مراحل خطيرة ساحرة من مَهمَّة سرِّيَّة بعيدة. كان ذلك أسلوب كلام نيوت على الدوام، حتى في الأمور التي تهمُّه بجنون.

قالت كاثرين: "نتمشَّى؟".

قال نيوت: "قَدَمٌ أمام الأخرى، بين الأشجار وفوق الجسور...".

قالت: "لم يبلغني أنك في المدينة".

قال: "جئتُ لتوِّي قبل دقيقة".

قالت: "أرى أنك لا تزال في الجيش".

قال: "لا يزال أمامي سبعة أشهر". كان جنديًّا من الدرجة الأولى في المدفعية. كان زيه أشعثَ وحذاؤه أغبرَ ولحيته نابتة. مدَّ يده للمجلة، قال: "لنَرَ كتابَكِ الجميل".

أعطَته إياها. قالت: "سأتزوَّج يا نيوت".

قال: "أعلم، تعالي نتمشَّى".

قالت: "أنا مشغولة لرأسي يا نيوت، الزفاف بعد أسبوع فقط".

قال: "إن تمشينا معًا، ستُصبِحي متورِّدةَ الخَدَّين، عروسًا متورِّدة الخَدَّين"، أدار لها صفحات المجلة، قال: "عروس متورِّدة مثل هذه، وهذه، وهذه"، عارضًا عليها عرائس مُتورِّدات.

فكَّرت كاثرين في العرائس المتورِّدة، وتَوَرَّد وجهها.

قال نيوت: "تلك ستكون هديتي لهنري ستيوارت تشيسينز، بأخذك للتمشية سأمنحه عروسًا وردية".

قالت كاثرين: "تعرف اسمه؟".

قال: "خطابات أمي. من بيتسبرج؟".

قالت: "نعم، ستحبه".

قال: "ربما".

قالت: "هل... هل ستستطيع حضور الزفاف يا نيوت؟".

قال: "أشكُّ".

قالت: "إجازتك ليست طويلة كفاية؟".

قال نيوت: "إجازة؟"، كان يتأمَّل إعلانًا من صفحتين لزخارف أدوات المائدة الفضية. قال: "لستُ في إجازة".

قالت: "أوه؟".

قال نيوت: "أنا فيما يُسمُّونه "فرار من الخدمة العسكرية"".

قالت: "أوه يا نيوت! أنت لم تفعل!".

قال بينما لا يزال يتأمَّل المجلة: "بالطبع أنا كذلك".

قالت: "لماذا يا نيوت؟".

قال: "كنتُ بحاجة لمعرفة زخرفة الفضِّيَّات التي تُفضِّلين". قرأ أسماء زخارف الفضة من المجلة: "ألبمارل؟ هيثر؟ ليچيند؟ رامبل روز؟". نظر لها، ابتسم، قال: "أُخطِّط لأن أهديك وزوجَكِ مِلعقةً".

قالت: "نيوت، نيوت، قُل لي الحقيقة".

قال: "أَرَدتُ أن أتمشَّى".

فرَكَت يديها في قلق. قالت: "أوه يا نيوت، أنت تمزح بشأن الفرار من الخدمة هذا".

حاكى نيوت سرينة الشرطة بنعومة، ورفع حاجبيه.

قالت: "من أين؟".

قال: "فورت براج".

قالت: "نورث كارولينا؟".

قال: "هذا صحيح، بالقرب من فاييتفيل، حيث كانت مدرسة سكارليت أوهارا".

قالت: "كيف جئتَ إلى هنا يا نيوت؟".

رفع إبهامه، حرّكه في إيماءة الرُّكّاب المتطفِّلين. قال: "في يومين".

قالت: "أتعرف أُمُّكَ ذلك؟".

قال لها: "لم آتِ لرؤية أمي".

قالت: "جِئتَ لترى مَن؟".

قال: "أنتِ".

قالت: "لماذا أنا؟".

قال: "لأني أحبُّكِ، والآن هلَّا تَمشَّينا؟ "بقَدَمٍ أمام الأخرى، بين الأشجار وفوق الجسور..."".

* * *

صارا الآن يتمشَّيان في غابةٍ تغطِّي أرضَها أوراقُ أشجارٍ بُنِّيَّة.

كاثرين كانت غاضبة، ترتجف، على شفا البكاء. قالت: "نيوت، إن ذلك في غاية الجنون".

قال نيوت: "كيف؟".

قالت: "لقد اخترت أكثر الأوقات جنونًا لتخبرني أنَّكَ تُحبُّني، أنتَ لم تتحدَّث بهذه الطريقة من قبل". توقَّفَت عن المشي.

قال: "لنتابع المشي".

قالــت: "لا، ولا خطــوة أخــرى، لم يكــن عــليَّ القــدوم معــك عــلى الإطــلاق".

قال: "لكنَّكِ فَعَلتِ".

قالـت: "لأُبعِـدَكَ عـن البيـت، إن رآك بعضهـم تدخـل وسـمعوك تقـول لي مـا تقـول، قبـل الزفـاف بأسـبوع...".

قال: "ماذا كانوا يظنُّون؟".

قالت: "كانوا لَيقولون إنَّك مجنون".

قال: "لماذا؟".

سـحبت كاثريـن نَفَسًـا عميقًـا، ثـم شرعـت في إلقـاء خطبـة: "دعنـي أَقُـل كـم يُشرِّفنـي ذلـك الـشيء المجنـون الـذي فعلـت. لا أسـتطيع تصديـق أنـك هـارب مـن الخدمـة العسـكرية فعـلًا، لكـن ربمـا أنـت كذلـك. لا أسـتطيع تصديـق أنَّـك تحبُّنـي فعـلًا، لكـن ربمـا تفعـل، لكـن...".

قال نيوت: "أنا أفعل".

قالـت كاثريـن: "حسـنًا، يُشرِّفنـي ذلـك، وأنـا مولَعـةٌ بـكَ جـدًّا كصديـق يـا نيـوت، مولعـة بـك للغايـة، لكـن ذلـك متأخِّـر جـدًّا". ابتعَـدَت عنـه خطـوة. قالـت: "أنـتَ حتـى لم تُقبِّلنـي قَـطُّ"، ثـم حَمَـت نفسـها بيدهـا، "لا أعنـي أن عليـك أن تفعـل الآن. أعنـي فقـط أن ذلـك كلـه غـير مُتوَقَّـع، ليـس لـديَّ أدنى فكـرة عـن كيـف أَردُّ".

قال: "فقط امشي معي قليلًا، لِنَحظَ بوقتٍ لطيف".

شرعت في المشي مُجدَّدًا.

قالت: "كيف توقَّعتَ أني سأستجيب؟".

قـال: "كيـف لي أن أعلـم مـاذا أتوقَّـع؟ أنـا لم أفعـل شـيئًا مشـابهًا مـن قبـل".

قالت: "أَحَسِبتَني سألقي نفسي بين ذراعَيك؟".

قال: "ربما".

قالت: "آسفة لتخييب أملك".

قال: "لم يَخِب أملي، لم أعتمد على حدوث ذلك، ما نحن فيه لطيفٌ كفاية، التَّمشية ذاتها". توقَّفَت كاثرين مجدَّدًا. قالت: "أتعرف ماذا سيحدث بعد ذلك؟".

قال: "لا".

قالت: "سنتصافح، سنتصافح ونفترق كأصدقاء، هذا ما سيحدث".

أومأ. قال: "حسنًا"، وقال: "تَذَكَّريني من حينٍ لآخر، تذكَّري كم أحببتك".

بلا إرادة منها انفجرت دموع كاثرين. أدارت ظهرها لنيوت، ونظرت تجاه أعمدة الأشجار الممتدَّة إلى ما لا نهاية.

قال نيوت: "ما الذي يعنيه ذلك؟".

قالت كاثرين: "الغضب"، وكوَّرَت قبضتَيْها، "ليس من حقِّك أن...".

قال: "كان عليَّ أن أعرف".

قالت: "لو أحبَبتُك، كنت سأدعك تعرف قبل الآن".

قال: "هل كنتِ ستفعلين؟".

قالت: "نعم". واجهته، نظرت في وجهه، وقد بات وجهها أحمر. قالت: "كنت ستعرف".

قال: "كيف؟".

قالت: "كنتَ سترى ذلك، النساء لسن ماهِراتٍ في إخفاء الحب".

نظر نيوت عن كثب إلى وجه كاثرين حين ذلك. ولذُعرِها أدركت أن ما قالته له، عن أن النساء غير قادرات على إخفاء الحب، كان صحيحًا.

كان نيوت يرى الحب.

وفعل ما تحتَّم عليه فِعلُه: قَبَّلَها.

* * *

قالت عندما تركها نيوت: "إن التَّفاهُم معكَ لجَحيمٌ".

قال نيوت: "أنا؟".

قالت: "لم يكن عليك فعل ذلك".

قال: "لم يعجبك؟".

قالت: "ماذا توقَّعتَ؟ عاطفة محمومة؟".

قال: "قلتُ لك مرارًا، لا أتوقَّع أبدًا ما سيحدث بعد ذلك".

قالت: "نتبادل الوداع".

عبس قليلًا، قال: "حسنًا".

ألقت خطبة أخرى، قالت: "لم أندم على تبادُل القبلات، كان ذلك جميلًا، كان يجب علينا تبادُل القُبلات، فقد كُنَّا مُقرَّبَيْن. سأتذكَّرك دومًا يا نيوت. حَظًّا سعيدًا".

قال: "وأنا أيضًا".

قالت: "شكرًا لكَ يا نيوت".

قال: "ثلاثون يومًا".

قالت: "ماذا؟".

قال: "ثلاثون يوم حبس، هذه تكلفة قُبلَة واحدة".

قالت: "أنا... أنا آسفة، لكني لم أطلب منك الفرار من الخدمة".

قال: "أعلم".

قالـت: "أنـتَ بـكل تأكيـد لا تسـتحقُّ جائـزة بطولـة عـلى فِعـل شيء بهـذه الحماقـة".

قـال نيـوت: "لا شـكَّ أن مـن اللطيـف أن يكـون المـرء بطـلًا، هـل هـنري سـتيوارت تشيسـنز بطلٌ؟".

قالـت كاثريـن: "ربمـا يصبـح كذلـك إن سـنَحَت لـه فرصـة". لاحَظَـت بـلا ارتيـاح أنهـما شرعـا في المـشي مُجـدَّدًا. نسـيا الـوداع.

قال: "أتحبِّينه فعلًا؟".

قالت بحرارة: "أحبُّه بكل تأكيد. لم أكُن لأتزوَّجه إن لم أكن أحبه!".

قال نيوت: "ما الجيِّد فيه؟".

بكـت، توقَّفَـت مُجـدَّدًا، قالـت: "بجديـة، هـل تـدرك إلى أي مـدى كلامـك مُهـين؟ في هـنري الكثـير والكثـير والكثـير مـن الأشـياء الجيـدة، نعـم، هـو كذلـك، والكثـير الكثـير مـن الأشـياء السَّـيِّئة أيضًـا عـلى الأرجـح. لكـن هـذا كلـه ليـس مـن شـأنك. أنـا أحـب هـنري، ولا أرغـب في مناقشـة مُميِّزاتـه معـك!".

قال نيوت: "آسف".

قالت كاثرين: "بجدِّيَّة!".

وقبّلها نيوت مرَّةً أخرى. قَبَّلها لأنها أرادته أن يفعل.

* * *

صارا الآن في بستان ضخم.

قالت كاثرين: "كيف ابتعدنا عن البيت لهذه الدرجة يا نيوت؟".

قال نيوت: "قَدَمٌ أمام الأخرى، بين الأشجار وفوق الجسور...".

قالت: "إنها تتراكم... الخطوات".

دقَّت أجراس برج مدرسة المكفوفين القريبة.

قال نيوت: "مدرسة المكفوفين".

قالـت كاثريـن: "مدرسـة المكفوفـين". هـزَّت رأسـها في حـيرة ناعسـة، قالـت: "يجـب أن أعـود الآن".

قال نيوت: "قولي وداعًا".

قالت كاثرين: "يبدو أنني كلما فعلت، أنال قُبلة".

جلـس نيـوت عـلى عُشـبٍ مجـزوز حديثًـا تحـت شـجرة تفـاح. قـال: "اجلـسي".

قالت: "لا".

قال: "لن ألمسك".

قالت: "لا أُصدِّقُكَ".

جلَسَـت تحـت شـجرة أخـرى، عـلى بُعـد عشريـن قدمًـا منـه. أغلقـت عينيهـا.

قال: "احلمي بهنري ستيوارت تشيسنز".

قالت: "ماذا؟".

قال: "احلمي بزَوجِكِ الرائع المستقبلي".

قالـت: "حسـنًا، سـأفعل". أغلقـت عينَيْهـا أكـثر، ولمحـت مَـن سـيكون زوجهـا".

نيوت تثائب.

كان النَّحـلُ يَطـنُّ حـول الأشـجار، وكاثريـن عـلى وشـك الاستسـلام للنـوم. وعندمـا فتحـت أعينهـا، وجَـدَت أن نيـوت كان نائمًـا بالفعـل.

وبدأ يغطُّ في نعومة.

كاثرين تركت نيوت ينام ساعة، خلالها هامت به من كل قلبها.

اسـتطالت ظـلال أشـجار التفـاح في اتجـاه الـشرق، دَقَّـت أجـراس بـرج مدرسـة المكفوفـين مُجـدَّدًا، وزقـزق طائـر قَرقَـف.

وفي مـكان بعيـد، حـاول مُحـرِّك سـيَّارة أن يقـوم وفشـل، وحـاول وفشـل، ومـات.

نهضت كاثرين من تحت شجرتها، انحنت بجوار نيوت.

قالت: "نيوت؟".

قال: "همم؟". فتح عينَيْه.

قالت: "تأخَّر الوقت".

قال: "مرحبًا كاثرين".

قالت: "مرحبًا نيوت".

قال: "أُحبُّكِ".

قالت: "أعرف".

قال: "فات الأوان".

قالت: "فات الأوان".

نهض، مدَّد أطرافه بتأوُّهٍ. قال: "تمشية لطيفة".

قالت: "أعتقد ذلك".

قال: "نفترق هنا؟".

قالت: "أين ستذهب؟".

قال: "سأركب مُتطفِّلًا إلى المدينة، ثم أُسلِّم نفسي".

قالت: "حَظًّا سعيدًا".

قال: "وأنتِ أيضًا"، ثم قال: "تَزَوجِّيني يا كاثرين".

قالت: "لا".

ابتسم، حدق فيها لِلَحظَةٍ، ثم مشى مبتعدًا بسرعة.

تابعتـه كاثريـن يصغـر أكـثر فأكـثر بينـما يبتعـد في ممـرٍّ مـن الظِّـلال والأشـجار، عرفـت أنـه لـو توقَّـف ودار الآن، لـو نـادى عليهـا، سـتركض إليــه، لا خيـارَ لديهـا.

وتوقَّـف نيـوت بالفِعـل، واسـتدار بالفعـل، وناداهـا بالفعـل. نـادى: "كاثريــن".

ركَضَت إليه، وضَعَت ذراعيها حوله، لم تتفوَّه بحرف.

(1960).

ملف فوستر

أبيـع النصيحـة للأثريـاء. أنـا منـدوبٌ لشركـة استشـارات اسـتثمارية. أعيـش حيـاتي، لكنهـا ليسـت أفضـلَ حيـاةٍ مُمكِنـة، عـلى الأقـل في الوقـت الحـالي. لا أزال في بدايتـي. لأصبـح ملائمًـا للوظيفـة كان عـليَّ شراء معطـفٍ كُحـليٍّ مـن طـراز هامبـورج، وبذلـة رماديـة مزدوجـة الصـدر تليـق بموظَّفٍ بَنـكيٍّ، وربطـة عنـق مُخطَّطـة، ونصـف دسـتة قمصـان بيضـاء، ونصـف دسـتة جـوارب سـوداء وقفـازات رماديـة.

عندمـا أزور عميـلًا، أذهــب بسـيارة أجـرة، أمـشي مصقـولًا نظيفًـا مُنتَصِـبَ القامـة، وكأنِّي أحـرَزتُ لتَـوِّي نـصرًا قاتـلًا في البورصـة، وجئـتُ لهـم فقـط عـلى سـبيل الخدمـة المجتمعيـة لا أكـثر. عندمـا أَصِـلُ، مرتديًـا الصـوف النظيـف وحامـلًا الوثائـق المبهـرة وتحليـلات البورصـة السريـة في المجلَّـدات الفاخـرة، رَدُّ فِعـل العميـل -المثـالي والمعتـاد- يكـون وكأنـه زاره القـسُّ أو الطبيـب. أنـا مَـن أديـر اللقـاء، ويمـضي كلُّ شيء بسَلاسَـةٍ.

أتعامل في الأغلب مع السَّيِّدات العجائز الوديعات اللواتي، بفضل أجسادهن الصلبة كالحديد، وَرِثْنَ حصَّةً لا بأس بها من الأرض. أَمرُق عبر قوائم أصول العملاء، وأنقل إليهم اقتراحات خبرائنا بخصوص كيف تزدهر ملفَّاتهم -أو أكوام ذهبهم- وتتضخَّم. بوسعي الحديث عن عشرات آلاف الدولارات دون غصَّة في حلقي، والنظر إلى قوائم أصول تصل لمئات آلاف الدولارات دون أي ضجَّة تزيد عن صوت "هممممم، أها" حصيف.

وبما أني ليس لي ملف، فوظيفتي هي أشبه بعامل توصيل جائع لمتجر حلوى. لكني لم أشعر بذلك قَطُّ إلَّا عندما طلب مني هربرت فوستر أن ألقي نظرة على أملاكه.

هاتَفَني ذات مساء ليخبرني أن صديقًا رشَّحني له، وليسألني إن كان بوسعي الحضور للكلام عن الشغل. اغتسلت، حلقتُ ذقني، نَفَضتُ الغبار عن حذائي، ارتديت ملابسي، وذهبت بسيارة أجرة. لدى الناس عادة غير حميدة في مجال الأعمال -وربما لدى الناس في العموم- في تقييم بيت الرجل وسيارته وحُلَّته، وتقدير دخله السنوي. كان هربرت فوستر مجرد ستة آلاف دولار في السنة، أو أنا لا أفقه شيئًا. افهمني، ليس لديَّ ما يدعوني للشعور بالسوء تجاه متوسِّطي الدخل، عدا حقيقة أنني لا أتربَّح من ورائهم. شعرت ببعض الحنق لأن فوستر سيضيع وقتي، فلن يكون لديه ما يستثمره بحسب تخميني أكثر من بضع مئات الدولارات. حتى لو قُلنا ألف دولار: لن يصيبني منهم أكثر من دولار أو اثنين على الأكثر.

* * *

على أي حال، ها أنا ذا في بيت آل فوستر البالي على الطراز الكولونيالي لفترة ما بعد الحرب، ذي العليَّة المُوَسَّعة. يبدو أنهم اشتروا عرض متجر الأثاث المحلي لثلاث غرف بمنافض السجائر وصناديقها

ولوحات الحائط، كل ذلك بـ 199.99 دولارًا فقط. يا للجحيم، ها أنا هنا، وعليَّ أيضًا أن أنظر بلا تأفُّف في مشاكله المقرفة.

قلت: "بيتكم جميل يا مستر فوستر. وهل هذه الفاتنة زوجتك؟".

ابتسمت لي امرأة نحيلة ذات وجه شَرِس ابتسامةً خاوية. كانت ترتدي روبًا منزليًّا عليه مشهد لرحلة صيد ثعالب. بدت الصورة مُتداخِلةً مع الغطاء القماشي للكرسي، فكان عليَّ أن أُضيِّق عينيَّ لتمييز شكلها عن الجلبة حولها. قُلتُ: "سعيد بمقابلتك يا مسز فوستر". كانت مُحاطَة بالملابس الداخلية والجوارب التي بحاجة لرَتقِها، وقال هربرت إن اسمها "أَلْمَا"، ما كان منطقيًّا تمامًا.

قلت: "وهذا هو السيد الصغير؟ يا له من فتى صغير مبهج. أعتقد أنه يشبه أباه". مسح الطفل ذو العامين يديه المتَّسِختَين في بنطالي، تَشمَّمه، ثم ذهب إلى البيانو. وضع نفسه عند النهاية العلوية من لوحة المفاتيح، ثم طرق على أعلى نغمة لدقيقة، ثم لدقيقتين، ثم ثلاث.

قالت ألما: "موسيقيٌّ، مثل أبيه".

"أتعزف يا مستر فوستر؟".

قال هربرت: "موسيقى كلاسيكية". ألقيتُ عليه أول نظرة مُتفحِّصة منذ جئت؛ كان متوسِّطَ البنية، ذا وجه دائري نَمِش وأسنان كبيرة ترتبط عندي دائمًا بالمختالين أو الحُكَماء. صَعُب عليَّ تصديق أنه راضٍ بمثل هذه الزوجة العادية، أو أنه مُولَعٌ بالحياة الأُسَريَّة فعلًا مثلما يبدو. ربما كانت نظرة اليأس التي لمحتها في عينه من صنع خيالي.

قال هربرت: "أليس عليك أن تحضري اجتماعك يا عزيزتي؟".

"لقد ألغوه في آخر لحظة".

قلت: "والآن، فيما يخصُّ ملفَّك...".

بدا هربرت منزعجًا. "كيف ذلك؟".

"ملفُّكَ... أصولك".

"آه، نعم، أعتقد أن من الأفضل أن نتحدَّث في غرفة النوم؛ فهي أكثر هدوءًا من هنا".

وضعت ألما عدَّة الحياكة. "أي أصول؟".

قال هربرت: "السَّندات يا عزيزتي، سندات الحكومة".

"لا يا هربرت، أنت لن تصرفهم!".

"لا يا ألما، أنا فقط أردت الحديث بشأنهم".

قلتُ بتردُّد: "أرى ذلك. آه، كم بالضبط مقدار سندات الحكومة؟".

قالت ألما بفخر: "ثلاثمائة وخمسون دولارًا".

قلت: "حسنًا، لا أرى داعيًا للتحدُّث في غرفة النوم. نصيحتي، وأُقدِّمها مجانًا، أن تحتفظ ببيضك في العُشِّ حتى يفقس. والآن، اسمح لي بأن أطلب سيارة أجرة...".

قال هربرت واقفًا أمام باب غرفة النوم: "أرجوك، هناك شيئان آخران أودُّ مناقشتهم".

قالت ألما: "ماذا؟".

قال هربرت بغموض: "أوه، خُطَط استثمار طويلة المدى".

"نحتاج لخطَّة استثمار قصيرة المدى لفاتورة البقَّال الشهر القادم".

قال لي هربرت مُجدَّدًا: "أرجوك".

هَزَزتُ كتِفَيَّ وتَبِعته لغرفة النوم. أغلق الباب خلفي. جلست على حافَّة السرير وتابعته يفتح بابًا صغيرًا على الحائط يغطي

المواسير التي تُغذِّي دورة المياه. مدَّ ذراعه داخل الحائط، نَخَر، ثم انتزع مظروفًا.

قلتُ بلا مبالاة: "أوه، إذن ذلك حيث تحتفظ بالسندات؟ يا لك من حاذق. لم تكن مضطرًا لفِعل ذلك يا مستر فوستر. أنا أعلم كيف تبدو السَّندات الحكومية".

نادى: "ألما".

"نعم يا هربرت؟".

"هلَّا صَنَعتِ لنا بعض القهوة؟"، قلتُ: "أنا لا أشرب القهوة في الليل".

قالت ألما: "تبقَّت قهوة من العشاء".

قلت: "لا أستطيع النوم إن ذُقتُ قهوةً بعد العشاء".

قال هربرت: "نريد قهوة طازجة".

صدر عن مقعدها أنينٌ فيما نهَضَت، ثم بهتت خطواتها المتردِّدة بينما ابتعَدَت إلى المطبخ.

قال هربرت: "هاك" بينما يضع المظروف في حضني، "لا أعرف شيئًا عن عالم الأعمال، وأعتقد أنني بحاجة إلى مساعدة من محترف".

حسنًا، هكذا أعطيت للمسكين رأيًا احترافيًا فيما يخصُّ الثلاثمائة وخمسين دولارًا من السندات الحكومية. "إنها أكثر استثمار متحفِّظ تستطيع أن تقوم به. لا تتَّسِم بالنُّموِّ مثل غيرها من السندات، والعائد ليس عظيمًا، لكنها آمنة للغاية. احتَفِظْ بها بأيٍّ شكل". ونهضتُ. "والآن، لو تسمح لي بأن أطلب سيارة أجرة...".

"أنت لم تنظر فيهم".

تنهَّدتُ، فَكَكتُ الخيط الأحمر الذي يغلق المظروف. لن يتركني إلَّا إذا أبديتُ إعجابي بأشيائه. انزلَقَت إلى حِجري السَّندات وقائمة أصول. تصفَّحتُ السندات بسرعة، ثم قرأتُ قائمة الأصول ببطء.

"ما رأيك؟".

وضعت القائمة على الملاءة الباهتة. ربطت جأشي، قلت: "همممم، آها. هل تمانع أن تخبرني بمصدر الأصول المُدرَجة هنا؟".

"تركهم لي جَدِّي قبل عامين. المحامون القائمون على الأملاك أرسلوا لي هذه القائمة".

"أتعرف كم تساوي هذه الأسهم؟".

"عندما ورثتهم قَيَّمهم أحدُهم لي". وقال لي الرقم، ولدهشتي، بدا خجولًا، بل وحزينًا إلى حدٍّ ما.

"ارتفعَت قيمتهم منذ ذلك الحين".

"إلى أي مدى؟".

"في سوق اليوم، ربما تصل قيمتهم إلى سبعمائة وخمسين ألف دولار يا مستر فوستر. يا سيدي".

لم يتغيَّر تعبير وجهه. أثَّرَت فيه معلوماتي بقدر ما كان سيحدث لو قُلتُ له إن شتاء هذا العام بارد. رفع حاجبيه عندما اقترَبَت خطوات ألما من غرفة المعيشة. "هششش!".

"ألا تعلم؟".

"يا ربي! لا".

بدا وكأنه استغرب حميَّته المفاجئة. "أعني... لم يَحِن الوقت بعد".

قلـتُ هامسًـا: "إن سـمَحتَ لي بأخـذ قائمـة الأصـول تلـك، سـأجعل مكتبنـا في نيويـورك يُجهِّـز لـك تحليـلًا كامـلًا وقائمـة بالتوصيـات. هـل تسـمح لي بمناداتـك بهربـرت يـا سـيدي؟".

* * *

عميـلي، هربـرت فوسـتر، لم يَحـظَ ببذلـة جديـدة منـذ ثـلاث سـنوات، ولم يمتلـك أكـثر مـن حـذاء واحـد في نفـس الوقـت. كانـت تُقلِقُـه أقسـاط سـيارته المسـتَعمَلة، ويـأكل التونـة والجـبن بـدلًا مـن اللحـم؛ لأن اللحـم غـالٍ. زوجتـه كانـت تحيـك لنفسـها ملابِسَـها وملابـس ابنهـم هربـرت جونيـور والسـتائر وأغطيـة الأثـاث، كل ذلـك مـن نفـس القـماش الرخيـص. يقـاسي آل فوسـتر الأمَرَّيْـن عندمـا يختـارون بـين شراء إطـارات جديـدة للسـيارة أو إصـلاح القديمـة مُجـدَّدًا، والتليفزيـون كان شـيئًا هُـم بحاجـة للذهـاب إلى جيرانهـم لمشـاهدته. بحَـزمٍ، كانـوا يعيشـون في إطـار الرَّاتـب الصغـير الـذي يتلقَّـاه هربـرت مقابـل عملـه كمسـؤول دفاتـر في متجـر بقالـة بالجملـة.

يعلـم الـرَّبُّ أن ليـس في تلـك الحيـاة عـارٌ، والتـي هـي أفضل مـن حياتي نفـسي، لكـن معرفـة أن دخـل هربـرت السـنوي بعـد خصـم الضرائـب كان يصـل تقريبًـا إلى عشريـن ألفًـا، جعـل مشـاهدة ذلـك كلـه مؤلمًا.

جعلـت مُحلِّـلي الأصـول عندنـا ينظـرون في أمـلاك فوسـتر، ويقدِّمـون تقريـرًا عـن احتـمال نُمـوِّ الأسـهم والأربـاح المتوقَّعـة، وتأثير الحرب والسـلام والتضخُّـم والانكـماش ومـا إلى ذلـك. بلـغ التقريـر عشريـن صفحـة، رقـم قيـاسي بالنسـبة لـكل عمـلائي. عـادة تُغلَّـف التقاريـر بغـلاف كرتـونيٍّ، لكـن تقريـر هربـرت غُلِّـف بالجلـد الأحمـر.

وصلنـي التقريـر في سـكني بعـد ظهـر يـوم السـبت، هاتَفـتُ هربـرت لأسـأله إن كان بوسـعي أن أوصلـه لـه، فعنـدي لـه أخبـار مثـيرة. تقييمـي

المُرتَجَل لأملاكه كان أقلَّ من الحقيقة، ومَلفُّه في ذلك اليوم كان أقربَ لثمانمائة وخمسين ألفًا.

قلت: "معي التحليلات والتوصيات، وتبدو الأمور جيدة يا مستر فوستر، جيِّدة جدًّا. تحتاج فقط لبعض التنويع هنا وهناك، وبعض التركيز على النمو، لكن...".

قال: "افعَلْ ما يجب فعله".

"متى سيكون بوسعنا التحدُّث؟ إنها أمورٌ يجب مناقشتها معًا بالتأكيد. الليلة موعد مناسب بالنسبة لي".

"أنا أعمل الليلة".

"وقت إضافي في متجر الجملة؟".

"شغل آخر، في مطعم. أعمل فيه ليالي الجمعة والسبت والأحد".

جَفلتُ. دَخلُ هذا الرجل اليومي من أصوله سبعمائة وخمسون دولارًا، ومع ذلك يعمل ثلاث ليالٍ في الأسبوع لتسيير أموره. "الاثنين؟".

"أعزف الأرغن مع تدريبات الكورال في الكنسية".

"الثلاثاء؟".

"أتطوَّع في تدريبات فريق المطافئ".

"الأربعاء؟".

"أعزف البيانو لموسيقى الفولك بالكنيسة".

"الخميس؟".

"أشاهد الأفلام مع ألما".

"إذن متى؟".

"اذهب وافعَلْ ما يجب فِعلُه".

"ألا تَوَدُّ أن تكون صاحِبَ قَولٍ فيما أفعل؟".

"هل أنا مضطرٌّ؟".

"سأشعر أفضل إن كُنتَ كذلك".

"إذن ظهر الثلاثاء، ساعة الغداء".

"يناسبني ذلك. ربما عليك أن تلقي نظرة جيدة على التقرير قبلها، لتُجهِّز أسئلتك".

بدا منزعجًا. "حسنًا حسنًا. سأكون هنا الليلة حتى الساعة التاسعة، مُرَّ عليَّ قبلها".

"شيء آخر يا هربرت"، احتَفَظتُ بالمفاجأة للنهاية، "لقد قَدَّرتَ أصولك بأقل من الحقيقة بكثير، إنهم يساوون الآن ما يقرب من ثمانمائة وخمسين ألف دولار".

"هممم".

"قلتُ إنَّك أغنى ممَّا حَسبتَ بحوالي مائة ألف دولار".

"آها، نعم، حسنًا. اذهَبْ وافعل ما يجب فعله".

"حسنًا يا سيدي".

ومات التليفون.

* * *

أخَّرتني أعمالٌ أخرى، ووصَلتُ بيت آل فوستر في العاشرة إلا ربع. كان هربرت قد ذهب، وأملا مَن فتحت الباب. ولدهشتي، سألتني عن التقرير، الذي كنتُ أخبِّئه تحت معطفي.

قالت: "قال هربرت إني لا يُفتَرض بي أن أنظر فيه؛ لذا أنتَ لستَ بحاجة للقلق من استراقي النظر".

قلتُ بحَذَرٍ: "هربرت هو مَن أخبرك بذلك؟".

"نعم. قال لي إنها تقارير سرية عن أسهم تريد أن تبيعه إيَّاها".

"آها، حسنًا، إذا قال بأن أتركها معك، فها هي".

"قال لي إنَّه اضطرَّ لأن يَعِدَكَ بألَّا يترك أيَّ شخص ينظر فيها".

"هممِ؟ آه، صحيح، آسف، إنها سياسة الشركة".

كانت تحيط بيها هالة عدائية.

"سأُخبِرُك بشيء دون الحاجة للنظر في أي تقرير، هربرت لن يصرف أي سندات ليشتري أيَّ أسهُم بها".

"أنا آخر شخص قد ينصح بهذا يا مسز فوستر".

"إذن لماذا تطارده؟".

"قد يكون عميلًا مناسبًا في وقتٍ لاحق".

نظرتُ إلى يديَّ، ولاحظت أنهما مبقعتان بالحبر من مشوار سابق. "أتساءل إن كان من المسموح لي أن أغتسل؟".

بتردُّد سمَحَت لي بالدخول، تارِكَةً بيني وبينها مسافة بالقدر الذي يسمح به تخطيط الدور الأرضي المتواضع.

اغتسَلتُ، وفكَّرتُ في قائمة أصول هربرت المنتزعة من بين ألواح الجصِّ في الحائط. هذه الأصول تعني تقضية الشتاء في فلوريدا، أطباق الفيليه مينيون وكؤوس البراندي المعتق اثني عشر عامًا، سيارات چاجوار، ملابس داخلية حريرية، أحذية صناعة يدوية، رحلة حول العالم، ... كل ما يخطر على البال؛ بوسع هربرت الحصول على ذلك كُلِّه. تنهَّدتُ بعمق. قطعة الصابون في وعاء صابون آل فوستر كانت كالِحةً مُنقَّطة، كانت دستة من شرائح الصابون المعجونة في بعضها لتصنع قالبًا جديدًا.

شـكَرتُ أملـا وتجهَّـزتُ للذهـاب. في طريقـي للخـروج توقَّفـتُ عنـد الـرف لأنظـر إلى صـورة فوتوغرافيـة صغـيرة ملوَّنـة. في محاولـة واهنـة لبـذل مجهـود علاقـات عامَّـة قُلـتُ: "صـورة لطيفـة لـك، أحبُّهـا".

"يقول الجميع ذلك، لكنها ليست لي، بل لأم هربرت".

"تشـابُهٌ مُدهِـش"، وكان كذلـك بالفعـل. تـزوَّج هربـرت فتـاةً تشـبه تلـك التـي تزوَّجهـا بابـا العزيـز مـن قبـل. "وتلـك صـورة لأبيـه؟".

"بـل لأبي، لا نريـد أي صـورة لأبيـه". بـدا ذلـك مثـل موضـوع حسَّـاس قـد يـأتي بمعلومـات مفيـدة.

"هربرت شخص رائع، لا بُدَّ أن أباه كان رائعًا أيضًا، أليس كذلك؟".

"كان رائعًـا لدرجـة أنـه هجـر زوجتـه وابنـه. سـيكون مـن الـذَّكاء ألَّا تَذكُـرَه أمـام هربـرت".

"آسف. إذن كل شيء طيِّب في هربرت وَرِثَه عن أمه؟".

قالـت بتجهُّـم: "كانـت قِدِّيسـة. علَّمَتـه أن يكـون مُهذَّبًـا محترمًـا يخـاف الرب".

"أكانت موسيقيَّةً كذلك؟".

"أمَّـا الموسـيقى فورثهـا عـن أبيـه. لكـن مـا يفعلـه بهـا مختلـف تمامًـا. ذوقـه في الموسـيقى مثـل أمـه، كلاسـيكي".

قلت: "تخميني أن أباه كان أَميَلَ للچاز؟".

"كان يُفضِّـل لعـب البيانـو في الحانـات، واستنشـاق الدخـان وشرب الچِـن، عـن زوجتـه وابنـه وبيتـه ووظيفتـه. قالـت لـه أم هربـرت في النهايـة إن عليـه أن يختـار إحـدى حيـاةٍ مـن الاثنتـين".

أومـأتُ مُتعاطِفًـا. ربمـا لهـذا ينظـر هربـرت لثروتـه كـشيء قَـذِر مُقـرِف، بمـا أنهـا جـاءت مـن ناحيـة أسرة أبيـه. "ومـاذا عـن جَـدِّ هربـرت، الـذي مـات قبـل عامـين...؟".

"ظـلَّ يعيـل هربـرت وأُمَّـه بعدمـا هجرهـم ابنـه. كان هربـرت يَعبُـده"، هـزَّت رأسـها في حـزن، "مـات مُعدَمًـا".

"شيء مُؤسِف".

"كـم تمنَّيـتُ أن يـترك لنـا شـيئًا؛ كيـلا يضطـرَّ هربـرت للعمـل في الإجـازات الأسـبوعية".

* * *

كنَّـا نحـاول الحديـث برغـم أصـوات الصليـل والرنـين والتهشُّـم القادمـة مـن مطبـخ الكافيتريـا حيـث يـأكل هربـرت كل يـوم. الغـداء كان عـلى حسـابي -أو عـلى حسـاب نفقـات الشـغل- ودفعـت مقابِلَـه سـبعةً وثمانـين سـنتًا. قلـت: "الآن يـا هربـرت، قبـل أن نتابـع، تحتـاج لأن تُقـرِّر مـاذا تريـد بالضبـط مـن اسـتثماراتك: عائـد أم نمـو؟". كان ذلـك قَـولٌ كليشـيه في الاستشـارات الماليـة. الـرب وحـده يعلـم مـا الـذي يريـده مـن أصولـه. لم يَبـدُ أنـه يريـد مـا يريـده الجميـع عـداه: المـال.

قـال بـلا تركيـز: "أيًّـا كان مـا تـراه". كان منزعجًـا مـن شيء مـا، ولم يُولِنـي كثـيراً مـن الانتبـاه.

"هربـرت، انظـر، عليـكَ أن تواجـه الأمـر. أنـت رجـلٌ ثـريٌّ، يجـب عليك أن تُركِّـز في الاسـتفادة مـمَّا تملـك لأقـصى درجـة".

"لهـذا طلبتـك، أريـدك أنـتَ لتُركِّـز. أريـدك أن تديـر لي الأمـور؛ فـلا أضطـرَّ لإزعـاج نفسي بالودائـع والـوُكَلاء والضرائـب، لا تُتعِبنـي بـكُلِّ ذلك".

"يودِعُ محاموك الأرباح في البنوك، أليس كذلك؟".

"أغلبها. أخذت ثلاثين دولارًا للكريسماس، وقدَّمتُ للكنيسة مائة".

"إذن كم رصيدك؟".

قدَّم لي دفتر ودائعه.

قلتُ: "ليس سيئًا". برغم تبذيره في الكريسماس وسخائه مع الكنيسة، تَمكَّن من ادِّخار 50,227.33 دولار. "أتسمح لي أن أسأل كيف يمكن أن يكتئب شخصٌ برصيد مثل هذا؟".

"تلقَّيتُ توبيخًا لاذعًا في الشُّغل مُجدَّدًا".

اقترَحتُ: "اشترِ المكان وأَحرِقه".

"أأقدِر على فعل ذلك فعلًا؟". بَرَقَت في عينه نظرة جامحة، ثم اختفت.

"هربرت، أنتَ قادر على فعل كل ما يتمنَّاه قلبك".

"أوه، أعتقد ذلك، يعتمد كلُّ شيء على الطريقة التي أنظر بها إليه".

انحنَيتُ للأمام، "كيف تنظر إلى الأمر يا هربرت؟".

"أعتقد أن على كلِّ رَجُلٍ، ليستحقَّ احترامه لنفسه، أن يكسب ما يعيش عليه من عمله".

"لكن يا هربرت...".

"لديَّ زوجة وطفل رائعان، وبيت لطيف لهم، وسيارة. كسبتُ كُلَّ قرش بنفسي على طول الطريق، وأتحمَّل كامل مسؤوليات حياتي. أفتخر بأني صِرتُ كلَّ ما أرادتني أمي أن أكون، ولستُ مثل أبي في شيء".

"أتسمح لي بأن أسألك كيف كان والدك؟".

"لا أحبُّ الحديث عنه. لم يَعنِ له البيت والأسرة شيئًا. حُبُّه الحقيقي كانت لموسيقاه المقرفة وألحان الهونكي- تونكي، وما شابه من قمامة".

"أتظنُّه كان موسيقيًّا جيِّدًا؟".

"جيِّد؟"، لوهلة شعرت بحماس في صوته، واشتدَّ كما لو أنه على وشك قول شيء مهم. ثم ارتخى مرة أخرى. كرَّر بصوت محايد هذه المرة: "جيد؟، نعم، بطريقة فَجَّة، أعتقد أنه كان مقبولًا... جيِّد تقنيًّا بمعنى آخر".

"وهذا ما ورثته منه؟".

"ربما ورثت يديه ومعصَمَيْه، ليساعدني الرب لو أصابني منه أكثر من هذا".

"لديك حُبُّه للموسيقى أيضًا".

قال بقوة أكثر من اللازم: "أحب الموسيقى، لكن لن أتركها أبدًا تصير كالمخدِّرات بالنسبة لي".

"آها، حسنًا..".

"أبدًا".

"أستميحُكَ العُذرَ؟".

اتَّسَعت عيناه: "قلت إنني لن أترك الموسيقى أبدًا تصير كالمخدرات بالنسبة لي. إنها مُهمَّة عندي، لكني أنا المتحكِّم فيها، ولن يكون العكس أبدًا".

* * *

بدا من الجَليِّ أن ذلك موضوع مؤذٍ، فعُدتُ للحديث عن الشؤون المالية. "نعم، بالطبع، والآن لِنَعُد إلى ملفِّك مُجدَّدًا: في ماذا تودُّ أن تستخدم أصولك؟".

"احتَفِظْ ببعضه لكِبَر سِنِّي أنا وأمِّا، واترُكْ الباقي للولد".

"أقلُّ ما يمكنك فعله، هو أخذ القليل ممَّا تحت البلاطة؛ كيلا تضطرَّ للعمل في العطلات الأسبوعية".

نهض فجأة. "انظر، أريدك أن تُدير أصولي لا حياتي. إذا لم تكن قادرًا على إدارة هذا دون ذاك، سأجد غيرك يفعل".

"أرجوك يا هربرت، يا مستر فوستر. آسف يا سيدي. أنا فقط كنتُ أحاول استيعاب الصورة كاملة لأخطِّط كما ينبغي".

جلس بوجهٍ مُحمرٍّ. "إذن احترم قناعاتي. أَودُّ خوض طريقي بنفسي. إن كان عليَّ العمل في وظيفة ثانية لتسيير أموري، فذلك عبءٌ أتحمَّله وحدي".

"طبعًا طبعًا، بالتأكيد. وأنت مُحِقٌّ تمامًا يا هربرت. وأحترمك لذلك"، وكنت مقتنعًا أنه ينتمي لمستشفى المجانين لذلك، "اترُك لي كل شيء من الآن فصاعدًا. سأستثمر هذه الأرباح وأدير اللعبة كلها من أجلك". وفيما كنتُ محتارًا بشأن هربرت، لمحتُ شقراء عابِرةً، وقال هربرت شيئًا لم ألقطه.

"ماذا كان ذلك يا هربرت؟".

"قلت "فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ الْيُمْنَى تُعْثِرُكَ فَاقْلَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ""[1].

ضحكتُ، ثم بَتَرتُ الضحكة بسرعة. كان هربرت جادًّا تمامًا. "حسنًا، قريبًا ستكون قد دفَعتَ ثمن السيارة بالكامل، عندها تستطيع أن تأخذ راحتك المستحقَّة بامتياز في نهايات الأسابيع. وسيكون لديك حينها شيءٌ لتفخر به، أليس كذلك؟ فقد استحققت السيارة كلها بعرق جبينك، من المحرِّك إلى الشكمان".

"لا يزال أمامي قسطٌ".

---

(1) (إنجيل متى 5: 29)

"ثم وداعًا للمطعم".

"لا تزال هناك هدية عيد ميلاد ألما، سأشتري لها تليفزيونًا".

"ستستحقُّ هذا أيضًا، أليس كذلك؟".

"ألا ترى كم ستعني الهدية إن فعلت؟".

"بالطَّبع يا سيدي، وستمنحها أيضًا شيئًا يشغلها في إجازات نهاية الأسبوع أيضًا".

"إن كان عليَّ الشُّغل في العطلات لثمانية وعشرين شهرًا قادمين، فالرَّبُّ يعلم أن ذلك أقلُّ مِمَّا تستحقُّ أن أفعله لأجلها".

لو ظلَّت البورصة تفعل ما تفعله في السنوات الثلاث المنقضية، فهربرت سيكون مليونيراً بحلول الوقت الذي يدفع فيه آخر أقساط هدية عيد ميلاد ألما. "حسنًا".

قال هربرت بصدق: "أحبُّ أسرتي".

"أنا متأكِّد أنك تفعل".

"ولن أتخلَّى عن حياتي تلك مقابل أي شيء".

قلتُ: "بوسعي بلا شكٍّ رؤية السبب". وأتاني انطباع أنه كان يجادلني، وأنه كان من المهم له أن أقتنع.

"عندما أفكِّر فيما كان عليه أبي، ثم أرى الحياة التي صنعتها لنفسي، تُخامِرُني نشوة هي الأعظم من كل ما عداها في رأيي".

فكَّرتُ: نشوة صغيرة للغاية تتأهَّل لموقع الأعظم في رأي هربرت. "كم أحسدك، لا بُدَّ أنك راضٍ".

كرَّر بحزم: "راضٍ... نعم، نعم".

* * *

بـدأت شركتـي في إدارة ملـفِّ هربـرت بتحويـل بعـض الأصـول البطيئـة إلى أخـرى أكـثر إدرارًا للربـح، وباسـتثمار الأربـاح المتراكمـة، وبتوزيـع أصوله كي يصبـح في حـال أفضـل لتحمُّـل أي تَبـدُّل في المنـاخ الاقتصـادي، وبجعـل ثروتـه في المجمـل في شـكل أفضـل. لـو وضعنـا القيمـة الماليـة جانبًا، سـنجد في الملـف السـليم قيمـةً جَماليَّـة، فمـن الإبـداع تجميـعُ مَلـفٍّ كـما ينبغـي، بموضوعـات متعـدِّدة تـتراوح بـين الثقيلـة الراسـخة كالصناعـة والسِّـكَك الحديديـة والمرافـق، وأخـرى أخـف وأنشـط كالإليكترونيـات والأطعمـة المجمَّـدة والأدويـة السـحرية، والبـترول والغـاز والطـيران، وغيرهـا الكثـير مـن عنـاصر المضاربـة. بـات ملـفُّ هربـرت عَملَنـا الفنـيَّ الأعظـم. كنـت منتشـيًا وفخـورًا بمـا فعلتـه شركتنـا، وعـدم قـدرتي عـلى التباهـي بذلـك، حتـى لـه، كان محبطًـا.

وكان ذلـك يفـوق قـدرتي عـلى الاحتـمال؛ فقـرَّرتُ هَندسَـةَ مُصادَفَـةٍ: سـأعرف أي مطعـم يعمـل فيـه هربـرت، وأزوره مثـل أي شـخص عـاديٍّ لأتنـاول الطعـام، وسـيتصادف أن يكـون معـي تقريـرٌ عـن ملفِّـه الجديـد.

هاتَفـتُ ألمـا، وأخبرتنـي باسـم المـكان، وهـو مـكان لم أسـمع بـه قـطُّ. لم يـود هربـرت التحـدُّث عـن ذاك المـكان، فخمَّـنـتُ أنـه مـكان سـيِّئ إلى حـدٍّ مـا، مثلـما قـال: عـبء يتحمَّلـه وحـده.

وكان أسـوأ مـمَّا تَوقَّعـتُ: فـظٌّ ومُقـرِف ومعتـم ومزعـج. يـا لـه مـن مـكان ذلـك الـذي اختـار هربـرت ليقـضي فيـه كَفَّـارَةَ أبيـه الضـال، أو ليُعـبِّر عـن امتنانـه لزوجتـه، أو ليحافـظ عـلى احترامـه لنفسـه باسـتحقاق كل مـا يكسـبه، أو ليفعـل أيًّـا كان مـا يفعلـه هنـا.

شَـقَقتُ طريقـي بـين نسـاءٍ مُمـلَّات الشـكل، وأخريـات مـن النـوع الـذي تجـده في حلبـات السـباق مُتَّجِهًـا إلى البـار. كان عـليَّ أن أصرخ ليسـمعني السـاقي. عندمـا وصلـتُ لـه، صرخ مُجيبًـا إنـه لم يسـمع بـأي هربـرت فوسـتر. إذن فهربـرت كان عامِـلًا، شـأنه أقـلُّ مـا يمكـن في هـذه

المؤسسة. على الأرجح هو يفعل شيئًا مُقرِفًا ما في المطبخ أو في القبو. وهو المتوقَّع منه.

في المطبخ كانت ثمَّة حيزبون تصنع هامبرجر مريب الشكل، وتتجرَّع الجَعَّة.

"أبحث عن هربرت فوستر".

"لا يوجد أي هربرت فوستر لعين هنا".

"في القبو؟".

"لا يوجد أي قبوٍ لعين".

"هل سَمِعتِ قَطُّ بهربرت فوستر؟".

"لم أسمع بأي هربرت فوستر لعين".

"شكرًا".

جلست في كابينة للنظر في الأمر. يبدو أن هربرت اختار المكان من دليل الهاتف وأخبر ألما أنه حيث يقضي أمسيات عطلة نهاية الأسبوع. بشكلٍ ما، جعلني هذا أشعر أفضل، فيبدو الآن أن هربرت ربما لديه أسباب أفضل من التي أعطاها لي لترك ثمانمائة ألف دولار تتعفَّن. تذكَّرتُ أن كل مرة ذكرتُ فيها تَخلِّيه عن وظيفة عطلات الأسبوع، كان ردُّ فِعله أشبهَ برَجُلٍ رأى طبيب الأسنان يُجهِّز مِثقابَه. فهمت الآن: اللحظة التي ستعرف فيها ألما أنه غني، ستكون اللحظة التي سيخسر فيها عُذرَ رحيله عنها في إجازات نهاية الأسبوع.

لكن ما الذي يساوي أكثر من ثمانمائة وخمسين ألف دولار عند هربرت؟ مُخدِّرات؟ نساء؟ عربدة؟ تنهَّدتُ، واعترفتُ أني أخادع نفسي، وأني لم أقترب من الإجابة أكثر ممَّا كنتُ من قبل. ليس الفساد الأخلاقي بالشيء الذي يُفسِّر تَصرُّفات هربرت. أيًّا كان ما يفعله، فلا شكَّ أنه لغرض نبيل. فقد أحسَنَت أُمُّه تنشئته، والعار من سقطات

أبيه يغمره، حتى إنني مُتيقِّن أنه لا يستطيع سلوك أيِّ مَسلَكٍ إلَّا الصالح. توقَّفتُ عن التفكير وطلبت سيارة أجرة.

ثم من بين الزحام، انبثق هربرت فوستر، شاحبًا مُطارَدًا. على مُحيَّاه تعبيرٌ رافضٌ، تعبير قِدِّيس في بابل. كان مُتيبِّسَ الرقبة بشكل غريب، واحتفظ بذراعيه ملتصقتين بجانبيه في محاولة جليَّةٍ لتجَنُّب الاحتكاك بأي شخص أو تجنُّب النظرات التي تقع عليه. لم يكن ثمة شكٌّ في حقيقة أن المكان كان بالنسبة له جحيمًا مُخزيًا.

نادَيتُه، لكنه لم يُعِرني انتباهًا. لم يكن هناك أي تواصُل معه. كان هربرت مستغرقًا في بالكامل في حالة من "لا-أرى-شرًّا، لا-أسمع-شرًّا، لا-أتكلم-شرًّا".

أفسح المتزاحمون في الخلف له طريقًا، وتوقَّعتُ أن أراه يتَّجِه لرُكنٍ مُظلِم ويلتقط مقشَّةً أو ممسحة. غير أن النور التمع حول النهاية البعيدة من الممرِّ الذي صنعه الناس له، وتلألأ فيه بيانو أبيض صغير مثل جوهرة. وضع الساقي مشروبًا على البيانو، وعاد إلى مكانه.

مسح الغبار عن مقعد البيانو بمنديله، وجلس عليه برفق. أخذ سيجارةً من جيب صدره وأشعلها. ثم بدأت السيجارة في التساقط ببطء عن شفتيه، وفيما هي تفعل كان هربرت ينحني على لوحة المفاتيح بعيون تضيق كما لو أنه يُركِّز على شيء جميل في أفق بعيد.

على حين غرَّة، اختفى هربرت فوستر، وحلَّ مَحلَّه غريبٌ مُتحمِّس، بأيدٍ تتَّخِذ هيئة المخالب. وفجأة ضرب المفاتيح، وتزلزل الهواء بزَوبَعةٍ من الچاز المُبتَذَل السافل شديد الجمال، مثل إعصارٍ صاخب هائج قادم من العشرينيات.

* * *

في نهايــة تلــك الليلــة، ألقيــتُ نظــرةً عــلى تُحفَتــي الفنيــة، ملــف هربــرت فوســتر، المعــروف هنــا باســم "هاريــس الملتهــب". لم أُزعِــج هاريس الملتهــب بــه أو بي.

بعــد أســبوع أو مــا يقــارب، ستُثمِرُ إحــدى شركاتــه للحديــد والصلــب فاكِهــةً غَضَّــة. وثلاثــة مــن حصصــه في البــترول ســتدفع أرباحًــا زائــدة. شركــة الآلات الزراعيــة التــي يملــك منهــا خمســة آلاف ســهم ســتمنحه ثــلاث دولارات عــلى كل ســهم.

بفضــلي وبفضــل شركتــي وبفضــل اقتصــادٍ في كامــل ازدهــاره؛ أصبــح هربــرت أغنــى ببضــع آلاف مــن الــدولارات مــمَّا كان قبــل شــهر. كان مــن حقــي الشــعور بالفخــر، لكــن انتصــاري -باســتثناء العمولــة- كان مُــرًّا كالعلقــم.

ليــس بوســع أي شــخص عمــل أي شيء لهربــرت، فهربــرت يمتلــك بالفعل كل مــا أراد. امتلــك ذلــك قبــل المــيراث وقبــل تطفُّــلي عليــه بكثــير. كان لديــه الاحــترام الــذي وضعتــه أُمُّــه عــلى عاتقــه، ولكــن برغــم قيمــة ذلــك التــي لا تُقــدَّر بثمــن، لم يكــن عائــده كبــيراً كفايــة ليمــضي بــه في الحيــاة. فلــم يَعُــد لديــه خيــار إلَّا أن -باســم زوجتــه وابنــه وبيتــه المُقدَّسَــيْن- يلعــب البيانــو في الحانــة ويستنشــق الدخــان ويــشرب الجِــن، أن يصبــح هاريــس الملتهــب، ابــنَ أبيــه، ثــلاثَ ليــالٍ مــن كل ســبعٍ.

(1951)

الآنسة فتنة

تَدهـوَرَت البيوريتانيَّـةُ إلى حـدٍّ أن حتـى أكـبر العوانـس لم تفكِّـر في وضـع سـوزانا عـلى كـرسي الإغـراق[1]، ولا حتـى شـك أكـبر الفلاحـين أن جـمال سـوزانا الشـيطاني جعـل ضَرعَ بقرتـه يجـفُّ.

سـوزانا كانـت مُمثِّلـةَ أدوارٍ ثانويـة في المـسرح الصيفـي بالقـرب مـن القريـة، تسـتأجر الغرفـة فـوق مبنـى المطافـئ. كانـت جـزءًا مـن حيـاة القريـة طيلـة الصيـف، لكـنَّ القرويِّـين لم يعتـادوا عليهـا قَـطُّ. ظلَّـت عـلى الـدوام مثـيرةً للرغبـة والارتبـاك، مثـل سـيارة إطفـاء مـن مدينـة كبـيرة.

شَـعرُ سـوزانا الرِّيـشي وعيونهـا السـاحرة كانـوا بسـواد منتصـف الليـل. بشرتهـا كانـت بلـون الكريمـة، وردفاهـا كالقيثـارة، وصدرهـا جعـل الرِّجـالَ

(1) كـرسي الإغـراق ducking stool: كـرسي مُعلَّـق في رافعـة يُسـتَخدَم لغمـر المربـوط عليـه في المـاء ورفعـه مـرة أخـرى. وكان يُسـتَخدَم كأداة تعذيـب في انجلـترا العصـور الوسـطى، للنسـاء العاصيـات والسَّـاحرات. [المترجم]

يحلمـون بالسـلام والوَفـرَة إلى أبـد الآبديـن. ارتـدت أقراطًـا ذهبيـة جامحـة في آذانهـا الورديـة، وحـول كاحليهـا ارتـدت سلاسـل ذات أجـراس صغـيرة.

كانـت تمـشي حافيـةً وتنـام حتـى الظُّهـر كل يـوم. وفيـما يقـترب الظُّهـر، كان القرويُّـون في الشـارع الرئيـسي يـزدادون اضطرابًـا مثـل كلـب بيجـل عنـد اقـتراب عاصفـة رعديَّـة.

في الظُّهـر، كانـت تظهـر في شرفـة مدخـل غرفتهـا، وتتمطَّـى بوهـن، وتصـبُّ اللبن في طبـقٍ لِقطَّتهـا السـوداء، وتُقبِّـل القطَّـة وتداعـب شَـعرَها، وتضـع أقراطهـا، وتُحكِـم غلـق الغرفـة، وتضـع المفتـاح في صدرهـا.

ثـم، حافيـة القدمـين، تبـدأ مشـيتها المهيبـة المتموِّجـة المُهيِّجـة الرَّنَّانـة، نازلـة الـدَّرَج وعابـرة متجـر الخمـور ووكالـة التأمينـات ومكتـب السمسـار والمطعـم ومقـر الفيلـق الأمريـكي والكنيسـة، إلى الصيدليـة المزدحمـة، حيـث تلتقـط جرائـد نيويـورك.

بـدت وكأنهـا تومـئ للعـالم كلـه بطريقـة ملكيَّـة باهتـة مـا، لكـن الوحيـد الـذي كانـت تتحـدَّث معـه خـلال تمشـيتها اليوميـة هـو بـيرس هينـكلي، الصيـدلي ذو الأعـوام الاثنـان والسـبعين.

على الدوام كان العجوز جاهزًا لها بالجرائد.

فتقـول: "شـكرًا لـك يـا مسـتر هنـكلي. أنـت مـلاك"، وتفتـح جريـدة عشـوائيًّا، "والآن دعنـا نَـرَ مـاذا يحـدث في الحضـارة هنـاك". بينـما يشـاهدها العجـوز، مُبَلبَـلًا بعطرهـا، تضحـك سـوزانا أو تشـهق أو تعبـس عـلى أشـياء في الجريـدة، أشـياء لا توضِّحهـا أبـدًا.

ثـم تأخـذ الجرائـد، وتعود إلى عُشِّـها فـوق المطافـئ. تتوقَّـف في الشرفة، تـدبُّ يدهـا في صدرهـا، تسـتخرج المفتـاح، تفتـح البـاب، تلتقـط القطـة السـوداء، تُقبِّلهـا مُجـدَّدًا، وتختفـي في الداخـل.

مسـابقة الجـمال ذات المتسـابقة الوحيـدة تلـك كانـت ذات مراسـم ثابتـة حتـى ذلـك اليـوم بالقـرب مـن نهايـة الصيـف، عندمـا شـقَّ هـواءَ الصيدليـة صريـرٌ قـاسٍ طويـلٌ مـن مفصَّـلات الكـرسي الـدَّوَّار الطويـل الصَّدِئَـة.

قطـع الصَّريـرُ حديـثَ سـوزانا عـن كيـف أن مسـتر هنـكلي مـلاكٌ. جعـل الصريـرُ الوجـوهَ ترتعـش والأسـنان تَـئِنُّ. نظـرت سـوزانا إلى مصـدره بتسـامُح؛ لتغفـر لصاحبـه، ووجَـدَت أن صاحـب الصريـر ليـس شـخصًا تتسـامح معـه.

كان مصـدر الصريـر كـرسي العرِّيـف نورمـان فولـر عنـد ماكينـة المشروبـات الغازيـة، الـذي عـاد للوطـن في الليلـة السـابقة بعـد ثمانيـة عـشر شـهرًا مـن الكآبـة في كوريـا. كانـت ثمانيـة عـشر شـهرًا بـلا حـرب، لكنهـا كانـت بـلا سـعادة أيضًـا. دار فولـر بمقعـده ببـطء، لينظـر إلى سـوزانا بسـخط. وعندمـا سـكت الصَّريـر، أمسـت الصيدليـة غارِقـةً في صمـت المـوت.

كـسر فولـر سـحر الصيـف عـلى البحـر، وذكـر كل مَـن في الصيدليـة بالعواطـف المظلمـة المبهمـة التـي هـي في الأغلـب المحـرِّكات الرئيسـية للحيـاة.

قـد يكـون أخًـا جـاء لينقـذ أختـه الحمقـاء مـن حيـاة البغـاء، أو زوجًـا غاضِبًـا جـاء إلى الحانـة ليحمـل زوجتـه بسـطوة السَّـوط إلى حيـث تنتمـي، مـع طفلهـا. الحقيقـة كانـت أن العريـف فولـر لم تسـبق لـه رؤيـة سـوزانا مـن قبـل.

لم يقصـد بشـكل واعٍ أن يثـير مشـهدًا. لم يعلـم، بشـكلٍ واعٍ، أن الكرسي سـيصرُّ. أراد لسـخطه أن يكـون متحفِّظًـا، ألَّا يكـون أكـثر مـن تفصيلـة صغـيرة في خلفيـة مسـابقة جـمال سـوزانا، تفصيلـة لا يلاحظهـا إلا واحـدٌ أو اثنـان مـن حُكَـماء الكوميديـا البشريـة.

لكـن الصريـر جعـل مـن سـخطه مركـز النظـام الشـمسي لـكلّ مَـن في الصيدليـة، خاصـة لسـوزانا. توقَّـف الوقـت، ولـن يتابـع المُـضيّ حتـى يفسِّر فولـر التعبـير المرتسـم عـلى مُحيَّـاه اليانـكي الجرانيتـي.

شـعر فولـر ببشرتـه تتوهَّـج مثـل النحـاس السـاخن. صـار يتأمَّـل قـدره، القـدر الـذي وضعـه فجـأة أمـام جمهـور، وفي موقـف لديـه الكثـير ليقولـه عنه .

شَـعَرَ بشـفتَيْه تتحـرَّكان، وسـمع الكلـمات تخـرج منهـا. قـال لسـوزانا: "مَـن تحسـبين نفسـك؟".

قالـت سـوزانا: "أسـتمحيكَ العُـذر؟"، واحتضَنَـت جرائدهـا كأنهـا تسـتمدُّ منهـا الحمايـة.

قـال فولـر: "رأيتُـكِ تمشـين في الشـارع وكأنَّكِ موكبُ السـيرك، وتسـاءَلتُ، مَن تحسـبين نفسَـكِ؟".

احمرَّت وجنتا سوزانا ببهاء. قالت: "أنا... أنا مُمثِّلة".

قـال فولـر: "بوسـعك قـول ذلـك مجـدَّدًا. أعظـم ممثِّـلات العـالم هُـنَّ نسـاء أمريـكا".

قالت سوزانا بصعوبة: "أنت لطيفٌ لقولك ذلك".

توهَّجَـت بشرتـه وسـخنت أكـثر. صـار عقلـه نافـورة ردودٍ مُلائِمـة حادَّة. "لا أتحـدث عـن المـسرح الـذي أمامـه مقاعـد، بـل أتحـدَّث عـن مـسرح الحيـاة. تتـصرَّف النسـاء الأمريكيـات ويلبسـن كأنَّهـنَّ سـيعطينك العـالم. ثـم مـا إن تُقـدِّم لهـنَّ يـدك، حتـى يضعـن فيهـا مُكعَّـب ثلـج".

قالت سوزانا بخواء: "أَيَفعَلن؟".

قـال فولر:"يفعلـن، وحـان وقـت أن يقـول أحدهـم ذلـك". نظـر مُتحدِّيًا إلى المتابعـين حولـه، ووجـد مـا اعتـبره نوعًـا مـن التشـجيع المذهـول. قـال: "إنـه ظلم".

ضائعة، قالت سوزانا: "ما الظلم؟".

قال فولر: "تأتين بأجراس حول كاحلك؛ فأضطرُّ للنظر إلى كاحلك وأقدامك الوردية. تُقبِّلين قِطَّتَكِ، فأضطرُّ للتفكير في كيف سيكون حالي لو كنتِ القِطَّة. تقولين للعجوز يا ملاك، فأضطرُّ للتفكير في كيف سيكون حالي لو قُلتُ لي يا ملاك. تخبِّئين مفتاحك أمام الجميع، فأضطر للتفكير في مكان المفتاح الآن".

وقف، قال بصوتٍ مُفعَم بالألم: "يا آنسة، أنتِ تفعلين كل ما في استطاعتك لتصيبي الناس العادية الوحيدة مثلي بعُسر الهضم والتوتُّر المفرط، وأنت لن تمسكي بيدي حتى لو كان ذلك لمنعي من الوقوع من جبل".

اندفع نحو الباب. كانت كل العيون عليه، ولم يلاحظ أحدٌ تقريبًا أن لائحة اتهاماته اختزَلَت سوزانا إلى رماد ما كانت عليه قبل لحظات. بدت سوزانا الآن على ما كانت عليه في الواقع، فتاة مُشوَّشة في التاسعة عشرة تتشبَّث بحافَّة ضيِّقة من التكلُّف.

قال فولر: "هذا ظلم، يجب أن يكون هناك قانونٌ ضدَّ الفتيات التي تتصرَّف وتلبس مثلك. يُسبِّب هذا للناس تعاسةً أكثر من السعادة. أتعلمين ما أقوله لك لتجوُّلِك في الأنحاء بشكل يجعل الجميع يودُّ تقبيلَك؟".

زمرت سوزانا: "لا"، كل فيوز في جهازها العصبي كان قد انصهر.

قال فولر بعظمة: "أقول لك ما ستقولينه لي إن حاولت تقبيلَكِ"، ولوَّح بيده في إيماءة حُكَّام الرياضة التي تعني "إلى الخارج".

قال: "اذهبي إلى الجحيم". خرج، صافعًا الباب الزجاجي خلفه.

لم ينظر خلفه عندما انصفع الباب مجددًا بعد لحظة، ولا عندما ترددَت طرطقة الخطوات الحافية تجري يصحبها رنين الأجراس الجامحة حتى بهتت في اتجاه مبنى المطافئ.

* * *

ذلك المساء، وضعت أم العريف فولر الأرملة شمعةً على المائدة، وأطعمته شريحة لحم الخاصرة وكعكة الفراولة على شرف عودته للبيت. أكل فولر الطعام وكأنه من الورق النَّشَّاف، وأجاب على أسئلة أُمِّه المبتهجة بصوت ميِّت.

بعدما شربوا القهوة، قالت أُمُّه: "ألست سعيدًا بعودتك؟".

قال فولر: "بالطبع".

قالت: "ماذا فعلت اليوم؟".

قال: "تمشَّيت".

قالت: "قابَلتَ أصدقاءَك القدامى؟".

قال فولر: "ليس لديَّ أصدقاء".

لوَّحَت أُمُّه بذراعيها، قالت: "أنت؟ بلا أصدقاء؟".

قال فولر بتثاقُل: "الزمن يتغيَّر يا ماما. ثمانية عشر شهرًا هو زمن طويل. الناس تغادر المدينة، وتتزوَّج...".

قال: "الزواج لا يقتل الناس، أليس كذلك؟".

لم يبتسم فولر، قال: "ربما لا يفعل، لكنه يجعل من الصَّعب على الشخص إيجاد مكان لأصدقائه القدامى".

"دوجي لم يتزوَّج، أليس كذلك؟".

قـال فولـر: "دوجـي في الغـرب يـا مامـا، مـع سـتارتيجيك إيـر كومانـد". أمـسى وحيـدًا في غرفـة الطعـام كـما لـو أنـه في قاذفـة قنابـل في طبقـة الستراتوسـفير الضَّيِّقـة البـاردة.

قالت أمه: "أوه، لا بُدَّ أن أحدهم لا يزال موجودًا".

قـال فولـر: "لا، قضيـتُ الصَّبـاح كلَّـه أتحـدث في الهاتـف يـا مامـا. بـل ربمـا حتـى أعـود إلى كوريـا، لا أحـد هنـا".

قالـت: "لا أسـتطيع التصديـق، أنـت لم تكـن قـادِرًا عـلى المـشي في شـارع ريـن دون التعـثُّر في أصدقائك".

قـال بصـوتٍ أجـوف: "مامـا، بعدمـا لم يَعُـد معـي أرقـام أخـرى أتَّصِـل بهـا، أتعلمـين مـاذا فعلـت؟ ذهبـت إلى الصيدليـة يـا مامـا، وجلسـت بجـوار ماكينـة المشروبـات الغازيـة، منتظـرًا دخـول شـخص أعرفـه، أي شـخص أعرفـه ولـو قليـلًا يـا مامـا"، وتابـع في غضـب، "كل مَـن عرفتـه كان المسـكين العجـوز بـيرس هينـكلي، أنـا لا أمازحـك". نهـض، وكرمـش منديلـه عـلى شـكل كـرة. "مامـا، هـلَّا سـمحتِ لي بالذهـاب؟".

قالـت: "نعـم بالطبـع. إلى أيـن أنـت ذاهـب؟"، تابَعَـت مبتهجـة: "خارج لتتَّصـل بفتـاة لطيفـة مـا كـما أتمنَّـى؟".

ألقـى فولـر منديلـه. قـال: "ذاهـب لـشراء سيجار! لا أعـرف أي فتيـات، لقـد تزوَّجـن جميعًـا أيضًـا".

شحبَت أمُّه، قالت: "أ... أرى ذلك. لم أعلم حتى أنك تدخِّن".

قـال فولـر مشـدودًا: "مامـا، كيـف لا تسـتوعبين؟ أنـا كنـت بعيـدًا لثمانيـة عـشر شـهرًا، ثمانيـة عـشر شـهرًا يـا مامـا".

قالـت أمـه، وقـد كسرتهـا حميتـه: "اذهـب واشـترِ سـيجارك". لمسـت ذراعـه، تابَعَـت: "وأرجـوك لا تشـعر بالوحـدة، انتظـر فقـط وسـتمتلئ

حياتـك بالنـاس مُجـدَّدًا لدرجـة أنـك لـن تجـد وقتًـا لهـم جميعًـا. وقبـل أن تعـرف مـاذا حـدث، سـتقابل فتـاة صغـيرة جميلـة، وسـتتزوَّج أيضًـا".

قـال فولـر: "لا أنـوي الـزواج عـمًّا قريـب يـا مامـا، ليـس قبـل أن أُنهـي الدراسـة في معهـد اللاهـوت".

قالت أمه: "معهد اللاهوت؟ متى قرَّرتَ ذلك؟".

قال فولر: "اليوم، عند الظهيرة".

"وماذا حدث عند الظهيرة؟".

قـال: "مَـرَرتُ بتجربـة دينيَّـةٍ مـن نـوعٍ مـا، بـشيء جعلنـي أفصـح عـمَّا يضايقني".

قالت حائرة: "وما هو ذلك؟".

وسـط الطَّنـين الـذي يمـلأ رأس فولـر، عصفـت زوبعـة مـن السـوزانات. رأى مُجـدَّدًا كل الغاويـات المحترفـات اللـواتي عَذَّبنـه في كوريـا، اللـواتي أومـأن لـه مـن شاشـات السـينما المرتَجَلَـة بملايـات الأَسِرَّة، مـن الملصقـات المتجعِّـدة المعلَّقـة عـلى حوائـط الخيـمات المبتلَّـة، مـن المجـلات المُمزَّقـة في حُفَـر أكيـاس الرمـل. صنعـت السـوزانات الـثروات مـن الإيمـاء لـكلِّ فولـر في كل مـكان. أومـأن بجـمال سـاحِقٍ، أومـأن لهـم للذهـاب إلى الـلا مـكان مـن أجـل الـلا شيء.

اسـتحوذ عـلى لسـانه شـبحٌ مُتخشِّـب الرَّقبـة يرتـدي الأسـود لأحـد أسـلافه البيوريتانيِّـين. تحـدَّث فولـر بصـوتٍ جـاء عـبر القـرون، صـوت جـلَّاد سـاحرات، صـوت يعبـق بالإحبـاط والاعتـداد بالنفـس والهـلاك. قـال: "مـا الـذي يضايقنـي؟ الفتنـة".

* * *

سيجار فولر في الليل كان بمثابة المنارة التي تُحذِّر اللاعبين اللاهين من الاقتراب. فقد كان سيجار يُدخَّن في غضب واضح. حتى العِثَّة خامَرَها شعور بأن تظل بعيدة. مثل عين حمراء تبحث عن شيء ما بهياج، ظلَّ يعلو ويهبط في كل شارع وقرية، حتى سكن أخيراً واستقرَّ كعقب مُبتَلٍّ مَيِّت، أمام مبنى المطافئ.

بيرس هنكلي، الصيدلي العجوز، جلس خلف عجلة المضخَّة، التمعت عيناه بنوستالچيا، نوستالچيا للأيام التي كان فيها شابًّا كفاية ليقودها. بوسع الجميع أن يرى على وجهه حلم بوقوع كارثة أخرى، في وقتٍ كلُّ الشباب فيه غير موجودين، عندها لن يقودَ المضخَّة إلى المجد إلَّا رجُلٌ عجوز. قضى أمسيات دافئة عديدة هناك، خلف العجلة، وكذا كان يفعل لسنوات.

قال للعريف فولر: "أتريد مَن يشعل لك هذا الشيء؟"، عندما رأى السيجار الميت بين شفتيه.

قال فولر: "شكرًا يا مستر هنكلي، لم يتبقَّ فيه متعة".

قال العجوز: "لا أفهم كيف يجد أيُّ شخصٍ مُتعَةً في السيجار أساسًا".

قال فولر: "مسألة أذواق، للناس فيما يعشقون مذاهب".

قال هنكلي: "لحمٌ لِرَجُل، سُمٌّ لآخر. عِشْ ودَعْهم يعيشوا، هذا ما أقوله دومًا". تطلَّع إلى السقف، فوقه كان العشُّ العَطِر لسوزانا وقِطَّتها السوداء. "أمَّا أنا، فمتعتي كلها باتت النظرَ لِمَا كان ذات يوم ممتعًا".

نظر فولر إلى السقف أيضًا، مواجهًا المسألة غير المذكورة بشكل مباشر. قال: "إن كنت شابًّا، كنت ستعلم لِمَ قُلتُ ما قلته لها. البنات الجميلات المغرورات تُسبِّب لي الآلام".

قال هنكلي: "أوه، أذكر ذلك، أنا لست كبيراً لدرجة نسيان ذلك الوجع الكبير".

قال فولر: "إن حظيتُ بابنةٍ، أتمنَّى ألّا تكون جميلة. كم ترى البنت الجميلة في المدرسة الثانوية نفسها استثنائيّة على نحو خاصٍّ!".

قال هنكلي: "كم أراها كذلك أنا أيضًا".

قال فولر: "لن تنظر إليك الواحدة منهن إن لم تكن لديك سيارة، ومصروف عشرين دولار أسبوعيًا لتنفقه عليها".

قال العجوز ضاحكًا: "ولم تفعل؟ لو كنت فتاة جميلة، ما كنت لأفعل"، هزَّ رأسه، "على أيِّ حالٍ أعتقد أنك عُدتَ من الحروب وأخذتَ حَقَّك في ذلك الشأن، أعتقد أنَّك قُلتَ لها".

قال فولر: "آه، لا أعتقد أن الكلام يُؤثِّر فيهنَّ".

قال هنكلي: "لا أدري. ثمَّة قَولٌ جيِّد قديم في المسرح: يجب أن يمضي العرض قُدُمًا. أي أن حتى لو أصابك الربو، أو كان طفلك يموت، لا يزال عليك أن تؤدِّي دورك".

قال فولر: "أنا بخير. مَن يشتكي؟ أنا أشعر بخير".

ارتفع حاجِبَا العجوز الأبيضان. قال: "مَن ذا الذي تحدَّث عنك؟ أتحدث عنها". احمرَّ وجه فولر، أوقعته الغَطرَسةُ في الفَخِّ. قال: "ستكون بخير".

قال هنكلي: "هل ستكون؟ ربما... كل ما أعرفه هو أن العرض بدأ في المسرح، ويفترض بها أن تكون فيه، لكنها لا تزال بالأعلى".

قال فولر مندهشًا: "أهي كذلك؟".

قال هنكلي: "هي كذلك، منذ أن وبَّختها وأرسلتها للبيت".

حـاوَلَ فولـر أن يبتسـم بسـخرية. قـال: "كـم أن ذلـك حزينًـا". شـعر بابتسـامته ضعيفـة مثـيرة للغثيـان. "ليلتـك سـعيدة يـا مسـتر هنـكلي".

قال هنكلي: "ليلتك سعيدة أيُّها الجُنديُّ الشاب".

* * *

فيـما اقـترب ظُهـرُ اليـوم التـالي، بـدا القرويُّـون في الشـارع الرئيـسي مُخدَّريـن. أصحـاب المتاجـر اليانكيُّـون باعـوا واشـتروا بفتـور، وكأن النقـود لم تَعُـد تعنـي لهـم شـيئًا. كل العقـول كانـت مُركَّـزةً عـلى سـاعة الوقـواق التـي تحـوَّل إليهـا مبنـى المطافـئ. السـؤال كان: هـل كسرهـا العرِّيـف فولـر؟ أم أن في سـاعة الظهـيرة سـينفتح البـاب الصغـير عـلى رأسـها، وسـتظهر سـوزانا؟

في الصيدليـة، انشـغل العجـوز بـيرس هنـكلي بصحـف سـوزانا النيويوركيـة، وأخـذ يُرتِّبهـم في خِضَـمٍّ تَوتُّـره ليجعلهـم جذّابـين؛ طُعْـمًا لسـوزانا.

قبـل الظُّهـر بلحظـاتٍ جـاء العريـف فولـر -المُخـرِّب ذات نفسـه- للصيدليـة. عـلى وجهـه مزيـج غريـب مـن الذَّنـب ووجـع الـرأس. كان قـد قـضى الشـطر الأكـبر مـن ليلتـه مسـتيقظًا، يراجـع مَظلَمَتـه ضـدَّ النسـاء الجميـلات. قـال لنفسـه في الفجـر: كل مـا يُفكِّـرن فيـه هـو كـم هُـنَّ جميـلات، ولـن يَقُلـن لـك حتـى كـم السـاعة الآن.

مـشى عـلى طـول صـف المقاعـد بجـوار ماكينـة المشروبـات الغازيـة، دفـع كلَّ مقعـد دفعـة صغـيرة. وجـد المقعـد الـذي صرَّ عاليًـا بالأمـس. جلـس عليـه في لحظـة اعتـداد بالنفـس. لم يتحـدَّث إليـه أحـد.

أطلقـت سرينـة المطافـئ صافرتهـا الروتينيـة سـاعة الظهـر. وكان حينهـا أن جـاءت شـاحنة مـن شركـة زا إكسـبرس للنقـل تشـبه عربـة نقـل المـوتى، وتوقَّفَـت أمـام مبنـى المطافـئ. خـرج منهـا رجـلان وتَسـلَّقا الـدَّرَج. قفـزت

قِطَّـة سـوزانا الجائعـة السـوداء عـلى حاجـز الشرفـة مُحتجَّـةً، وقَوَّسَـت ظهرهـا فيـما اختفـى رَجُـلَا زا إكسـبرس في غرفـة سـوزانا. ثـم بخَّـت القطَّـة عندمـا خرجـا حامِلَـيْن صنـدوق أمتعـة سـوزانا.

بُهـت فولـر. نظـر إلى بـيرس هنـكلي، ورأى أن نظـرة العجـوز المتوتِّـرة تحوَّلَـت إلى نظـرة مريـض بالربـو والدُّوخـة والعمـى يغـرق. قـال العجـوز: "هـل أنـت سـعيد أيهـا العريـف؟".

قال فولر: "لم أقُل لها أن ترحل".

قال هنكلي: "أنت لم تَدَع لها خيارًا آخر".

قـال فولـر: "ولم تأبـه برأيـي فيهـا؟ لم أعلـم أنهـا زهـرة حسَّاسـة إلى هـذا الحـد".

لمـس العجـوز ذراع فولـر بخفَّـة. قـال: "كلُّنـا كذلـك أيُّهـا العرِّيـف، كلنـا كذلـك. حسـبت أن تلـك واحـدة مـن المميِّـزات القليلـة لإرسـال فتـى إلى الجيـش. حسـبت أنـه هنـاك سيكتشـف أنـه ليـس الزهـرة الحسَّاسـة الوحيـدة عـلى الأرض. ألم تجـد ذلـك؟".

قـال فولـر: "لم أحسـب نفـسي قـطُّ زهـرةً حسَّاسـة. أنـا آسـف عـلى مـا آلـت إليـه الأمـور، لكنهـا جلَبَـت ذلـك عـلى نفسـها". وكانـت رأسـه مَحنيَّـة وآذانـه سـاخنة قرمزيَّـة.

قال هنكلي: "لقد أخافتك كثيرًا، أليس كذلك؟".

أشرقـت الابتسـامات عـلى أوجـه القِلَّـة مـن الحاضريـن، الذيـن اقتربـوا بذريعـةٍ أو بأخـرى. قـرأ فولـر الابتسـامات، ووجـد أن العجـوز لم يـترك لـه إلا سـلاحًا واحـدًا، أن يكـون مواطنًـا صالحًـا ثقيـل الـدم.

قـال بصـوت مُختَنـق: "مَـن الخائـف؟ أنـا لسـت خائفًـا. أنـا فقـط رأيـت أن تلـك مشـكلة تحتـاج لمـن يطرحهـا للنقـاش".

قال هنكلي: "إنه بلا شَكٍّ الموضوع الوحيد الذي لا يسأم منه أحد".

نظرة فولر، التي باتت الآن مُراوِغَةً، مرَّت على رَفِّ المجلات. هناك كانت السوزانات في طبقاتٍ تعلو بعضها، ألف قَدمٍ مُربَّعةٍ من الابتسامات مبتلَّة الشِّفاه والأعين الدَّاكِنة والبشرة الكريمية. نفض عقله بحثًا عن ردٍّ مُفحِم يُعيد به بعض الاعتبار لقضيَّته.

قال: "ما يشغلني هو انحراف الصغار"، وأشار إلى المجلات، "لا عجب أن الأطفال يُصابون بالجنون".

قال العجوز بهدوء: "أعلم أني فعلت، كنت خائفًا مثلك".

قال فولر: "قلت لك أنا لست خائفًا منها".

قال هنكلي: "جيد. إذن فأنت الشخص المناسب لتوصيل الجرائد إليها. إنها مدفوعة الثمن". وألقى الصحف في حضن فولر.

فتح فولر فمه ليردَّ، لكنه أغلقه مُجدَّدًا. غصَّ حَلقُه، وعلم أنه لو حاول الكلام، سيُبَطبِطُ مثل بطة.

قال العجوز: "لو كنتَ فعلًا غير خائف أيُّها العريف، سيكون ذلك شيئًا في غاية اللطف منك فعله، شيء مسيحيٌّ جدًّا".

* * *

اعتلى الدَّرَج المؤدِّي إلى عُشِّ سوزانا، بذل مجهودًا خارقًا كي يبدو طبيعيًّا حتى كاد يتشنَّج.

لم يكن بابها مُحكَمَ الغَلقِ، عندما طرقه فولر انفتح. في مُخيِّلَة فولر، عُشُّ سوزانا كان مظلمًا ساكنًا يَعبَق بالبخور، متاهة من الستائر والمرايا، وفي مكانٍ ما رُكنٌ تركيٌّ، وفي مكان آخر سرير على شكل بجعة مُترَع بالوسائد.

رأى الآن سوزانا وغرفتها على حقيقتهم الآن. وهي الحقيقة البائسة للإيجارات الصيفية اليانكية بَخسَة الثمن: حوائط خشبية عارية، ثلاث عَلّاقات معاطف، بساط مُشمَّع، مَوقِدًا غاز، سريرٌ حديديٌّ، صندوق ثلج، حوض صغير ذو مواسير عارية، أكواب شرب بلاستيكية، طبقان، مرآة قائمة، مقلاة، ووعاء طبخ، وعلبة من مسحوق الصابون.

اللمسة الأنثوية الوحيدة، كانت دائِرةً من بودرة التلك البيضاء أمام المرآة القائمة. في منتصف الدائرة كانت آثار قدَمَيْن حافيتَيْن. أصابع القدمين لم تَزِد حجمًا عن اللآلئ.

من اللآلئ نظر فولر إلى حقيقة سوزانا، التي كانت تُعبِّئ آخر متعلقاتها في حقيبة سفر. كانت الآن في زيٍّ السفر، في ملابس تليق بزوجة واعظ.

بصوتٍ أجشَّ قال فولر: "الجرائد، أرسلهم مستر هنكلي".

قالت سوزانا: "كم هو لطيف مستر هنكلي، قُل له..."، استدارت، ولم تكمل ما قولها، عرفت مَن هو مُحدِّثها. زمَّت شفتيها واحمرَّ أنفها الصغير.

قال فولر بخواء: "الجرائد، من مستر هنكلي".

قالت: "سمعتك، هذا ما قلته لتوِّكَ. أهذا كل ما ستقول؟".

تدلَّت يدا فولر بوهن بجواره. قال: "أنا... أنا... لم أقصد أن أجعلك ترحلين، لم أقصد ذلك".

قالت سوزانا بضيق: "أتقترح أن أبقى؟ بعد أن أهنتني في العَلَن؟ قلت عني مومس؟ عاهرة؟ فاجرة؟".

قال فولر: "يا إلهي، أنا لم أتفوَّه بأيٍّ من تلك الأشياء".

قالت: "هل توقَّفتَ قَطُّ لتفكر كيف هو شعور أن تكون مكاني؟"، ربتت على صدرها، "ثمة شخص يعيش في الداخل هنا أيضًا، أتعلم ذلك؟".

قال فولر: "أعلم". لم يكن يعلم، حتى تلك اللحظة.

قالت: "لديَّ روح".

قال فولر، مرتعشًا: "لا شك في ذلك". ارتعش لأن الغرفة أصبحت الآن مترعة بحميميَّة عميقة. سوزانا، الفتاة الذهبية في آلاف أحلام اليقظة المؤلمة، تناقش الآن روحها، بشغف، مع فولر الوحيد، فولر الوحيد، فولر الكئيب.

قالت سوزانا: "لم تغمض لي عين الليلة الفائتة بسببك".

"أنا؟". تمنَّى لو خرجت من حياته مرة أخرى. تمنى لو كانت بالأبيض والأسود بسُمكِ واحدٍ على ألف بوصة في صفحة مجلة. تمنَّى لو كان بوسعه قلب الصفحة وقراءة أخبار البيسبول أو الشؤون الخارجية.

قالت سوزانا: "ماذا كنت تتوقَّع؟ كنتُ أتحدَّث معك طوال الليل، أتعلم ما قلته لك؟".

قال فولر متراجعًا: "لا". تبعته، وبدا أنها تشعُّ حرارةً كمدفأة حديدية عملاقة.

كانت إنسانة إلى حدٍّ مُروِّع.

قالت: "أنا لست حديقة يلوستون! أنا لا أقف على أعمدة! أنا لست ملكيَّةً عامَّة! ليس لديك أي حقٍّ للتعليق بأي شيء عن كيف أبدو".

قال فولر: "على رسلك!".

قالـت سـوزانا: "تعبـت مـن الأفـواه الحمقـاء مثلـك". ضربـت الأرض بقدمهـا وبَـدَت فجـأةً مُنهَكَـةً. "مـاذا أفعـل بشـأن رغبتـك في تقبيـلي؟ ذنـب مَـن هـذا؟".

قـدرة فولـر عـلى رؤيـة جانبـه مـن السـؤال باتـت الآن باهتـة جـدًا، مثـل غطَّـاسٍ ينظـر إلى الشـمس مـن قـاع المحيـط. قـال: "كل مـا كنـت أحـاول قولـه هـو أن بوسـعك أن تصـيري أكـثر تحفُّظًـا بقليـل".

فتحـت سـوزانا ذراعيهـا. قالـت: "هـل أنـا متحفِّظـة كفايـة الآن؟ أهـذا مناسـب لـك؟".

جاذبيـة الفتـاة الجميلـة جعلـت نخـاع عظـام فولـر تَـئِنُّ. وفي صـدره كانـت تَنهِـدَةً مثـل لحـن شـارد. قـال: "نعـم"، ثـم تمتـم: "نَسِّـيني تمامًـا".

طوحـت سـوزانا رأسـها وقالـت: "أنـسى أني ضربتنـي شـاحنة؟ لمـاذا أنـت وغـدٌ لهـذه الدرجـة؟".

قال فولر: "أنا فقط قلتُ ما أفكِّر فيه".

قالـت سـوزانا في حـيرة: "تفكـر في أشـياء شريـرة". اتَّسَـعَت عيناهـا. "طـوال فـترة المدرسـة الثانويـة، كان مَـن هـم مثلـك ينظـرون إليَّ كـما لـو أنهـم يتمنَّـون مـوتي. لم يرقصـوا معـي قَـطُّ، لم يتحدَّثـوا معـي قـطُّ، لم يَـردُّوا حتـى عـلى ابتسـاماتي"، ارتعشـت، "كانـوا فقـط يتلكَّـؤون في الأنحـاء مثـل رجـال شرطـة المـدن الصغـيرة. ينظـرون إليَّ مثلـما فعلـتَ أنـت، كـما لـو أني فعلـت شـيئًا مروِّعًـا".

حقيقـة الاتهـام أشـعَرَت فولـر بالحكَّـة في كامـل جسـده. قـال: "عـلى الأرجـح كانـوا يفكِّـرون في شـأن آخـر".

قالـت سـوزانا: "لا أظـنُّ ذلـك، أنـت بـلا شـك لم تكـن كذلـك. فجـأة أخـذت تـصرخ فيَّ بالصيدليـة، وأنـا لم أَرَكَ قَبلَهـا قـطُّ"، ثـم أجهشـت بالبـكاء، "مـا مشـكلتك؟".

نظـر فولـر إلى الأرض. قـال: "كل مـا في الأمـر أني لم أَحـظَ بفرصـة مـع فتـاة مثلـك مـن قبـل. هـذا مـؤلم".

نظرت إليه سوزانا متعجِّبة، قالت: "أنت لا تعرف ما هي الفرصة".

قـال فولـر: "الفرصـة هـي سـيارة بسـقف متحـرِّك مـن أحـدث طـراز، وبذلـة جديـدة، وعـشرون دولار".

أدارت لـه سـوزانا ظهرهـا وأغلقـت حقيبتهـا. قالـت: "الفرصـة هـي فتـاة. تبتسـم لهـا، تكـون ودودًا معهـا، تكـون ممتنًّـا أنهـا فتـاة". اسـتدارت وفتحـت ذراعيهـا مجـدَّدًا، تابعـت: "أنـا فتـاة، تولـد الفتيـات هكـذا، لـو كان الرجـال لطيفـين معـي وجعلـوني سـعيدة، أقبلهـم أحيانًـا. أيناسـبك هـذا؟".

قـال فولـر بانهـزام "نعـم". غلبتـه بالمنطـق الجميـل الـذي يحكـم الكـون. هـزَّ كتفيـه، قـال: "يفـترض بي أن أذهـب، وداعًـا".

قالـت: "انتظـر، ليـس بوسـعك فعـل هـذا، الذهـاب بهـذا الشـكل وتـركي أشـعر أني شريـرة"، هـزَّت رأسـها، "لا أسـتحقُّ أن أشـعر أني شريـرة".

قال فولر بقلّة حيلة: "ماذا تريدين مني أن أفعل؟".

قالـت سـوزانا: "بوسـعك أن تأخـذني في تمشـية عـلى طـول الشـارع الرئيـسي، كـما لـو أنـك فخـور بي. بوسـعك أن ترحِّـب بعـودتي إلى الجنـس البـشري"، أومـأت لنفسـها، "أنـت مديـنٌ لي بذلـك".

* * *

العرِّيـف نورمـان فولـر، الـذي عـاد إلى الوطـن منـذ ليلتـين، بعـد ثمانيـة عـشر شـهرًا مـن الكآبـة في كوريـا، انتظـر في شُرفَـة عُـشِّ سـوزانا الخارجيـة، بينـما تراقبـه القريـة كلهـا.

أمرتـه سـوزانا أن ينتظرهـا في الخـارج بينـما تُغيِّر ملابسـها، بينـما تُغـيِّر إلى مـا يناسـب عودتهـا للجنـس البـشري.

وهاتفــت أيضًــا شركــة زا إكســبريس، وطلبــت منهــم أن يعيــدوا صندوقهــا.

ضيَّـع فولـر الوقـت في التمسـيد عـلى قِطَّـة سـوزانا. قـال لهـا: "هيلـو كيتــي كيتــي كيتــي". ترديــد " كيتــي كيتــي كيتــي كيتــي" مــرارًا وتكــرارًا خــدَّره مثــل دواء رحيــم.

كان يكـرِّر ذلـك عندمـا خرجـت سـوزانا مـن عُشِّـها. لم يسـتطع التوقُّفَ عــن ترديــده، فــكان عليهــا أن تأخــذ القطــة منــه، بحــزم؛ لتجعلــه ينظــر إليهــا، ويمــدَّ لهــا ذراعــه.

قال فولر: "وداعًا كيتي كيتي كيتي كيتي كيتي".

سـوزانا كانــت حافيــةً، ومرتديــة أقراطهــا الجامحــة، والأجــراس حــول كاحلهــا. قــادت فولــر نــزولًا عــبر الســلم، محتَضِنــةً ذراعــه برفــق، وبــدأت في مشـيتها المهيبـة المتموِّجـة المُهيِّجـة الرَّنَّانـة، عـبر متجـر الخمـور ووكالـة التأمينـات ومكتـب السمسـار والمطعـم ومقـرِّ الفيلـق الأمريـكي والكنيسـة، إلى الصيدليــة المزدحمــة.

قالت سوزانا: "الآن، ابتَسِمْ وكُنْ لطيفًا، أَظهِرْ أنَّكَ غير مُحرَج مني".

قال فولر: "أتمانعين إن دخَّنتُ؟".

قالت سوزانا: "في استئذانك كثير من اللطف. لا، لا أمانع على الإطلاق".

بتثبيت يده اليمنى باليسرى، تمكَّن العَرِّيف فولر من إشعال سيجار.

(1956).

كُلُّ أحصِنَة الملك

بقامتـه الضَّخمـة، حجـب الكولونيـل برايـن كيـلي الضـوء القليـل المتسرِّب مـن الممـرِّ الضَّيِّـق خلفـه، اتَّـكأ للحظـة عـلى البـاب المغلـق في ألم مُتوتِّـر وغضـب عاجِـز. عبـث الحـارس الشرقـي الضئيـل في سلسـلة مفاتيحه باحثًـا عـن مفتـاح ذلـك البـاب. أَنصَـت الكولونيـل كيـلي للأصـوات القادمـة مـن داخـل الغرفـة.

"لـن يجـرؤوا عـلى فِعـل شيء بأمريكيِّـين يـا رقيـب، أليـس كذلـك؟"، كان صوتًـا شـابًّا مُـتردِّدًا، "أعنـي، إن فعلـوا فالعواقـب سـتكون وخيمة".

"اخـرس. أتَـودُّ إيقـاظ أبنـاء كيـلي فيسـمعونك ويُـردِّدون مـا تقـول هنـا وهنـاك؟". كان صـوت خشـنًا، منهـكًا.

أكـد الصـوت الشـاب: "سـيطلقون سراحنَـا قريبًـا، أتُراهِـنُ عـلى ذلـك يـا رقيـب؟".

"نعم، بالطبع يا فتى، إنهم يُحبُّون الأمريكيِّين جدًّا هنا. ذلك على الأرجح ما أرادوا الحديث مع كيلي بشأنه، وهم الآن يجهزون لنا الجعَّة وشطائر اللحم في صناديق الغداء. كل ما يُعطِّلهم هو أنهم لا يعلمون مَن يَوَدُّ إضافة المسطردة ومن لا يفعل. كيف تحبُّ شطائرك؟".

"أنا فقط أَوَدُّ...".

مكتبة
t.me/soramnqraa

"اخرس".

"حسنًا، أنا فقط...".

"اخرس".

قال العرِّيف الشاب بصوت كالسُّعال: "أنا فقط أوَدُّ معرفة ماذا يحدث، هذا كل شيء".

قال صوت ثالث منزعج: "كُفَّ عن الكلام ومَرِّر ذلك العقب. لا يزال فيه عشرة أنفاس على الأقل. لا تتطامع فتُنهيه كلَّه يا فتى". هَمهَمَت بضعة أصوات أخرى مؤيِّدة.

فتح الكولونيل كيلي قبضتيه وأغلقهما بعصبيَّة، متسائلًا كيف سيتمكَّن من إخبار الأشخاص الخمسة عشر خلف الباب المغلق عن مقابلته مع بي ينج، والمحنة المجنونة التي سيكون عليهم خوضها. بي ينج قال إن صراعهم مع الموت لن يختلف، فلسفيًّا، عمَّا عرفوه جميعًا في ساحات القتال، باستثناء زوجة كيلي وأبنائه. بشكل بارد ما كان ذلك صحيحًا، لا فارق، فلسفيًّا. لكن الكولونيل كان يرتجف أكثر ممَّا فَعل أي مرَّة من قبل في معركة.

قبل يومين على البَرِّ الآسيوي، تحطَّمَت طائرة النقل العسكرية التي كانت تُقلُّ الكولونيل كيلي والخمسة عشر الآخرين على الجانب الآخر من الباب، بعدما ألقتهم عاصِفةٌ مُفاجِئة عن مسارهم وماتت

الاتصالات اللاسلكية. كان الكولونيل كيلي بصُحبَة عائلته في طريقه لتولِّي منصب الملحق العسكري بالهند. كان هناك مجموعة من الرجال المجنَّدين على متن الطائرة العسكرية التي تنقلهم، فنِّيين مُختصِّين، ثَمَّة احتياجٌ لهم في الشرق الأوسط. هبطت الطائرة في منطقة من الأرض تحت سيطرة الزعيم المتمرِّد الشيوعي بي ينج.

نجا الجميع من الاصطدام: كيلي وزوجته مارجريت، وابناه التوأمان ذوا الأعوام العشرة، والطيَّار والطَّيَّار المساعد، والمجنَّدون العشرة. دستة من المسلَّحين المشعثين التابعين لبي ينج كانوا في انتظارهم فيما هم يتسلَّقون خارجين من الحطام. بلا قدرة على التواصل مع آسِريهم، اقتيد الأمريكيُّون ليوم كامل عبر حقول الأرز، وبالقرب من غابة، لِيَصِلوا مع الغروب إلى قصرٍ مُتداعٍ، حيث حُبسوا في غرفة تحت الأرض، بلا أي فكرة عن ماذا قد يحلُّ بهم.

والآن، يعود الكولونيل كيلي من مقابلة مع بي ينج، الذي أخبره ماذا سيصير للمساجين الأمريكيين الستة عشر. ستة عشر، هزَّ كيلي رأسه بينما كرَّر الرقم في أفكاره.

همزه الحارس في جانبه بمسدسه، ودفع المفتاح في المغلاق، فتأرجح الباب مفتوحًا. وقف كيلي صامتًا في فتحة الباب.

من يَدٍ إلى أخرى مرَّت سيجارة، وبالدور ألقت بوهجها على الوجوه المترقِّبة كلٌّ على حِدَة. الآن تضيء الوجه المتورِّد للعريف الشاب الثرثار من مينيابوليس، والآن تلقي بالظلال المتجعِّدة على تجاويف العيون والحواجب الثقيلة للطَّيَّار من سالت ليك، والآن توهِّج الشفاه النحيلة للرَّقيب باللون الأحمر.

تحوَّل نظر كيلي من الرجال إلى ما بدت في الشفق وكأنها أكمة بجوار الباب. هناك جلست زوجته مارجريت، وفي حجرها استقرَّ رأسًا

ابنيها النائِمَيْن. ابتسمت له بوجهٍ أبيض ضبابيٍّ. سألته بهدوء: "عزيزي، هل أنت بخير؟".

"نعم أنا بخير".

قال العريف: "يا رقيب، اسأله عمَّا قال بي ينج".

"اخرس"، وتوقَّف الرقيب لهُنَيهَة، "ماذا عن ذلك يا سيدي؟ أخبار طيِّبة أم سيِّئة؟".

* * *

مَسَّد كيلي على كتف زوجته، مُحاوِلًا استدعاء كلمات مناسبة، كلمات تحمل شجاعة ليس متأكِّدًا من وجودها عنده. قال في النهاية: "أخبار سيِّئة، أخبار متعفِّنة".

قال الطيار عاليًا: "أفصح عنها". افترض كيلي أنه يحاول طمأنةَ نفسه بدويٍّ صَوتِه، بفظاظته. "ما هو أسوأ ما يمكنه فِعلُه لنا؟ قتلنا؟ أهذا ما لديك؟". نهض ودفن يديه في جيوبه.

"لن يجرؤ"، قالها العريف الشاب بصوتٍ مُتوعِّد، وكأنه قادر على استدعاء غضب جيش الولايات المتحدة ليقضي على بي ينج بفرقعة من أصابعه.

نظر الكولونيل إلى الشاب بفضولٍ حزين. "لنواجه الأمر، لدى الرجل الصغير في الأعلى كلُّ الأوراق الرابحة". وهو تعبيرٌ مُستعار من لعبة أخرى فكَّر أنها ليست ذات علاقة. "إنه مُجرِم. ليس لديه ما يخسره بإغضاب الولايات المتحدة عليه".

قال الطيار منفجرًا: "إن كان سيقتلنا فقُل ذلك، ها نحن بين يديه، ماذا سيفعل؟".

قـال كيـلي، محـاولًا الحفـاظ عـلى ثبـات صوتـه: "إنـه يعدُّنـا سُـجَناء حـرب، ويـودُّ ضربنـا جميعًـا بالنـار"، هـزَّ كتفيـه، "أنـا لا أحـاول إبقاءكـم مُترقِّبـين، أنـا فقـط كنـت أبحـث عـن كلـمات مناسـبة، ولم أجـد. يريـد بي ينـج منَّـا تسـليةً أكـثرَ مـمَّا سـيوفِّرها لـه ضَربُنـا بالنـار. إنـه يريـد إثبـات أنـه أذكى منَّـا في التفـاوض".

سـألت مارجريـت: "كيـف؟". أَعيُنُهـا كانـت مُتَّسِـعَة. وابناهـا كانـا يسـتيقظان.

"بعـد قليـل، أنـا وبي ينـج سـنلعب الشـطرنج عـلى حياتكـم"، وشـدَّ قبضتـه عـلى يـد زوجتـه الواهنـة، "وعـلى حيـواتي الأربعـة. تلـك هـي الفرصـة الوحيـدة التـي سـيعطيها لنـا بي ينـج"، هـزَّ كتفيـه وابتسـم بسـخرية، "أنـا ألعـب أفضـل مـن المتوسِّـط، أفضـل مـن المتوسِّـط بقليـل".

قال الرقيب: "أهو مجنون؟".

قـال الكولونيـل ببسـاطة: "سـترون بأنفسـكم. سـترونه عندمـا تبـدأ المبـاراة، بي ينـج وصديقـه الرائـد بـارزوف"، ورفـع حاجبيـه، "يَدَّعـي الرائـد أنـه آسـف؛ لأنـه ليـس في سـعته كمُراقِـبٍ عسـكري للجيـش الـروسي أن يتدخَّـل لصالحنـا. ويقـول أيضًـا إنـه متعاطـف معنـا. وأشـك أنـه كاذبٌ مُقـرِف في كلا الأمريـن، إن سـاقي بي ينـج ترتعشـان خوفًـا منـه".

همس العريف بتوتر: "هل سيتسنَّى لنا مشاهدة المباراة؟".

"نحـن السـتة عـشر أيُّهـا الجنـدي، سـنكون قِطَـعَ الشـطرنج التـي سـألعب بهـا".

وتأرجح الباب منفتحًا.

* * *

نـادى بي ينـج مبتهجًـا مـن شرفتـه المطلَّـة عـلى الغرفـة ذات القُبَّـة اللازورديَّـة: "هـل بوسـعك رؤيـة الرقعـة كلهـا مـن مكانـك بالأسـفل أيُّهـا الملـك الأبيـض؟". كان يبتسـم مـن عليائـه عـلى برايـن كيـلي وأُسرَتـه ورجالـه. "أنـت تعـرف أنـك لا منـاص مـن كونك الملـك الأبيـض، وإلا لا شيء يضمـن بقـاءك معنـا طـوال المبـاراة". وجـه زعيـم المتمرِّديـن كان متوهِّجًـا، وابتسـامته كانـت مُفعَمـةً باللُّطـف المزيَّـف. "سـعيد برؤيتكـم جميعًـا".

عـلى يمـين بي ينـج وقـف الرائـد بـارزوف، المراقـب العسـكري الـروسي قليـل الـكلام، لا يـكاد يمكـن تمييـزه عـن ظـلِّ بي ينـج. اسـتجاب لتحديـق كيـلي بهـزَّة رأسٍ بطيئـة. اسـتمرَّ تحديـق كيـلي فيـه لا يتزحـزح. صـار الرائد المتغطـرس خَشِـنُ الشَّـعر في النهايـة متململًا، طـوى ذراعيـه وفكَّهـما عـدَّة مـرَّات، وهـزَّ قدميـه في الحـذاء طويـل الرقبـة الأسـود للأمـام والخلـف عـدَّةَ مـرَّات. قـال في النهايـة: "أتمنـى لـو كان بوسـعي مسـاعدتك". لم يكـن ذلـك مـن قبيـل اللياقـة، بـل الدُّعابـة المزدريـة. قـال بـارزوف بتثاقُـل: "أنـا لسـت هنـا إلا مراقبًـا"، وأضـاف مديـرًا ظهـره: "حظًّـا سـعيدًا يـا كولونيـل".

عـلى يسـار بي ينـج كانـت هنـاك امـرأة شرقيـة صغـيرة رقيقـة. نظـرت بوجـه جامـد إلى الحائـط فـوق رؤوس الأمريكيـين. كانـت هـي وبـارزوف حاضِرَيْـن عندمـا أخـبر بي ينـج الكولونيـل أوَّل مَـرَّة عـن اللعبـة التـي أراد لعبهـا. عندمـا توسَّـل كيـلي لبـي ينـج أن يـترك زوجتـه وابنيـه خـارج اللعبـة، اعتقـد أنـه رأى لمعـة إشـفاق في عينيهـا. وفيـما هـو ينظـر الآن إلى الفتـاة الجامـدة المزخرفـة، عـرف أنـه كان بـلا شـكٍّ مُخطئًـا.

قـال بي ينـج بوعظيَّـةٍ: "تلـك الغرفـة كانـت مـن نـزوات أسـلافي الذيـن لأجيـالٍ احتجـزوا النـاس عبيـدًا. كانـت ممتـازةً كغُرفَـة عـرش، لكـن أرضهـا كانـت مرصَّعـة بالمربَّعـات، أربعـة وسـتين مربعًـا، أي رقعـة شـطرنج، أتـرى ذلـك؟ بنـى السُّـكَّان السـابقون قطـع الشـطرنج الجميلـة بنفـس حجـم الإنسـان، تلـك التـي أمامـك، كي يسـتطيعوا وأصدقاؤهـم أن يجلسـوا بالأعلى

هنا، ويأمروا الخَدَم بتحريكها"، حرَّك الخاتم في أصبعه، "بقدر ما كان ذلك مُبدِعًا، إلا أنه لا يزال أمامنا مجالٌ لتطويره بابتكار جديد. اليوم بالطبع سنستخدم القطع السوداء فقط، قطعي أنا"، استدار للرائد بارزوف المضطرب، "أما الأمريكيين فقد وفَّروا قطعهم الخاصَّة، فكرة مذهلة". ابتسامته بهتت لما رأى أن بارزوف لم يبادله الابتسامة. بدا بي ينج متلهِّفًا على إرضاء الروسي، وفي المقابل بدا بارزوف لا يكاد يَعدُّ بي ينج جديرًا بالإنصات إليه.

* * *

وقف الجنود الأمريكيون الاثنا عشر أمام الحائط تحت حراسة مُشدَّدة. غريزيًّا، التصقوا ببعضهم وحدَّقوا مُتجهِّمين في مضيفهم المتبجِّح. قال الكولونيل كيلي: "خذوا الأمور ببساطة، وإلا سنخسر فرصتنا الوحيدة". نظر بسرعة إلى ابنيه، جيري وبول، اللذين جالا ببصريهما في أرجاء الغرفة بهدوء واهتمام، بأعين ترمش ناعسة، بجوار أمهم المصعوقة. تساءل جيري كيف بهت شعوره إلى هذه الدرجة بينما تواجه أسرته أمامه الموت. الخوف الذي أحسَّ به بينما كانوا ينتظرونه في السجن المظلم ذهب. أدرك الآن حضور الهدوء المخيف -صديق أيام الحرب القديم- الذي يخمد كل شيء عدا ماكينات الدهاء والإدراك. ذلك كان مُخدِّرَ القادة، ذلك كان جوهرَ الحرب.

قال بي ينج بأهمية: "الآن يا أصدقائي، أعيروني انتباهكم"، وقف، "قواعد اللعبة يسهل تَذكُّرها. ستفعلون جميعًا ما يمليه عليكم الكولونيل كيلي. مَن سيكون حظهم منكم سيِّئًا لدرجة أن قطعي ستأكلهم سيُقتلون بسرعة فورًا بلا ألم". نظر الرائد بارزوف إلى السقف وكأنه داخليًّا معترض على كل ما قاله بي ينج.

أطلق العريف فجأة سلسلة من البذاءات اللاذعة، نصفها مسيء ونصفها شفقة على الذات. صفع الرقيب بيده على فم الشاب.

ميل بي ينج على درابزين الشرفة وأشار بإصبعه إلى الجندي الثائر، قال بحدَّة: "ولأولئك الذين سيحاولون الهروب من الرقعة أو الاحتجاج، يمكن ترتيب وسيلة موت خاصَّة. نحتاج أنا والكولونيل كيلي إلى صمتٍ تام لنركِّز فيه. إن كان الكولونيل ماهرًا كفايةً ليفوز، إذن كل مَن سيتبقَّى منكم معنا بعدما أخسر، سيُنقلون في أمان إلى خارج المنطقة. أما إن خسر..."، هزَّ بي ينج كتفيه. عاد واسترخى على تلٍّ من الوسائد. قال بخفَّة: "الآن عليكم جميعًا التحلِّي بالروح الرياضية، الأمريكيون معروفون بذلك على ما أعتقد. مثلما بوسع الكولونيل كيلي أن يخبركم، مباراة الشطرنج لا يكاد يمكن الفوز بها -مثلها مثل أي معركة- بلا تضحيات. أليس كذلك يا كولونيل؟".

أومأ الكولونيل كيلي بآليَّة. كان يتذكر ما قاله بي ينج من قبل، عن أن اللعبة التي هُم على وشك لعبها لا تختلف، فلسفيًّا، عن ما اعتاده في الحرب.

على حين غرَّة صرَخَت مارجريت: "كيف تفعل هذا بالأطفال؟"، متملِّصة من الحارس لتخطو بسرعة على مربَّعات الرقعة حتى وقفت مباشرة أمام شرفة بي ينج. بدأت: "لأجل خاطر الرب...".

قاطعها بي ينج غاضبًا: "هل لأجل خاطر الرب يصنع الأمريكيُّون القنابل والطائرات النفاثة والدبابات؟"، لوَّح بيده بنفاد صبر، "أرجعوها مكانها". غطَّى عينيه، قال: "أين كُنَّا؟ كُنَّا نتحدث عن التضحيات، أليس كذلك؟ كنتُ سأسألك مَن اختَرتَ ليكون بَيدَقَ الملك؟ إذا لم تكن قد اخترت بعدُ يا كولونيل، سأرشِّح لك الشاب المزعج هناك، ذلك الذي يمسكه الرقيب. إن بيدق الملك لمركز حسَّاس".

أخذ العرِّيف في الركل والتلوِّي وكاد يدخل في نوبة جديدة. شدَّ الرقيب ذراعيه حوله. قال من بين أنفاسه: "سيهدأ الفتى بعد دقيقة"،

أدار رأسه صوب الكولونيل كيلي، "أيًّا كان بيدق الملك هذا، فهو أنا. أين أقف يا سيدي؟". استرخى الشاب، وأطلق الرقيب سراحه.

أشار كيلي إلى المربَّع الرابع في الصف الثاني من الرُّقعة العملاقة. خطا الرقيب إلى المربَّع وأحنى كتفيه العريضتين. تمتم العرِّيف بشيء غير ذي معنى، واتَّخذ مكانًا في المربَّع المجاور للرقيب، كثاني بيدَقٍ أمين. أمَّا البقية فلم يزالوا في الخلف.

قال تقنيٌّ طويلٌ نحيل من الدرجة الرابعة: "كولونيل، أخبِرْنا أين نذهب. نحن لا نعرف عن الشطرنج أي شيء، ضعنا حيث تريد"، تمايَلَت تفَّاحة آدم في رقبته، "لتجعل الأماكن الآمنة لزوجتك وأبنائك. هم الأهم. أخبرنا ماذا نفعل".

قال الطيار مُتهكِّمًا:."لا توجد أماكن آمنة، لا أماكنَ آمنة لأي شخص. اختَرْ مُربَّعًا، أي مربع"، خطا على الرقعة، "ماذا يجعلني ذلك المربع؟".

قال كيلي: "ذلك يجعلك الأسقف [الفيل][1] أيُّها الملازم، أسقف الملك".

* * *

وجد نفسه يفكر في الملازم بهذه الطريقة. لم يَعُد إنسانًا، بل قطعة قادرة على التحرُّك قُطريًّا على الرُّقعة، قادرة على تحقيق أذى بالغ، إذا هاجمت مع الوزير، في صفوف القطع السوداء عبر الرُّقعة.

قال الطَّيَّار بوقاحة: "وأنا الذي لم أذهب إلى الكنيسة إلَّا مرَّتين في حياتي. ما هي قيمة الأسقف يا بي ينج؟".

---

(1) لأن المؤلف يستخدم معاني مسمَّيات قطع الشطرنج الأجنبية بأكثر من شكل؛ فضَّلت ترجمتها حرفيًا، مع ذِكر التَّسمية العربية للقطعة بين قوسين [ ] عند ذكرها لأول مرة فقط. [المترجم]

كان بي ينج مستمتعًا. "فارس [حصان] وبيدق يا فتى، فارس وبيدق".

فكَّر كيلي أن الحمد لله على وجود الملازم. ابتسم أحدُ الجنود الأمريكيين. كانوا متكتِّلين معًا، ملتصقين بالحائط. أمَّا الآن فقد بدؤوا في الحديث مع بعضهم، مثل فريق بيسبول يسخن قبل المباراة. بناءً على توجيهات كيلي، تحرَّكوا جميعًا إلى الرقعة واتخذوا مواقعهم، بدوا كما لو أنهم غير واعين بمعاني أفعالهم.

تحدَّث بي ينج مُجدِّدًا: "كل القطع في مكانها الآن، عدا فرسانك وملكتك (الوزير) يا كولونيل. وأنت بالطبع الملك. هيا، هيا. يجب أن تنتهي المباراة قبل موعد العشاء".

قاد كيلي زوجته وجيري وبول إلى مربعاتهم الصحيحة برفق، مرشدًا إيَّاهم بذراعيه الطويلتين. احتقر نفسه لكونه بهذا الهدوء، بهذا الانفصال عمَّا يفعل. رأى الخوف والعتاب في عيون مارجريت، لم يكن في وسعها أن تفهم كيف صار بهذه الطريقة، وأن البرود هو أملهم الوحيد في النجاة. حوَّل نظره بعيد عنها.

صفَّق بي ينج آمِرًا بالصمت. "أخيرًا، جيد، صار بوسعنا أن نبدأ". شدَّ على أذنه متأمِّلًا. "أرى أن تلك وسيلة مناسبة لجمع العقول الشرقية والغربية معًا، ألا ترى ذلك يا كولونيل؟ فنحن هنا نُرضي الوَلَعَ الأمريكي بالقمار وتقديرنا الشرقي العميق للدراما والفلسفة". همس الرائد بارزوف في أذنه بنفاد صبر. قال بي ينج: "أوه، حسنًا. هناك قاعدتان أخريان: مسموح بعشر دقائق لكل حركة، ولا يُسمَح بالتراجُع عن أي حركة، أظنُّ الأخيرة لم تكن بحاجة للذِّكر. ممتاز". بينما يضغط على زِرِّ ساعة الإيقاف ويضعها على الدرابزين، قال: "الحركة الأولى من حقِّ البيض، هكذا تقول التقاليد".

قـال الكولونيـل كيـلي بحنجـرة مختنقـة: "تحـرَّكْ مُربَّعـيْن للأمـام أيُّهـا الرقيـب". نظـر إلى يديـه ووجـد أنهـما بدأتـا في الارتعـاش.

قـال بي يونـج، بينـما يديـر رأسـه نصـف حركـة تجـاه الفتـاة الصغـيرة، وكأنـه يتأكَّـد أنهـا تشـاركه مُتعَتَـه: "أعتقـد أني سـأكون غـير تقليـديٍّ إلى حـدٍّ مـا"، وأمـر خادمـه: "حَرِّكـوا بيـدق ملكتـي مُربَّعَـيْن إلى الأمـام".

تابـع الكولونيـل كيـلي الخـادم يُحـرِّك المنحوتـة الضخمـة إلى الأمـام، إلى نقطـة تُهـدِّد الرقيـب. نظـر الرقيـب بحـيرة إلى كيـلي، قـال بابتسـامة واهنـة: "كل شيء عـلى مـا يـرام؟".

قـال كيـلي: "آمـل ذلـك. إليـك حمايتـك"، وأمـر العريـف الشـاب، "أيُّهـا الجنـدي، تحـرَّكْ مربَّعًـا إلى الأمـام". هـذا كان كل مـا اسـتطاع فعلـه. الآن لم تَعُـد هنـاك ميـزة في أخـذ بي ينـج للبيـدق الـذي يُهـدِّده، أي الرقيـب. تكتيكيًـا سـتكون تلـك مقايضـة بـلا داعٍ، بيـدق مقابـل بيـدق. لا ميـزة بحسـب رؤيـة الشـطرنج الجيـد.

قـال بي ينـج بلُطـف: "ذلـك وضـع سيِّئ، أعـرف"، توقَّـف، "طيـب، لكـن مـرة أخـرى، لسـت متأكِّـدًا أنهـا سـتكون مقايضـة حكيمـة. أمـام خصـم شـديد الـذكاء ربمـا يكـون مـن الأفضـل أن ألعـب شـطرنجَ سـليمًا، وأنـسى الإغـراءات المتعـدِّدة"، تمتـم لـه الرائـد بـارزوف بـشيء مـا، "لكـن ذلـك سيشـعل روح اللعبـة عـلى الفـور، أليـس كذلـك؟".

سأل الرقيب بقلق: "ما الذي يتحدث عنه يا سيدي؟".

قبـل أن يتمكَّـن كيـلي مـن ترتيـب أفـكاره، أعطـى بي ينـج أمـره: "خُـذ بيـدق الملـك الأبيـض".

صـاح الرقيـب: "كولونيـل، مـاذا سـتفعل؟". جـاء حارسـان وسـحباه مـن عـلى الرقعـة إلى خـارج الغرفـة. انغلـق خلفـه بـابٌ ثقيـلٌ مُزخـرَف بضجَّـة.

صرخ كيلي: "اقتلوني!"، منطلقًا من مُربَّعه خلفهم. نصف دستة حراب بنادق أعادته إليه.

* * *

بلا مبالاة، حرّك الخادم بيدق بي ينج إلى المربع حيث وقف الرقيب من قبل. تردَّد صَدى طلقة من الجانب الآخر من الباب السميك، وعاد الجَلَّادان للظهور. لم يَعُد بي ينج مبتسمًا. "دورك يا كولونيل، هيَّا هيَّا، أربع دقائق قد مضت حتى الآن".

انهار هدوء كيلي، ومعه ذهب وَهمُ اللعبة. القطع بين يديه عادت بَشرًا من جديد. روح القيادة الثمينة المتوحِّشة ذهبت عن الكولونيل كيلي. لم يَعُد الآن مُؤهَّلًا لاتخاذ قرارات الحياة والموت أكثر من مُجنَّد غِرٍّ. أدرك دائخًا أن هدف بي ينج لم يكن الفوز بسرعة، بل تقليل الأمريكيين في مواجهات عبثية مروِّعة. مرَّت دقيقتان فيما هو يعاني لإجبار نفسه على العقلانيَّة. همس في النهاية: "لا أستطيع". وتهدَّل جسده.

سأل بي ينج: "أتريد مني قتلكم جميعًا الآن؟ مضطرٌّ أن أقول إني أرى ذلك مُثيرًا للشفقة يا كولونيل. هل كل الضباط الأمريكيُّون يستسلمون بهذه السهولة؟".

قال الطَّيَّار: "عَرِّفه مقامه يا كولونيل. هيا بنا، شدَّ حيلك!".

قال كيلي للعرِّيف: "أنت لستَ في خطر الآن، خُذ بيدقه".

قال الشاب بمرارة: "كيف لي أن أعرف أنك لا تكذب؟".

قال الطيار بحدَّة: "اذهب إلى هناك".

"لا!".

الحارسـان اللـذان أعدمـا الرقيـب ثَبَّتـا ذِراعَـيْ العَرِّيـف إلى جانبيـه. ونظـرا إلى بي ينـج في انتظـار أوامـره.

قـال بي ينـج باهتـمام: "أيُّهـا الفتـى، أستسـتمتع بالتعذيـب حتـى المـوت؟ أم تُفضِّـل أن تفعـل مـا يقولـه لـك الكولونيـل؟".

انتفـض العرِّيـفُ فجـأة فوقـع الحارسـان أرضًـا. خطـا إلى المربـع الـذي احتلَّـه البيـدق الـذي أخـذ الرقيـب، وركل القطعـة ووقـف مكانهـا منفـرج القَدَمَـيْن.

قهقـه الرائـد بـارزوف وقـال هـادرًا: "سـيتعلَّم أن يكـون بيدقًـا. إنهـا مهـارة شرقيـة سـيفيد الأمريكيـين تعلُّمُهـا للأيـام القادمـة".

ضحـك بي ينـج مـع بـارزوف، وداعـب رُكبَـة الفتـاة الصغـيرة، التـي كانـت تجلـس بـلا تعبـير عـلى مُحيَّاهـا بجـواره. "حسـنًا، لقـد كنَّـا متسـاوين تمامًـا حتـى الآن، بيـدقٌ مقابِـلَ بَيـدَقٍ. دعنـا نبـدأ الهجـوم الجَـدِّيَّ". فرقـع أصابعـه مسـتدعيًا انتبـاه الخـادم. أمـر: "بيـدق الملـك إلى الأمـام. الآن صـار أسـقفي وملكتـي جاهِزَيْـن للابتعـاث إلى أرض الرجـل الأبيـض". ضغـط زِرَّ سـاعة الإيقـاف. "دورك يـا كولونيـل"...

* * *

نظـر الكولونيـل برايـن كيـلي بحركـة لا إراديـة إلى زوجتـه بحثًـا عـن التعاطُـف والتشـجيع. ثـم نظـر بعيـدًا. منظـر مارجريـت كان مرعبًـا يكـسر القلـب، ولم يكـن هنـاك شيء يفعلـه لأجلهـا عـدا الفـوز. لا شيء. نظرتهـا كانـت خاويـة، شـبه غبيـة. وجَـدَت ملجأهـا في الصَّمَـم والعمـى والصدمـة الـلا- شـعورية.

عـدَّ كيـلي القطـع التـي لا تـزال ناجيـة عـلى الرقعـة. مـرَّت سـاعة منـذ بـدأت اللعبـة. لا يـزال عـلى قيـد الحيـاة خمسـة بيـادق؛ مـن بينهـم العريـف الشـاب، وأسـقف؛ الطيـار العصبـي، ورُخَّـان [طابيتـان]، وفارسـان؛

فارسـان مرعوبـان في العـاشرة مـن عمرهـم، ومارجريـت؛ ملكـة متصلِّبـة تُحـدِّق في الخـواء، وهـو نفسـه؛ الملـك. ثمـة أربعـة ناقصـون؟

قُتلـوا، قُتلـوا في مقايضـات عبثيَّـة، لم تُكلِّـف بي ينـج إلا قطعًـا خشـبية. التـزم بقيـة الجنـود الصمـت والتجهُّـم، كُلٌّ في عالمـه المنفصـل.

قـال بي ينـج: "أعتقـد أنـه حـان وقـت انسـحابك، أخـشى أن كل شيء يـكاد أن ينتهـي، أتنسـحب يـا كولونيـل؟"، قطَّـب الرائـد بـارزوف وجهـه بحكمـة ناظـرًا إلى قطـع الشـطرنج، هـزَّ رأسـه ببـطء، وتثـاءب.

حـاول الكولونيـل كيـلي أن يسـتعيد تركيـز عقلـه وعينيـه. شـعر أنـه يُنقِّـب، أنَّـه يحفـر طريقـه عـبر تَـلٍّ مـن الرمـال السـاخنة، بالحاجـة إلى المتابعـة، مُنقِّبًـا متلوِّيًـا مختنقًـا، أعمـى. همهـم: "اذهـب إلى الجحيـم". ركَّز عـلى نمـط القطـع عـلى الرقعـة. كشـطرنج، كانـت مبـاراة شـنيعة عبثيَّـة. لعـب بي ينـج بـلا اسـتراتيجية عـدا تدمـير الرجـال البيـض. ولعـب كيـلي للدفـاع عـن رجالـه بـأي ثمـن، ولم يخاطـر بـأي منهـم في الهجـوم. ملكتـه القويـة وفارسـاه ورُخَّـاه وقفـا بـلا اسـتخدامٍ في الأمـان النسـبي لآخـر صفَّيْن خَلفيَّـيْن مـن المربَّعـات. شَـدَّ قبضتيـه وفكَّيـه في إحبـاط. صفـوف غريمـه العشـوائية كانـت مفتوحـةً عـلى مصراعيهـا. يمكـن تحقيـق كـش ملـك عـلى بي ينـج، فقـط لـو لم يكـن الفـارس الأسـود مُهَيمنًـا عـلى منتصـف الرقعـة.

قـال بي ينـج مُتملِّقًـا: "دورك يـا كولونيـل، دقيقتـان". ثـم رأى كيـلي الثمـن الـذي سـيكون عليـه دفعـه، الـذي سـيكون عليهـم جميعًـا دفعـه، بسـبب لعنـة الضمـير. عـلى بي ينـج فقـط أن يحـرِّك ملكتـه قُطريًّـا، ثلاثـة مربعـات لليسـار، ليكِـشَّ ملكـه. بعـد ذلـك سـيكون عليـه القيـام بحركـة واحـدة، حتميَّـة، لا يمكـن مقاومتهـا، ثـم كـش ملـك، النهايـة. سـيُحرِّك بـي ينـج ملكتـه. بـدت اللعبـة لـه وكأنهـا فقَـدَت حِدَّتهـا، باتـت لـه هالَـةَ رَجُـلٍ يتـوق لشَـغل نفسـه بـشيء لآخـر.

وقـف زعيـم المتمرِّديـن الآن، يميـل عـلى الدرابزيـن. خلفـه وقـف الرائـد بـارزوف، يثبِّـت سـيجارته في حامـلٍ عاجـيٍّ مُزَخـرَف. قـال بـارزوف متأمِّلًا الحامـل بإعجـاب، مُقلِّبًـا إيـاه بـين ناحيـة وأخـرى: "الـشيء المـؤلم في الشـطرنج، أنـه لعبـة ليـس فيهـا ذرَّة حَـظٍّ كـما تعلـم. ليـس هنـاك عـذر للخـاسر". لهجتـه كانـت متحذلقـة، بغطرسـة مُـدرِّس يلقـي عـلى تلاميـذه الأبسـط مـن أن يفهمـوا الحقيقـة المطلقـة.

هـزَّ بي ينـج كتفيـه. "لا يمنحنـي الفـوز بهـذه المبـاراة أي رضـا. خيَّـب الكولونيـل كيـلي أمـلي. بامتناعـه عـن المخاطـرة بـأي شيء، حـرم اللعبـة مـن حذاقتهـا ومتعتهـا. إني لأتوقَّـع مـن طبَّاخـي ذكاءً أكـثر".

* * *

توهَّـج الغضـب الأحمـر السـاخن عـلى وجنتـي كيـلي، والتهبـت أذنـاه. اشـتدَّت عضـلات معدتـه، وتباعَـدَت سـيقانه عـن بعضهـما. لا يجـب أن يحـرِّك بي ينـج ملكتـه، إن حـرَّك ملكتـه سـيخسر كيـلي. ولـو حـرَّك فارسـه مـن خـطِّ هجـوم كيـلي، سـيفوز كيـلي. شيء واحـد قـد يحـثُّ بي ينـج عـلى تحريـك فارسـه، فرصـة جديـدة مثـيرة لسـاديَّته.

قال بي ينج: "انسحب يا كولونيل، وقتي ثمين".

سأل العرِّيف الشاب متشكِّكًا: "هل انتهى كل شيء؟".

قـال كيـلي: "احتَفِـظْ بفيهِـكَ مغلقًـا وابـقَ حيـث أنـت". حـدَّق بعيونـه الضَّيِّقـة الحاذقـة في فـارس بي ينـج، واقفًـا بـين قطعـه الحيَّـة. رقبـة الحصان المنحوتـة كانـت مُقوَّسـة، ومنخـراه كانا متَّسِـعَين.

الحسـبة البسـيطة لمصير رجـال الشـطرنج البيـض بـرزت بوضـوح في وعـي كيـلي، بسـاطتها كان لهـا تأثـير مُنعِـش عليـه، مثـل نسـمة بـاردة. يجـب تقديـم قربـان لفـارس بي ينـج. إذا قبـل بي ينـج التضحيـة، سـتكون

المبـاراة لكيـلي. سـيكون الفـخُّ ممتـازًا قاتـلًا، باسـتثناء تفصيلـة واحـدة: الطُّعـم.

قال بي ينج: "تبقَّت دقيقة واحدة يا كولونيل".

نظـر كيـلي مـن وجـهٍ إلى وجـهٍ، غـير متأثِّـر بالعدوانيـة أو قِلَّـة الثقـة أو الخـوف الـذي رآه في كل زوج عيـون. أزال المرشَّـحين للمـوت واحـدًا تلـو الآخـر مـن القائمـة. هـؤلاء الأربعـة كانـوا مِحوَريِّـين للهجـوم الكاسـح المباغـت القـادم، وهـذا يجـب أن يحـرس الملـك. أشـارت الـضرورة، مثـل طفـلٍ يلعـب حـادي بـادي كرنـب زبـادي في دائـرة، إلى قطعـة الشـطرنج الوحيـدة الممكـن التضحيـة بهـا، قطعـة واحـدة فقـط.

لم يسـمح كيـلي لنفسـه بالتفكـير في قطعـة الشـطرنج إلا كمتغـيِّر في معادلـة حسـابية صارمـة: لـو مـات س، سـيعيش البقيـة. اسـتوعب المأسـاة المتضمَّنـة في قـراره كرجـل يعـرف معنـى المأسـاة، لا كرجـل يعيشـها.

قـال بـارزوف: "عـشرون ثانيـة". كان قـد أخـذ سـاعة الإيقـاف مـن بي ينـج.

هجـرت العزيمـة البـاردة كيـلي لِلَحظَـة، ورأى لِوَهلَـةٍ النَّكبـة الكاملـة التـي ألمَّـت بـه، الإشـكالية القديمـة قِـدَم الإنسـان، والحديثـة حداثـة الـصراع بـين الـشرق والغـرب. عندمـا يتعـرَّض بـشَرٌ للهجـوم، عددهـم س مـضروبٌ في مئـات أو آلاف، فيجـب أن يمـوت س عـلى يـد مَـن يحبُّونـه. وظيفـة كيـلي كانـت اختيـار س.

قال بارزوف: "عشر ثوان".

قـال كيـلي، بصـوت مرتفـعٍ واثـق: "جـيري، تحـرَّك إلى الأمـام مُربَّعًـا، ثـم مُربَّعَـيْن إلى اليسـار". بـلا تخويـن، تحـرَّك ابنـه مـن الصـف الخلفـي إلى ظـلال الفـارس الأسـود. بـدا أن الوعـي يتسـرَّب إلى عيـون مارجريـت. حرَّكَـت رأسـها عندمـا تحـدَّث زوجهـا.

حدَّق بي ينج في الرقعة مذهولًا، سأل في النهاية: "هل أصاب عقلك شيء؟ أتدرك ما فعلته لتَوِّك؟".

عبرت وجه بارزوف ابتسامةٌ باهتة. انحنى إلى الأمام وكأنه سيهمس بشيء لبي ينج، لكنه على ما يبدو غيَّر رأيه. تراجع للخلف مستندًا إلى العمود، ليراقب كل حركة لكيلي عبر سحابة من دخان السيجارة.

تظاهر كيلي بعدم فهم كلمات بي ينج. ثم دفن وجهه بين يديه وصرخ صرخةً مدروسة.

"يا إلهي! لا!".

قال بي ينج: "خطأ فادحٌ بلا شك". بحماس شرح المأزق للفتاة الصغيرة بجواره، أشاحت عنه. بدا أن الإيماءة أغضبته بشدَّة.

توسَّل كيلي بانكسار: "أرجوك دعني أُعِدْه لمكانه".

ضرب بي ينج على الدرابزين بمفاصله. "بلا قواعد يا صديقي تصبح الألعاب بلا معنى. لقد اتَّفقنا أن الحركات ستكون نهائية، وستظل كذلك". أشار لخادمه، "فارس الملك إلى مربع أسقف الملك السادس". حرَّك الخادم القطعة إلى المربع الذي يقف فيه جيري. ابتُلع الطُعم، وصارت المباراة ملكًا لكيلي من الآن فصاعدًا.

همهمت مارجريت: "ما الذي يتحدَّث عنه؟".

قال بي ينج: "لِمَ تَدَعُ زَوجتَكَ مُترقِّبةً يا كولونيل؟ كُن زوجًا طيِّبًا وأَجِب على سؤالها، أم أفعل أنا؟".

قال بارزوف بصوتٍ طغى على صوت بي ينج: "زوجك ضحَّى بفارس، لقد خَسرتِ ابنَكِ". بدا صوته كعالم يجري تجربة، مترقِّب متوقِّع شغوف.

سمع كيلي الصوت المختنق في حلق مارجريت، التقطها قبل أن تقع. فرك معصميها. "عزيزتي، اسمعيني أرجوك". هزَّها بعنف أكثر

مـمًّا قصـد. ردُّ فعلهـا كان سـاحقًا، انهمـرت الكلـمات منهـا كشـلَّالٍ، ثرثـرة هيسـتيرية تدينـه. أحكـم كيـلي القبـض عـلى معصميهـا بـين يديـه وظـلَّ يسـتمع بصمـت إلى إهاناتهـا المنكسـرة.

* * *

جحظـت عينـا بي ينـج، مَشـدوهًا مـن الدراما المذهلـة الجارية بالأسـفل، غافِلًا عـن نوبـة البـكاء التـي غرقـت فيهـا الفتـاة الصغـيرة خلفـه. شـدَّت قميصـه متوسِّـلةً، دفعهـا بعيـدًا دون أن يحيـد ببـصره عـن الرقعـة.

فجـأة قفـز التِّقنـيُّ الطويـل تجـاه أقـرب حـارس، ضاربًـا كتفـه في صـدر الرجـل وقبضتـه في معدتـه. أحـاط بـه جنـود بي ينـج، طرحـوه أرضًـا وجـرُّوه إلى مربعـه مجـدَّدًا.

في وسـط الهـرج، اندفـع جـيري المذعـور جريًـا إلى أبيـه وأمـه. تـرك جـيري مارجريـت، التـي وقعـت عـلى ركبتيهـا، ليحتضـن الطفـل المرتجـف. ثبـت بـول، تـوأم جـيري، في مكانـه، مرتعشًـا ومحدِّقًـا بتبلُّـد في الأرض.

قـال بي ينـج: "هـلَّا عدنـا للمبـاراة؟"، صوتـه كان عاليًـا. أدار بـارزوف ظهـره للرقعـة، غـير راغـب في منـع الحركـة التاليـة، وكاره عـلى مـا يبـدو لمشـاهدتها.

أغلـق كيـلي عينيـه وانتظر بي ينـج أن يعطـي الأمر للجلَّادين. لم يسـتطع أن ينظـر إلى مارجريـت وجـيري. لـوَّح بي ينـج بيـده آمِـرًا بالصمـت. قـال: "يؤسـفني أن...". ثـم انغلـق فمـه، واختفـى الـشَّرُّ فجـأة مـن عـلى مُحيَّـاه، تـاركًا مكانـه الذهـول والغبـاء. انهـار الرجـل الصغـير عـلى الدرابزيـن، وانزلـق منـه ليقـع بـين جنـوده.

تصـارع الرائـد بـارزوف مـع الفتـاة الصينيـة. في يدهـا الصغـيرة، التـي لا تـزال بعيـدة عـن قبضتـه، كانـت هنـاك سـكِّين ضئيلـة. دفنـت السـكين في صدرهـا، ووقعـت تجـاه الرائـد. تركهـا بـارزوف تقـع، وخطـا تجـاه

الدرابزين. صاح في الحُرَّاس: "أبقوا المساجين حيث هم. أهو حي؟". لم يكن في صوته غضب أو أسى، فقط انزعاج، سخط من عدم سير الأمور كما هو مُخطَّط له. نظر خادم إليه وهزَّ رأسه.

أمر بارزوف الخدم أن يُخرِجوا أجساد بي ينج والفتاة من هنا. كان أقرب إلى سلوك ربِّ منزلٍ مُنظَّم من تصرُّف شخص حزين على وفاة عزيز له. لم يُسائل أحدٌ سُلطَته النَّافِذة.

قال كيلي: "إذن هذه في النهاية حفلتك أنت". قال بارزوف بحدَّة: "لقد خسر أهل آسيا قائِدًا عظيمًا جدًّا"، وابتسم لكيلي بغرابة، "برغم أنه لم يكن بلا نقاط ضعف، أليس كذلك يا كولونيل؟"، هزَّ كتفيه، "لكنَّك فُزتَ فقط بالمبادرة، لا باللعبة. والآن عليك أن تتعامل معي بدلًا من بي ينج. ابقَ حيث أنت يا كولونيل، سأعود بعد قليل".

أطفأ سيجارته في الدرابزين المزخرف، أعاد حاملها لجيبه بتأنُّق، واختفى عبر الستائر.

همست مارجريت: "هل سيكون جيري بخير؟". كان ذلك توسُّلًا لا سؤالًا، وكأنَّ الرحمة كانت ملك لكيلي، يمنُّ بها أو يمنعها.

قال: "بارزوف وحده يعرف". كان يتوق لأن يشرح لها حركاته، لجعلها تفهم كيف لم يكن لديه خيار. لكنه علم أن التوضيح سيجعل وقع المأساة أقسى بما لا يُقاس عليها. الموت بسبب خطأ هو شيء قد تتفهَّمه، لكن الموت نتيجة لتفكير بارد، كخطوة في تَسَلسُلٍ منطقي، لن تتفهَّم ذلك مطلقًا. بل وعِوَضًا عن تفهُّمه، ستتسبَّب في مقتلهم جميعًا.

كرَّر بإرهاق: "بارزوف وحده يعلم". كان الصفقة لا تزال قائمة، ثمن الانتصار الذي وافق عليه.

بـارزوف عـلى مـا يبـدو لم يـدرك بعـدُ مـا الـذي يشـتريه كيـلي مقابـل حيـاة. قـال التقنـي الطويـل: "كيـف نتأكَّـد أن بـارزوف سـيتركنا نذهـب إن فزنـا؟".

"لن نتأكَّد أيُّها الجندي، لن نفعل".

ثـم بـدأ يتسـلَّل إلى وعيـه شـكٌّ جديـد. ربمـا هـو لم يَفُـز بأكـثر مـن تأجيـلٍ وجيـز...

لم يعـد كيـلي يـدرك كـم قضـوا مـن الوقـت عـلى الرقعـة في انتظـار عـودة بـارزوف. انهـارت أعصابـه نتيجـة لهجمـة بعـد أخـرى مـن النـدم والضغـط ثقيـل الـوطء لفداحـة المسـؤولية عـلى عاتقـه. غـرق وعيـه في العتمـة. نامـت مارجريـت مـن فـرط الإرهـاق، بـين ذراعيهـا جـيري، الـذي لم يُنـادِ المنـادي عـلى حياتـه بعـدُ. تكـوَّر بـول في مُربَّعـه، يغطيـه معطـف العرِّيـف الشـاب. ووقـف فـارس بي ينـج الأسـود، عـلى الحصـان الـذي رأسـه منحوتـة وكأن النـار عـلى وشـك الانفجـار مـن منخريهـا، في محـلِّ مـا كان مربـع جـيري.

* * *

بالـكاد سـمع كيـلي صوتـًا مـن الشُّرفـة، حسـبه شـذرة متجسِّـدة مـن كابـوس. لم يضـع عقلـه معـاني عـلى الكلـمات، فقـط سـمع وقعهـا. ثـم فتح عينيـه ورأى شـفَتَي الرائـد بـارزوف تتحـرَّكان. رأى التحـدِّي المتغطـرس في عينيـه، وفهـم الكلـمات. "بمـا أن هـذه المبـاراة شـهدت سَـيَلانًا كثـيراً مـن الدمـاء، سـيكون مـن المؤسـف تركهـا مُعلَّقـة".

اسـتقرَّ بي ينـج بأبَّهـة عـلى وسـائد بي يينـج، وفـوق إحـدى قدميـه وضـع الأخـرى. "أنـوي هزيمتـك يـا كولونيـل، وسـأتفاجأ إن وجـدت في ذلـك صعوبـة. كان سـيكون مـن المزعـج أن تفـوز بخدعـة مبـاشرة مثـل تلـك التـي خَدَعَـت بي ينـج. لـن تجـد تلـك السـهولة مـرَّةً أخـرى. أنـت تلعـب

معي الآن يا كولونيل. لقد فزت بالمبادرة لوهلة، ولكني سأستعيدها هي والمباراة الآن، بلا أي تأخير".

نهض كيلي على قدميه، بدا بهيئته الضخمة مثل نصب تذكاري يطل على قِطَعِه البيضاء الجالسة في مربَّعاتهم حوله. لم يكن الرائد بارزوف مُترفِّعًا عن ذلك النوع من الترفيه الذي وجده بي ينج مسلِّيًا جدًّا. لكن كيلي شعر باختلاف بين نهج الرائد ونهج زعيم المتمردين. لم يكن الرائد يستكمل المباراة لأنها تعجبه؛ بل لأنه أراد إثبات أنه شخص شديد الذكاء، وأن الأمريكيين قمامة. على ما يبدو هو لم يدرك أن بي ينج خسر اللعبة بالفعل. إما ذلك أو أن كيلي أخطأ الحساب.

حرّك كيلي كل قطعة على الرقعة في عقله، مُحفِّزًا خياله ليريه الخطأ في خطَّته، لو كان يوجد خطأ... أي لو كانت تضحيته الجحيمية المؤسفة بلا طائل. في مباراة عادية، حيث لا خطر إلا على قطع من الخشب، كان سيدعو غريمه للانسحاب، وستنتهي المباراة عند هذه النقطة. لكن هنا، حيث اللعب على لحم ودم، يطغى شَكٌّ مُؤلِم مُتَأصِّل على الناتج المنطقي السليم. لم يجرؤ كيلي على الإفصاح عن أنه خطَّط للهجوم والفوز في ثلاث حركات، ليس حتى يقوم بالحركات، ليس إلَّا بعدما يخسر بارزوف كل فرصة لاستغلال الخطأ، لو كان يوجد خطأ.

صرخت مارجريت: "ماذا عن جيري؟".

قال بارزوف: "جيري؟ آه، بالطبع، الفتى الصغير. حسنًا، ماذا عن جيري يا كولونيل؟ سأُقدِّم تنازلًا بسيطًا لو أردت. أتودُّ أن تتراجع عن تلك الحركة؟". كان الرائِدُ دَمِثًا، مثل كاريكاتير عن حُسن الضيافة.

قال كيلي بحسم: "بلا قواعد أيُّها الرائد، تصبح الألعاب بلا معنى. أنا آخر شَخصٍ يكسرها".

تحـوَّل تعبـير بـارزوف إلى التعاطـف العميـق. "زَوجُـكِ يـا مـدام هـو مَـن اتَّخـذ القـرار، لا أنـا". ضغـط زر سـاعة الإيقـاف. "بوسـعك الاحتفـاظ بالفتـى حتـى يهلـك الكولونيـل حيـاة بقيَّتِكـم. دورك يـا كولونيـل، عـشر دقائـق".

أمر كيلي مارجريت: "خُذي بَيدَقَه". لم تتحرك.

"مارجريت، أتسمعينني؟".

قـال بـارزوف مُوبِّخًـا: "سـاعدها يـا كولونيـل، سـاعدها". أخـذ كيـلي مارجريـت مـن كوعهـا، وقادهـا بـلا مقاومـة للمُربَّـع حيـث يقـف البيـدق الأسـود. راح معهـم جـيري، مُحافِظًـا عـلى أمِّـه بينـه وبـين كيـلي. عـاد كيـلي إلى مُربَّعـه، ودفـن يديـه في جيوبـه، وراقـب الخـادم يزيـل البيـدق الأسـود عـن الرقعـة. "كـش ملـك أيُّهـا الرائـد".

رفـع بـارزوف حاجبًـا. "أتقـول كـش ملـك؟ مـاذا عـليَّ أن أفعـل حيـال ذلـك التكديـر؟ كيـف أُعيـدُكَ لمواجهـة المشـاكل الأكـثر إثـارة للاهتـمام عـلى الرقعـة؟"، أشـار للخـادم، "حَـرِّكْ ملـكي مُربَّعًـا إلى اليسـار".

أمـر كيـلي الطَّيَّـار: "تَحـرَّكْ قُطريًّـا تجاهـي مُربَّعًـا أيهـا الملازم". تـردَّد الطيـار. "تحـرَّكْ! أتسـمعني؟".

"تمـام يـا فنـدم"، لهجتـه كانـت سـاخرة، "أنتراجـع الآن يـا فنـدم؟". مـضى المـلازم للمربَّـع بـتراخٍ وبـطء ووقاحـة.

قـال كيـلي بهـدوء: "كـش ملـك مُجـدَّدًا أيهـا الرائـد"، أشـار إلى المـلازم، "الآن أسـقفي يُهـدِّد ملـكك". أغلـق عينيـه، وقـال لنفسـه مـرَّةً تلـو أخـرى إنـه لم يخطـئ في الحسـاب، وأن التضحيـة فـازت بالمبـاراة، وأن لا مخـرج لبـارزوف. تلـك سـتكون آخـر الحـركات الثـلاث.

قال بارزوف: "حسنًا، أهذا أفضل ما لديك؟ سأُحرِّك ببساطة ملكتي أمام ملكي". حَرَّك الخادمُ قِطعَتَه. "صارت تلك الآن قصَّة أخرى".

قال كيلي لأبعد بيادقه، التِّقني المضروب: "خُذ مَلِكَتَه".

قفز بارزوف على قدميه. "انتظر!".

تهكَّم كيلي: "لم تتوقَّعها؟ أتَوَدُّ استرجاعها؟".

خطا بارزوف ذهابًا وإيابًا في شرفته، مُتنفِّسًا بصعوبة. "بالطبع تَوَقَّعتُها!".

قال كيلي: "تلك هي الحركة الوحيدة التي بوسعك لإنقاذ ملكك. بوسعك استعادتها إن أردت، لكنك ستجد أنها الحركة الوحيدة الممكنة".

صاح بارزوف: "خُذ الملكة ولنستكمل المباراة، خُذها!".

ردَّد كيلي صداه: "خذها"، ودحرج الخادم القطعة العملاقة إلى الصفوف الجانبية. وقف التِّقنيُّ الآن مُحدِّقًا في ملك بارزوف، على بُعد بوصات. قالها الكولونيل كيلي بنعومة هذه المرة: "كش".

زفر بارزوف ساخطًا. "كش طبعًا"، وأخذ صوته يعلو، "لا بفضلك يا كولونيل كيلي، بل بفضل الغباء المذهل لبي ينج".

"والآن انتهت المباراة أيها الرائد".

ضحك التِّقنيُّ بغباء، وجلس العرِّيف، وألقى الملازم ذراعيه حول الكولونيل كيلي، وهتف الطفلان مُبتَهِجَيْن. فقط مارجريت هي من هَبَّت واقفةً، لا تزال مشدودةً، مرعوبةً.

قال بارزوف بحموضة: "ثمن الفوز، بالطبع، لم يُدفع بعدُ. أفترض أنك جاهز للدفع الآن؟".

شحب كيلي.

"ذلك كان الاتفاق، إن منحتني شرف التَّمسُّك به".

وضع بارزوف سيجارة أخرى في الحامل العاجي، مستغرقًا دقيقة متجهِّمة لفعل ذلك. عندما تحدَّث، فعل بلهجة متحذلقة من جديد، لهجة حامل الحكمة. "لا، لن آخذ الفتى. أشعر تجاهكم مثلما فعل بي ينج، أنكم، أي الأمريكان، أعداء، سواء كانت هناك حالة حرب رسمية أو لا. أراكم كسجناء حرب.

لكن طالما لا توجد حالة حرب رسمية، ليس لديَّ خيار كمُمثِّل لحكومتي، إلا العمل على التيقُّن من عبوركم سالمين للخطوط. تلك كانت خطتي عندما تابعت اللعبة من حيث تركها بي ينج. تحريركم ليس له علاقة بمشاعري الشخصية أو بناتج المباراة. فوزي كان سيسعدني وسيعلِّمكم درسًا مهمًّا. لكنه لم يكن ليشكل فارقًا في مصيركم". أشعل سيجارته وتابع النظر لهم بقسوة.

قال كيلي: "تلك شهامة منك أيها الرائد".

"أؤكِّد لك أنها مسألة سياسة عملية. التسبُّب في حادثة تدهور العلاقة بين بلدينا لن يفيد الآن. أن يكون روسيًّا شهمًا مع أمريكيين فتلك استحالة روحية، تناقُض في المصطلحات. على مدار تاريخ مؤلم طويل، تعلَّمنا وتعلَّمنا جيدًا أن نحتفظ بشهامتنا للروسيِّين". تحوَّل تعبيره إلى احتقار كامل. "ربما تودُّ لعبة مباراة أخرى يا كولونيل؟ شطرنج عادي بقطع خشبية، دون تجويدات بي ينج. لا أحبُّ تَركَكَ ترحل من هنا معتقدًا أنك تلعب أفضل مني".

"ذلك لُطفٌ منك، لكن ربما في أمسية أخرى".

"لا بأس، ربما مرة أخرى". أشار الرائد بارزوف للحُرَّاس أن يفتحوا باب غرفة العرش. قال مُجدِّدًا: "مرة أخرى، سيكون هناك آخرون أمثال بي ينج، مُتحمِّسون للَعِب ببشرٍ أحياء، وأتمنى أن تسنح لي

مُجدَّدًا فرصة المراقبة". ابتسم بإشراق. "متى وأين ستحب أن يكون ذلك؟".

قال الكولونيل كيلي بإنهاك: "لسوء الحظ، الزمان والمكان عائِدان لك. إن أصرَرتَ على خوض مباراة أخرى، أَرسِلْ لي دعوة يا رائد، وسأكون موجودًا".

(1953)

كلب توم أديسون الأشعث

جلس رجلان مُسِنَّان على مقعد حديقة، ذات صباح مُشمِس في مدينة تامبا بفلوريدا. أحدهما كان يحاول باستماتةٍ قراءةَ كتاب يبدو بجلاء أنه يستمتع به، بينما الآخر، هارولد كي. بولارد، يحكي له قصَّة حياته بالصوت الحاد المكتمل المستدير لأنظمة مخاطبة الجماهير. وعند أقدامهم، تَمدَّد كلب بولارد اللابرادور ريتريفر، الذي زاد عذاب المستمع الهَرِم بتحسُّسه كاحِلَيْه بأنفه الضخمة المبتلَّة.

بولارد، الذي كان قبل تقاعُده ناجحًا في مجالات عديدة، استمتع باستعراض ماضيه. لكن واجهته المشكلة التي كانت تواجه دائمًا آكلة لحوم البشر، وهي أن الضحية الواحدة لا يمكن استخدامها مُجدَّدًا. أي شخصٍ قضى وقتًا ذات يوم بصُحبَته وكلبه، يرفض أن يشاركه الجلوسَ مرَّةً أخرى.

هكذا كان بولارد وكلبه ينطلقان في الحديقة كل يوم، في رحلة البحث عن وجوه جديدة. واتاهما حظٌّ سعيد ذلك الصباح؛ فقد وجدا غريبًا على الفور. وافِدٌ جديد على فلوريدا كما هو واضح، لا يزال قميصه الصوفي مُحكَم الأزرار وذا ياقة مُنتَصِبَة وربطة عنق، وبلا شيء يفعله أفضل من القراءة.

قال بولارد: "هكذا"، مختتمًا أول ساعة من محاضرته، "صنعت وخسرت خمس ثروات في أيامي".

قال الغريب، الذي أهمل بولارد السؤال عن اسمه: "لقد قلت هذا"، ثم قال للكلب الذي كان يزداد عَدائيَّةً تجاه كاحليه: "على رسلك يا فتى، لا لا، لا يا فتى".

قال بولارد: "أوه؟ هل أخبرتك هذا بالفعل؟".

"مرتين".

"مرتين في العقارات، ومرَّةً في خُردَة الحديد، ومرَّة في البترول، ومرَّة في النقل".

"هذا ما قلت".

"هل فعلت؟ يبدو أني فَعَلتُ. مرَّتين في العقارات، ومرة في خُردَة الحديد، ومرة في البترول، ومرة في النقل. لم أندم على يوم واحد".

قال الغريب: "أعتقد أنك لن تفعل. اعذُرني، أتظنُّ أن بوسعك تحريك كلبك لمكان آخر؟ فهو لا ينفكُّ يـ...".

قال بولارد بحرارة: "هذا؟ إنه ألطف كلب في العالم. لست بحاجة لأن تخاف منه".

"أنا لست خائفًا منه، بل هو يثير أعصابي بتشمُّمه كاحلي".

قال بولارد بضحكة مكتومة: "بلاستيك".

"ماذا؟".

"بلاستيك، لا بُدَّ أن هناك شيئًا بلاستيكيًا في حزام جواربك. أراهن أنها تلك الأزرار الصغيرة، أنا متأكِّد من ذلك قدرَ تأكُّدي من أننا نجلس هنا. هذا الكلب مهووس بالبلاستيك. لا أعرف لماذا، لكنه يتشمَّم البلاستيك ويجده حتى لو لم تكن هناك إلا شذرة منه. ربما هناك خَلَل في حميته، برغم أنه -بحقِّ الله- يأكل أفضل مني. ذات مرة مضغ صندوق سجائر بلاستيكيًا كاملًا. أتصدِّق هذا؟ ذلك هو المجال الذي كنت لأستثمر فيه الآن، لو لم يأمرني ذوو السَّمَّاعات بأن أعطي قلبي القديم إجازة".

قال الغريب: "بوسعك ربط الكلب في الشجرة هناك".

قال بولارد: "يثير أعصابي بشدَّة شبابُ تلك الأيام! يهيمون جميعًا في الأنحاء متذمِّرين من عدم وجود أي جبهات. لم يكن هناك وقتٌ كانت فيه جبهات أكثر من الآن. أتعلم ماذا كان هوراس جريلي ليقول اليوم؟".

قال الغريب: "أنفه مبتلَّة"، وسحب كاحليه بعيدًا، لكن الكلب قفز إلى الأمام في مطاردة حثيثة.

"توقَّف يا فتى!".

قال بولارد: "أنفه المبتلَّة دليلٌ على أنه في صِحَّةٍ جيِّدة"، وتابع: ""عليك بالبلاستيك يا فتى!" هذا ما كان جريلي ليقوله، و"عليك بالطاقة الذَّرِّيَّة يا فتى!"".

حَدَّد الكلب أخيرًا موقع الأزرار البلاستيكية في أحزمة جوارب الغريب، وصار يقلب رأسه بين اتجاه وآخر، مُفكِّرًا في الطُّرُق المناسبة لمَدِّ أسنانه لتقبض على تلك الأزرار الشَّهيَّة.

قال الغريب: "تبًّا".

قال بولارد: ""عليك بالإليكترونيات يا فتى!". لا تُحدِّثني عن الفرصة، الفرصة تطرق كل باب في هذا البلد محاوِلَةً الدخول. في أيامي، كان على الرَّجُل أن يخرج ويبحث عن الفرصة، ويَجُرَّها إلى البيت من آذانها. في هذه الأيام...".

قال الغريب بهدوء: "آسف". أغلق كتابه بعنف، ووقف منتزعًا كاحليه من الكلب. "عليَّ أن أذهب. يومك طيب يا سيدي".

* * *

مشى عبر الحديقة، ووجد مقعدًا آخر، جلس بتنهيدة، وبدأ في القراءة. كان تنفُّسه قد بدأ في الاعتدال، عندما شعر بالأنف الإسفنجيَّة للكلب على كاحله مُجدَّدًا.

قال بولارد بينما يجلس بجواره: "أوه، إنه أنت! لقد كان يتبعك. كان يمضي خلف رائحة ما، وأنا تركته يتبع رأسه. ماذا قلت لك عن البلاستيك؟". تفحَّص المكان برضا، "لا ألومك على ذهابك، كان الجو هناك مكتومًا، بلا ظل ولا نسيم".

قال الغريب: "هل سيبتعد الكلب إن اشتريت له صندوق سجائر بلاستيكيًّا؟".

قال بولارد بدماثة: "مَزحَة جيدة، مزحة جيِّدة". ثم فجأة ربَّت على ركبة الغريب. "إذن فأنت ليس لك في البلاستيك، أليس كذلك؟ كنت أثرثر عن البلاستيك دون أن أعلم أنه ليس سِكَّتك".

قال الغريب بحدة، واضعًا كتابه جانبًا: "سِكَّتي؟ آسف... لم يكن لي قَطُّ سِكَّة. أنا جَوَّال منذ كنت في التاسعة، منذ بنى أديسون معمله بجوار بيتي، وأراني مُحلِّلَ الذكاء".

قال بولارد: "أديسون؟ توماس أديسون المخترع؟".

قال الغريب: "لو أردت أن تطلق عليه ذلك، فلتفعل".

قال بولاد مقهقهًا: "لو أردت أن أطلق عليه ذلك؟ أعتقد أني سأفعل! إنه أبو المصباح الكهربي وغير ذلك الكثير".

تابع الغريب قراءته، "لو أردت أن تظنَّ أنه مخترع المصباح الكهربي، فلتفعل، لا ضرر في ذلك".

قال بولارد بارتياب: "قُل لي ماذا هنالك؟ أم تكتفي بإثارة فضولي؟ ما هي حكاية مُحلِّل الذكاء هذا؟ لم أسمع به قط".

قال الغريب: "بالطبع لم تسمع به. لقد وَعدتُ أنا ومستر أديسون بأن نحتفظ به سرًّا. لم أخبر أحدًا، ومستر أديسون كسر وعده وأخبر هنري فورد، لكن فورد وعده ألَّا يخبر شخصًا آخر؛ لأجل صالح البشرية".

ذُهل بولارد. قال: "مُحلِّل الذكاء هذا، يُحلِّل الذكاء، أليس كذلك؟".

قال الغريب: "بل كان مَمخَضَة زُبدٍ كهربية".

قال بولارد مُداهنًا: "أتتكلَّم جدّا!".

قال الغريب: "ربما يكون من الأفضل أن أتحدث مع أحدهم عن الأمر، كل سنة تمرُّ يصبح كتمان الأمر بداخلي أصعب. لكن كيف لي أن أتأكَّد أن السِّرَّ لن يُذاع؟".

طمأنه بولارد: "أعطيك وعدي كچنتلمان".

قال الغريب بتَرَوٍّ: "لا أعتقد أن بوسعي إيجاد ضمانة تفوق تلك، أليس كذلك؟".

قال بولارد بفخر: "ليس ثمة ضمانة أقوى. أقسم لك من أعماق قلبي".

"حسنًا جدًّا".

تراجَعَ الغريب إلى الخلف وأغلق عينيه، بدا وكأنه يسافر للماضي عبر الزمن.

ظلَّ صامتًا لدقيقة كاملة، خلالها تأمَّلَه بولارد باحترام.

قال الغريب في النهاية، بهدوء: "كان ذلك في خريف ألف وثمانمئة وتسعة وسبعين، في قرية مينلو بارك بنيو چيرسي. كنتُ طفلًا في التاسعة. جاء شابٌّ حسبناه كُلُّنا ساحرًا، وبنى معملًا متاخمًا لبيتي، منه كانت تلتمع أضواء وتَصدُرُ أصوات تَحطُّم، وكل أنواع الأمور المخيفة تحدث هناك. تلقَّى أطفال الحي جميعًا التعليمات بأن يظلُّوا بعيدين عنه، وبألَّا يتسبَّبوا بأي ضجَّة قد تزعج الساحر.

لم أعرف أديسون على الفور، لكني وكلبه سباركي صِرنا أصدقاء مُقرَّبين. كان سباركي كلبًا مثل كلبك كثيرًا، اعتدنا أن نتصارع معًا في كل مكان بالحيِّ. نعم يا سيدي، كلبك نسخة من سباركي".

قال بولارد، شاعرًا بالإطراء: "هكذا إذن؟".

ردَّ الغريب: "أؤكِّد لك. المهم، ذات يوم أنا وسباركي كنَّا نلعب في الأنحاء، وجرينا حتى باب معمل أديسون. لم أدرِ بنفسي إلَّا وقد دفعني سباركي عبر الباب، وبوم! أنا على أرض المعمل أنظر في وجه مستر أديسون ذات نفسه".

قال بولارد مبتهجًا: "أراهن أنه كان حانقًا".

قال الغريب: "بل راهن أني كنت خائفًا. حسبتُ أني وجهًا لوجه مع الشيطان ذاته. كان أديسون قد ثَبَّت أسلاكًا في أذنيه تمتدُّ حتى صندوق أسود صغير في حِجره. حاوَلتُ أن أركض، لكن أديسون قبض على ياقتي وجعلني أجلس. قال أديسون "يا فتى، إن أَحلَكَ الليل يعقبه دومًا الفجر. أريدك أن تتذكَّر ذلك". قلت: "سأفعل يا سيدي".

قال لي أديسون: "لأكثر من سنة يا بني، ظَلَلتُ أبحث عن فتيلٍ يدوم للمصباح الوهَّاج. جرَّبتُ الشَّعر والخيوط وشظايا الخشب، لا شيء ينفع. وفيما كنتُ أحاول التفكير في شيءٍ آخر لأُجرِّبه، بدأت أعبث في فكرة أخرى من أفكاري، فقط للترويح عن نفسي. فصنعت هذا". وعرض عليَّ صندوقه الأسود. "فكَّرتُ أن ربما الذكاء ليس إلّا نوعًا آخر من الكهرباء، فصنعت مُحلِّل الذكاء هذا هنا. ووجدته يعمل بكفاءة! أنت أوَّلُ مَن تعرف بشأنه يا بُنيَّ، ولا أدري لماذا لا يجب أن تكون. فجيلك هو من سيكبر ليعيش في الحقبة العظيمة حيث سيكون تقييم الناس بسهولة تقييم البرتقال"".

قال بولارد: "لا أصدِّق ذلك!".

قال الغريب: "ليصعقني البرقُ هنا والآن إن كنتُ كاذبًا! وكان يعمل بكفاءة أيضًا. جرَّب أديسون المُحلِّل على الرجال في متجره، دون أن يخبرهم بماذا يفعل. كلما كان الرجل أذكى، بحقِّ الله، كلَّما ابتعَدَت الإبرة على شريط القياس في الصندوق الأسود الصغير المتدلِّي بجواره. تركته يُجرِّبه عليَّ، وظلَّت الإبرة حيث هي، فقط ارتعشت. لكن مع أني كنت أحمقَ حينها، فذلك كان الوقت الذي قدَّمتُ فيه إسهامي الوحيد للعالم. ومثلما قلت، لم أحرِّك من حينها أصبعًا".

قال بولارد بتشوُّق: "ماذا فعلت؟".

"قلت: "مستر أديسون، لنجرِّبه على الكلب"، وليتني أستطيع أن أريكَ المشهد الذي قام به ذلك الكلب عندما قلت ذلك. سباركي العجوز نبح وعوى وخدش حتى يخرج. وعندما رأى أننا نعتزم فعل ذلك، ركض تجاه مُحلِّل الذكاء وضربه من بين يدي أديسون. لكننا حاصرناه وأديسون ثبَّته، فيما أوصلت الأسلاك بأذنيه. ولن تصدق، أبحرت الإبرة على المقياس حتى تجاوَزَت العلامة بالقلم الرصاص الأحمر على وجه المقياس بمسافة".

قال بولارد: "الكلب خرَّبه؟".

"قلت: "مستر أديسون، سيدي، ماذا تعني العلامة الحمراء؟"، قال أديسون: "تعني يا بُنيَّ أن الجهاز أصابه عطب؛ لأن أنا العلامة الحمراء"".

قال بولارد: "رأيي أنه معطوب".

قال الغريب بخطورة: "لكنه لم يكن معطوبًا. لا يا سيدي. فحصه أديسون بالكامل، وكان سليمًا تمامًا. وكان عندما أخبرني أديسون بذلك، أن كشف سباركي، الذي يسعى للخروج بجنون، نفسه".

قال بولارد بريبة: "كيف؟".

"كُنَّا قد حبسناه في الداخل، أترى؟ كان على الباب ثلاثة أقفال؛ قفل العين والخطاف، وترباس، ومزلاج عادي ذو أُكَرة. وقف الكلب منتصبًا، وفكَّ الخُطَّاف، ودفع الترباس إلى الخلف، وكانت الأكَرَة بين أسنانه عندما أوقفه أديسون".

قال بولارد: "لا!".

قال الغريب: "نعم!"، والتمعت عيناه، "وكان حينها أن رأيت كم كان أديسون عالمًا عظيمًا. كان مستعدًّا لمواجهة الحقيقة مباشرة، مهما كانت بغيضة.

قال أديسون لسباركي: "إذن، أنت صديق الإنسان الأقرب، أليس كذلك؟ مجرَّد حيوان أحمق؟" لكن سباركي كان حَذِرًا، وتظاهَرَ بعدم السمع. حكَّ نفسه ونفض البراغيث ومضى يزمجر على جحور الفئران، فعل كل ما بوسعه لتفادي النظر في عيون أديسون.

قال أديسون: "خطَّة في منتهى الذكاء، أليس كذلك يا سباركي؟ دَعْ شخصًا آخر يقلق بخصوص الطعام وبناء الملاجئ والاعتناء بالتدفئة، فيما تنامون أنتم أمام النار أو تذهبون لمطاردة الفتيات أو لخراب

الدنيا مع الفتيان. لا رهونَ عقاريَّة ولا سياسة ولا حروب ولا قلق. فقط هُزَّ ذيلًا والعق يدًا؛ وسيُعتنى بك على أكمل وجه".

قلت: "مستر أديسون، أتقصد أن تقول إن الكلاب أذكى من الناس؟". قال أديسون: "أذكى؟ سأخبر العالم! ماذا كنت أفعل على مدار العام السابق؟ أعمل كعبدٍ لصُنع مصباح كهربي، كي تستطيع الكلاب اللعب في الليل".

قال سباركي: "انظُر يا مستر أديسون، لِمَ لا..."".

صاح بولارد: "ماذا؟".

أمر الغريب: "صمتًا"، وبانتصارٍ تابَعَ: "قال سباركي: "انظُر يا مستر أديسون، لِمَ لا تحتفظ بالأمر سرًّا؟ كان ذلك الترتيب يُرضي الجميع لمئات آلاف السنين. دَعْ الكلاب النائمة كذلك، انس الأمر، ودَمِّر مُحلِّل الذكاء، وسأخبرك بما عليك أن تستخدم لفتيل مصباحك"".

قال بولارد بوجه صار بنفسجيًّا: "هراء!".

نهض الغريب. "أقسم لك بشرفي كجنتلمان. كافأني الكلب على صمتي بنصيحة بورصة جعلتني رَجُلًا ثريًّا مُستقلًّا لآخر أيام حياتي. وآخر الكلمات التي تَحدَّث بها سباركي على الإطلاق كانت لتوماس أديسون. قال: "جرِّب خيطًا من القطن المُكَربَن". لاحقًا، مزَّقه قطيع من الكلاب إربًا كان قد تجمَّع خارج الباب يتنصَّت".

خلع الغريب أربطة جواربه وقدَّمها إلى كلب بولارد. قال له: "عربون احترام رمزي يا سيدي، لذكرى أحد أسلافك الذي أَودَت به كلماته إلى الموت. يوم طيب".

وضع كتابه تحت إبطه ومضى مبتعدًا.

(1953)

قاموس جديد

أتساءل الآن عن شكل قاموس هيمنجواي، بما أنه مشّى أموره على خير بالكلمات البسيطة التي بوسع الجميع تهجئتها وفهمها بسهولة. هل كان حطامًا متهالكًا يا مستر هوتشنر[1]؟ قاموسي هو سلطة من القهوة سريعة التحضير وفتات التبغ والورق الهندي، وأي شخص يراه قد يستنتج أني نفضته لساعات بحثًا عن كلمات مثل كلمات أرنولد جي. توينبي[2]. الحقيقة أني فصّصته خلال بحثي عن الفرق بين principle وprincipal، وعن كيفية تهجئة cashmere. إنه عملاق هائل تركه لي أبي، "قاموس ويبستر العالمي الجديد للُّغة الإنجليزية"،

(1) آرون إدوارد هوتشنر Aaron Edward Hotchner: كاتب أمريكي، وكان مُحرِّرًا للكاتب الأمريكي إرنست هيمنجواي، وصديقه حتى وفاته. وكتب هوتشنر سيرة هيمنجواي في كتاب Papa Hemingway عام 1966. [المترجم]

(2) أرنولد چوزيف توينبي Arnold J. Toynbee: فيلسوف ومؤرِّخ بريطاني، من أهم وأشهر مؤرِّخي القرن العشرين. [المترجم]

مبني على "القاموس الدولي" الذي يرجع إلى ما بين 1890 و1900. لا يوجد فيه رادار ولا ڤيرنر ڤون براون[1] ولا سَلفَاثيازول[2]، لكني أعرف ماهيَّة هؤلاء، بل أنا تعاطيت ذات مرة سَلفَاثيازول.

والآن، عندي تلك القنبلة الضخمة الجميلة من دار نشر راندوم هاوس. لا أقصد بـ "قنبلة" أي معنى ازدرائيٍّ، أو أي معنى معجمي على العموم. أعني أن الكتاب ثقيلٌ وحامل، ويجعلك تفكِّر. من الأشياء الذي يجعلك تفكِّر فيها، هي أن أي عصابة من الأذكياء لا ينقصهم المال، بوسعهم أن يصبحوا منافسين شرسين في صناعة القواميس غير المختصرة الأمريكية. يمكنهم التأكُّد أن كل الكلمات الموجودة في بقية القواميس عندهم، ثم إضافة الكلمات التي انضمَّت للُّغة بعد نشر السابقين، ثم تفادي الأخطاء التي ارتكبها الآخرون وسبَّبَت لهم جحيمًا مُقيمًا.

أصدرت راندوم هاوس أيضًا أطلس عالم مُلوَّن، وقواميس مختصرة للفرنسية والإسبانية والألمانية والإيطالية. وهلَّا نظرت إلى الأسعار؟ يبدو أن الكريسماس يقترب!

عندما كتب ماريو باي[3] مراجعة الإصدار المنقَّح الثالث من قاموس "ميريام ويبستر" المتخم بالأخطاء لجريدة التايمز عام 1961، اعترض على "بقايا الاحتشام" التي لا تزال تستثني كلمات مُعيَّنة ذات أربعة حروف، "برغم ظهورها الوفير في العديد من أعمال "الأدب" المعاصر، وعلى حوائط الحمَّامات". استجابت راندوم هاوس إلى اعتراضه إلى حدٍّ

---

(1) ڤيرنر ڤون براون Wernher von Braun: مهندس صواريخ ألماني أمريكي، يُعتَبر أبا تكنولوجيا صواريخ الفضاء الأمريكية. [المترجم]

(2) سَلفاثيازول sulfathiazole: أحد أنواع المضادَّات الحيوية. [المترجم]

(3) ماريو باي Mario Pei: لغويٌّ أمريكي من أصل إيطالي، من أنصار تبسيط اللغة إلى حدٍّ يفهمه الجميع، وكان يدعو لِلُغَةٍ بَشريَّة مُوحَّدة. [المترجم]

ما. لم يُضمِّنوا كلمات تكفي باكستانيًا لفهم "آخر مخرج لبروكلين"[1] أو "عوليس"[2]، لكنهم قاموا ببداياتٍ شُجاعة، بتعامُلهم، الحكيم على ما أعتقد، مع القناة الهضمية. وجدت فِعلًا فَظًّا واحدًا فقط للاجتماع الجنسي بامرأة، الشكر على رواجه يعود بلا شك لإدوارد إلبي[3]، وإن كان الفضل لوجوده لا يعود إليه. الفعل هو hump، مثلما في "أركب المضيفة hump the hostess".

لو تركيزي على الكلمات البذيئة وأنا لا زِلتُ في بداية هذه المراجعة يبدو طفوليًّا، فلا يسعني إلا الرد بأني، في طفولتي، لم أكن لأفتح قاموسًا غيرَ مُختَصَر إلَّا إذا خامَرَني الشَّكُّ أن هناك كلمات بذيئة مُخبَّأة بالداخل، حيث لا يفترض أن يجدها إلا الكبار. كان ينتهي بحثي دومًا أشعر بالغيظ والإحباط، والنظر إلى رسوم غريبة: إلى عجلة التراميل والقوس القذوف والأطوم.

بالطبع أي قاموس لا يفرق عن غيره بالنسبة لأغلب الناس، الذين يستخدمونه للتهجئة ولحسم الرهانات، وللمساعدة في حلِّ الكلمات المتقاطعة وأدوار السكرابل. لكن بعض الناس يستخدمونه لما هو أكثر، أو هكذا يَنْوُونَ. عرفت هذا في تلك الأمسية، التي كنتُ أتعشَّى فيها مع الروائي وكاتب القصة القصيرة ريتشارد ييتس، والبروفيسور روبرت سكولز، المادح الشهير لرواية چون بارث (جايلز الولد- الماعز). سأل ييتس سكولز، بتوتُّرٍ مثلما بدا لي، عن أي قاموس غير مختصر يجب أن يشتري. كان قد تلقَّى لتَوِّه منحة سخية للكتابة الإبداعية من الحكومة الفيدرالية، وأول شيء سيفعله هو شراء لغته بالكامل بين دفَّتَيْ كتاب.

(1) Last Exit to Brooklyn رواية لـ Hubert Selby Jr. [المترجم]

(2) Ulysses رواية لـ James Joyce. [المترجم]

(3) إدوارد إلبي Edward Albee: كاتب مسرحي أمريكي فاز بجائزة البوليتزر ثلاث مرَّات. [المترجم]

كان خائفًا مـن شراء clunker[1]، وهـي كلمـة بالمناسـبة غـير موجـودة في إصـدار رانـدوم هـاوس.

أجـاب الأكاديمـي بحكمـة أن عـلى ييتـس أن يشـتري الإصـدار الثـاني مـن "ميريـام ويبسـتر"، والـذي كان إلزاميًـا لا وَصفيًـا[2]. القامـوس الإلزامـي، بحسـب مـا أرى، أقـرب إلى الشرطـي الصـادق، أمـا الوصفـي فهـو مثـل رفيقـك القديـم في الحـرب المخمـور دومًـا مـن مدينـة موبيـل بألاباما. قـال ييتـس إنـه سيشـتري الأصعـب. لكـن، بحـقّ اللـه، احتيـاج ييتـس لتعليـماتٍ رسـميَّة عـن اسـتخدام الإنجليزيـة، لا يزيـد عـن احتياجـه لسـنَّادات في درَّاجتـه. مثلـما قـال سـكولز لاحقًـا، ييتـس هـو ذلـك الرجـل الـذي يقـرأ لـه صُنَّـاع المعاجـم مـن أجـل استكشـاف الاتجاهـات الجميلـة الجديـدة التـي ستتَّخِذها اللغـة.

* * *

لتعـرف في عجالـة إن كان القامـوس إلزاميًّـا أم وصفيًّـا، أبحـث عـن ain't وLike. تعلَّمـت خدعـة الجـدالات اللفظيـة تلـك مـن مراجعـات "ميريـام ويبسـتر" الإصـدار الثالـث. هـاك ملخَّـص ذكـر ain't: الإصـدار الأول مـن ميريـام ويبسـتر يقـول إنهـا عاميـة أو أُمِّيَّـة، الإصـدار الثـاني يقـول إنهـا لهجـة محلِّيَّـة أو أُمِّيَّـة، والإصـدار الثالـث يقـول إن ain't "برغـم رفضهـا مـن قبـل العديديـن ورواجهـا أكـثر في الأوسـاط الأقـل تعليـمًا، يسـتخدمها شـفهيًّا... العديـد مـن المتحدِّثـين المثقفـين، خاصـة تعبـير aint I [ألسـت أنـا]". أقـر بـأن هـذه الأُمَّـة صـارت منقسـمة بالتسـاوي بـين مُحـدثي

---

(1) Clunker مصطلـح عامِّـيٌ يصـف الآلـة القديمـة، سـيارة في الغالـب، التـي تعمـل بالـكاد وصـارت إلى الخـردة أقـرب. [المترجـم]

(2) القامـوس الإلزامي prescriptive dictionary هـو الـذي يُخبر كيف يجب أن تُستخدم الكلمـة، أمَّا القامـوس الوصفي descriptive dictionary فهـو الـذي يحـاول وصـف كيـف تُستخدم الكلمـة. [المترجم]

النعمـة والصعاليـك، إلى حـدٍّ أن تعبيـر ain't I صـار يُسـمَع أكـثر مـن نـداء تَـزاوُج الدَّجـاج.

يقـول رانـدوم هـاوس التـالي عـن ain't: "يُشـاع النظـر إلى ain't عـلى أنهـا شـكلٌ غـير معيـاريٍّ يجـب أن يتجنَّبـه كلُّ مَـن يُفضِّلـون ألَّا يُعتـبروا من الجاهلـين. تـتردَّد ain't أحيانًـا في الحديـث غـير الرسـمي عـلى لسـان بعـض المسـتخدمين المتعلِّمـين، خاصَّـة في السـياقات الواعيـة بذاتهـا أو الشـعبية أو المازحـة. (Ain't it the truth! [مـش دي الحقيقـة؟]، She ain't what she used to be! [معادتـش زي مـا كانـت!])، لكنهـا غـير مقبولـة بتاتًـا في الكتابـة والحديـث الرسـميَّيْن. مـع أن تعبـير ain't I ربمـا يمكـن الدفـاع عنـه -إذ يعتـبر أكـثر منطقيـة مـن aren't I؟ وأفضـل وقعًـا مـن amn't I؟- فـإن الشـخص الحكيـم سيتجنَّـب أي اسـتخدام لــ ain't". مـا رأيـك بهـذه النصيحـة لمُحـدثي النعمـة؟

لم يذكـروا أمـي، لكـن مـا علَّمَتنـي أمـي أن أقـول بـدلًا مـن (ain't I؟) أو (aren't I؟) أو (amn't I؟) كان قـول (am I not؟). السرعـة ليسـت كل شيء. هكـذا أخـسر ميكـرو- ثانيـة هنـا وهنـاك، المهـم أن يكـون المـرء مُحـدَث نعمـة جميـلًا.

أمَّـا عـن اسـتخدام like وكأنهـا قابلـة لحَـلِّ محـل as [مثـل]، يقـول (م.و.1): "اسـتخدام like كحـرف ربـط يعنـي as (مثلـما في Do like I do [أفعـل كـما أفعـل])، برغـم تواجـده أحيانًـا عنـد كُتَّـابٍ جيِّديـن، يُعـدُّ اسـتخدامًا ريفيًّـا ويتعـارض مـع الشـكل الأمثـل". يقـول (م.و.2) الـشيء نفسـه: "يُسـتخدم بأريحيَّـة فقـط في حديـث الأُمِّيِّـين، ويُعـدُّ الآن غـير سـليم". (م.و.3) لم يقـدِّم أي تحذيـر مـن أي نـوع، وتباهـى بنـماذج مـن الاسـتخدام المعـاصر الملائـم، مـن جريـدة سـان بطرسـبرج إندبندنـت بفلوريـدا "wore his clothes like he was... afraid of getting dirt on them [ارتـدى ملابسـه وكأنـه... خائـف مـن اتِّسـاخهم]"، ومـن آرت

لينكليــتر[1] " impromptu programs where they ask questions much like I do on the air [برامــج مرتجلــة حيــث يســألون أســئلة بقــدر مــا أفعــل أنــا عــلى الهــواء]". بالصُّدفــة كان (م.و.3) قــد صــدر إبَّــان احتضــار فــترة إدارة أيزنهــاور، عندمــا بــات الجميــع ببســاطة يتحدَّثــون مثــل آرت لينكليــتر.

رانــدوم هــاوس، مــن مقعدهــم العــالي، إذ تســنَّى لهــم أن يصــيروا أصحــاب القــول الأخــير، أعلنــوا عــام 1966 أن "اســتخدام like في محــل as مرفــوضٌ بالإجــماع مــن المدرِّســين والمحرِّريــن، بالرغــم مــن شــيوع اســتخدامه، خاصَّــة في الشــعارات الإعلانيــة. Do as I say, Not as I do[2] لا يعــترف باســتخدام like عِوَضًــا عــن as. في بعــض الصِّيَــغ الإصطلاحيــة، اســتخدامها بــدلًا مــن as يُقابــل بعدوانيــة أقــل، مثــل (He raced down the street like crazy [جــري في الشــارع زي المجانــين])، لكــن ذلــك المثــال مــن الواضــح عاميتــه ولــن تجــده عــلى الأرجــح إلا في الســياقات الأقــل الرســمية". أجــد ذلــك ممتــازًا، بــل هــو حتــى يخــبرك بمــن ســيضربك إن ارتكبــت الخطــأ، ويمنــع العــزاء والســلوى عــن أصدقــاء الســرطان والمــال، أولئــك الجَشِــعين أعــداء اللغــة الذيــن يُعلِّمــون أبناءنــا أن يقولــوا بعــد دوام المدرســة " Winston tastes good like a cigarette should طعــم وينســتون جيــد مثلــما ينبغــي عــلى الســجائر أن تكــون".

لتحلَّ اللعنة على راندوم هاوس لو طبعوا ذلك الشعار.

* * *

(1) Art Linkletter آرت لينكليــتر: إعلامــي أمريــكي مــن أصــل كنــدي، مــن أشــهر أعمالــه برنامــج House Party عــلى راديــو CBS الــذي اســتمرَّ 25 عامًــا. [المترجــم]

(2) Do as I say, not as I do أفعــل كــما أقــول لا كــما أفعــل: قــولٌ شــائع في تــراث اللغــة الإنجليزيــة. [المترجــم]

فيما تمضي عبر ذلك القاموس الجديد، باحثًا عن الكلمات البذيئة والتحفُّظ المدرسي المشوب بتلهُّف للملذَّات، ستجد أن السِّيَر الشخصية وأسماء الأماكن الكبرى وحتى أسماء الأعمال الفنية الشهيرة، متداخلة مع المفردات: عربة اسمها الرغبة، رالف إليسون، موناليزا، كيسيليفسك. أقلق على السِّيَر الشخصية والأعمال الفنية؛ إذ إنهم يبدون سَلَطة متنوِّعة، محبوسة إلى الأبد على الأرجح في مصفوفة من الحروف. نورمان ميلر موجود على سبيل المثال، لكن ويليام ستيرون غير موجود، ولا چيمس چونز ولا فانس بورجيلي ولا إدوارد لويس والانت. وهل هذا كل ما سيقال لنا من هنا إلى الأبد عن ألجر هيس: "ولد 1904، مسؤول حكومي أمريكي"؟ ولماذا لا يوجد شيء عن ويتكر تشامبرز؟ ومَن الذي رقَّى بيرس؟

في الواقع، ما يتضمَّنه من سِيَر شخصية وما يستثني تضمينه منها، هو ما يجعله هدية مثالية للمصاب بالبارانويا في قائمة هدايا الكريسماس عند الجميع. سيجد تسلية مُظلِمَة كبيرة بين الصفحات i و2,059. لماذا يخبروننا عن چو كينيدي الأب وچاكي وبوبي، لكن لا ذكر لتيدي چاكلين؟ ما الذي يحاول أحدهم قوله عندما يصف تي. إس. إليوت بالشاعر البريطاني، ودابليو. إتش. أودِن بالشاعر الإنجليزي؟ (ربما يهدف التمييز للإشارة إلى حصول أودِن على الجنسية الأمريكية). وبتعريف روبرت ويلش الابن كـ "صانع حلوى أمريكي متقاعد"، هل يقصد جعله يبدو تافهًا؟ ولماذا تُخلد ذكرى چون ديلنجر، بينما يذوي أدولف إيخمان بلا حِسٍّ ولا خبر؟

أيًّا كان مَن ينوي اقتحام لعبة القواميس غير المختصرة بعد ذلك -في الغالب سيكون چينرال موتورز أو فورد- سيُغَربِل هذا العمل بلا شفقة من العيوب. لا يمكن أن يكون هناك الكثير منها، بما أن راندوم هاوس غربَلَت بالفعل أسلافها النبلاء. العيب الأكبر، بحسب ما أرى،

هـو عـدم وضـع السِّيَر الشـخصية والأعـمال الفنيـة في مُلحَـق، حيـث يمكـن بسـهولةٍ مراجعتهـم أو نبذهـم أو الإضافـة إليهـم.

هـل أنـا أوضَحـتُ أن هـذا كتـاب جميـل؟ لا يمكنـك منافسـة محتـواه، لا يمكنــك منافســة ســعره. بالطبــع سينافســه أحدهــم عاجــلًا أم آجــلًا؛ فتلـك سـوق حُـرَّة كـما نعـرف، حيـث يسـتفيد المسـتهلك مـن المعـارك بـين العمالقـة الخُـضر.

ومثلـما قلـت، لا يفـرق القامـوس عـن غـيره بالنسـبة لأغلـب النـاس. الإنسـان الأمريـكي العـادي سيسـتمرُّ في الكتابـة والحديـث بالطريقـة التـي كان يفعـل بهـا دومًـا، مهـما كان القامـوس عـلى رَفِّـه. خُـذْ عنـدك المواطـن الـذي سُـئل مؤخَّـرًا عـن رأيـه في اسـتخدام الرئيـس چونسـون للتعبـير الـدَّارج "cool it [اسـترخِ]" في خطـابٍ هـام:

أجـاب: "لا مشـكلة معـي. الآن ليـس الوقـت المناسـب ليقلـق الرئيـس الأمريـكي بشـأن إنجليزيَّـة الملـك. في النهايـة نحـن نعيـش في حقبـة غـير رسـمية. لم يَعُـد السياسـيُّون يعتمـرون القُبَّعـات العاليـة. لا يوجـد سـببٌ يُرغِـم الإنجليزيـة عـلى عـدم ارتـداء الملابـس الرياضيـة أيضًـا. لا أقـول إن عـلى الرئيـس أن يتحـدَّث كجاهـل. لكـن "cool it" يـا جماعـة، مـن حـقِّ الرئيـس التنفيـذي أن يبـدو بـشرًا. لا يمكنـك أن تكـون شـديد الابتـذال بالنسـبة للأمريكيـين، كل مشـاعر الحيـاة الطيبـة مبتذلـة. لكـن إن تحدَّثنـا لغويًّـا، دزرائيـلي هـو دولسـفيلي".

هـذه الكلـمات بالمناسـبة جـاءت مـن حنجـرة بينيـت كـيرف، نـاشر (قامـوس رانـدوم هـاوس للُّغـة الإنجليزيـة). العـبرة: أي شـخص ذو علاقـة بقامـوس جديـد ain't بالـضرورة صمويـل چونسـون[1] جديـد.

(1967)

(1) صمويـل چونسـون Samuel Johnson: أديـب إنجليـزي مـن القـرن الثامـن عـشر، قـدَّم إسـهامات جليلـة لـلأدب الإنجليـزي. [المترجـم]

الجيران

الحائـط الرفيـع، الـذي كان يقسـم البيـت القديـم إلى مسـكنَيْن، كان ينقـل بدقَّـةٍ عاليـةٍ الأصـواتَ مـن ناحيـة إلى أخـرى. في الناحيـة الشـمالية كان آل ليونـارد، وفي الجنوبيـة كان آل هارجـر.

كان آل ليونـارد -زوج وزوجـة وابـن في الثامنـة- قـد انتقلـوا إلى هنـا لتوِّهـم. ولوعيهـم بالحائـط حافظـوا عـلى أصواتهـم وديَّـة خـلال جدالهـم بخصـوص هـل بـول، ابنهـم، صـار كبـيرًا كفايـة ليُـترك وحـده خلال الأمسـية أم لا.

قال أبو بول: "ششش!".

قالـت أمـه: "هـل كنـتُ أصيـح؟ أنـا كنـت أتحـدَّث بلهجـة عاديـة تمامًـا".

قـال أبـوه: "إن كان بوسـعي سـماع هارجـر ينتـزع سـدَّادة زجاجـة، فبوسـعه بـلا شـك سـماعك".

قالت مسز ليونارد: "لم أقل شيئًا يحرجني أن يسمعه أحد".

قال مستر ليونارد: "قُلتِ على بول "بيبي"، هذا بلا شك يحرجه ويحرجني".

قالت: "هذه مجرَّد طريقة في الكلام".

قال: "وهي طريقة ينبغي أن تنتهي، وليس بوسعنا معاملته كبيبي الليلة أيضًا. نحن ببساطة سنسلِّم عليه، ونخرج، ونذهب إلى السينما"، واستدار لبول، "أنتَ لست خائفًا، أليس كذلك يا فتى؟".

قال بول: "سأكون على ما يرام". كان طويلًا جدًّا مقارنة بسِنِّه، ونحيلًا، وذا وسامة ناعمة ناعسة زاهية ورثها عن أمه. "أنا بخير".

قال أبوه: "بالطبع أنتَ كذلك!"، وضربه على ظهره، "ستكون مغامرة".

قالت أمه: "سأشعر أفضل حيالَ تلك المغامرة إن أحضرنا جليسة أطفال".

قال أبوه: "إن كان ذلك سيفسد الفيلم عليك، لنأخذه معنا".

صُعِقَت مسز ليونارد. "أوه... إنه ليس للأطفال".

قال بول بلطف: "لا أهتم". سبب عدم رغبتهم في أن يشاهد أفلامًا بعينها أو مجلَّات بعينها أو كُتُبًا بعينها أو برامِجَ تليفزيونية بعينها، كان سِرًّا غامضًا يحترمه، بل حتى احتفى به نوعًا.

قال أبوه: "لن يقتله أن يراه".

قالت: "أنت تعلم عن ماذا يدور".

قال بول ببراءة: "عن ماذا يدور؟".

نظرت مسز ليونارد لزوجها طلبًا للمساعدة، ولم تنلها. قالت: "إنه عن فتاة لا تختار أصدقاءها بحكمة".

قال بول: "أوه، لا يبدو هذا مُسلّيًا".

قـال مسـتر ليونـارد بنفـاد صـبر: "هـل سـنذهب أم لا؟ سـيبدأ العـرض بعـد عـشر دقائـق".

عضّـت مسـز ليونـارد عـلى شـفتها. قالت بشـجاعة: "حسـنًا. أَحكِـمْ غلق النوافـذ والبـاب الخلفـي، وسـأكتب لـك أرقـام هواتـف الشرطـة والمطافـئ والسـينما ودكتـور فايـلي"، اسـتدارت لبـول، "بوسـعك اسـتخدام الهاتـف، أليـس كذلـك يـا عزيـزي؟".

صاح مستر ليونارد: "إنه يستخدمه منذ سنوات".

قالت مسز ليونارد: "ششششش!".

"آسف"، انحنى مستر ليونارد للحائط، "خالص اعتذاري".

قالـت مسـز ليونـارد: "بـول، عزيـزي، مـاذا سـتفعل بينـما نحـن في الخـارج؟".

قال بول: "أوه... أعتقد أني سأنظر في الميكروسكوب".

قالت: "أنت لن تنظر إلى الجراثيم، أليس كذلك؟".

قال بول: "لا، فقط إلى الشَّعر أو السُّكَّر أو الفُلفُل، الأشياء المشابهة".

عَبَسَـت أمُّـه بحكمـة. قالـت لمسـتر ليونـارد: "أعتقـد أن هـذا سـيكون مناسـبًا، ألا تـرى ذلـك؟".

قال مستر ليونارد: "مناسب! فقط مادام الفلفل لا يجعله يعطس!".

قال بول: "سأكون حذرًا".

جفل مستر ليونارد، قال: "ششششش!".

* * *

بعـد ذهـاب والِـدَيْ بـول بقليـل، اشـتغل الراديـو في شـقَّة هارجـر. كان هادئًـا في البدايـة، هادئًـا لدرجـة أن بـول بينـما كان ينظر في الميكروسـكوب في غرفـة المعيشـة عـلى مائـدة القهـوة، لم يُمَيِّـز كلـمات المذيـع. كانـت الموسـيقى واهنـة مُتنافِـرةً، لا يمكـن تمييزهـا.

ببسـالة، حـاول بـول الاسـتماع للموسـيقى بـدلًا مـن الرجـل والمـرأة، اللَّذَيْـن كانـا يتشـاجران.

حـدَّق بـول عـبر عدسـة الميكروسـكوب في قطعـة مـن شَـعره بالأسـفل، وأدار المقبـض ليركِّـز عليهـا. بـدت مثـل أنقليـس بُنِّـيٍّ لامـع، مُرقَّطـة هنـا وهنـاك بأطيـاف صغـيرة حيـث يسـقط عليهـا الضـوء.

ارتفعـت أصـوات الرجـل والمـرأة مُجـدَّدًا، مُغطِّيـةً عـلى صـوت الراديـو. أدار بـول المقبـض بتوتُّـر، فارتطمـت العدسـة الشـيئيَّة بالشريحـة الزجاجية التـي اسـتقرَّت عليهـا الشَّـعرة. كانـت السـيدة الآن تصيـح. فـكَّ بـول العدسـة، وفحصهـا لـيرى إن كانـت قـد تـضرَّرَت. والآن ردَّ الرَّجُـلُ صياحها... صائحًـا بـشيء شـنيع، لا يمكـن تصديقـه.

جلـب بـول منديـلًا للعدسـة مـن غرفـة نومـه، ومسـح النقطـة المتكوِّنـة عليهـا حيـث ارتطمـت بالشريحـة. ركَّـب العدسـة في مكانهـا. كل شيء عـاد هادئًـا عنـد الجـيران مُجـدَّدًا، عـدا الراديـو. نظـر بـول في الميكروسـكوب مـرة أخـرى، في الضبـاب الحليبـي لعدسـة متـضرِّرة.

ثـم أخـذ الشـجار يتصاعـد مُجـدَّدًا، أعـلى فأعـلى، أقـسى وأجـنَّ. مرتجفًـا، رشَّ بـول حفنـة مـن الملـح عـلى شريحـة جديـدة ووضعهـا تحـت الميكروسـكوب.

صاحت المرأة مجدَّدًا، صيحة عالية خشنة سامة.

أدار بـول المقبـض بقـوة زائـدة، فوقعـت الشريحـة الجديـدة وتهشَّـمَت إلى مثلثـات عـلى الأرض. وقـف بـول مرتعشًـا، يرغـب في الصيـاح أيضًـا، في

الصياح في رُعبٍ وحيرة. ينبغي أن يتوقَّف، أيًّا كان ما هناك فينبغي أن يتوقف.

زعق الرجل: "إن كنت ستصرخين، ارفعي صوت الراديو!".

سمع بول دقَّات كعب المرأة تعبر الأرض. تَضخَّم صوت الراديو حتى صار دويُّ الباص يُشعر بول وكأنه محبوس في طبل.

جأر الراديو: "والآن! من فريد إلى كاتي! من بوب إلى نانسي، التي تحسب نفسها خارقة! إلى آرثر، من التي تعشقه من على بُعدٍ منذ ستة أسابيع! إليكم فرقة جرين ميلر وأغنيتهم الخالدة: ستار- داست! تذكَّر، لو عندك إهداء، اتَّصِل على ميلتون تسعة ثلاثة آلاف! واسأل على سام السهران، رجل الأغاني!".

دوَّت الموسيقى في أرجاء البيت ورجَّته.

صُفع بابٌ عند الجيران، وأخذ أحدهم الآن يدقُّ بابًا بعنف.

نظر بول عبر الميكروسكوب مُجدَّدًا، نظر إلى اللا شيء، فيما غزا جلده شعورٌ بالوخز. واجه الحقيقة: سيقتل الرجل والمرأة بعضهما، إن لم يوقفهما.

دَقَّ على الحائط بقبضته، صاح: "مستر هارجر توقَّفْ!، مسز هارجر، توقَّفي!".

ردَّ صيحته سام السهران: "من لافينا إلى أولي!، من كارل، الذي لن ينسى الثلاثاء السابق، إلى روث! من ماري، التي تشعر بالوحدة الليلة، إلى ويلبر! إليكم فرقة ساتور- فينيجان، تسأل الحب، ما الذي تفعله بقلبي؟".

عند الجيران، تهشَّمَت أوانٍ فخَّارية ملأ صوتها صمت الراديو لثوانٍ، ثم عاد مَدُّ الموسيقى الجارف ليطغى على كل شيء.

وقف بول بجوار الحائط يرتعش عاجزًا.

"مستر هارجر، مسز هارجر، أرجوكم!".

قال سام السهران: "تذكَّر الرقم، ميلتون تسعة ثلاثة آلاف".

زائغًا، اتَّجه بول إلى الهاتف واتصل بالرقم.

قال عامل السويتش: "دابليو. چي. سي. دي.".

قال بول: "هلَّا وصلتني إن سمحت بسام السهران؟".

قــال ســام الســهران: "مرحبًــا!". كان يــأكل ويتحــدَّث بمــلء فمــه. في الخلفيَّــة، اســتطاع بــول ســماع الموســيقى الجميلــة كالثُّغــاء، أصــل تلــك المــتردِّدة مــن راديــو الجــيران.

قال بول: "أتساءل إن كان بوسعي عمل إهداء".

قــال ســام: "لا أعلــم مــا الــذي يمنــع. هــل تنتمــي لأي مؤسَّســة يعتبرهــا مكتــب النائــب العــام تخريبيــة؟".

فكَّر بول لدقيقة: "لا يا سيدي، لا أعتقد ذلك".

قال سام: "إذن هات ما عندك".

قال بول: "من مستر ليمويل كي. هارجير، لمسز هارجر".

قال سام: "وما الرسالة؟".

قال بول: "أحبُّك، لنتصالح ونبدأ من جديد".

صــوت المــرأة في الخلفيــة كان شــديدَ الهيــاج ومُحمَّــلًا بالغضــب إلى حَــدٍّ أنــه طغــى عــلى جلبــة الراديــو، وحتــى ســام ســمعه.

قال سام: "أيُّها الفتى، هل أنت في مشكلة؟ أيتشاجر والداك؟".

خــاف بــول مــن أن ينهــي ســام المكالمــة إن عــرف أنــه ليــس مــن آل هارجــرز. قــال: "نعــم يــا ســيدي".

قال سام: "وتحاول إعادتهم لبعضهم بهذا الإهداء؟".

قال بول: "نعم يا سيدي".

غلبت على سام العاطفة. قال بصوت متحشرج: "حسنًا يا فتى، سأبذل كل ما عندي، وربما أفلح. ذات مرة أنقذت رجُلًا من أن يطلق النار على نفسه بذات الطريقة".

قال بول بانبهار: "كيف فعلت ذلك؟".

قال سام: "اتَّصل وقال إنه سيُفجِّر دماغه، فشغَّلت طائر السعادة الأزرق". أنهى المكالمة.

وضع بول الهاتف في مهده. توقَّفَت الموسيقى، وانتصب شعر بول. لأول مرة يرى السرعة المذهلة لوسائل التواصُل المعاصرة، وصار مبهوتًا.

قال سام: "يا رفاق! أعتقد أن كل واحد يتوقَّف للحظة ويتساءل عن الذي يفعله بحقِّ الجحيم بالحياة التي أعطاها له الرب! ربما يبدو ذلك لكم مضحكًا يا رفاق، لأني أبدو مبتهجًا على الدَّوام مهما كان ما أشعر به في الداخل، لكني أتساءل أيضًا أحيانًا! وأحيانًا، وكأن ملاكًا ما يحاول أن يقول لي "استمر يا سام، استمر"، يأتي شيء مثل هذا".

تابع سام: "يا رفاق! طُلب مني أن أعيد رَجُلًا وزوجته إلى بعضهما من جديد، من خلال معجزة الراديو! أعتقد أن لا معنى لمحاولتنا خداع أنفسنا بشأن الزواج؛ فهو ليس قطعة حلوى! فيه الحلو والمُرُّ، وأحيانًا لا يرى البعض كيف يمضون فيه قُدُمًا".

تأثَّر بول بحكمة سام والسُّلطة في صوته. صوت الراديو العالي صار له الآن معنى، كان يتكلَّم وكأنه الذراع اليمنى للرب.

عندما صمت سام لحظة للتأثير الدرامي، كان كل شيء ساكنًا عند الجيران. المعجزة بدأت في التحقق بالفعل.

قال سام: "والآن، على من يعمل في مكاني أن يكون نصفَ موسيقيٍّ ونصفَ فيلسوف ونصفَ طبيب نفسي ونصفَ مهندس كهرباء! لو كنت قد تعلَّمتُ شيئًا واحدًا من العمل معكم أيُّها الناس الطيِّبون، فهو التالي: إن ابتلع الناس كبرياءهم وعِزَّة أنفسهم، فلن يكون هناك أي طلاق!".

كانت ثمة همهمة ذات عاطفة عند الجيران. في حلق بول بدأت غصَّة في التَّكوُّن بينما كان يفكر في الشيء الجميل الذي تَسبَّب فيه هو وسام.

قال سام: "يا جماعة! هذا كل ما لديَّ عن الحب والزواج، وهذا كل ما يحتاج أي شخص معرفته! والآن، من مستر ليمويل كي. هارجر إلى مسز هارجر، أحبُّك! لنتصالح ونبدأ من جديد"، اختلج صوت سام، "ومن إيرثا كيت نقدِّم: شخص سيِّئ سرق جرس زفافي!".

انغلق الراديو عند الجيران، وساد السكون العالم.

شعور بنفسجي غزا كيان بول. تراجَعَت طفولته، وتعلَّق زائغًا على حافَّة الحياة، حياة غنيَّة عاصفة مُجزِية.

كان ثمة حركة عند الجيران، بطيئة، كمن يَجرُّ قدميه بصعوبة. قالت المرأة: "إذن...".

قال الرجل بصعوبة: "تشارلوت... عزيزتي... أقسم...".

قالت بمرارة: "أحبُّك، لنتصالح ونبدأ من جديد!".

قال الرجل يائسًا: "حبيبتي، إنه ليمويل كي. هارجر آخر، لا بُدَّ أنه كذلك!".

قالت: "أتريد استعادة زوجتك؟ حسنًا... لن أقف في طريقها. بوسعها أن تأخذك يا ليمويل... يا جوهرة لا تُقدَّر بثمن".

قال الرجل: "لا بُدَّ أنها مَن اتَّصَلَت بالإذاعة".

قالـت: "يمكنهـا أن تأخـذك، أيُّهـا الـدُّون- جـوان المتلاعـب النَّـذل، لكنهـا لـن تأخـذك قطعة واحـدة".

قـال الرجـل: "تشـارلوت، ضعـي المسـدَّس جانبًـا، لا تفعـلي شـيئًا قـد تندمـين عليـه".

قالت: "فات الأوان أيُّها الدُّودة". وانطلقت ثلاث طلقات.

ركـض بـول في الرَّدهــة، واصطـدم بالمـرأة فيـما هـي تندفـع خارِجـةً مـن شـقة هارجـر. كانـت شـقراءَ ضَخمـةً، ناعمـة ضائعـة، مثـل سريـر غـير مرتَّـب.

صرخـت هـي وبـول في الوقـت ذاتـه، ثـم أمسـكته بينـما يحـاول الهـروب.

قالت بعنف: "أتريد حلوى؟ أتريد عجلة؟".

قال بول بصوتٍ أجشَّ: "لا، شكرًا، ليس الآن".

قالت: "أنت لم تَرَ ولم تسمع شيئًا، أنت تعلم ما يحدث للواشين؟".

صاح بول: "نعم!".

بحثـت في حقيبتهـا، أخرجـت فُتـاتَ مناديـل وجـه معطَّـرة ودبابيـس شـعر ونقـود. قالـت لاهثـة: "خُـذ! هـذا لـك، وهنـاك المزيـد أيضًـا إن حافظـت عـلى شـفاهك مُغلَقـة". حشرتهـم في جيـب بنطالـه، ونظـرت إليـه بغضـب، ثـم انطلقـت إلى الشـارع. ركـض بـول عائـدًا إلى شـقَّته، وقفـز في السريـر، وشـدَّ الأغطيـة فـوق رأسـه. بـكى في كهـف سريـره المظلـم السـاخن، لأنـه وسـام السـهران قـد سـاهَمَا في قتـل رجـل.

* * *

لم يَمـضِ وقـت طويـل قبـل أن يـأتي شرطـيٌّ إلى المنـزل، وطـرق عـلى بـابَيْ الشـقَّتَيْن بهراوته.

مُخـدَّرًا، زحـف بـول خارجًـا مـن كهفـه المظلـم وفتـح البـاب. وبينـما كان يفعـل انفتـح البــاب عــبر الرَّدهــة، وهنــاك وقــف مســتر هارجــر، أشـعث لكــن ســليم.

قــال هارجــر: "نعــم يــا ســيدي؟". كان رجـلًا ضئيـلًا أصلـع، ذا شــارب رفيـع. "هــل أســتطيع مســاعدتك؟".

قال الشرطي: "سمع الجيران ضرب نار".

قــال هارجــر بتحــضُّر: "فعــلًا؟". مسَّــد شــاربه بطــرف إصبعــه الصغــير، "كــم أن هــذا غريــب، لم أســمع شــيئًا". نظــر إلى بــول بجِــدَّة، "هــل كنــت تلعــب بســلاح أبيــك مــرَّةً أخــرى أيُّهــا الشَّــاب؟".

قال بول مرعوبًا: "أوه، لا يا سيدي!".

قال الشرطي لبول: "أين والداك؟".

قال بول: في السينما".

قال الشرطي: "أنت وحدك؟".

قال بول: "نعم يا سيدي. إنها مغامرة".

قــال هارجــر: "آســف بشــأن مــا قلتــه عــن الســلاح، كنــتُ لأســمع بالتأكيـد أي طلقـات في المنـزل. الحوائـط رقيقـة مثـل الـورق، وأنـا لم أسـمع شـيئًا".

نظر له بول بامتنان.

قال الشرطي: "وأنت يا فتى، لم تسمع أي طلقات أيضًا؟"

قبـل أن تتســنَّى لبــول الإجابــة، كانــت هنــاك جلبــة في الشــارع. مــن ســيارة أجــرة خرجــت امــرأةٌ ضخمــة رؤوم، تصيــح بأعــلى مــا تُمكِّنهــا رئتاها.

"ليم! ليم! حبيبي".

اقتحمت الردهة، بحقيبة سَفرٍ ترتطم بساقها وتُمزِّق جواربها إلى أشلاء. ألقت الحقيبة وجَرَت إلى هارجر، وألقت ذراعيها حوله.

قالت: "وصلتني رسالتك يا عزيزي، وفعلت بالضبط ما قاله لي سام السهران أن أفعل، بَلَعتُ كبريائي وعِزَّة نفسي، وها أنا ذا!".

قال هارجر: "روز، روز، روز... روزي الصغيرة. لا تتركيني مرة أخرى".

جذبا بعضهما بعاطفة، وتهادَيَا إلى داخل شقتهما.

قالت مسز هارجر: "انظُر إلى الشقة! هكذا هم الرجال بلا نساء!". وفيما هي تغلق الباب، استطاع بول أن يرى كيف كانت سعيدة بالفوضى.

قال الشرطي لبول: "هل أنت مُتأكِّد أنك لم تسمع أي طلقات؟".

كرة النقود في جيب بول بدت له تتضخَّم حتى تصبح بطيخة. قال: "نعم يا سيدي". ذهب الشرطي.

أغلق بول باب الشقة، تثاقل إلى غرفة النوم، وانهار في السرير.

* * *

ما سمعه بول بعد ذلك من أصواتٍ جاء من ناحيته من الحائط. أصوات مشرقة، أصوات أبيه وأمه. أمه كانت تغني له التهويدات، وأبوه كان يخلع عنه ملابسه.

دندنت أمه: "ديدل ديدل دامبلنج ابني چون، دخل ينام مرتديًا شرابه، بقدمٍ في حذاء والأخرى بدون، ديدل ديدل دامبلنج ابني چون".

فتح چون عيناه.

قال الأب: "أهلًا بالولد الكبير، نِمتَ بملابسك؟".

قالت أُمُّه: "كيف كانت مغامرتك الصغيرة؟".

قال بول: "تمام، كيف كان الفيلم؟".

قالت الأم: "لم يكن مناسبًا للأطفال يا عزيزي. لكن ربما كنت لتحب الفيلم القصير. كان عن أشبال دِببةٍ ماكرة".

أعطاها الأب بنطال بول، هزَّته وعَلَّقَته بشكل مُنظَّم على ظهر كرسي بجوار السرير. ربَّتَت عليه، وشعرت بكرة النقود في الجيب. قالت ببهجة: "جيوب الأولاد الصغار! مليئة بألغاز الطفولة. هل هذا ضفدع مسحور؟ سكين جيب سحرية من الأميرة الجنية؟"، وتحسَّسَت النتوء.

قال أبو بول: "إنه ليس ولدًا صغيرًا، بل هو ولد كبير. صار أكبر من أن يفكر في الأميرات الجنيات".

رفعت أم بول يديها. "لا تتعجَّل، لا تتعجَّل. عندما رأيته نائمًا هناك أدرَكَت كم أن الطفولة قصيرةٌ إلى حَدٍّ مُخيف"، مدَّت يدها في الجيب وتنهَّدَت بحزن، "كم أن الأولاد الصغار قُساةٌ على ملابسهم، خاصَّةً جيوبهم".

أخرجت الكرة ورفعتها تحت أنف بول. وقالت بمرح: "والآن هل تمانع إخبار مامي بما لدينا هنا؟". تفتحت الكرة مثل شجرة أقحوان، بتلاتها من عملات فئة الدولار والخمسات والعشرات والعشرينات، وفتات المناديل المتَّسِخة بأحمر الشفاه. وفاحت منها سحابة من عطر المسك اللاذع، الذي عصف بعقل بول الصغير.

تشمَّم أبو بول الهواء، قال: "ما هذه الرائحة؟".

قلَّبَت أم بول عينيها، قالت: "تابو".

(1955)

قصور أكثر فخامة

صار لنا عامان نعرف آل ماكليلان، جريس وچورچ. كانا أوَّل جيران يرحِّبون بنا في القرية.

توقَّعت أن تتداعى المحادثة الافتتاحية إلى الغرابة بعد تبادُل المجاملات، لكن هذا لم يحدث قطُّ. جريس، بأعين نَشِطة لامعة مثل ببَّغاء، وجدت موضوع يهم كفاية تتحدَّث عنه لساعات.

قالت بحماس: "أتعرفون؟ غرفة معيشتكم يمكن أن تصبح غرفة أحلام، أليس كذلك يا چورچ؟ ألا ترى ذلك؟".

قال زوجها: "نعم، لطيفة فعلًا".

قالت جريس: "فقط أزيلوا كل شغل الخشب المطلي بالأبيض ذلك"، وضاقت عيناها، "واستبدلوه بألواح الصنوبر المدهون بزيت بذر الكتان مضاف إليه قليل من الصبغة البُنِّيَّة. وغطُّوا الأريكة بأحمر كأحمر الشفاه... أحمر أحمر، أتفهمون قصدي؟".

قالت آن، زوجتي: "أحمر؟".

"أحمر! لا تخافي من اللون".

قالت آن: "سأحاول ألَّا أفعل".

"وداري ذلـك الحائـط هنـاك كلـه، بنافذتيـه القبيحتـين وكل شيء، بستائر لونها أخضر قواريري. أيمكنك رؤية ذلك؟ ستصبح كما لو أنها نسخة من غرفة المعيشة التُّحفة في فبراير بيتر هاوس آند جاردن. أنت تذكرين ذلك بالطبع".

قالت آن: "لا بُدَّ أني فوَّتُّها!". كان الشهر حينها أغسطس.

قالت جريس: "أم كانت في هوم- لايف يا چورچ؟".

قال چورچ: "لا أتذكَّر بلا بحث".

"حسنًا بوسعي البحث في ملفَّاتي وإيجادها بنفسي". نهضت جريس فجأة، وبلا دعوة، شرعت في أخذ جولة خلال بقية المنزل.

مضت من غرفة لغرفة، تتبرَّع بقطعة أثاث لجمعية جيش الخلاص الخيرية، وتكشف زيف أنتيكة، وتشطب أجزاء كاملة من الوجود، وتضع مخطط لسجادة من الحائط إلى الحائط، علينا أن نحضرها قبل أن نقوم بأي شيء آخر. قالت بحزم: "ابدؤوا بالسجادة، وتحرَّكوا من هناك. ستضمُّ الدور السُّفليَّ كله معًا إن بدأتم منها".

قالت آن: "هممم".

"أتمنَّى لو أنك رأيت تسعة عشر خطأ أساسيًّا في اختيار السجاد، في يونيو هوم بيوتيفول".

قالت آن: "أوه، نعم بالطبع".

"جيد، إذن لست مضطرَّة لإخباركم كيف قد تسوء الأمور بعدم البدء من السجاد. چورچ... أوه، أنت لا تزال في غرفة المعيشة؟".

لمحـت چـورچ عـلى أريكـة غرفـة المعيشـة، سـارحًا في أفـكاره. اعتـدل وابتسـم.

اتَّبعـت جريـس محـاولًا تغيـير الموضـوع. "لـنَرَ، أنتـم في الناحيـة الشـمالية مِنَّـا، مـن في جنوبنـا؟".

رفعـت جريـس يداهـا، "أوه، لم تقابلوهـما؟ آل چينكينـس"، نـادت: "چـورچ، يريـدان أن يعرفـا عـن آل جينكينـس". مـن صوتهـا، خمَّنـت أن جيراننـا الجنوبيـين كانـوا نوعًـا مـن مُتجـوِّلي الشـواطئ اللِّطـاف.

قال چورچ: "إنهم أشخاص طيِّبون يا جريس".

قالـت جريـس: "أوه يـا چـورچ، أنـت تعلـم كيـف هـم آل چينكينـس. نعـم هـم طيبـون، لكـن..."، ضحكـت وهـزَّت رأسـها.

قلـت: "لكـن مـاذا؟". تسـابَقَت الاحتـمالات داخـل رأسي، هـل هـم هُـواة تَعـرٍّي؟ سدمنـو هيرويـن؟ أناركيـون؟

يربُّون الهامستر؟

قالـت جريـس: "لقـد انتقـلا إلى هنـا في 1945، وبسرعـة اشـتروا كرسـيَّين هيتشـكوك جميلـين، و..."، هـذه المـرة تنهَّـدت وهـزَّت كتفيهـا.

سـألت: "ومـاذا؟"، دَلَقَـا الحـبر الهنـدي عليهـم؟ وجـدا حزمـة أوراق مـن فئـة ألـف دولار محشـورة في أرجلهـم المجوَّفـة؟

قالت جريس: "وهذا كل شيء. توقَّفوا عند تلك النقطة".

قالت آن: "كيف ذلك؟".

"ألا ترين؟ لقد بدؤوا بداية موفَّقة بهَذَيْن الكرسيَّيْن، ثم انتكسوا".

قالـت آن ببـطء: "أوه، أرى ذلـك، حـماس البدايـات. إذن هـذا هـو مـا يعيـب آل چينكينـس".

قلت: "عيب على آل چينكينس".

لم تسـمعني جريـس. كانـت تطـوف بـين غرفـة المعيشـة وغرفـة السُّـفرة، ولاحَظـتُ أنهـا كلـما دخلـت أو خرجـت مـن غرفـة المعيشـة، ينعطـف مسـارها قليـلًا في نفـس النقطـة كل مـرَّة. بفضـول، ذهبـتُ إلى النقطـة التـي تتجنَّبهـا، ووَثَبـتُ مرَّتَـيْن عليهـا لأرى إن كان في الأرض مشـكلة عندهـا أم مـاذا.

ثم جاءت من جديد، وبَدَت متفاجئة عندما رأتني.

"أوه!".

سألت: "هل فعلت شيئًا خاطئًا؟".

"أنا فقط لم أتوقَّع وجودك هنا".

"آسف".

"هنا مكان مقعد الإسكافي كما تعلم".

تنحَّيـتُ جانبًـا، وراقبتهـا بعـدم ارتيـاح فيـما انحنـت عـلى مقعـد الإسـكافي الشـبحي. أظـنُّ تلـك كانـت أوَّلَ مـرَّة أنتبـه لهـا، أول مـرة لا أجـد في سـلوكها مَدعـاةً للضحـك.

أوضحـت: "بـدرج مسـامير صغـير مفتـوح أو درجين، وسـاق لبـلاب ينمو خارجًـا منهـم، أليـس جميـلًا؟"، خَطَـت حولـه مُحـاذِرَةً ألَّا تحـكَّ سـيقانها بـه، وصعـدت عـلى السُّـلَّم إلى الـدور الثـاني. سـألت بمـرح: "أتمانعـون إن ألقيـت نظـرة في الأنحـاء؟".

قال آن: "خُذي راحتك".

نهـض چـورچ مـن الأريكـة، وقـف ينظـر إلى السُّـلَّم لدقيقـة، ثـم رفـع كأس مشروبـه الخـاوي. "أيمكننـي الحصـول عـلى آخـر؟".

"آسـف يـا چـورچ، لم نعـتَنِ بـكَ كـما يجـدر بنـا. تفضَّـل طبعًـا، اخـدم نفسـك، الزجاجـة هنـاك في غرفـة السُّـفرة".

مـضى إليهـا مبـاشرة، وصـبَّ لنفســه بوصـة ونصـف مـن الويسـكي في قـاع قدحـه.

قالـت جريـس مـن أعـلى: "بـلاط الحـمَّام غـير لائـق عـلى المناشـف بالطبـع". آن، التـي خَطَـت خلفهـا مثـل خادمـة، وافقـت بكآبـة: "بالطبـع".

رفـع چـورچ كأسـه، وغمـز، وتجرَّعـه حتـى آخـر قطـرة. قـال: "لا تجعلهـا تضايقـك، إنهـا فقـط طريقتهـا في الـكلام. بيتكـم لطيـف جـدًّا، أحبُّـه، وهـي تحبُّـه كذلـك".

"شكرًا يا چورچ، هذا لُطفٌ منك".

* * *

عـادت آن وجريـس إلى الـدور السُّـفلي، وبـدت آن منهكـة إلى حـدٍّ مـا. قالـت جريـس: "أوه، هكـذا هـم الرجـال. تحسـبوننا سـاذجات، أليـس كذلـك؟"، وابتسـمت لآن برفـق، "إنهـم لا يفهمـون مـا يثير اهتـمام النسـاء. عـن مـاذا كنتـما تتحدَّثـان بينـما كنَّـا نقـضي وقتًـا رائعًـا؟".

قـال چـورچ: "كنـت أخـبره أن عليهـم تركيـب ورق حائـط للشـجر وسـتائر عـلى فتحـات المفاتيـح".

قالـت جريـس: "هممـم، حسـنًا، حـان وقـت العـودة إلى البيـت يـا عزيـزي".

توقَّفـت لوهلـة عنـد البـاب الخارجـي. قالـت: "خطـوط البـاب الأساسـية لطيفـة، هـذا الطـلاء الزنجبيـلي سـيقع فـورًا إن حككتمـوه بإزميـل. ويمكنكـم تفتحيـه بدهانـه بطـلاء أبيـض، ثـم إزالتـه عنـه فـورًا. سـيليق بكـم أكـثر".

قالت آن: "لقد كُنتِ مُفيدةً إلى درجة مذهلة".

قال چورچ: "إن منزلكم رائع في شكله الحالي".

قالـت جريـس: "أقسـم باللـه أنـا لا أفهـم كيـف يوجـد العديـد مـن الفنانـين الرجـال. لم أقابـل رجـُلًا فيـه ذَرَّة رؤيـة فنيـة".

قـال چـورچ بهـدوء: "هـراء". ثـم فاجـأني، النظـرة التـي حانـت منـه لجريـس، كانـت حنونـًا مُحتَويَـةً.

قالـت آن بكآبـة بعـد رحيـل آل ماكليـلان: "إنـه مزبلـة صغـيرة مُمِلَّـة عـلى مـا يبـدو".

"أوه، اسمعي، إنه منزل رائع".

"ربمـا، لكنـه يحتـاج لعمـل الكثـير، لم أدرك هـذا. لا شـكَّ أن منزلهـم رهيـب. إنهـم هنـاك منـذ خمـس سـنوات كـما قالـت. لـك أن تتخيـل مـاذا فعلـت فيـه في خمـس سـنوات... كل شيء مضبـوط، مضبـوط حتـى أصغـر مسـمار".

"لا يبـدو كذلـك مـن الخـارج، وعـلى كل حـال يـا آن هـذه ليسـت شـخصيتك".

هـزَّت رأسـها وكأنهـا توقـظ نفسـها. "أنـت مُحِـقٌّ. لم يحـدث في حيـاتي قـطُّ أن كان لـديَّ أدنى اهتـمام بمواكبـة الجـيران. لكـن هنـاك شيء مختلـف في هـذه المـرأة".

"لتذهب إلى الجحيم، هيا ننضم إلى معسكر آل چينكينس".

ضحكـت آن وانفكَّـت تعويـذة جريـس عنهـا. "هـل أنـت مجنـون؟ أتريـد أن نصاحـب أصحـاب الكرسـيين؟ هـؤلاء الكسـالى؟".

"سـنجعل صداقتنـا لهـم مشروطـة بـأن يشـتروا أريكـة جديـدة تمـشي مـع الكرسـيين".

"وليس أي أريكة، بل أريكة مناسبة".

"إن أرادوا أن يصبحوا أصدقاءنا، عليهم ألّا يخافوا من الألوان، وأحسن لهم أن يبدؤوا من السجادة".

قالت آن بثقة: "هذا لا يحتاج أن يُقال أصلًا".

* * *

لكن وقت طويل سيمضي قبل أن نجد مساحة تسمح بما هو أكثر من تبادل التحية مع آل چينكينس. فجريس ماكليلان صارت تقضي أغلب ساعات صَحوها في بيتنا. كل صباح تقريبًا، فيما أنا خارج للعمل، تأتي متهادِيةً تحت حمل من مجلّات الديكور المنزلي وتُصرُّ على إغراق آن فيهم؛ بحثًا عن الحل المناسب لمشكلة بعينها في بيتنا.

قالت آن ذات ليلة على العشاء: "لا بُدَّ أنهم شديدو الثراء".

قلت: "لا أظن ذلك. لدى چورچ متجر منتجات جلدية صغير، نادرًا ما ترى فيه زبونًا".

"إذن فكل ما يكسبه يُنفق على البيت".

"هذا ما لا أُصدِّقه. لكن ما الذي يدفعك للتفكير أنهم أثرياء؟".

"عندما تسمع هذه المرأة تتحدَّث، تحسب أن النقود لا شيء! دون أن يطرف لها جَفنٌ تتحدَّث عن ستائر ثمنها عشرة دولارات للشِّبر من الأرض إلى السقف، تقول إن تصليح المطبخ لن يكلِّف أكثر من خمسمائة دولار، هذا غير المدفأة الحجريَّة بالطبع".

"وما المطبخ بدون مدفأة حجرية؟".

وأريكة دائرية".

"ألا توجد طريقة تُبعِدها عنك يا آن؟ إنها تستهلكك. ألا تستطيعين أن تقولي لها إنك مشغولة وغير قادرة على رؤيتها؟".

قالـت آن بقِلَّـة حيلـة: "ليـس لـديَّ قلـبٌ لِفعـل ذلـك، إنهـا لطيفـة وودودة ووحيـدة، بالإضافـة إلى أنهـا لا يمكـن الوصـول إليهـا، فهي لا تسـمع مـا أقـول، رأسـها مـليء بالمخطَّطـات والقـماش والأثـاث وورق الحائـط والطـلاء".

"غيِّري الموضوع".

"غـيِّر مسـار الميسيسـبي! تحـدَّث عـن السياسـة وسـتتحدَّث عـن تغيـير تصميـم المنـزل، تحـدث عـن الـكلاب وسـتتحدث عـن بيـوت الـكلاب".

رنَّ الهاتف، فأجبته. كانت المتَّصِلة جريس ماكليلان.

"أهلًا يا جريس".

"أنت تعمل في مجال الأثاث المكتبي، ألست كذلك؟".

مكتبة
t.me/soramnqraa

"هذا صحيح".

"هل تأتيك أبدًا خزائن ملفَّات قديمة؟".

"نعم، لا أحب ذلك، لكن أحيانًا آخذها مضطرًّا".

"هل تسمح لي بأن أحصل على واحدة؟".

فكَّـرتُ لدقيقـة، كان عنـدي حطـام خشـبي قديـم كنـتُ عـلى وشـك إلقائـه. أخبرتهـا بشـأنه.

"أوه، سـيكون هـذا رائعًـا! توجـد مقالـة في الشـهر السـابق مـن بيـتر هـاوس عـن مـا يمكـن فعلـه بخزانـة ملفَّـات قديمـة. يمكنـك تحويلهـا لشيء جميـل بتغطيتهـا بـورق الحائـط، وعليـه طبقـة مـن الشـيلاك الشـفَّاف. ألا يمكنـك ببسـاطة رؤيتهـا؟".

"نعم. بالطبع يا عزيزتي. سأحضرها لك ليلة الغد".

"هـذا غايـة اللطـف منـك. أتسـاءل إذن لـو كان بوسـعك وآن أن تمـرًّا لتنـاوُل مـشروب حينهـا".

قبلـت الدعـوة وأنهيـت المكالمـة. قلـتُ: "حسـنًا، هـا قـد حـان الوقـت، مـاري أنطوانيـت دعتنـا أخـيرًا لزيـارة فرسـاي".

قالت آن: "أنا خائفة، سيجعل هذا بيتنا يبدو حزينًا".

"هناك في الحياة ما هو أكثر من الديكور".

"أعلـم، أعلـم. فقـط أتمنـى أن تظـلَّ في البيـت خـلال النهـار لتقـول ذلـك لي بينـما هـي هنـا".

عُـدتُ للبيـت بالشـاحنة الصغـيرة في المسـاء التـالي بـدلًا مـن سـيارتي؛ لـكي أسـتطيع توصيـل خزانـة الملفَّـات القديمـة إلى جريـس. آن كانـت بالفعـل في بيـت آل ماكليـلان، وخـرج چـورچ ليسـاعدني.

الخزانـة كانـت وحشًـا بلُّوطيًـا عتيـقَ الطـراز، ومـع كل التَّعـرُّق واللهاث لم أُولِ البيـتَ الاهتـمامَ الـكافي حتـى وضعنـا حملنـا في الردهـة الأماميـة.

* * *

أول مـا لاحظتـه كان وجـود خزانَتَـيْ ملفَّـات متهالِكَتَـيْن بالفعـل في الردهـة، بـلا ورق حائـط أو شـيلاك شـفاف. نظـرت إلى غرفـة المعيشـة. جلسـت آن عـلى الأريكـة بابتسـامةٍ شـاذَّة عـلى وجههـا. زنـبركات الأريكـة خرجـت مـن أسـفلها وتدلَّـت عاريـةً عـلى الأرض. مصـدر الإضـاءة الأسـاسي كان مصباحًـا وحيـدًا في ثُريَّـا ذات مخـارج لسـتَّة مصابيـح. مـن مخـرج مصبـاح آخـر خـرج سـلكٌ كهـربيٌّ مُرقَّـع بشريـط لاصـق يصـل إلى مكـواة عـلى لـوح كَيٍّ في منتصـف غرفـة المعيشـة.

كل مـا كان يغطِّـي الأرض كان بسـاطًا صغـيرًا، مـن النـوع الذي تـراه عادة في الحمَّامـات. وألـواح الأرض كانـت مُشَـقَّقة باهتـة نتيجـة لإهـمال طويـل. في كل مـكان كان غبـار وشـباك عنكبـوت، والنوافـذ كانـت مُتَّسِـخة. العلامـة الوحيـدة عـلى النظـام أو البـذخ كانـت عـلى مائـدة القهـوة، التـي غطَّتهـا أكـوام مـن مجلَّات الديكـور اللامعـة السـميكة، منفرجـة مثـل مروحـة.

چـورچ كان متوتِّـرًا وأقـلَّ كلامًـا مـن المعتـاد، خمَّنـتُ أنـه كان منزعجًـا مـن اسـتقبالنا هنـا. بعدمـا جهَّـز لنـا مشروبـات، جلـس والتـزم بالصمـت المتململ.

أمَّـا جريـس فـكان حالهـا مختلفًـا. كانـت عـلى درجـة عاليـة مـن الحـماس، ومليئـة، كـما يبـدو، بكبريـاء غـير قابـل للكبـح. تجلـس وتقـوم ثـم تجلـس وتقـوم مـن جديـد، أكـثر مـن عـشر مـرات في الدقيقـة. دارت في الغرفـة كراقصـة باليـه، واصِفَـةً بالضبـط مـاذا سـتفعل فيهـا. فركـت بـين أصابعهـا أقمشـةً مُتخيَّلـةً، وتمـدَّدَت بفخـر عـلى كـرسي خـوص سـيصبح ذات يـوم شـيزلونج بلـون البرقـوق، مـدَّت يديهـا عـلى أقـصى اتِّسـاع لهـما لتشـير إلى سـعَةِ رَفِّ الحائـط مـن البلـوط المكسـوِّ بالجـير الـذي سـيحمل التليفزيـون والراديـو والفونوغـراف.

صفَّقَـت بيدَيْهـا وأغلَقَـت عينَيْهـا: "أيمكنكـم رؤيـة ذلـك؟ أيمكنكـم رؤيـة ذلـك؟".

قالت آن: "جميل جدًّا".

"وكل ليلـة، فيـما يعـود چـورچ عـلى الممـشى، سـأكون قـد جهَّـزتُ المارتينـي المثلَّـج في إبريـق بيوتـري، وسأشـغِّل أسـطوانة في الفونوغـراف". انحنـت جريـس عـلى الـلا شيء حيـث سـيكون الـرف، واختـارت أسـطوانة مـن الخـواء، ووضعتهـا عـلى قـرص دوار مُتخَيَّـل، وضغطـت زِرًّا لا يوجـد، وتراجَعَـت إلى الكـرسي الخـوصي. ومـا زادني فزعًـا، كان رؤيتهـا تهـزُّ رأسـها عـلى إيقـاع الموسـيقى الشـبحية.

بعد دقيقة من ذلك، بدا چورچ منزعجًا أيضًا. "جريس! هل نِمتِ؟".

حاول أن تبدو لهجته خفيفة، لكن ظهر فيها قلق حقيقي.

هـزَّت جريـس رأسـها وفتحـت أعينهـا بكسـل. "لم أكـن نائمـة، كنـت أسـتمع".

قالت آن، وهي تنظر لي بقلق: "ستكون بلا شك غُرفةً ساحرة".

ثـم صـارت جريـس فجـأة عـلى أقدامهـا، تدفعهـا طاقَـةٌ جديـدة. "وغرفـة السـفرة"، بنفـاد صبر التقطـت مجلـة وفَـرَّت صفحاتهـا. "انتظـروا، أيـن هـي؟ أيـن هـي؟ لا، ليسـت تلـك"، تركـت المجلـة تقـع، "أوه، بالطبـع، لقـد قصصتهـا الليلـة السـابقة ووضعتهـا في الملفـات. أتذكـر يـا چـورچ؟ مائـدة غرفـة السـفرة ذات السـطح الزجاجـي ومـكان الزهـور أسـفلها؟".

"آها".

قالـت جريـس بسـعادة: "هـذا مـا سـيكون في غرفـة السـفرة. أتـرون؟ أنتـم تنظـرون إليهـا مبـاشرة، وهنـاك، أسـفلها، سـتكون زهـور الچيرانيـوم والبنفسـج الإفريقـي أو أي شيء ترغبـون فيـه. جميـل؟"، هرعـت إلى خزانـات الملفـات، "بجـد، يجـب أن تروهـا بالألـوان".

تبعتهـا أنـا وآن بـأدب، وانتظرناهـا فيـما جـرت بأصابعهـا عـلى طـول الأقسـام في الأدراج. رأيـت الأدراج مكتظَّـةً بعيِّنـات الأقمشـة وورق الحائط، وكـروت ألـوان الطـلاء، وصفحـات مأخـوذة مـن مجـلات. كانـت قـد مـلأت بالفعـل خزانَتَـيْ ملفَّـات، وجاهـزة لإغـراق الثالثـة، التـي جلبتهـا. عناويـن الأدراج كانـت: "غرفـة المعيشـة"، "المطبـخ"، "السُّـفرة"، ومـا إلى ذلـك.

قلت لچورچ، الذي جاء لتوِّه حاملًا مشروبًا جديدًا: "نظام إيداع مُحكَم".

نظـر لي عـن كثـب، كـما لـو أنـه يحـاول تخمـين إن كنـتُ أمـزح أم لا. قـال في النهايـة: "هـو كذلـك، بـل هنـاك حتـى قسـم عـن الورشـة التـي تريـد أن بناءهـا لي في القبـو"، تنهَّـد، "ذات يـوم".

رفعـت جريـس مربَّعًـا صغـيراً مـن البلاسـتيك الأزرق الشـفَّاف، "تلـك هـي خامـة سـتائر المطبـخ، فـوق الحـوض وغسَّـالة الأطبـاق الأوتوماتيكيـة. ضـد المـاء وتُنظَّـف بالمسـح".

قالت آن: "ذلك رائع، هل لديك غسَّالة أطباق أوتوماتيكية؟".

قالت جريس، بابتسامة للأفق البعيد: "هممم؟ أوه، غسالة أطباق؟ لا، لكنني أعلم بالضبط النوع الذي نريده. لقد حسمنا قرارنا، ألم نفعل يا چورچ؟".

"بالطبع يا عزيزتي".

قالت جريس بسعادة: "وذات يوم..."، وجرت بأصابعها فوق محتويات دُرج الملفات.

قال چورچ: "ذات يوم...".

* * *

وكما قلت، مرَّ عامان منذ ذاك الحين، منذ قابلنا آل ماكليلان أوَّل مرَّة. بعطف ورقة، اخترعت آن طرقًا غير مُؤذِيَةٍ لمنع جريس من تقضية كل وقتها في بيتنا مع مجلَّاتها. لكننا جعلنا من تناوُل الشراب مع آل ماكليلان مرَّةً أو مرَّتين في الشهر عادةً ودِّيَّةً.

أحببت چورچ، صار ودودًا مُتحدِّثًا عندما تأكَّد أننا لن نتهكَّم على هَوَس زوجته بالديكور المنزلي، وهو شيء يبدو أن كل مَن بالحي مولَعون بفِعلِه. كان يعشق جريس، ولم يُقلِّل من اهتماماتها مثلما فعل في مقابلتنا الأولى، إلا عندما لا يعرف الناس الذي تفعل ذلك أمامهم. أما بين الأصدقاء فلم يثبِّطها أو يستخف بأحلامها.

تحمَّلَت آن عبء حديث جريس أحادِيَّ الجانب على سبيل واجبها كمسيحيَّةٍ. أنا وچورچ تجاهلناهُنَّ، وحظينا بوقت طيب كفاية، تكلَّمنا فيه عن كل شيء إلا الديكور المنزلي.

وكان في تلك المحادثات أن علمت أن چورچ يمرُّ بأزمة مالية منذ أعوام، والأمور ترفض أن تتحسَّن. هذا الـ "يومًا ما" الذي كانت جريس تُخطِّط له منذ خمس سنوات، بحسب قول چورچ، بدا أنه يبعد شَهرًا وراء شهر، بينما لم تَنفَكَّ أعدادُ مجلَّات البيت تتكاثر على

رفـوف الجرائـد. وأعتقـد أن هـذا كان سـبب شربـه أكـثر مـمَّا يجـب، لا جريـس.

وامتـلأت خزانـات الملفـات أكـثر وأكـثر، واهـترأ بيـت آل ماكليـلان أكـثر وأكـثر. لكـن حـماس جريـس عـن كيـف سيكون بيتهـم لم يَفـتُر، بـل هـو في الواقـع زاد، ومـن وقـت لآخـر يكـون علينـا اتِّباعهـا في جولـة حـول البيـت نسـمع فيهـا عـن كيـف سـيكون.

ثـم حـدث شيء حزيـنٌ نوعًـا، وشيء رائـع فعـلًا لآل ماكليـلان. الـشيء الحزيـن كان أن جريـس أصابتهـا عـدوى ڤيروسـيَّة ألزمتهـا المستشـفى لشـهرين. والـشيء الرائـع كان أن چـورچ قـد ورث بعـض المـال مـن قريـب لم يقابلـه قَـطُّ.

وفيـما كانـت جريـس في المستشـفى، كان چـورچ يتنـاول غالبًـا العشـاء معنـا. وفي يـوم تلقِّيـه إرثـه، تخـلَّى عـن قِلَّـة كلامـه بالكامـل. ولمفاجأتنـا، صـار يتحـدَّث عـن الديكـور المنـزلي بحـماس مُتجاهِـلًا كل مـا عـداه.

قالت آن ضاحكًا: "الآن أصابتك العدوى أنت أيضًا".

"عـدوى؟ بـل أصابنـي المـال! سـأفاجئ جريـس بتجهيـز البيـت عـلى الطريقـة التـي طالمـا أرادتهـا، لتجـده كذلـك عندمـا تعـود".

"تمامًا يا چورچ؟".

"تمااااااامًا".

جُنِّدنـا أنـا وآن طواعيـةً لمسـاعدته. أبحرنـا في ملَّفـات جريـس ووجدنـا تعليـمات مُفصَّلـة لـكل غرفـة، أخـذت في اعتبارهـا حتـى سنَّادات الكتـب وأوعيـة الصابـون. تَتَبُّـع كل تفصيلـة كانـت مَهمَّـة مُرهِقـة، لكـن چـورچ لم يعـرف الكلـل، ومثلـه كانـت آن، ولم يكـن المـال مشـكلة.

كان الوقـت كلَّ شيء، والمـال لم يكـن شيء. عمـل الكهربائيُّـون والبَنَّاؤون والنَّجَّـارون والنَّقَّاشـون عـلى مـدار السـاعة مقابـل أجـور زائـدة. وآن، بـلا

أي مقابل، أقلقت مضاجع متاجر التجزئة للإسراع بملء البيت بالأثاث الذي طلبته. قبل يومين من عودة جريس لبيتها، كان الإرث قد انتهى، والمنزل صار مهيبًا.

چورچ كان أكثرَ الرجال فخرًا وسعادة، بلا منازع، على وجه الأرض. حقَّق مَهمَّته على أكمل وجه، باستثناء تفصيلة صغيرة لا تستحقُّ الذِّكر. فشلت آن في إيجاد نفس درجة لون عَيِّنة القماش الصفراء التي أرادتها جريس لستائر غرفة المعيشة وكساء الأريكة. الدرجة التي استعاضت بها آن كانت أفتَحَ قليلًا. لم نَرَ فيها أنا وچورچ أي فارق على الإطلاق.

ثم عادت جريس إلى البيت، مبتهجة لكن واهِنَة، مستندة إلى ذراع چورچ. وكان ذلك في المساء، وكنتُ وآن منتظرين في غرفة المعيشة، نرتجف حرفيًّا من فرط الحماس. فيما ساعد چورچ جريس لتمشي، شَغَلَت آن نفسها بتوتُّر مع باقة من الورود الحمراء وضعتها في قازة زجاجية عملاقة على منتصف مائدة القهوة.

سمعنا يد چورچ على المزلاج، وتأرجح الباب منفتحًا، ووقف آل ماكليلان على عتبة منزل أحلامهم. همهمت جريس: "أوه، چورچ". تركت ذراعه، ثم مضت من غرفة إلى غرفة، وكأنها استمدَّت قُوَّةً سحرية من محيطها، تنظر حولها مثلما رأيناها تفعل ألف مرة. لكن في مرة المرات هذه، كانت عاجِزةً عن النطق.

عادت أخيرًا إلى غرفة المعيشة، وارتمت على الشيزلونج بلون البرقوق. خفض چورچ صوت الفونوغراف إلى حدٍّ الهمس اللطيف.

"إذن؟"، تنهَّد چورچ.

قالت: "لا تستعجِلني، أحاول إيجاد الكلمات، الكلمات المناسبة".

سأل چورچ: "أيعجبك؟".

نظـرت إليـه جريـس وضحكـت بعـدم تصديـق، "أوه چـورچ، چـورچ، بالطبـع يعجبنـي! إنـه رائـع يـا حبيبـي! أنـا في البيـت، في البيـت أخـيراً". ارتعشـت شـفتاها، وبـدأت عيوننـا في التَّغرغُـر.

سأل چورچ مبحوحًا: "لا شيء خاطئ؟".

"لقد اعتنيت بكل شيء كما ينبغي. كل شيء نظيف وجميل".

"كانـت سـتصبح مفاجـأة بـلا شـك لـو لم تكـن الأشـياء نظيفـة"، صفَّـق بيديـه معًـا، "والآن، هـل أنـت بخـير كفايـة لتـشربي؟".

"لست ميِّتة".

قلـت: "لا تعمـل حسـابنا يـا چـورچ، نحـن ذاهبـون. فقـط أردنـا رؤيـة تعبـير وجههـا عنـد دخولهـا، والآن سـوف نريحكـم منَّـا".

قال چورچ: "لا تَقُل ذلك".

"لا، أعنـي مـا قلـت، نحـن ذاهبـون، تحتاجـان أن تكونـا وحدكـما، بـل أنتـم الثلاثـة إن حسـبنا المنـزل".

قـال چـورچ: "ابقـوا حيـث أنتـم". هـرع إلى المطبـخ الأبيـض الـبرَّاق ليجهِّـز المشروبـات. قالـت آن: "حسـنًا، نحـن سنتسـلَّل"، واتَّجهنـا نحـو البـاب الأمامـي، "لا تنهـضي يـا جريـس".

قالـت جريـس مـن الشـيزلونج: "حسـنًا، إن أصررتـم عـلى الذهـاب، فـإلى اللقـاء. لا أجـد الكلـمات المناسـبة لشـكركم".

قالـت آن: "كان ذلـك أكـثر وقـت مُمتِـع حظيـتُ بـه منـذ أعـوام". نظـرت بفخـر في أرجـاء الغرفـة، ثـم مضـت إلى مائـدة القهـوة لترتيـب الـورد قليـلًا. "الـشيء الوحيـد الـذي أقلقنـي كان لـونَ أغطيـة الأثـاث والسـتائر. هـل هـو أفتَـحُ مـن الـلازم؟".

"إذن لاحَظتِ ذلك أنتِ أيضًا يا آن؟ أنا نويتُ ألَّا أذكر ذلك لعدم إفساد رجوعي إلى البيت"، وعبست قليلًا.

اغتمَّت آن، "أوه يا عزيزتي، أتمنى أن ذلك لم يفسد عليك رجوعك".

قالت جريس: "لا لا، بالطبع لم يفعل. أنا لا أفهمه، لكنه لا يفرق على أي حال".

قالت آن: "بوسعي الشرح".

"ربما بسبب شيء ما في الهواء".

قالت آن: "في الهواء؟".

"كيف تُفسِّرين الأمر بغير ذلك؟ فالخامة قد احتفظت بلونها على ما يُرام لسنوات، ثم فجأة، بووف، بهتت في أسابيع قليلة".

دخل چورچ حاملًا إبريق بيوتري مُثلَّج. "والآن، مَن الذي سيبقى لتناوُل مشروب سريع؟ ألن تفعلوا؟".

تناولنا منه أنا وآن الأكواب بظمأ، بامتنان، بلا كلمة.

قال چورچ: "صدر اليوم عددٌ جديد من هوم بيوتيفول يا عزيزتي".

هزَّت جريس كتفيها، "اقرأ عددًا واحدًا، وكأنك قرأتهم كلهم"، رفَعَت كوبها، "نَخبُ الأيام السعيدة، وشكرًا جزيلًا يا أعزَّائي على بوكيه الورد".

(1951)

حكاية هاينيس بورت

أَبعَدُ مكانٍ عن بيتي بِعثُ فيه نوافذ رياحٍ كان هاينيس بورت في ماساتشوستس، في مكان يكاد يكون باحَةَ بيتٍ آل كينيدي الصيفي الأماميـة.

محيط عملي عادةً يقع في نطاق خمسة وعشرين ميلًا من بيتي، الذي يقع في نورث كروفورد بنيو هامبشير.

ما صار في هاينيس بورت كان لأن أحدهم أساء فهم شيء قُلتُه، وحسبني مُؤيِّدٌ جمهوري مُتحمِّس لجولدوتر[1]. في الواقع أنا لم أحسم قراري بشأن تأييد جولدوتر أو رفضه بعد.

(1) باري جولدوتر Barry Goldwater: سياسي أمريكي جمهوري وعضو في مجلس الشيوخ عن ولاية أريزونا، ومُرشَّح في الانتخابات الرئاسية الأمريكية عام 1964. خسر فيها أمام ليندون جونسون Lyndon Johnson. [المترجم]

ما حدث كان كالتالي: مدير البرامج بناديو ليونز نورث كروفورد كان مُؤيِّدًا لجولدوتر، وحدث أن جلب ذلك الفتى الجامعي المدعو روبرت تافت رامفورد ليلقي كلمةً في اجتماع ذات يومٍ عن الفوضى الديموقراطية بواشنطن وهاينيس بورت. الفتى كان رئيسًا وطنيًّا لجمعية طُلَّابيَّة تحاول أن تعيد البلد إلى ما تعتبره المبادئ الأولية. أحد هذه المبادئ الأولية، على ما أذكر، كان القضاءَ على ضريبة الدخل. لك أن تتخيَّل حجم التصفيق.

واتاني شعورٌ مُضحِكٌ أن الفتى لم يأبه بالسياسة أكثر ممَّا فعلتُ أنا. كانت لديه تحت عينيه هالات، وبدا كما لو أنه يتمنَّى أن يكون في مكان آخر. كان يقول كلامًا قويًّا، لكنه يتردَّد مثل موسيقى الكازو[1]. المرَّة الوحيدة التي كان فيها مثيرًا للاهتمام فعلًا، كانت عندما تكلَّم عن وجوده في سباقات مراكب شراعيَّة ومباريات تنس وجولف مع أفراد مختلفين من آل كينيدي. قال إن هناك بروباجندا تشيد ببوبي كينيدي كلاعب جولف، بينما بوبي في الواقع لا يقدر على تمييز كرات الجولف من التفاح الحامض. وقال إن بيير سالينجر من أسوأ لاعبي الجولف في العالم، ولا يأبه على الإطلاق بالإبحار أو بالتنس.

والِدَا روبرت تافت رامفورد كانا هنا، جاءَا من هاينيس بورت ليسمعا ابنهما. كانا فخورَيْن به جدًّا، أو على الأقل كان والده كذلك. ارتدى والده بنطلونًا صوفيًّا وحذاءً أبيض، رغم أن الأرض كان عليها ثلج، ومعطفًا مُزدَوَجَ الصَّدر ذا أزرار نحاسية. عرف الفتى أباه بأنه العميد البحري ويليام رامفورد. كان العميد رَجُلًا قصيرًا، أشعثَ الحواجب، باهِتَ العيون، أزرقها. بدا مثل دُميَة دُبٍّ محشوٍّ فَظٍّ ودود، وكذا كان ابنه. عرفت لاحقًا، من رجل في الخدمة السرية، أن

(1) كازو Kazo: آلة نفخ موسيقية أمريكية صوتها أقرب للطَّنين. [المترجم]

آل كينيـدي كانـوا يقولـون عـلى آل رامفـورد أحيانًـا "البوويـون"؛ لأنهـم يشـبهون كثـيرًا الـدُّبَّ في كتـب وينـي الـدب بـو للأطفـال.

غـير أن زوجـة العميـد لم تكـن "بوويـة". كانـت نحيفـةً ورشـيقةً، وربمـا أطـول مـن العميـد ببوصَتَيْن. لـدى الدِّبَبـة عـادَةٌ في أن يبـدو عليهـم الرضـا تجـاه كل شيء. امـرأة العميـد لم تكـن لهـا تلـك النظـرة. بوسـعي القـول إنهـا كانـت سريعـةَ الغضـب حيـال الكثـير مـن الأشـياء.

بعدمـا انتهـى الفتـى مـن صَـبِّ النـار والكبريـت عـلى آل كينيـدي، بينما يُصفِّـق والـده عـلى كل مـا يقـول. نهـض ناقـل المبـاني هـاي بويديـن، وهـو ديموقراطـي مؤيِّـد لآل كينيـدي، وقـال أشـياء عنيفـة للفتـى، لا أذكـر منهـا إلا أوَّلَهـا: "يـا بنـي، إن ظللـت تنفـخ البخـار هكـذا وأنـت لا تـزال طفـلًا، لـن يبقـى فيـك أوقيَّـة جَهـدٍ عندمـا تصبـح كبـيرًا كفايـة للانتخـاب". ومـن تلـك النقطـة فصاعـدًا أخـذ الـكلام مَنحًـى أسـوأ.

لم يغضـب الفتـى، بـل أُحـرَج، وأجـاب بمزيـد مـن موسـيقى الـكازو. العميـد هـو مَـن اهتـمَّ فعـلًا، تحـوَّل إلى لـون عصـير الطماطـم، نهـض وجـادل، جـادل بمهـارَةٍ، برغـم أن زوجتـه كانـت تشـدُّه مـن مؤخِّـرة معطفـه ذي الأزرار النحاسـية طـوال الوقـت. كانـت تحـاول منعـه مـن إثـارة كل هـذا اللغـط، لكـن العميـد كان يحـب اللغـط.

انتهـى الاجتـماع، والـكلُّ يشـعر بالإحـراج، وذهبـتُ أنـا إلى هـاي بويديـن لأتحـدَّث معـه عـن شيء لا يتعلَّـق بكينيـدي ولا جولدوتـر. بـل عـن إطـار حـوض اسـتحمام كنـتُ قـد بِعتُـه لـه. أصرَّ عـلى أن يركبه بنفسـه ليوفِّـر سـبع دولارات ونصـف. غـير أن الحـوض سَرَّب، وانهـار سـقف غرفـة السـفرة في بيتـه، وادَّعـى هـاي أن هـذا لِعَيـبٍ في البضاعـة لا في التركيـب. كان هـاي لا يـزال حانقًـا مـن جدالـه مـع الفتـى، وصـبَّ حنقـه عـليَّ. ردَدتُ عليـه بالحقيقـة ومشـيت مبتعـدًا عنـه، وهنـا شَـدَّ العميـد رامفـورد يَـدَيَّ وصافحهـا. حسـبني كنـتُ أدافـع عـن ابنـه وبـاري جولدوتـر.

سألني: "ما مجال عملك؟".

أخبرتـه، وعـلى الفـور صـار بـين يَـدَيَّ طَلَبيَّـة نوافـذ ريـاحٍ لمنـزل مـن أربعـة طوابـق في هاينيـس بـورت. أطلـق العميـد عـلى ذلـك البيـت الكبـير القديـم لقـب الكـوخ.

* * *

سألته: "هل أنت عميدٌ في البحرية؟".

قـال: "لا، لكـن أبي ويليـام هـاورد تافـت كان الأمـينَ العـام للبحريـة. هـذا هـو اسـمي بالكامـل: العميـد البحـري ويليـام هـاورد تافـت رامفورد".

قلت: "هل أنتَ في خفر السواحل؟".

قال: "أتعني أسطول كينيدي الشخصي؟".

قلت: "اعذرني؟".

قـال: "هـذا مـا يجـب أن يطلقـوه عـلى خفـر السـواحل هـذه الأيـام. فيبـدو أن مَهمَّتهـم الوحيـدة باتـت حمايـة آل كينيـدي بينـما يتزلَّجـون عـلى المـاء خلـف حاويـات النتانـة".

قلـت: "إذن أنـتَ لسـتَ في خفـر السـواحل؟". لم أسـتطع تَخيُّـل مـاذا قـد يكـون غـير ذلـك.

قـال: "كنـتُ العميـدَ البحـريَّ لنـادي يخـوت هاينيـس بـورت عـام 1946".

لم يبتسـم، ولم أفعـل أنـا، ولم تفعـل أيضًـا زوجتـه، التـي كان اسـمها كلاريـس. ولكـن كلاريـس أفلتـت تنهِـدَةً صغـيرة بـدت مثـل صافـرة قطـار شَـحنٍ تـأتي مـن بعيـد ذات صبـاح ممطـر.

لم أعلـم مـا المشـكلة حينهـا، لكـن كلاريـس كانـت تتنهَّـد لأن العميـد لم يضطلـع بـأي وظيفـة ذات أي وصـف منـذ 1946. منـذ ذلـك الحـين، جعـل

مـن السُّـخط عـلى الرئيـس الأمريـكي الحـالي وظيفـةً بـدوامٍ كامـل، أيًّـا كان ذلـك الرئيـس، بمـا فيهـم أيزنهـاور.

* * *

هكـذا ذهبـت إلى هاينيـس بـورت في شـاحنتي لأخـذ قياسـات نوافـذ بيـت العميـد في أواخـر يونيـو. بوابـة منزلـه كانـت في جـادَّة إرفينـج، وكـذا كانـت بوابـة بيـت آل كينيـدي. وكنـتُ أنـا والرئيـس كينيـدي في كيـب كـود في اليـوم نفسـه.

الطريـق إلى هاينيـس بـورت كان مسـدودًا باختنـاقٍ مُـروريٍّ عـلى مـدى ثـلاث قـرى. كانـت هنـاك لوحـات أرقـام سـيارات مـن كل ولايـة بالجمهوريـة. الطريـق كان يتحـرَّك بسرعـة أربعـة أميـال في السـاعة. تجاوَزَتنـي عِـدَّة مجموعـات مـن مُشـاة الخمسـين ميـلًا[1]. وصـل رادياتـير سـيَّارتي إلى درجـة الغليـان أربـع مـرات.

شـعرت بالأسـف عـلى نفـسي، لأني كنـت مواطنًـا عاديًّـا، مُضطـرًّا لأن أَعلَـق في المـرور. لكنـي تعرَّفـتُ الرَّجُـلَ في الليموزيـن أمامـي، كان أدلاي ستيڤنسـون[2]، لم يكـن يتحـرَّك أسرع مـماَ فَعَلـتُ، وكان رادياتـير سـيارته يغـلي أيضًـا.

في أحـد الأماكـن، عَلِقنـا لفـترة طويلـة، لدرجـة أني ومسـتر ستيڤنسـون ترجَّلنـا وتَمَشَّـينا لبعـض الوقـت. انتهـزت الفرصـة لأسـأله كيـف الحـال في الأمـم المتحـدة. قـال لي إن الحـال هنـاك بخـيرٍ بقـدر مـا يُتوَقَّـع منـه أن يكـون. ولم يكـن ذلـك شـيئًا لا أعرفـه مسـبقًا.

---

(1) مُشـاة الخمسـين ميـلاً fifty-mile hikers: مجموعـات مـشي وجـري رياضيـة انتـشرت في بدايـة السـتينيات بأمريـكا؛ اسـتجابةً لتشـجيع الرئيـس كينيـدي لصغـار الأمريكيـين عـلى ممارسـة الرياضـة. [المترجم]

(2) أدلاي ستيڤنسـون Adlai Stevenson: محـامٍ وسـياسيٌّ ودبلومـاسيٌّ أمريـكيٌّ، تـولىّ مناصِـبَ سياسـيَّةً مُتعـدِّدة. [المترجـم]

عندمـا وصلـت هاينيـس بـورت أخـيراً، وجـدت أن رجـال الشرطـة والخدمـة السِّرِّيَّـة قـد أغلقـوا جـادَّة إرفينـج. اسـتطاع أدلاي ستيفنسـون دخولهـا، لكنـي لم أفعـل. جعلتنـي الشرطـة أعـود للوقـوف في الصَّـفِّ مـع السُّـيَّاح، الذيـن دُفِعـوا ليقفـوا عـلى مسـافة مربَّـعٍ سـكني مـن جـادة إرفينـج.

لم أَدرِ بنفـسي إلا وأنـا في هاينيـس، أمـرُّ عـبر نـزل بريزيدينتـال موتـور، ومتجـر فيرسـت فاميـلي وافـل، وبـار بي. تي. 109، وملعـب جولـف مصغـر يُدعـى نيـو فرونتـير.

دخلـت متجـر الوافـل، واتَّصلـتُ بـآل رامفـورد لأعـرف كيـف يُفـتَرَض ببائـع نوافـذ ريـاح عـاديٍّ أن يدخـل جـادَّة إرفينـج دون أن يمـوت بوابـل مـن الرصـاص. مَـن تحدَّثـت إليـه كان كبـيرَ الخـدم، سـألني عـن أرقـام رُخصتـي وطـولي ولـون عينـيَّ، وكل ذلـك. قـال إنـه سـيخبر رجـال الخدمـة السريـة، وسـيتركونني أمُـرُّ المـرَّة التاليـة.

وكان الوقـت مُتأخِّـرًا بعـد الظهـيرة، ولم أتغـدَّ. فقـرَّرتُ أن أتنـاول الوافـل. كل أنـواع الوافـل كانـت مُسـمَّاة بأسـماء آل كينيـدي وأصدقائهـم وأقاربهـم. الوافـل بالفراولـة والقشـدة كان "چـاكي"، الوافـل مـع قطعـة آيـس كريـم كان "كارولـين"، بـل كان لديهـم حتـى وافـل يُدعـى "آرثـر شـليزنجر چونيـور".

أكَلتُ "تيدي"، وشربتُ "چو".

* * *

تركـوني أمُـرُّ المـرة التاليـة، ودخلـتُ جـادَّة إرفينـج خلـف وزيـر دفـاع باكسـتان. باسـتثنائنا، كان الشـارع خاويًـا كامتـدادٍ للصحـراء الكـبرى.

لم يكـن هنـاك مـا يمكـن رؤيتـه عـلى ناحيـة الرئيـس، عـدا سـياج مـن خشـب الأَرز يرتفـع حـوالي ثمـاني أقـدامٍ ويمتـدُّ لمائتـي قَـدَم، وفيـه بوابـة.

كـوخ رامفـورد كان يواجـه البوَّابـة عـبر الشـارع، أكـبر منـزل في القريـة وأحـد أقـدم منازلهـا. كان الكـوخ مـن الجـصّ، مليئًـا بالأبـراج والبلكونـات، وشرفـة تَمتـدُّ عـلى طـول الجوانـب الأربعـة.

في بلكونـة الـدور الثـاني كان هنـاك لوحـة هائلـة لبـاري جولدوتـر. حدقـات العيـون كان فيهـا عواكـس إضـاءة درَّاجـات. حدَّقَـت هـذه العيـون مباشرة في بوابـة منـزل كينيـدي. كانـت هنـاك كشـافات غامـرة في كل مـكان حـول اللوحـة، هكـذا كان بوسـعي تخمـين أنهـا تُضـاء في الليـل، وأن هـذه الكشـافات تتذبـذب.مكتبة سُر مَن قرأ

* * *

الرجـل الـذي يبيـع نوافـذ الريـاح لا سـبيل لـه للتأكُّـد مـن موقعـه عـلى السُّـلَّم الاجتماعـي، خاصَّـةً لـو كان يركبهـا أيضًـا. لـذا كنـتُ مسـتعدًّا لمعرفـة مـكاني والالتـزام بعمـلي فقـط، وهـو قيـاس النوافـذ. لكـن العميـد رحَّـب بي وكأني ضيـف ذو شـأن. دعـاني لتنـاول الكوكتيـلات والعشـاء وقضاء الليلـة. قـال إن بوسـعي البـدء في القيـاس اليـوم التـالي.

هكـذا تناولنـا المارتينـي في الشرفـة. عـدا أننـا لم نفعـل في أكـثر مواقعهـا لُطفًـا، الـذي يطـلُّ عـلى نـادي اليخـت والمرفـأ. بـل جلسـنا عـلى الجانـب الـذي يُطـلُّ عـلى السُّـيَّاح المسـاكين المُزاحـين إلى هاينيـس. أحـبَّ العميـد الحديـثَ عـن هـؤلاء الحمقـى هنـاك.

قـال: "انظُـر إليهـم! أرادوا المجـد، وأدركـوا الآن أنهـم لـن ينالـوه. حسـبوا أنهـم سـيُدعَون لِلَعـب التاتـش فوتبـول مـع يونيـس كينيـدي وفرانـك سـيناترا ووزيـر الصِّحَّـة والرعايـة الاجتماعيـة. هـم انتخبـوا المجـد، والآن انظُـر مـاذا حصلـوا عليـه. لم ينالـوا حتـى رؤيـة مدخنـة بيـت آل كينيـدي فـوق أشـجاره. كل المجـد الـذي سـينالونه مـن هـذه الإدارة هـو وافـل مُبالَـغ في سـعره اسـمه كارولـين".

حلَّقـت هليكوبـتر فوقنـا، عـلى ارتفـاعٍ خفيـض، وهبطـت في مـكانٍ مـا خلـف سـياج بيـت كينيـدي. قالـت كلاريـس إنهـا تتسـاءل مَـن كان هـذا.

قال العميد: "البابا بولس السادس".

كبـير الخـدم، الـذي كان اسـمه بولـس، جـاء بوعـاء كبـير. حسـبته مملـوءًا بالفشـار أو المقرمشـات، لكنـه اتَّضـح أن مـا فيـه كان دبابيـس تأييـد جولدوتـر. جعـل العميـد بولـس يأخـذ الوعـاء إلى الشـارع، ويعـرض الدبابيـس عـلى النـاس في السـيارات. أخـذه العديـدون، فأولئـك كانـوا مُحبَطـين، كانـوا حانقـين.

بعـضٌ مـن مُشـاة الخمسـين ميـلًا، الذيـن مشـوا في الواقـع سـبعةً وسـتِّين ميـلًا قادِمـين مـن بوسـطن، سـألوا إن كان بوسـعهم التَّمـدُّد في حديقـة بيـت رامفـورد لبعـض الوقـت، كانـوا مُنهَكـين أيضًـا. حسـبوا أن من واجـب الرئيـس، أو عـلى الأقـل النائـب العـام، أن يشـكرهم عـلى مشـيهم كل تلـك المسـافة. قـال العميـد إنهـم ليـس فقـط بوسـعهم الاسـتراحة، بـل هـو أيضًـا سـيُقدِّم لهـم الليمونـادة، فقـط إن ارتـدوا دبابيـس جولدوتـر. وافقـوا بسـعادة. قلـت: "أيـن ابنـك اللطيـف أيهـا العميـد؟ ذلـك الـذي كان يخطـب فينـا في نيـو هامبشـير".

قال: "الذي خطب فيكم هو ابني الوحيد".

قلت: "لقد أحسَنَ القَولَ بلا شك".

قال: "ذاك الشبل من ذاك الأسد".

أطلَقَـت كلاريـس تنهِـدَةَ صافـرة قطـار الشـحن البعيـد تلـك مـرَّةً أخـرى. قـال العميـد: "ذهـب الفتـى للسـباحة قبـل أن تـأتي. يفـترض أن يعـود أي لحظـة الآن، إلا لـو قتلـه واحـدٌ مـن أعضـاء المافيـا الأيرلنديـة المتزلِّجـون عـلى المـاء".

اتجهنـا إلى الجانـب الآخـر مـن الشرفـة لمعرفـة إن كان بوسـعنا رؤيـة روبـرت تافـت رامفـورد الصغـير يسـبح. كان هنـاك زورق حـرس سـواحل يهـشُّ السُّـيَّاح في القـوارب البخاريـة بعيـدًا عـن شـاطئ بيـت كينيـدي. كان هنـاك قـارب سـياحي يعـجُّ بالمُحدِّقـين في اتجاهنـا. المرشـد السـياحي في القـارب حمـل مكـبِّر صـوتٍ عـال جـدًّا، وكان بوسـعنا سـماع كل شيء يقولـه تقريبًـا.

قـال المرشـد: "القـارب الأبيـض هنـاك هـو هـوني فيتـز، يخـت الرئيـس الشـخصي. بجـواره المارلـين، وهـو يخـت والـد الرئيـس، جوزيـف سي. كينيـدي، السـفير السـابق في بـلاط المملكـة المتحـدة".

قـال العميـد: "حاويـة نتانـة الرئيـس، وحاويـة نتانـة أبيـه"، كان يُسـمِّي كلَّ القـوارب البخاريـة حاويـات نتانـة. "يجـب ألَّا يكـون هـذا المرفـأ لـشيء غـير الإبحـار".

كانـت هنـاك خريطـة للمينـاء عـلى حائـط الشرفـة. تفحَّصتهـا، ووجدت فيهـا رامفـورد بوينـت، ورامفـورد روك، ورامفـورد شـول. قـال العميـد إن أسرتـه كانـت في هاينيـس بـورت منـذ 1884.

قلت: "لا يبدو أن هناك أي شيء على اسم آل كينيدي".

قـال: "لمـاذا يجـب أن يكـون؟ لقـد جـاؤوا هنـا فقـط الليلـة قبـل السـابقة".

قلت: "الليلة قبل السابقة؟".

فسألني: "ماذا تُسمِّي ألفًا وتسعمائة وواحدًا وعشرين؟".

قـال المرشـد لأحـد الـرُّكَّاب: "لا يـا سـيدي، هـذا ليـس بيـت الرئيـس. الـكل يسـألني عـن ذلـك. بيـت الجـصِّ الضخـم القبيـح هـذا يـا رفـاق هـو كـوخ رامفـورد. أتَّفِـق معـك، إنـه فعـلًا أكـبر مـن أن يُسـمَّى بالكـوخ، لكنـك تعلـم كيـف هـم هـؤلاء الأغنيـاء".

قـال العميـد: "مُفلِسـون يائِسـون بسـبب المصـادرات الضريبيـة"، وقـال: "أتعلـم؟ كينيـدي ليـس أول رئيـس يـأتي إلى هاينيـس بـورت. تافـت وهاردينـج وكوليـدچ كانـوا جميعًـا ضيوفًـا لأبي في هـذا المنـزل ذاتـه. كينيـدي هـو ببسـاطة أول رئيـس يرونـه مناسـبًا كفايـة لتحويـل المكان إلى نسـخة شرقيـة مـن ديـزني لانـد".

قـال المرشـد: "لا يـا سـيدتي، لا أعلـم مـن أيـن جـاء آل رامفـورد بأموالهـم، لكنـي أعلـم أنهـم ليسـوا مضطرِّيـن للعمـل عـلى الإطـلاق. هـم فقـط يجلسـون عـلى هـذه الشرفـة هنـاك ويشربـون المارتينـي، وتنهمـر عليهـم النقـود وحدهـا".

انفجـر العميـد، وقـال إنـه سـيقاضي أصحـاب القـارب السـياحي ويطالـب بمليـون. حاوَلَـت زوجتـه تهدئتـه، لكنـه جعلنـي أصطحبـه إلى مكتبـه بينـما يتَّصـل بمحاميـه.

قال: "أنت شاهد".

* * *

لكـن هاتفـه رنَّ قبـل أن يتَّصـل بالمحامـين. الشـخص الـذي اتَّصـل كان عميـلَ خدمـةٍ سِرِّيـة يُدعـى ريمونـد بويـل. علمـت لاحقًـا أن بويـل كان معروفًـا في بيـت آل كينيـدي بأخصَّـائي رامفـورد أو سـفير رامفورديانـا. كلَّـما طـرأ شيء يحتـاج للتواصُـل مـع آل رامفـورد، بويـل هـو مـن يقـوم بـه.

طلـب منـي العميـد أن أصعـد إلى الـدور العلـوي وأسـتمع مـن الهاتـف في الردهـة. قـال: "سـيعطيك هـذا فكـرة عـن درجـة العجرفـة التـي وصـل لهـا موظَّفـو الحكومـة هـذه الأيـام". فصعـدت إلى فـوق.

عندمـا رفعـت السَّـمَّاعة كان العميـد يقـول: "الخدمـة السريـة هـي مـن أقـل الخدمـات التـي تواصَلـتُ معهـا سِرِّيَّـةً، لقـد رأيـت فـرق طبـول عسـكرية أقـل إزعاجًـا. هـل حكيـتُ لـك مـن قبـل عـن المـرة التـي ذهـب

فيها كالڤين كوليدج، الذي كان أيضًا رئيسًا، لصيد السمك معي وأبي عند نهاية رصيف نادي اليخت؟".

قال بويل: "نعم يا سيدي، عدَّة مرَّات. إنها حكاية جيدة، وأحبُّ سماعها مُجدَّدًا، لكن في وقت لاحق، الآن أنا أتَّصِل بك بشأن ابنك".

غير أن العميد تابع حكايته، قال: "الرئيس كوليدج أصرَّ على وضع الطُّعم في خُطَّافه بنفسه، ولم تكن أساطيل الساحل الأطلنطي والهادئ مُجتَمِعة راسية قبالة الشاطئ، والسماء لم تكن مُظلِمة بالطائرات، وكتائب الخدمة السرية لم تكن تدهس زهور الجيران".

قال بويل بصبر: "سيدي، قُبض على ابنك روبرت متلبِّسًا بفعل الصعود على يخت والد الرئيس، المارلين".

"في أيام الرئيس كوليدج، لم يكن في القرية حاويات نتانة مثل تلك، تنضح بمخلَّفات الوقود وتتجشَّأ العوادم وتقتل الأسماك، وتُحوِّل الشاطئ إلى أسود دَبِق".

قال بويل: "سيدي العميد رامفورد، هل سمعت ما قلته عن ابنك؟".

قال العميد: "بالطبع، قلت إن روبرت، العضو في نادي يخت هاينيس بورت، قُبض عليه يلمس مركب عضو آخر في النادي. قد تبدو تلك جريمة مُريعةً لابنِ يابِسَةٍ مثلك، لكن من تقاليد البحر القديمة يا مستر بويل أن السَّبَّاح، إن أصابه تعب، بوسعه إن بلغ مَركبًا ليس مَركَبَه أن يمسك بها ليرتاح، دون خوف من أن تطلق عليه خفر السواحل النار، أو من أن يُحطِّم أصابعه رجالُ الخدمة السرية، أو كما أُفضِّل تَسميَتَهم: تنانين قصر كينيدي".

قال بويل: "لم يكن هناك أي ضرب نار ولا تحطيم أصابع يا سيدي. ولا يوجد أيضًا أي دليل على إنهاك السباحة. روبرت ابنك صعد على حبل مرساة المارلين مثل شمبانزي. تسلَّق الحبل أيها العميد، أعتقد

أن ذلك هو المصطلح البحري الأدَقُّ. وأُذكِّرك، مثلما حاولتُ أن أُذكِّره، أن أي شخص يتحرّك بلا دعوة أو إعلان بمثل تلك السرعة والتعمُّد بالقرب من حيث الرئيس، مثلما تقول السياسة العريقة، يجب أن يتمَّ إبعاده بأي ثمن، ولو بالعنف إن تطلَّب الأمر".

سأل العميد: "هل كان مَن أمرَ بِصَدِّ مُتسلِّق المركب كينيدي؟".

"لم يكن على متنها أي كينيدي يا سيدي".

"كانت حاوية النتانة خاوية؟".

قال بويل: "كان على متن اليخت أدلاي ستيڤنسون ووالتر روثر وأحد رجالي يا سيدي. كانوا جميعًا بالأسفل حتى وطِئت قدم روبرت سطحه".

قال العميد: "ستيڤنسون وروثر؟ هذه آخر مرة أدع فيها ابني يذهب للسباحة بلا خنجر بين أسنانه. أرجوكَ قُل لي إنه كان يفتح صمامات ماء البحر عندما هَوَت عليه هراوتكم".

قال بويل: "مزاحك لطيف يا سيدي"، بدأ صوته في تطوير نبرة حادَّة.

قال العميد: "هل أنت واثق أنه روبرت ابني؟".

سأل بويل: "مَن غير روبرت ابنك يضع دبوس جولدوتر فوق ملابس السباحة؟".

احتجَّ العميد: "أتعترض على رؤيته السياسية؟".

قال بويل: "ذكَرتُ الدَّبُّوس كوسيلة للتعريف. آراء ابنك السياسية لا تهمُّ الخدمة السرية. لمعلوماتك، أنا قضيت سبع سنوات أحمي حياةَ جمهوريٍّ، وثلاثًا أحمي حياةَ ديموقراطيٍّ".

قال العميد: "لمعلوماتك يا مستر بويل، دوايت ديڤيد أيزنهاور لم يكن جمهوريًّا".

قال بويل: "أيًّا كان، حتى لو كان زرداشتيًّا، فقد حميته. وأيًّا ما سيكون الرئيس القادم فسأحميه أيضًا. أنا كذلك أحمي حياة أمثال ابنك، من عواقب الجرأة المفرطة حينما يتعلَّق الأمر بوجود الرئيس القريب". وبدأ صوت بويل في التحوُّل إلى الحِدَّة الكاملة، مثل صوت منشارٍ يَدويٍّ يعمل على قصدير مُجَلفَن، "أقول لك، رسميًّا، وبلا مزاح من أي نوع، على ابنك الكَفُّ عن استخدام قوارب آل كينيدي كأعشاشٍ للحُبِّ".

ضرب ذلك مباشرة صدر العميد، وانزعج. قال: "أعشاش حبٍّ؟".

قال بويل: "ابنك روبرت كان يقابل فتاةً على اليخوت في كل أنحاء المرفأ. كان قد رتَّب أن يقابلها اليوم على المارلين، حاسِبًا أنه سيكون خاويًا. صدمة أدلاي ستيفنسون ووالتر روثر كانت شديدة".

ظلَّ العميد ساكنًا لثوانٍ قليلة، ثم قال: "مستر بويل، إنَّ ما تُلمِّح إليه لأَمرٌ بغيض. إن لمَّحتَ بشيء مُماثِلٍ عن ابني لأي شخص آخر، فمن الأحسن لك أن تُسجِّل مُسدَّسكَ وجرابه باسم زوجتك؛ لأني سأقاضيك مقابل كل ما تملك. ابني روبرت لم يخرج مع فتاةٍ قَطُّ دون أن يكون فخورًا بتقديمها لأمِّه ولي، ولن يفعل أبدًا".

قال بويل: "ستقابل هذه الفتاة في أي لحظة الآن. ابنك في طريقه للبيت بصُحبَتِها".

لم يَعُد العميدُ صارمًا الآن، بدا قَلِقًا مهزومًا عندما قال: "أتمانع إخباري باسمها؟".

قال بويل: "كينيدي، شيلا كينيدي، جاءت لِتَوِّها من أيرلندا، ابنة عم رابعة لرئيس الولايات المتحدة".

جاء روبرت تافت رامفورد مع فتاة بعد ذلك مباشرة، وأعلن أنهما مخطوبان وينويان الزواج.

* * *

العشـاء تلـك الليلـة في كـوخ رامفـورد كان حزينًـا وجميـلًا وسـعيدًا وغريبًـا. كان هنـاك روبـرت وفتاتـه وأنـا والعميـد وامرأتـه.

كانـت الفتـاة ذكيَّـةً، دافئـة، جميلـةً لدرجـة أوجعـت قلبـي كلَّـما نَظرتُ إليهـا؛ لهـذا كان العِشـاءُ شَـديدَ الغرابـة، الفتـاة كانـت جذَّابـةً، والحـب بينهـا وبـين روبـرت كان حلـوًا رقيقًـا، إلى حَـدٍّ أن أحـدًا لم يكـن بوسـعه التفكـير في شيء يقولـه إلا تفاهـات. التزمنـا الأكل في صمـت.

طـرح العميـدُ موضـوع السياسـة مـرة واحـدة. قـال لروبـرت: "حسـنًا... آه... هـل ستسـتمر في إلقـاء الخطابـات في أرجـاء البلـد أم... هـا...".

قال روبرت: "أعتقد أني سأعتزل السياسة تمامًا لفترة".

قال العميد شيئًا لم يفهمه أيُّنا؛ لأن الكلمات خنقته نوعًا ما.

قال روبرت: "سيدي؟".

قال العميد: "قلتُ... حَسبتُ أنك ستفعل".

نظـرت إلى امـرأة العميـد، إلى كلاريـس. ذهَبَـت التجاعيـد مـن وجههـا. بَـدَت صغـيرةً وجميلـة أيضًـا. كانـت مسـترخيةً تمامًـا لأول مـرة منـذ عـددٍ لا يعلمـه إلا اللـه وحـده مـن السـنوات.

* * *

أحـد الأشـياء التـي قلتهـا كان أن العشـاء كان حزينًـا؛ وذلـك كان للتأثـير الخـاوي الصامـت الـذي تركـه عـلى العميـد.

خـرج العاشـقان للإبحـار في ضـوء القمـر. تنـاول العميـد وامرأتـه وأنـا البرانـدي في الشرفـة، ناحيـة الميـاه. غربـت الشـمس، وحركـة السُّـيَّاح تلاشـت. مشـاة الخمسـين ميـلًا الذيـن طلبـوا الراحـة في الحديقـة بعـد الظهـر كانـوا لا يزالـون هنـاك، نائمـين في عمـق، عـدا ولـد واحـد يعـزف

الجيتار. عزفه ببطء، أحيانًا كان يبدو الوقت بين ضربة الوتر والأخرى حوالي دقيقة.

جاء بولس، كبير الخدم، وسأل العميد إن كان الوقت قد حان لإضاءة كشَّافات السيناتور جولدوتر الغامرة.

قال العميد: "أعتقد أننا سنتركها مُطفَأة الليلة يا بولس".

قال بولس: "بالطبع يا سيدي".

قال العميد: "لا زِلتُ مُؤيِّدًا له يا بولس، لا يُسِئْ أحدُكم فهمي. أنا فقط أرى أن نريحه الليلة".

قال بولس: "بالطبع يا سيدي"، وذهب.

كانت الشرفة مُظلِمَة؛ فلم أستطع رؤية وجه العميد جيدًا. الظُّلمة والبراندي والجيتار الهادئ، جعلوه يقول الحقيقة عن نفسه دون شعور بالكثير من الألم.

قال: "لندع سيناتور أريزونا يرتاح. الكل يعلم مَن هو، السؤال هو: مَن أنا؟".

قالت كلاريس في الظلام: "رجل محبوب".

"مع كشَّافات جولدوتر الغامرة مطفأة، ومع ابني الذي خطب كينيديَّة، ماذا أنا غير ما قاله الرجل في قارب السُّيَّاح: رجل يجلس في هذه الشرفة ويشرب المارتيني، ويدع النقود تنهمر وحدها".

قالت كلاريس: "أنتَ رَجُلٌ ذكي جذَّاب ذو تعليم مُشرِّف، ولا زلت صغيراً إلى حدٍّ ما".

قال: "أنا بحاجة للعمل في شيء ما".

قالت: "سيكون كلانا أسعد بكثير. سأُحبُّك مهما كان الأمر. لكن بوسعي أن أخبرك الآن يا عزيزي، يصعب على المرأة أن تنبهر برجل لا يفعل شيئًا في الواقع".

أبهرتنا الأضواء الأمامية لسيَّارتين قادمتين من مدخل بيت آل كينيدي. توقَّفَت السيارتان أمام واجهة كوخ رامفورد بالضبط، وبدا أن ركابهما، أيًّا كانت هوياتهم، يتفحَّصون المكان عن كثب.

ذهب العميد إلى ذلك الجانب من الشرفة، ليرى ماذا هناك. وسمعت صوت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يأتي من السيارة الأمامية.

قال الرئيس: "العميد رامفورد، هل لي أن أسألك إن كان هناك خَطبٌ بلافتة جولدوتر؟".

قال العميد باحترام: "لا شيء سيدي الرئيس".

سأل الرئيس: "إذن لماذا لا تعمل؟".

قال العميد: "لم أشعر برغبة في تشغيلها الليلة يا سيدي".

قال الرئيس: "معي هنا زوج ابنة مستر خروتشوف، سيستمتع جدًّا برؤيتها".

قال العميد: "حسنًا يا سيدي". وكان بجوار المفتاح بالضبط، فشغَّله. وغسلت الأضواءُ السَّاطِعة الحيَّ كله.

قال الرئيس: "شكرًا، وإذا سَمَحتَ... اتركها مُضاءة".

قال العميد: "عفوًا؟".

أخَذَت السيارة تمضي ببطء، قال الرئيس: "هكذا سأجد طريق عودتي للبيت".

(1963)

مياهٌ أكثر ممّا رأيتَ في حياتِك

في الملجأ الذي أقامته الراهبات الكاثوليكيّات في المساحة الضخمة المطِلّة على نهر الراين، التي كانت بيتَ حارس الطرائد[1]، كان هناك إحدى وثمانون جَذوَةَ حياةٍ بشريّة. كان ذلك في القرية الألمانية كارلسفالد، في منطقة الاحتلال الأمريكي. إن لم يُحتفظ بالأطفال هناك، وإن لم يُقدَّم لهم الدفء والطعام والملابس التي شُحِذَت لأجلهم، ربما كانوا ليهيموا حتى آخر الأرض، باحثين عن آبائهم الذين توقّفوا عن البحث عنهم منذ وقت طويل.

تَخرُج الراهبات بالأطفال في كل ساعة عصر رائقة، في طابور، اثنين اثنين، عبر الغابة وإلى القرية ذهابًا وإيابًا، ليحصلوا على حصّتهم من الهواء النقي. نجّار القرية، وهو مُسِنٌّ يستسلم لاستراحات تأمُّليّة

(1) حارس الطرائد Gamekeeper: الشخص المسؤول عن تربية ورعاية الحيوانات والطيور المخصّصة للألعاب في مَحميّة خاصّة. [المترجم]

بـين دَقَّـات أدواتـه، كان يخـرج دومًـا مـن محلـه ليتابـع الموكـب المتمايـل المترثـر المبتهـج الأشـعث، وليُخمِّـن مـع المتسـكِّعين الذيـن يجتذبهـم محلُّـه، جنسـيات أهـالي الأطفـال العابريـن.

قـال ذات عصريـة: "أتـرى تلـك الصغـيرة الفرنسـية؟ أتـرى لمعـة عينيهـا؟". وقـال ميكانيـكي شـاب: "وانظُـر كيـف يؤرجـح هـذا البولنـديُّ الصغـير ذراعيـه. إنهـم يحبُّـون المارشـات، أعنـي البولنديـين".

قال النجار: "بولندي؟ أين ترى بولنديين؟".

أجاب الآخر: "هناك... النحيل ذو النظرة الرزينة في المقدِّمة".

قـال النجـار: "همممـم، إنـه أطـول مـن أن يكـون بولنديًّـا، ومـن أيـن لبولنـديٍّ بشَـعرٍ أشـقر كهـذا؟ إنـه ألمـاني".

هـزَّ الميكانيـكيُّ كتفيـه، قـال: "كلهـم ألمـان الآن، مـا الفـارق إذن؟ مَـن الـذي يسـتطيع إثبـات جنسـية أهلـه؟ إن كنـت قـد حاربـت في بولنـدا كنـت سـتعرف أنـه مـن نـوع شـائع جـدًّا".

قـال النجـار مبتسـمًا: "انظُـر، انظـر مَـن القـادم الآن، بـكل حُجَجِـك وجدالـك، لـن تجادلنـي في هـذا. مَـن لدينـا الآن هـو أمريـكي"، ونـادى عـلى الطفـل: "جـو... متـى سـتفوز بالبطولـة مـن جديـد؟".

نادي الميكانيكي: "جو! كيف حال قاذفة القنابل البنية اليوم؟".

مـن نهايـة الموكـب، نظـر لهـم فتـى مُلـوَّن وحيـد في السادسـة مـن عمـره أزرق العـين، ابتسـم بارتبـاكٍ رقيـق، وأومـأ بـأدب، مُهَمهِـمًا التحيـة بالألمانيـة، اللغـة الوحيـدة التـي يعرفهـا.

اسـمه، الـذي اختارتـه لـه الراهبـات اعتباطيًّـا، كان كارل هاينـز. لكـن النَّجَّـار منحـه اسـمًا التصـق بـه، اسـم الرجـل الملـوَّن الوحيـد الـذي تـرك انطباعًـا في عقـول أهـل القريـة، بطـل العـالم السـابق في ملاكمـة الـوزن الثقيـل: جـو لويـس.

نـادى النجـار: "جـو! اضحـك، دعنـا نـرى تلـك الأسـنان البيضـاء تلمـع يـا جـو". وفعـل جـو بخجـل.

ربَّـت النجـار عـلى ظهـر الميكانيـكي. "ولـو صـار هـذا أيضًـا ألمانيًّـا! ربمـا تكـون تلـك وسـيلتنا الوحيـدة للحصـول عـلى بطـل وزن ثقيـل آخـر".

دار جـو حـول الزاويـة، بعدمـا نهرتـه راهبـة مـن نطـاق رؤيـة النجـار لتعيـده إلى مؤخِّـرة الطابـور. كانـت هـي وڤـون يقضيـان وقتًـا طويـلًا معًـا، بمـا أن ڤـون، مهـما كان موقعـه في الطابـور، دائمًـا مـا ينجـرف إلى نهايتـه.

قالت: "جو، يا لك من حالِمٍ. هل كل قومك حالمون مثلك؟".

قال جو: "أنا آسف يا أختي، كنت أفكِّر".

"بل كنتَ تحلم".

"يا أختي، هل أنا ابن جندي أمريكي؟".

"مَن قال لك هذا؟".

"بيـتر، بيـتر قـال إن أمـي ألمانيـة وأبي جنـدي أمريـكي ذهـب وتركهـا. وأنهـا تركتنـي معـك، وذهبـت أيضًـا".

لم يكن في صوته حُزنٌ، بل حيرة فقط.

بيـتر كان أكـبرَ وَلَـدٍ في الميتـم، عجـوز سـاخِطٌ في الرابعـة عـشرة، وَلَـدٌ ألمـانيٌّ قـادر عـلى تَذَكُّـر والديـه وأشـقائه وشـقيقاته وبيتـه، والحـرب، وكل أنـواع الطعـام التـي يجـد جـو تَخيُّلَهـا مسـتحيلًا. بـدا بيـتر إنسـانًا خارقًـا لجـو، مثـل رجـل ذهـب للجنَّـة والجحيـم وعـاد منهـما عـدَّة مـرَّات، ويعلم بالضبـط أيـن كانـا، وكيـف صـارا هنـاك، وإلى أيـن قـد يكونـان ذهبـا.

قالـت الراهبـة: "لا يجـب أن تقلـق بهـذا الشـأن يـا جـو، لا أحـد يعلـم مَـن كان أبـوك أو أمـك، لكـن لا بُـدَّ أنهـما كانـا أناسًـا طيِّبـين؛ لأنَّـكَ طيِّـبٌ جدًّا".

قال جو: "ماذا يعني أمريكي؟".

"إنه شخص من بلد آخر".

"قريب من هنا؟".

"بعضهم قريب من هنا، لكن بيوتهم بعيدة جدًّا جدًّا، بعد كثير من المياه".

"مثل النهر؟".

"مياه أكثر من ذلك يا جو. أكثر ممَّا رأيتَ في حياتك. ليس في استطاعتك حتى رؤية الجانب الآخر. يمكنك أن تركب قاربًا وتمضي لأيامٍ تَجرُّ أيامًا، وتظلَّ غيرَ قادر على بلوغ الجانب الآخر. سأريك خريطة في وقت ما. لا تُركِّز مع كلام بيتر يا جو، إنه يخترع الكلام، هو لا يعلم في الواقع أيَّ شيء عنك. والآن اِلحَقْ بالطابور".

* * *

أسرع جو والتحق بمكانه في نهاية الطابور، حيث التزم بالمسيرة في انتباه لبضع دقائق. لكنه عاد للتلكُّؤ مُجدَّدًا، ملاحقًا كلمات كالأشباح في عقله: ... جندي... ألماني... أمريكي... قومك... بطل... قاذفة قنابل بُنِّيَّة... مياه أكثر ممَّا رأيت في حياتك.

قال جو: "أختي، هل الأمريكيُّون مثلي؟ هل هم بُنِّيُّو اللون؟".

"بعضهم ليسوا كذلك يا جو".

"هل هناك الكثير من الناس مثلي؟".

"نعم، كثير جدًّا".

"لماذا لا أراهم؟".

"لم يأتِ أيٌّ منهم للقرية، لديهم أماكن خاصَّة بهم".

"أريد الذهاب إلى هناك".

"ألست سعيدًا هنا يا جو؟".

"نعم، لكن بيتر يقول إني لا أنتمي إلى هنا، أنا لست ألمانيًّا ولن أكون أبدًا".

"بيتر مرَّة أخرى! لا تنتبه لكلامه".

"لماذا يبتسم الناس عندما يرونني؟ ويحاولون جعلي أغنِّي وأتكلَّم، ثم يضحكون عندما أفعل؟".

قالت الراهبة: "جو، جو! انظُر بسرعة، انظُر هناك أعلى الشجرة. أترى العصفور الصغير ذا القدم المكسورة؟ يا للمسكين الصغير الشجاع، لا يزال يتنقَّل من مكان لآخر بشكل جيد. أتراه يا جو؟ أترى كيف يتنطَّط؟".

* * *

ذات يومٍ صَيفيٍّ حار، وبينما يمضي الموكب أمام محل النجار، خرج النجار وقال شيئًا جديدًا لجو، شيئًا أثاره وأفزعه.

"جو، يا جو، أبوك في المدينة، هل رأيته؟".

قال جو: "لا يا سيدي، أين هو؟".

قالت الراهبة بحدَّة: "إنه يمازحك".

قال النجار: "سترى إن كنت أمزح يا جو. أَبقِ عينيْكَ مفتوحتَيْن عندما تمرُّ بالمدرسة. انظر جيدًا أعلى المنحدر وفي الغابة، وسترى يا جو".

قالت الراهبة بإشراق: "أتساءل أين صديقنا العصفور الصغير اليوم؟ أتمنَّى أن تكون قَدَمُه أحسن اليوم، ألا تتمنَّى ذلك يا جو؟".

"نعم يا أختي، أفعل".

ظلَّت تثرثر عن العصفور والغيوم والأزهار فيما يقتربون من المدرسة، وتوقَّف جو عن الرد عليها.

بدت الغابة فوق المدرسة ساكنة خاوية.

لكن جو رأى عندها رجلًا بُنِّيًّا ضخمًا عاري الجذع يَعتَمِدُ مُسدَّسًا، يخطو خارجًا من الأشجار. شرب الرجل من قربة، ومسح شفتيه بظهر يده، وابتسم للعالَمِ بازدراءٍ لا يخلو من وسامة، واختفى مجدَّدًا في ظلمة الغابة.

شهق جو: "أختي! إنه أبي، لقد رأيت أبي للتوِّ!".

"لا يا جو، أنت لم تفعل".

"إنه فوق في الغابة، لقد رأيته، أريد الذهاب إلى هناك يا أختي".

"إنه ليس أباك يا جو، هو لا يعرفك، ولا يريد رؤيتك".

"إنه من قومي يا أختي!".

"لا يمكنك الصعود إلى هناك يا جو، ولا يمكنك البقاء هنا أيضًا"، وأخذته من يده لتجبره على التحرُّك، "جو، هذا ليس سلوك الأولاد الطيبين".

أطاع باستكانة. لم يتكلَّم مُجدَّدًا طيلة ما تبقَّى من المسيرة التي عادت للبيت من طريق آخر بعيد عن المدرسة. لم يَرَ أيُّ شخص آخر هذا الأب الرائع، أو صَدَّق أن جو قد فعل.

ولم يحدث أن انفجر في البكاء قبل موعد صلاة الليل. وفي العاشرة، وجدت الراهبة الشابَّة مهجَعَه خاويًا.

* * *

تحـت شـبكة مفـرودة هائلـة مُرقَّعَـة بالخِـرَق، قبـع مدفـع في الغابـة، أسـود مصقـول، فوَّهتـه تطعـن سـماء الليـل. الشـاحنات وبقيـة البطاريـة كانـت مختبئـة بأعـلى المنحـدر.

راقـبَ جـو مـن مخبئـه بـين الشـجيرات الجنـود مرتجفًـا، وأنصَـتَ لهـم وهـم يحفـرون حـول سـلاحهم، لم يفهـم شـيئًا مـما سـمع مـن كلامهـم.

"أيُّهـا الرقيـب، لمـاذا علينـا أن نحفـر بينـما نحـن سـنتحرَّك في الصبـاح وهـذه ليسـت إلا منـاورة؟ يبـدو لي أننـا بحاجـة للحفـاظ عـلى قوتنـا، ربمـا نكتفـي بالنبـش في الأنحـاء قليـلًا لتوضيـح أيـن كُنَّـا لنحفـر، لـو كان للحفـر مغـزى".

قـال الرقيـب: "كل مـا لـك أن تعرفـه يـا فتـى، أنـك ربمـا تعـرف المغـزى قبـل الصبـاح. معـك عـشر دقائـق لتبلـغ الصـين وتعـود لي بذيـل خنزيـر، أتسـمعني؟".

خطـا العميـد في رقعـة مـن ضـوء القمـر، يـداه عـلى فخذيـه، وكتفـاه الضخمتـان مشـدودتان إلى الخلـف، بـدا كإمبراطـور. وجـد جـو أنـه الرَّجُـلَ نفسـه الـذي تأمَّلـه في العـصر. أنصـت الرقيـب راضيًـا إلى أصـوات الحفـر، ثـم فجـأة، خطـا مُسرِعًـا إلى حيـث يختبـئ جـو، الـذي فـزع. لم يُحـرِّك جـو قَيـدَ أنمُلَـةٍ حتـى خبطـت القـدم الضخمـة في جانبـه.

"آخ!".

"مَـن هنـاك؟". انتـزع الرقيـب جـو مـن الأرض، وأوقفـه عـلى قدميـه بخشـونة. "يـا ربي، طفـل؟ مـا الـذي تفعلـه هنـا؟ هششـش، عُـد إلى بيتـك، هـذا ليـس مكانًـا للعـب الأطفـال".

سـلَّط كشَّـافه عـلى وجـه جـو، تمتـم: "تبًّـا. مـن أيـن أنـت؟"، أمسـك جـو عـلى طـول ذراعـه وهَـزَّه برقَّـة، مثـل دميـة قماشـية، "يـا ولـد، كيـف جئـت إلى هنـا؟ عومًـا؟".

تلجلج جو بالألمانية قائلًا إنه يبحث عن أبيه.

"هيا، كيف وصلت هنا؟ ماذا تفعل؟ أين أمك؟".

قال صوتٌ في الظلام: "ماذا لدينا هنا يا رقيب؟".

"يتكلَّم مثل كراوت[1]، يرتدي ملابس كراوت، لكن انظر إليه".

وبسرعة وقف دستة رجال في دائرة حول جو، يتحدَّثون إليه بصوتٍ عالٍ، ثم برفق، وكأن فهمه لهم مسألة نبرة صوت فقط.

* * *

كلَّما حاول جو أن يوضِّح هدفه، ضحكوا في دهشة.

"قُل لي، كيف تعلمت الألمانية؟".

"أين باباك يا ولد؟".

"أين مامتك يا ولد؟".

"سبريشين زي دوتش يا ولد؟ انظُروا كيف يهزُّ رأسه؟ إنه يتحدَّث الألمانية بالفعل".

"أوه، إنك تتحدَّثها بطلاقة، بطلاقة بالغة. اسأله أكثر".

قال الرقيب: "اذهب وأحضر الملازم، سيستطيع التَّحدُّث معه وفهم ما يحاول قوله. انظروا كيف يرتجف، إنه خائف حتى الموت. تعال يا ولد، لا تَخَفْ"، وأحاطه بذراعيه الهائلَتين، "هَوِّن على نفسك، كل شيء سيصير على ما يرام. انظر ماذا لديَّ؟ يا إلهي، لا أصدِّق، هذا الولد لم يَرَ الشكولاتة قَطُّ من قبل. هيا، ذُقْها، لن تؤذيك".

---

(1) كراوت Kraut: مصطلح كان يُستخدم كإشارة مُهينة إلى الألمان، وخاصَّة الجنود الألمان خلال الحربين العالميتين، من قبل مُتحدِّثي اللغة الإنجليزية. [المترجم]

آمِنًا في حصنٍ من العَظمِ والعَضَلات، مُحاطًا بالعيون البرَّاقة، قضم جو من قطعة الشكولاتة. غمر البطانة الداخلية الوردية لفمه، وروحه كلها بعدها، فيضان من الدفء والمتعة الغنية، وأشرق مُحيَّاه.

"لقد ابتسم!".

"انظروا إليه كيف يضيء".

"أراهن أنه انكبَّ على وجهه في الجنة مباشرة".

قال الرقيب محتضنًا جو: "لو سنتحدث عن التائهين، فهذا الطفل العجوز أكثر شخصٍ تائه رأيته في حياتي، مقلوب رأسًا على عقب، وقلبًا وقالبًا وبكل شكل مُمكِن".

"خُذ يا فتى، إليك مزيدٌ من الشكولاتة".

قال الرقيب موبِّخًا: "لا تُعطِه المزيد، أتريد أن تصيبه بالمرض؟".

"لا يا رقيب، لا أريد أن أؤذيه يا سيدي".

قال الملازم، الذي كان زنجيًّا أنيقًا ضئيلًا تتراقص أَشِعَّةُ مصباحه اليدوي أمامه فيما يقترب من المجموعة: "ما الذي يحدث هنا؟".

قال الرقيب: "وجدنا طفلًا صغيرًا أيُّها الملازم، هائِمًا على وجهه في قلب البطارية. لا بُدَّ أنه زحف بين الحراس".

"إذن فلتُعِده إلى بيته يا رقيب".

"تمام يا فندم، خطَّطتُ لذلك"، ونَظَّف حلقه، "لكنه ليس ولدًا صغيرًا عاديًّا أيُّها الملازم". فتح ذراعيه سامِحًا لضوء المصباح أن يسقط على وجه جو.

ضحك الملازم غيرَ مُصدِّق، وركع أمام جو. "كيف جئت إلى هنا؟".

قال الرقيب: "لا يتحدث إلا الألمانية أيها الملازم".

قال الملازم بالألمانية: "أين بيتك؟".

قال جو: "خلف مياه أكثر ممَّا رأيت في حياتك".

"من أين أتيت؟".

قال جو: "خلقني الله".

قال الملازم بالإنجليزية: "سيصير هذا الولد محاميًا عندما يكبر".

قال لجو: "والآن اسمعني، ما هو اسمك ومن هم قومك؟".

قـال جـو: "اسـمي جـو لويـس، وأنتـم قومـي. هربـتُ مـن الملجـأ لأني أنتمـي إليكـم".

نهـض المـلازم وهـزَّ رأسـه، وترجـم مـا قالـه جـو. وردَّدَت الغابـة صـدى ضحكهم .

"جو لويس! حسبته ذا هيئة ضخمة قوية!".

"فقط تجنَّب طريق قبضته اليسرى وستكون بخير".

"لو كان ذلك جو، فقد وجد قومه بلا شك، ها نحن هنا".

أمـر الرقيـب فجـأة: "اصمتـوا! اصمتـوا جميعًـا. هـذه ليسـت مَزحـةً، لا شيء مُضحِـك هنـا. هـذا الفتـى وحيـد تمامًـا في هـذا العـالم، لا مـزاح في ذلـك".

في النهايـة كـسر الصمـت المهيـب الـذي تبـع ذلـك صـوتٌ منخفـضٌ: "لا، لا مـزاح في ذلـك".

قـال المـلازم: "مـن الأفضـل أن نحـضر الچيـب ونُـسرع بـه إلى البلـدة يـا رقيـب. عرِّيـف چاكسـون، أنـت المسـؤول".

قـال المـلازم بالألمانيـة برقَّـة: "والآن يـا جـو، سـتأتي معـي أنـا والرقيـب، سـنأخذك إلى البيـت".

غـرز جـو أصابعـه في سـاعد الرقيـب، "بابـا، لا يـا بابـا! أريـد البقـاء معـك".

قال الرقيب بعجز: "انظر يا بني، أنا لست بابا، أنا لست أباك".

"بابا!".

قـال جنـدي: "إنـه ملتصـق بـك يـا رقيـب. يبـدو أنـك لـن تقـدر عـلى إزالتـه عنـك أبـدًا. لقـد صـار لـك ابـن يـا رقيـب، وصـار للولـد بابـا".

"مـشى الرقيـب في اتجـاه السـيارة الجيـب. قـال: "هيـا الآن، اتركنـي يـا جـو الصغـير حتـى أسـتطيع القيـادة. لا أسـتطيع أن أفعـل وأنـت مُعلَّـق بي يـا جـو. اجلِسْ في حِجـر الملازم هنـا بجـواري".

* * *

تجَمهَـرَت المجموعـة مـرة أخـرى حـول الجيـب، بقلـق هـذه المـرة، متابعـين محاولـة الرقيـب لإقنـاع جـو بتركـه.

"لا أريـد أن أسـتخدم العنـف معـك يـا جـو. هيًّـا، هَـوِّن عليـك يـا جـو، اتركنـي حتـى أسـتطيع القيـادة. انظـر، لا أسـتطيع الإمسـاك بعجلـة القيـادة أو أي شيء وأنـت مُعلَّـق بي هكـذا".

"بابا!".

قال الملازم بالألمانية: "هيا، تعال في حِجري يا جو".

"بابا!".

قـال جنـدي: "جـو، جـو، انظـر، شـكولاتة! أتريـد المزيـد منهـا يـا جـو؟ قالَـبٌ كامِـلٌ لـك وحـدك يـا جـو، فقـط دَعْ الرقيـب واذهـب إلى حجـر المـلازم".

أحكم جو قبضته على الرقيب.

قـال جنـديٌّ آخـر غاضبًـا: "لا تُعِـدْ الشـكولاتة إلى جيبـك يـا رجـل، أَعطِهـا لجـو عـلى أي حـال. فليحـضر أحدكـم صنـدوق شـكولاتة مـن الشـاحنة، ويُلقِـه في السـيارة لجـو. أعطـوا الولـد شـكولاتة تكفيـه العشريـن عامًـا القادمـة".

قـال جنـدي آخـر: "انظـر يـا جـو، هـل رأيـتَ في حياتـك سـاعة معصـم؟ انظُـرْ كيـف تـضيء؟ تحـرَّكْ إلى حِجـر المـلازم، وسـأجعلك تسـمعها تـدقُّ. تيـك، تيـك، تيـك. هيًّـا يـا جـو، ألا تريـد أن تسـمع؟".

لم يتحرَّك جو.

أعطـاه الجنـدي السـاعة: "خُـذ يـا جـو، خذهـا عـلى أي حـال، إنهـا لـك". ومـشى مبتعـدًا بسرعـة.

نـاداه أحدهـم: "هـل أنـت مجنـونٌ يـا رجـل؟ لقـد دفعـت مقابـل هـذه السـاعة خمسـين دولارًا. مـا الـذي سيفعله صبـيٌّ مثلـه بسـاعة ثمنهـا خمسـون دولارًا؟".

"لا، لست مجنونًا، هل أنت كذلك؟".

"لا أنـا لسـت مجنونًـا، لا أعتقـد أن أيَّنـا كذلـك. أتريـد سِـكِّينًا يـا جـو؟ عليـك أن تعـدني أن تكـون حَـذِرًا عنـد اسـتخدامها. اقطـع في الاتجـاه البعيـد عنـك، أتسـمع؟ أيهـا المـلازم، عندمـا تعـودون، تذكَّـر أن تُؤكِّـد عليـه أن يقطـع بعيـدًا عـن نفسـه".

قال جو منتحبًا: "لا أريد أن أعود، أريد أن أبقى مع بابا".

قـال المـلازم بالألمانيـة: "لا يسـتطيع الجنـود اصطحـاب الصبيـان معهـم يـا جـو، سـنذهب في الصبـاح".

قال جو: "وهل ستعودون من أجلي؟".

"سـنعود إن اسـتطعنا. ليـس في إمـكان الجنـود معرفـة أيـن سـيكونون بـين اليـوم والتـالي. سـنعود لزيارتـك لـو اسـتطعنا".

قـال جنـديٌّ يحمـل صندوقًـا كرتونيًّـا مليئًـا بقوالـب الشـكولاتة: "هـل نسـتطيع إعطـاء هـذه العلبـة لـه يـا مـلازم؟".

* * *

قـال المـلازم: "لا تسـألني، أنـا لا أعلـم شـيئًا عـن الأمـر. لم أَرَ أي علـب شـكولاتة، ولم أسـمع عـن ذلـك قـطٌّ".

قال الجندي: "حسنًا يا سيدي"، واضعًا حمله في مقعد الجيب الخلفي.

قـال الرقيـب بيـأس: "لـن يتركنـي أبـدًا. تَـوَلَّ أنـت القيـادة أيهـا المـلازم، وسـأجلس أنـا وجـو هنـا".

بَدَّل الملازم والرقيب مقاعدهم، وبدأت الجيب في التحرُّك.

"وداعًا يا جو".

"كُن ولدًا طيبًا يا جو".

"لا تأكل الشكولاتة كلها مرَّةً واحدة، أتسمع؟".

"لا تَبكِ يا جو، أَرِنا ابتسامتك".

"ابتسامة أكبر يا جو، هذه هي".

* * *

"جو، جو، صَح يا جو".

كان ذلـك صـوت بيـتر، أكـبر ولـد في الملجـأ، ورَدَّدتـه بخفـوتٍ الحوائـِطُ الصخريـة.

جلـس جـو، مرتبـكًا. صـار مـا حـول مهجعـه المـكانَ الـذي تَدافَـع فيـه بقيَّـة الأيتـام ليتمكَّنـوا مـن النظـر إلى جـو والكنـوز بجـوار وسـادته.

قـال بيـتر: "مـن أيـن لـك بتلـك القُبَّعـة يـا جـو؟ والسـاعة والسـكين؟ ومـا هـذا الصنـدوق تحـت سريـرك؟".

تحسَّـس جـو رأسـه، فوجـد عليهـا قُبَّعـة جنـديٍّ صوفيَّـة. قـال بحـروف ناعسـة: "بابـا". رَدَّد بيـتر سـاخرًا: "بابـا".

قال جو: "نعم، الليلة السابقة ذهبتُ لرؤية بابا يا بيتر".

قالت بنتٌ صغيرة بتساؤل: "أكان يستطيع تحدُّثَ الألمانية يا جو؟".

قال جو: "لا، لكن صديقه كان يفعل".

قـال بيـتر: "إنـه لم يَـرَ أبـاه، فأبـوك بعيـد، بعيـدٌ جـدًّا، ولـن يعـود أبـدًا، وعـلى الأرجـح لا يعلـم حتـى أنـك حـي".

قالت البنت: "كيف كان يبدو؟".

تأمَّـل جـو أرجـاء الغرفـة، قـال في النهايـة: "بابـا عـالٍ مثـل ذلـك السـقف، وأعـرَضُ مـن ذلـك البـاب"، وبانتصـار، أخـذ قالـب شـكولاتة مـن تحـت وسـادته، عرضـه عـلى البقيَّـة وقـال: "وبُنِّـيٌّ مثـل هـذه. هيـا، جَرِّبوهـا، يوجـد منهـا المزيـد".

قـال بيـتر: "إنـه لا يبـدو مثـل أيٍّ مـن ذلـك، أنـت لا تقـول الحقيقـة يـا جـو".

قـال جـو بسـعادة: "بابـا عنـده مُسـدَّس كبـير مثـل هـذا السريـر تقريبًـا يـا بيـتر، ومدفـعٌ أكـبر مـن هـذا البيـت. وهنـاك المئـات والمئـات مثلـه".

قـال بيـتر: "نَصَـبَ لـك أحدُهُـم مقلبًـا يـا جـو، لم يكـن أبـاكَ. كيـف لـك أن تعـرف أنـه لم يكـن يخدعـك؟".

قـال جـو ببسـاطة: "لأنـه بـكى عندمـا تركنـي، ووعـدني أنـه سـيأخذني معـه إلى البيـت بـأسرع مـا يسـتطيع عـبر ميـاه"، ابتسـم بحيويـة، "ليسـت مثـل النهـر يـا بيـتر، بـل ميـاه أكـثر مـمَّا رأيـتَ في حياتـك. وَعَـدَني؛ فتركتـه يذهـب".

(1953)

تقريرٌ عن تأثير بارنهاوس

دَعْني أبدأ بقول إني لا أعلم أيَّ شيء عن مكان اختباء بروفيسور آرثر بارنهاوس أكثر ممَّا يفعل أي شخص آخر. باستثناء رسالة واحدة قصيرة مُلغِزة وجدتُها في صندوق بريدي عشيَّة الكريسماس، فأنا لم أسمع منه منذ اختفائه قبل سنة ونصف.

الأكثر من ذلك، سيخيب أملُ قُرَّاء هذا المقال لو كانوا ينتظرون منه معرفة كيف يطبِّقون ما يُعرف بـ "تأثير بارنهاوس". لو كنتُ قادرًا ومُستعدًّا للتخلِّي عن السِّرِّ، كنتُ بالتأكيد سأصبح شيئًا أهمَّ من مجرَّد مُدرِّس علم نفس.

شُجِّعتُ على كتابة هذا التقرير لأني كنت باحثًا تحت إشراف البروفيسور، ولأني كنت أوَّلَ مَن عرف باكتشافه المذهل. لكن رغم أني كنت تلميذ البروفيسور، فأنا لم أؤتَمن قطُّ على معرفة كيفية إطلاق

القـوى العقليـة وتوجيهها. لم يكـن البروفيسـور مسـتعدًّا لائتمان أي شـخص عـلى هـذه المعلومـة.

أودُّ الإشـارة إلى أن مصطلـح "تأثـير بارنهـاوس" هـو مـن ابتـكار الصحافة الشـعبية، ولم يسـتخدمه بروفيسـور بارنهـاوس قَـطُّ. الاسـم الـذي اختـاره لهـذه الظاهـرة هـو "ديناموسـايكيزم"، أو قـوة العقـل.

لا أصـدِّق أن هنـاك شـخصًا مُتحـضِّرًا لم يقتنـع بعـد أن تلـك القـوة موجـودة، خاصـة وأن تأثيرهـا المدمِّـر بـات ظاهـرًا في كل عاصمـة وطنيَّـة. أعتقـد أن دائمًـا مـا كان لـدى البشريـة نـزوعٌ للإيمـان بـأن هـذا النـوع مـن القـوى موجـودًا. كان مـن الشـائع دومًـا فكـرة أن بعـض النـاس أكـثر حظًّـا مـن غيرهـم مـع الأشـياء الحميمـة، مثـل الـنَّرد. مـا فعلـه بروفيسـور بارنهـاوس، كان توضيـح أن مثـل ذلـك "الحـظ" هـو قـوَّة قابلـة للقيـاس، وفي حالتـه بالأخـصِّ كانـت هائلـة.

وفقًـا لحسـاباتي، فالبروفيسـور كان أقـوى بخمـس وخمسـين مـرَّة تقريبًـا مـن قنبلـة ناجـازاكي الذَّرِّيَّـة وقـت مـا قـرَّر الاختبـاء. لم يكـن يبالـغ عندمـا قـال للچـنرال هونـوس باركـر في الليلـة التـي سـبقت "عمليـة برينسـتورم": "فيـما أنـا جالـسٌ عـلى مائـدة العشـاء هنـا، أنـا واثـق أني قـادرٌ عـلى سـحق أي شيء عـلى وجـه الأرض، مـن جـو لويـس إلى سـور الصـين العظيـم".

ثمَّـة نزعـة مفهومـة لتفسـير بروفيسـور بارنهـاوس كتجسُّـدٍ خوارقـيٍّ. أول كنيسـة لبارنهـاوس في لـوس أنجلـس لهـا رعيَّـة تُقـدَّر بـالآلاف. غـير أنـه لا يشـبه الآلهـة قلبًـا ولا قالبًـا، فالرَّجـل الـذي نـزع سـلاح العـالم هـو أعـزب، أقصـر مـن الذَّكـر الأمريـكي المتوسِّـط، سـمين، وعـازف عـن الرياضة. وهـو إنسـانٌ فـانٍ، عـلى وشـك الاحتفـال بعيـد ميـلاده الأربعـين، في صحَّـة طيبـة. لـو كان وحيـدًا الآن، فالعُزلَـة لـن تُضايِقَـه كثـيرًا. كان خجـولًا نوعًـا عندمـا عرفتـه، وبـدا أنـه يجـد الصُّحبَـة في الكتـب والموسـيقى أكـثر مـن الاختـلاط بمـن في الكليـة.

لا هــو ولا قــواه ينتميــان إلى خــارج نطــاق الطبيعــة. إشــعاعاته الديناموســايكيزميَّة عُرضــة للتأثُّــر بكثــير مــن قوانــين الفيزيــاء المعروفــة في مجــال موجــات الراديــو. لا يوجــد أي شــخص تقريبًــا لم يســمع زمجــرة "ضوضــاء بارنهــاوس" في جهــاز اســتقباله المنــزلي. تتأثَّــر الإشــعاعات بالبُقَــع الشمســية والتغيــيرات الحادثــة في الأيونوســفير.

غير أنهما يختلفان عن موجات البَثِّ العادية في عدَّة أمورٍ هامَّة.

فالطَّاقــة الكُلِّيَّــة للديناموســايكيزميَّة يمكــن أن تُســلَّط عــلى أي نقطــة بعينهــا يختارهــا البروفيســور، وهــذه الطاقــة لا تضمحــلُّ مــع المســافات. إذن الديناموســايكيزمية كســلاحٍ لهــا أفضليــة هائلــة عــلى أي بكتيريــا أو قنبلــة ذرِّيَّــة، بالإضافــة إلى حقيقــة أنهــا لا تكلِّــف شــيئًا. فهــي تمكــن البروفيســور مــن انتقــاء أفــراد أو أشــياء بعينهــم مثيريــن للجــدل، عوضًــا عــن إبــادة سُــكَّان مــدن كاملــة في محاولــة الحفــاظ عــلى التــوازن العالمــي.

مثلــما قــال الجــنرال هونــوس باركــر للجنــة العســكرية بالكونجــرس: "إلى أن يجــد أحدهــم بارنهــاوس، لا توجــد وســيلة لصَــدِّ تأثــير بارنهــاوس". كل المجهــودات المبذولــة لتشــويش الإشــعاع أو إعاقتــه بــاءت بالفشــل. كان بوســع رئيــس الــوزراء ســليزاك توفــير النفقــات الضخمــة التــي بُذلــت لبنــاء ملجئــه "المضــاد لبارنهــاوس". برغــم الصفائــح الرصاصيــة التــي بلــغ سُــمكُها اثنتــي عــشرة قَدَمًــا في حوائــط الملجــأ، فقــد طُــرِح رئيــس الــوزراء أرضًــا مرَّتــيْن وهــو بداخلــه.

ثمَّــة كلام عــن غربلــة الشــعب بحثًــا عــن الأفــراد الذيــن قــد يكونــون أقويــاء ديناموســايكيزميًّا مثــل البروفيســور. طلــب الســيناتور وارين فوســت تمويــلًا لهــذا الغــرض الشــهرَ المــاضي، بخطــابٍ حَــماسيٍّ قــال فيــه: "إن مَــن يتحكَّــم في تأثــير بارنهــاوس، يتحكَّــم في العــالم". كروبتونيــك، الســكرتير العام الســوفييتي، قــال الــشيء نفســه. هكــذا يبــدأ ســباق تســليح مُكلِّــف آخــر، لكــن بمُعطَيــات مختلفــة.

لهذا السباق على الأقل جانبه الكوميدي؛ صارت الحكومات تجمع أفضل مُقامِري العالم مثلما تفعل مع عُلَماء الفيزياء النووية. قد يكون هناك بضع مئات أشخاص ذوي موهبة ديناموسايكيزمية في العالم، بما فيهم أنا، لكن بدون تقنية البروفيسور، لن يكون بوسع أيٍّ منهم فِعلُ أي شيء سوى أن يكون ديكتاتورًا في ألعاب النَّرد. ومن يعرف السِّرَّ سيحتاج لعشر سنوات على الأرجح ليصير سلاحًا فتَّاكًا، هذا مقدار ما استغرقه البروفيسور ليفعل. إن مَن يتحكَّم في تأثير بارنهاوس هو بارنهاوس، وسيظلُّ كذلك لبعض الوقت.

يشيع قول إن "عصر بارنهاوس" قد بدأ قبل عام ونصف، يوم عملية برينستورم، حينما باتت للديناموسايكيزمية أهمية سياسية. في الواقع اكتشف البروفيسور الظاهرة في مايو 1942، بعدما رفض تكليفًا مباشِرًا كضابط في الجيش، وانضمَّ له كجندي مدفعية بوقتٍ قليل. مثل أشعَّة إكس وتصليب المطَّاط، الديناموسايكيزمية اكتُشِفَت بالصُّدفة.

* * *

من حينٍ لحين، كان الجندي بارنهاوس يُدعى لمشاركة رفاق ثكنته ألعاب الحظِّ. عادةً ما كان يعتذر، لكن ذات ليلة، وعلى سبيل اللياقة الاجتماعية، وافق على المشاركة في لعبة نَردٍ. وكان ذلك من حُسن حظِّ العالم، أو سُوئه، يعتمد ذلك على الزاوية التي ترى بها العالم الآن.

قال أحدهم: "ارمِ سبعات".

فرمى "بوب" سبعات، عشر مرَّات متتالية بما يكفي لإفلاس رفاقه. عاد لمضجعه، وعلى سبيل التدريبات الرياضية، حسب احتمال حصول إنجازه ذلك على قصاصة ورق، وجد أن فرصة حدوث ذلك كانت تقريبًا واحدًا في العشرة ملايين! حائرًا، استعار زوجَ نَردٍ من الرَّجُل في المهجع المجاور له. حاول أن يرمي سبعات مجدَّدًا، لكنه لم يحصل

إلَّا على التشكيلة المعتادة من الأرقام. تَمدَّد لهُنَيهَةٍ، ثم تابع اللعب بالنرد. ألقى عشر سبعات متتالية مجدَّدًا.

كان بوسعه تجاوُز تلك الظاهرة بصافرة خافِتَةٍ، لكن بدلًا من ذلك أمعن البروفيسور الفِكرَ في الظروف المحيطة بضربتَيْ الحَظِّ. كان هناك عامل واحد مشترك: في كلتا المرَّتين، ومض في عقله قبل رمي النرد مباشرةً قطارُ الأفكار ذاته. وكان ذلك القطار هو ما رصَّ خلايا مُخٍّ البروفيسور لتصبح بعدها أقوى سلاح على الأرض.

* * *

الجندي في السرير المجاور قدَّم أول أشكال الاحترام للديناموسايكزمية، بتعبيرٍ مُخلٍّ كفيل بوضع ابتسامة ساخرة على وجه أكثر ديماجوجيِّي العالم كآبةً. قال الجندي: "بوب، أنت أجمد من بندقية". كان بروفيسور بارنهاوس كذلك. النَّرد الذي استخدمه كان وزنه جراماتٍ قليلةً؛ لذا كانت القوى المستخدمة كانت هامشيَّةً، لكن وجود تلك القوى بات حقيقة لا يمكن إنكارها، حقيقة مُزَلزِلَة للعالم.

حذَّر البروفيسور الاحترافي هو ما منعه من الإفصاح عن اكتشافه على الفور، أراد أن يصل أولًا لمزيد من الحقائق ونظرية صُلبة تصاحبهم. لاحقًا، عندما سقطت قنبلة ذرِّيَّة على هيروشيما، صار دافع البروفيسور للحفاظ على صمته هو الخوف. لم تكن تجاربه في أي وقت، مثلما وصفهم رئيس الوزراء سليزاك، "مُخطَّطًا برجوازيًّا لإعاقة ديموقراطيات العالم". لم يعلم البروفيسور إلى أين تقوده التجارب.

بمرور الوقت اكتشف خاصِّيَّةً مُذهِلةً أخرى للديناموسايكيزمية: قوتها تزيد مع الاستخدام. خلال ستة أشهر، صار بوسعه التَّحكُّم في نَردٍ يلقيه آخرون في نهاية الثكنات. وفي وقت تسريحه عام 1945، أصبح قادرًا على تحرير قوالب طوب من مداخن على بُعد ثلاثة أميال.

ادِّعـاءات أن بارنهـاوس كان قـادرًا عـلى الفـوز بالحـرب السـابقة في دقيقـةٍ لكنـه لم يهتـمَّ بـأن يفعـل، ليـس لهـا أي معنـى. فعندمـا انتهـت الحـرب، كان مـدى قوتـه وشـدَّتها تُقـارِب مـدى وقـوة مدفـع عيار 37 مـم لا أكـثر. قـواه الديناموسـايكيزمية تَرَقَّـت بالتدريـج فـوق مسـتوى الأسـلحة الخفيفـة فقـط بعـد تسريحـه وعودتـه إلى كليـة وايـندوت.

التحقـت بقسـم الدراسـات العليـا بكليـة وايـندوت بعـد عـودة البروفيسـور إليهـا بعامـين. وبالصُّدفـة عُـيِّن مشرفًـا عـلى رسـالتي. لم أكـن سـعيدًا بهـذا التعيـين؛ فالبروفيسـور كان، في أعـين زملائـه وتلاميـذه عـلى السـواء، شـخصيَّةً مُضحِكـة. كان يُفـوِّت الحصـص وتخونـه ذاكرتـه في منتصـف المحـاضرات. وعندمـا وصلـت، باتـت مثالبـه قـد تحوَّلَـت مـن مُضحِكـة إلى غـير محتملـة.

قـال عميـد الدراسـات الاجتماعيـة بنـبرة اعتذاريـة مرتبكـة: "سـنضعك تحـت إشراف بارنهـاوس مؤقتًـا. رجـل رائـع بارنهـاوس هـذا عـلى مـا أعتقد. ربمـا تصعـب معاملتـه نوعًـا منـذ عودتـه، لكـن عملـه قبـل الحـرب جلـب كثـيرًا مـن الفخـر إلى مدرسـتنا الصغـيرة".

عندمـا ذهبـت إلى معمـل البروفيسـور أول مـرة، مـا رأيتـه كان مُقلِقًـا أكـثر مـمًّا اقترحـت النميمـة. كل سـطح في الغرفـة كان يغطيـه الـتراب، الكتـب والمُعِـدَّات لم تُمَـسّ منـذ أشـهر، وعندمـا دخلـت كان البروفيسـور يغـطُّ في النـوم عـلى مكتبـه. العلامـات الوحيـدة عـلى وجـود نشـاط قريـب كان منفضتـي سـجائر طافحتـين، ومِقصًّـا، وجريـدة هـذا الصبـاح وقـد قُصَّـت مـن صفحتهـا الأولى بضعـة أجـزاء.

رفـع رأسـه ونظـر إليَّ، رأيـت عينـين مشـوبتَيْن بالإنهـاك. قـال: "أهـلًا، لم أعـد أحصـل عـلى نـومٍ كافٍ في الليـل". أشـعل سـيجارة بيـدٍ ترتجـف قليـلًا. "هـل أنـت الشـاب الـذي يفـترض بي مسـاعدته في أطروحتـه؟".

قلت: "نعم يا سيدي".

وفي دقائـق قليلـة أثـار تَحفُّـز شـكوكي. سـأل: "هـل حاربـت وراء البحـر؟".

قلت: "نعم يا سيدي".

"لم يَبـقَ هنـاك الكثـير، أليـس كذلـك؟"، وتجهَّـم، "اسـتمتعت بآخـر حـرب؟".

"لا يا سيدي".

"أتبدو لك كحربٍ أخرى بلا هدف؟".

"نعم يا سيدي".

ماذا يمكن أن نفعل حيال ذلك؟

هَزَزتُ كتفيَّ، "لا أرى أملًا".

حـدَّق فيَّ باهتـمام. "أتعلـم أي شيء عـن القانـون الـدولي والأمـم المتحـدة وهـذه الأشـياء؟".

"فقط ما ألتقطه من الجرائد يا سيدي".

"وأنـا كذلـك"، تنهَّـد. عـرض علَيّ كتـاب قصاصـات مُتخَـمًا بقصاصـات صُحُـف. "لم أكـن أُبـدي أي انتبـاه للسياسـة العالميـة. والآن أدرسـها كـما اعتـدت دراسـة متاهـات الفـئران. الجميـع يقولـون لي الـشيء نفسـه، "لا أرى أمـلًا"".

قلت: "لا شيء أقل من معجزة...".

قـال بحـدَّة: "أتُصـدِّق في السـحر؟". اصطـاد البروفيسـور مـن جيـب سُـترته زوجَ نَـردٍ. قـال: "سـأحاول رمـي اثنينـات". رمـى اثنينات ثـلاثَ مرَّات عـلى التـوالي. "فرصـة حـدوث هـذا واحـد عـلى 47000، هـذه المعجـزة لأجلـك". أشرق للحظـة، ثـم أنهـى المقابلـة مـرة واحـدة، مُعلِّقًـا بـأن عنـده حصَّـة بـدأت قبـل عـشر دقائـق.

لم يَثِـق فيَّ بسرعـة، ولم يَقُـل المزيـد عـن خدعـة الـنرد. افترضـت أن الـنرد كان مُثقَـلًا بشـكل مـا، ونسـيت أمـره. كلَّفنـي بمراقبـة ذكـور فـئران تعـبر أشرطـة معدنيـة مُكَهرَبـة لتصـل إلى الطعـام أو الإنـاث، وهـي تجربـة يجريهـا الجميـع بكفـاءة منـذ الثلاثينيـات. وكأن عمـلي العبثـي لم يكـن سـيئًا كفايـة، أزعجنـي البروفيسـور أكـثر بأسـئلة بـلا سـياق. أسـئلته المفضَّلة كانــت: "أتظــنُّ أننــا كنَّــا مُضطَرِّيــن لإلقــاء القنبلــة عــلى هيروشــيما؟" و"أتظـنُّ أن كل معلومـة علميـة جديـدة هـي شيء في صالـح البشريـة؟".

* * *

لكنـي لم أظـل مضغوطًـا لفـترة طويلـة. قـال لي ذات صبـاح بعدمـا صـار لي معـه شـهرًا واحـدًا: "أَعـطِ لتلـك الحيوانـات إجـازة، أتمنـى أن تسـاعدني في مشـكلة أكـثر إثـارة للاهتـمام... أعنـي صحتـي العقليـة".

أَعَدتُ الفئران إلى أقفاصها.

قـال بهـدوء: "مـا عليـك فعلـه هـو أمـر يسـير، راقـب المحـبرة عـلى مكتبـي. إن لم يحـدث لهـا شيء، قُـل ذلـك، وسـأذهب بهـدوء، بـل ربمـا بارتيـاح، إلى أقـرب مصحَّـة عقليـة".

أومأت بشك.

أحكـم إغـلاق بـاب المعمـل وشـدَّ السـتائر، هكـذا بِتنـا في ظـلام دامـس لوهلـة. قـال: "أعلـم أني غريـب الأطـوار، الخـوف مـن نفـسي هـو مـا جعلنـي كذلـك".

"ربما أراك مختلفًا نوعًا ما، لكنك بالتأكيد لست...".

قاطعنـي وهـو يـضيء مصابيـح السـقف: "إن لم يحـدث شـيئًا للمحـبرة، سـيكون الوصـف الوحيـد المناسـب لي هـو "ابـن المجنونـة""، ضاقـت عينـاه، "لأعطيـك فكـرة عـن درجـة جنـوني، سـأخبرك بمـا يـدور في رأسي عندمـا يفـترض بي أن أكـون نائمًـا: أعتقـد أني قـادر عـلى إنقـاذ العـالم.

أعتقد أني قادر على إعطاء وطنٍ لكُلِّ وطن، والتخلِّي عن الحروب إلى الأبد. أعتقد أني قادر على بناء طُرُق عبر الغابات، وري الصحراء، وبناء السدود في ليلة وضحاها".

"نعم يا سيدي".

"راقب المحبرة".

بخوف ومسؤولية فعلت. بدا أن المحبرة يأتي منها طنينٌ حادٌّ، ثم أخذت في الاهتزاز بشكل مُريب، وأخيرًا في التقافز في دوائر على سطح المكتب بضجَّة. توقَّفتُ، طنَّت مُجدَّدًا، ثم تهشَّمَت إلى فُتاتٍ ببريق هو بين الأزرق والأخضر.

انتصب شَعري. ضحك البروفيسور بلُطفٍ. تمكَّنتُ من أن أقول في النهاية: "مغناطيس؟". تمتم: "أتمنى لو كان مغناطيسًا". وكان حينها أن أخبرني عن الديناموسكيزمية. عرف فقط بوجود تلك القوة، لكنه لم يستطع شرحها. "إنها بداخلي، أنا وحدي، وذلك أمر شنيع".

صِحتُ: "في رأيي، هو أمر مذهل ورائع".

هزَّ كتفَيْه بغير رضا: "لو كان كل ما أستطيع فعله هو جعل المحابر ترقص، كنتُ لأرقص أيضًا من السعادة بالأمر كله. لكني لستُ لعبة يا بُنيَّ. يمكنني أن آخذك في جولة حول الحي لو أحببت لأريك ما أقصد". أخبرني عن الصخور المسحوقة وأشجار البلوط المهشَّمة ومباني المزارع المهجورة المُدمَّرة في دائرة نصف قُطرِها خمسون ميلًا من الحرم الجامعي. "فعلت كل هذا بمجرد الجلوس هنا والتفكير، بل إنني حتى لم أفكِّر بشدَّة".

حكَّ رأسه في عصبية. "لم أجرؤ قطُّ على التركيز بأقصى ما أستطيع خوفًا من الضَّرر الذي قد أتسبَّب فيه. أنا في المرحلة التي قد تؤدِّي فيها مجرَّد خاطرة تراودني إلى خطر عارم"، ثم كان هناك سكوت

مقبض، تابع: "حتى أيام قليلة مضت، كنت أعتقد أن من الأفضل أن أحافظ على سِرِّي خوفًا ممَّا قد أتسبب فيه، والآن، أدرك أن حقي في فعل ذلك لا يتجاوز حقَّ أي شخص في امتلاك قنبلة ذرية".

قلَّب في كومة أوراق، "تقول تلك كل ما يحتاج لأن يُقال على ما أظن". وقدَّم لي مُسَوَّدة خطاب لوزير الخارجية.

سيدي الفاضل:

لقد اكتشفتُ مصدر قوَّةٍ لا يُكلِّف استخدامُها شيئًا، وهي على الأرجح أهم من الطاقة النووية. أوَدُّ أن أراها تستخدم في تحقيق السلام. وأنا لهذا أطلب نصيحتكم في كيفية فعل ذلك.

بإخلاص،

أ. بارنهاوس

قال البروفيسور: "ولا أملك أدنى فكرة عمَّا سيحدث بعد ذلك".

* * *

تبع ذلك ثلاثة أشهر من الكوابيس المستمرة، فيهم جاء كبار رجال الدولة العسكريُّون والسياسيُّون في كل الأوقات لمشاهدة ألاعيب البروفيسور.

أنزَلونا في قصر قديم بالقرب من شارلوتسفيل في ڤيرچينيا، نقلونا إليه بعد خمسة أيام من إرسال الخطاب، تحيط بنا الأسلاك الشائكة وعشرون حارسًا. صنَّفونا "سري للغاية"، وعَنوَنونا "مشروع الأماني الطيبة".

وصُحبَتُنا تكوَّنَت من الچنرال هونوس باركر ووزير الخارجية ويليام كي. كوثريل. مقابل كلام البروفيسور عن تحقيق السلام من خلال الوفرة، قدَّموا ابتسامات متسامحة وحديثًا مُطوَّلًا عن الإجراءات العملية

والتفكير الواقعي. بهذه المعاملة تطوَّر البروفيسور من الوداعة التي كان عليها في البداية، إلى العناد الشديد خلال أسابيع.

كان قد وافق على الكشف عن قطار أفكاره الذي يُحوِّل به عقله إلى مذياع ديناموسكيزمي. لكن إلحاح كوثريل وباركر المستمر عليه أن يفعل، جعله يبدأ في التراجع. أعلن في البداية أنه قادر على نقل المعلومة بمجرَّد النطق بها، لكنه قال لاحقًا إنها يجب أن تُكتب في تقرير مطوَّل. في النهاية، على العشاء ذات ليلة، بعد أن قرأ الچنرال باركر الأوامر السرية للعملية برينستورم مباشرة، أعلن البروفيسور: "قد تستغرق كتابة التقرير مُدَّةً تَصِل لخمس سنوات"، ونظر بتَحَدٍّ للچنرال، "وربما عشرين".

السُّخط الذي سبَّبه ذلك الإعلان ذو النبرة المحايدة، غطَّاه إلى حَدٍّ ما الحماس والترقُّب للعملية برينستورم. كان مزاج الچنرال وكأنه في رحلة ترفيهية. قال في بهجة: "السفن المستَهدَفة في طريقها إلى جُزُر كارولاين في هذه اللحظة، مائة وعشرون سفينة! في الوقت ذاته تتجهَّز عشرة صواريخ V-25 للإطلاق في نيو مكسيكو، وخمسون قاذفة قنابل تستعدُّ لهجومٍ وهميٍّ على جزر ألوتيان. فكِّر في كل هذا!". وبسعادة راجع على أوامره، "في الساعة 1100 من الأربعاء القادم، سأعطيك أمرًا بالتركيز، وأنت يا بروفيسور ستفكر بأقصى ما تستطيع في تلك السفن المستهدَفة، وتُدمِّر الصواريخ V-25 قبل أن تضرب الأرض، وتُوقِع قاذفات القنابل قبل أن تبلغ الألوتيان. أتعتقد أنك قادر على كل ذلك؟".

شحب البروفيسور وأغلق عينيه. "مثلما قلتُ لكَ من قبل يا صديقي، أنا لا أعرف سعة مقدرتي"، وأضاف بمرارة، "وفيما يخصُّ العملية برينستورم، لم يستشرني أحدكم عنها، وأراها طفولية وباهظة إلى حدٍّ مجنون".

أجاب الچنرال باركر بغيظٍ مكتوم: "سيدي، أنت متخصِّص في علم النفس، وأنا لن أجرؤ على تقديم نصيحة في مجالك. مجال تخصُّصي هو الدفاع الوطني، وحصيلتي فيه هي ثلاثون عامًا من الخبرة والنجاح؛ لذا أطلب منك يا بروفيسور ألَّا تنتقد حُكمي".

استغاث البروفيسور بمستر كوثريل، قال متوسِّلًا: "انظُرْ، ألسنا نحاول التخلُّص من الحروب وشؤون الجيوش؟ ألن يكون من الأفيد والأرخص بما لا يُقاس أن أحاول تحريك كُتَلِ الغيوم إلى مناطق الجفاف وما شابه؟ أعترف أنني لا أعرف شيئًا تقريبًا في السياسة الدولية، لكن يبدو لي من المنطقي أن أحدًا لن يرغب في الحرب إن كان لديه ما يكفيه من كل ما يحتاج. مستر كوثريل، أَوَدُّ أن أحاول تدوير المولِّدات حيث لا يوجد طاقة فحم ولا ماء، وري الصحراء، وما إلى ذلك. بوسعك أن تعرف ماذا تحتاج كل دولة لتحصل على أقصى استفادة من مواردها، وسأحاول أن أعطيهم هذا دون أن أُكلِّف دافعي الضرائب الأمريكان بِنسًا".

قال الچنرال بثِقَلٍ: "اليقظة الأبدية هي ضريبة الحرية".

ألقى مستر كوثريل نظرة احتقار خفيف على الچنرال. قال: "الچنرال مُحقٌّ لسوء الحظ بشكلٍ ما. أتمنى من أعماق قلبي لو كان العالَمُ جاهزًا لمثاليَّتِك، لكنه ببساطة ليس كذلك. لا يحيط بنا الأشقَّاءُ، بل الأعداء. ليس افتقار الطعام والموارد هو ما جلب العالم إلى حافَّة الحرب، بل الصراع على القوة. مَن الذي سيتربَّع على قمَّة العالم؟ أُناسُنا أم أُناسُهم؟".

أومأ البروفيسور في موافقة متردِّدة، ونهض من على المائدة. "أستمحيكم العذر يا سادة. أنتم في النهاية مُؤهَّلون أكثر مني للحُكم على ما هو أفضل لبلدنا. سأفعل كلَّ ما تقولون لي أن أفعل"، ثم

اسـتدار ليواجهنـي وقـال باكفهـرار: "لا تَنـسَ أن تلـفَّ السـاعة المقيَّـدة وتُخـرج القطَّـة السِّرِّيَّـة"، وصعـد السـلالم إلى غرفـة نومـه.

* * *

لأسـبابٍ تَتعلَّـق بالأمـن الوطنـي، تمَّـت عمليـة برينسـتورم بـدون معرفة المواطنـين الأمريكيـين، الذيـن يتحمَّلـون فاتـورة الأمـر برُمَّتـه. المراقبـون والتقنيُّـون ورجـال الجيـش المشـاركون في العمليـة، عَلِمـوا أن هنـاك تجربـة تَحـدُث، اختبـار لـشيء لم يعرفـوا ماهيَّتـه. لم يعـرف حقيقـة مـا يجـري إلا سـبعة وثلاثـون شـخصًا، بمـا فيهـم أنـا.

في ڤيرچينيـا، كان يـوم عمليـة برينسـتورم بـاردًا عـلى غير المُتوقَّـع. داخل القـصر، طقطـق الحطـب المشـتعل بالمدفـأة، وانعكسـت ألسـنة اللهـب عـلى الخزانـات المعدنيـة المصقولـة في غرفـة المعيشـة. كل مـا تبقَّـى مـن أثـاث الغرفـة القديـم كان مِقعـدًا ڤيكتوريًّـا لشـخصين، اسـتقرَّ في منتصـف المـكان مبـاشرة، مُواجِهًـا ثلاثـة أجهـزة اسـتقبال تليفزيونيـة.

جُلِبَـت دكَّـة طويلـة خصِّيصًـا للعـشرة الذيـن نالـوا حظـوة المشـاهدة. عرضـت شاشـات التليفزيـون، مـن اليسـار إلى اليمـين، امتـدادَ الصحـراء التـي تسـتهدفها الصواريـخ، والأسـطول/ فـأر التجـارب، ومقطعًـا مـن سـماء ألوتيـان سـتمرُّ عـبره تشـكيلة قاذفـات القنابـل المُتحكَّـم بهـا عـن بُعـد.

قبـل سـاعة الصفـر بتسـعين دقيقـة، أعلنـت أجهـزة اللاسـلكي أن الصواريـخ جاهـزة، وسُـفُن المراقبـة تراجَعَـت إلى حيـث يُعتقـد أنها مسـافة آمِنَـة، وأن قاذفـات القنابـل في طريقهـا. ارتـصَّ جمهـور ڤيرچينيـا المحـدود عـلى الدِّكَّـة بحسـب الرُّتبـة، ودَخَّنـوا كثـيرًا، وقالـوا قليـلًا. بروفيسـور بارنهـاوس كان في غرفـة نومـه. والچنرال باركـر كان يـدور في المـكان مثـل امـرأة تحـضر عشـاء عيـد الشُّـكر لعشريـن شـخصًا.

قبل ساعة الصفر بعشر دقائق جاء الچنرال وأمامه البروفيسور مثل راعي يقود غَنَمًا. كان البروفيسور مرتديًا حذاءً رياضيًّا وبنطلونًا خفيفًا رماديًّا وسُترةَ تَعرُّق زرقاء وقميصًا أبيض مفتوحًا عند الرقبة. جلس كلاهما مُتجاوِرَيْن على المقعد الڤيكتوري: الچنرال مشدودًا مُتعرِّقًا، والبروفيسور رائقًا. نظر البروفيسور إلى الشاشات، أشعل سيجارة، استرخى في مجلسه.

صاح المراقب في ألوتيان: "الطائرات ظهرت"، وصرخ مُشغِّل الراديو في نيو ميكسيكو: "الصواريخ انطلقت". تابعنا جميعًا الساعة الكهربيَّة على الرَّفّ، بينما ظلَّ البروفيسور يتابع أجهزة التليفزيون بنصف ابتسامة على وجهه. بنبرة مُجوَّفة، عدَّ الچنرال الثواني المتبقِّية: "خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان... واحد... ركِّز!".

أغلق بروفيسور بارنهاوس عينيه وزمَّ شفتيه ودعَكَ صدغيه. ظلَّ على هذا الوضع لدقيقة. خفقت شاشات التليفزيون وغطَّت إشارات اللاسلكي ضوضاء بارنهاوس. تنهَّد البروفيسور، فتح عينيه، وابتسم في ثقة.

سأل الچنرال بشَكٍّ: "هل فعلت كل ما بوسعك؟".

أجاب البروفيسور: "أطلقت العنان".

استجمعت الصورة نفسها على شاشات التليفزيون، واختلطت بصيحات الذهول القادمة من أجهزة اللاسلكي المضبوطة على موجات المراقبين. السماء الألوتية كانت مُخطَّطة بخيوط الدخان التي تتركها خلفها قاذفات القنابل التي تقع مُشتَعِلَة، في الآن ذاته، فوق أهداف الصواريخ صارت هناك كُتَلٌ من الدُّخان الأبيض، يتبعها دويٌّ خفيف.

هزَّ الچنرال باركر رأسه ببهجة. صاح: "بحقِّ القِدِّيس چورچ!".

"نعم يا سيدي، بحقِّ القدِّيس چورچ ألف مرة".

صاح الأميرال الجالس بجواري: "انظروا! الأسطول كما هو!".

قال مستر كوثريل: "يبدو أن أسلحته تقع".

تركنا الدِّكَّة وتَجَمهَرنا حول الشاشات لفحص الضَّرَر عن كثب. مستر كوثريل كان مُحِقًّا، مدافع السفن كانت منحنية إلى الأسفل، فوَّهاتها باتت مُستقرَّة على سطح السُّفُن الفولاذية. الضَّجَّة الصادرة منَّا في ڤيرچينيا جعلت من المستحيل علينا سماع تقارير اللاسلكي. كُنَّا منشغلين تمامًا لدرجة أننا لم نفتقد وجود البروفيسور إلى أن انطلقت زمجرة مباغتة لضوضاء بارنهاوس أخرستنا تمامًا، وماتت أجهزة اللاسلكي.

نظرنا حولنا بقلق، ولم نجد أثرًا للبروفيسور. فتح حارِسٌ مُنزَعِجٌ البابَ الأمامي من الخارج بعنف، وصاح أن البروفيسور هرب. لوَّح بمسدَّسه تجاه البوَّابات، التي تدلَّت مفتوحةً ملتويةً. على مسافة بعيدة، رأينا سيَّارةً حكومية ضخمة تتجاوز القِمَم في الأفق وتنزل في الوادي الذي يليها. امتلأ الهواء بالدخان الخانق؛ لأن كل السيارات الموجودة كانت مشتعلة، والمطارَدَة مستحيلة.

تساءل الچنرال: "ما الذي حدث له بحقِّ الرب؟".

هرع مستر كوثريل إلى الشرفة الأمامية، ثم تهادى عائدًا إلى الحجرة وهو يقرأ ملحوظة مكتوبة بالرصاص، ثم دفع بها في يدي. "ترك الرَّجُل الطَّيِّب رسالةَ الغرام هذه على عتبة الباب. ربما بوسع صديقنا الصغير هنا قراءتها لحضراتكم، بينما أريح دماغي بتمشيةٍ في الغابة".

قرأت بصوتٍ عالٍ: "أيُّها السادة، بما أنني أوَّل سلاح خارق ذو وعي، قرَّرتُ أن أنأى بنفسي عن ترسانة أسلحتكم القومية، في تصرُّفٍ غير مسبوق من عتاد الحروب. ذهابي نابع من أسباب إنسانية. أ. بارنهاوس".

* * *

منـذ ذلـك اليـوم، بالطبـع، أخـذ البروفيسـور يُدمِّـر بشـكل ممنهـج ترسـانةَ العـالم، حتـى لم يَعُـد الآن يوجـد مـا يكفـي لتسـليح جيـش أكـثر مـن الصخـور والعِـصيِّ المُدبَّبـة. لم تُـؤدِّ نشـاطاته إلى السـلام بالضبـط، لكنهـا أدَّت إلى نـوعٍ مُسـلٍّ مـن الحـرب بـلا سَـفكِ دمـاء، يمكـن تسـميتها "حـرب الوشـاة". إذ هطـل عـلى كلِّ بَلـدٍ غَيـثٌ مـن عُمَـلاء العـدو، هدفهـم الوحيـد هـو تحديـد موقـع مُعِدَّاتهـم العسـكرية المخفيَّـة، والتـي تُدمَّـر فـورًا بعدمـا يلفتـون انتبـاه البروفيسـور إليهـا في الصحافـة.

ومثلـما يجلـب كل يـوم أخبـار عـن أسـلحة جديـدة فتَّتَتهـا الديناموسـايكزمية، يجلـب أيضًـا شـائعات عـن محـلِّ تواجـد البروفيسـور. في الأسـبوع المنقـضي فقـط، نـشرت ثـلاث دوريـات مقـالات تُثبِـت أنـه يختبـئ في أطـلال الإنـكا بجبـال الإنديـز، وفي مجـاري باريـس، وفي سراديـب كهـوف كارلسـباد غـير المُستَكشَـفَة. مـن معرفتـي للرجـل، أميـل لاعتبـار أماكـن الاختبـاء المشـابهة رومانسـيَّةً وغـير عمليـة بـلا داعٍ. بينـما يوجـد العديـد مـن الأشـخاص المتلهِّفـين عـلى قتلـه، يوجـد بـلا شـك الملايـين المسـتعدين لمسـاعدته. أحـب التفكـير أنـه في بيـت أحـد هـؤلاء.

شيء واحـدٌ أكيـد: بينـما أكتـب، بروفيسـور بارنهـاوس ليـس ميِّتًـا. ضوضـاء بارنهـاوس شوَّشَـت عـلى الإرسـال الإذاعـي قبـل أقـلَّ مـن عـشر دقائـق. في الشـهور الثمانيـة عـشر التـي أعقبـت اختفـاءه، أعلنـوا موتـه سِـتَّ مَـرَّات، خـلال فـترات خاليـة مـن الضوضـاء. ينبـع الإعـلان كلَّ مـرَّة مـن مـوت رَجُـلٍ هُويَّتُـه غـير معروفـة يشـبه البروفيسـور. أول ثـلاث إعلانـات تبعهـم عـلى الفـور تَجـدُّد أحاديـث إعـادة التسـليح والعـودة إلى الحـروب. بسرعـة تَعلَّـم المتبجِّحـون دُعـاة الحـروب أن الاحتفـال المبكِّـر بـزوال البروفيسـور شيء لا يتَّصِـف بـأي حكمـة.

كثـير مـن الوطنيِّـين الشُّـجعان وجـدوا أنفسـهم مطروحـين أرضًـا في كُتَـلٍ متشـابكة مـن الأعـلام وعـوارض المنصَّـات الخشـبية المُهشَّـمة، بعـد

ثـوانٍ مـن إعلانهـم أن طغيـان بارنهـاوس قـد انتهـى. لكـن يظـلُّ أولئـك الذيـن يَـودُّون شَـنَّ الحـروب إن اسـتطاعوا، في كل بلـد في العـالم، ينتظـرون في صمـتٍ وغضـب مكتـوم حـدوثَ المحتـوم: وفـاة بروفيسـور بارنهـاوس.

* * *

أن تسـأل إلى متـى سـيعيش البروفيسـور لا يختلـف عـن أن تسـأل إلى متـى يجـب أن ننتظـر حتـى تحـلَّ علينـا بـركات حـرب عالميـة جديـدة. البروفيسـور مـن سُـلالةٍ قصيرة العُمـر: أمـه عاشـت حتـى الثالثـة والخمسـين، وأبـوه حتـى التاسـعة والأربعـين، وجـدوده مـن الناحيتـين لم يختلفـوا كثـيرًا. ربمـا مـن المُتوقَّـع إذن أن يعيـش حـوالي خمـس عـشرة سـنةً أخـرى، إن اسـتطاع أن يبقـى مَخفيًّـا عـن عيـون أعدائـه. لكـن عندمـا يأخـذ المرء في اعتبـاره عَـدَدَ وشراسَـةَ هـؤلاء الأعـداء؛ تبـدو عندهـا الأعـوام الخمسـة عـشر وقتًـا طويـلًا إلى درجـة اسـتثنائية، وربمـا مـن الأفضـل مُراجَعتهـا إلى خمسـة عـشر يومًـا أو سـاعة أو دقيقـة.

يعلـم البروفيسـور أنـه ليـس بوسـعه أن يعيـش طويـلًا. أقـول ذلـك بسـبب الرسـالة التـي تركهـا في صنـدوق بريـدي عشـيَّة الكريسـماس. بـلا توقيـعٍ، مكتوبـة بالآلـة الكاتبـة عـلى قصاصـة ورقٍ مُتَّسِـخَة، ومُكوَّنـة مـن عـشر جُمَـل. أول تسـع جُمَـل كانـت غابـةً مـن المصطلحـات السـيكولوچية وإشـارات لنصـوص مُبهَمَـة، لم أجـد فيهـم معنـى عنـد أول قـراءة. أمَّـا الجملـة العـاشرة، عـلى عكـس البقيـة، كانـت مبنيَّـةً ببسـاطة، ولم تحتَـوِ عـلى كلـمات ضخمـة، لكـن محتواهـا غـير المنطقـي جعلهـا الجملـة الأكـثر غموضًـا وغرابـة. كِـدتُ أرمـي الورقـة بعيـدًا، ظنًّـا أنهـا مقلـبٌ ثقيـل مـن زميـلٍ سـخيف. لكـن لسـببٍ مـا، وضعتهـا عـلى الـرُّكام عـلى سـطح مكتبي، الـذي تضمَّـن -مـن بـين تـذكارات عديـدة- نـرد البروفيسـور.

اسـتغرَقتُ عـدَّةَ أسـابيع لأدرك أن الرسـالة كانـت تعنـي شـيئًا بالفعـل، وأن أول تسـع جُمَـل يمكـن اعتبارهـا تعليـمات إذا فُكَّـت شـفرتهم. لكـن

لم تـزل العـاشرة بـلا صـدى عنـدي. ولم يكـن إلا في الليلـة السـابقة أن اكتشـفت كيـف يمكـن أن تُلائـم تلـك الجملـة البقيـة. انبثـق مغـزى الجملـة عـلى حـين غِـرَّة وسـط أفـكاري بالأمـس، فيـما كنـت ألعـب بـنرد البروفيسـور شـارد الذهـن.

وَعـدتُ بتسـليم هـذا التقريـر إلى نـاشره اليـوم. لكـن في إطـار مـا حـدث، أنـا مضطرٌ لكسر وعـدي، أو إلى إرسـاله ناقصًـا. التأخـير لـن يكـون طويـلًا، فمـن المميـِّزات القليلـة لحيـاة العـازب التـي أعيشـها، هـي القـدرة عـلى التَّنقُّـل بسرعـة مـن مَسـكَنٍ إلى آخـر، أو مـن شـكل للحيـاة إلى أخـر. كل مـا أودُّ اصطحابـه معـي مـن متـاع يمكـن حزمـه في سـاعات قليلـة. ولحُسـن الحـظ أنـا لسـت بـلا مـوارِدَ خاصَّـةٍ مُجزِيَـة، والتـي قـد تسـتغرق نحـو أسـبوع لتسـييلها وتحويلهـا إلى شـكلٍ غـير قابـل للتَّتبُّـع. عندمـا أنتهـي مـن كل هـذا، سأرسـل التقريـر.

عـدتُ لتـوِّي مـن زيـارة طبيبـي، الـذي أخـبرني أن صِحَّتـي ممتـازة، وأني صغـير، وإذا كنـتُ سـعيد الحَـظِّ قـد أعيـش عُمـرًا طويـلًا مديـدًا؛ فـكلا جانِبَـيْ عائلتـي عُرِفَـا بطـول العمـر.

باختصارٍ: أنا أنوي الاختفاء.

عاجـلًا أم آجـلًا، سـيموت البروفيسـور. لكـن قبلهـا سـأكون جاهـزًا؛ لـذا لدُعـاة الحـرب اليـوم -وربمـا الغـد أيضًـا، كـما أتمنـى- أقـول: تَحَلَّـوا بالعقـل، بارنهـاوس سـيموت، لكـن تأثـير بارنهـاوس لـن يفعـل.

بالأمـس، حاولـتُ اتِّبـاع تعليـمات البروفيسـور المُبهَمَـة في رسـالته. أخـذت نَـردَه، وعندهـا، عندمـا سَـطَعت الجملـة الأخـيرة الكابوسـية في عقـلي، رميـتُ سـبعات خمسـين مـرَّة متتاليـة.

وداعًا.

(1950)

سؤال اليوفوريا

سيِّداتي سادتي أعضاء لجنة الاتصالات الفيدرالية، أُعرِب عن شُكري لمنحكم إيَّاي فرصة المثول أمامكم.

أنا آسف -أو ربما "مكسور القلب" هي الكلمة الأنسب- لتَسرُّب خبرٍ ما صار. لكن بما أن الكلام قد انتشر، ووصل إلى عِلمِكم الرسمي، ربما أستطيع أن أخبركم بالقصة مباشرة، وأدعو الرَّبَّ أن أستطيع إقناعكم أن أمريكا لا حاجة لها بما اكتشفنا.

لن أُنكِر أن ثلاثتنا -ليو هاريسون مذيع الراديو، ودكتور فريد بوكمان عالم الفيزياء، وأنا، بروفيسور علم الاجتماع- وجدنا راحة البال. فعلنا بلا شك. ولن أقول إن سعي الناس لراحة البال هو أمر خاطئ. لكن إن ظَنَّ أحدهم أنه يريد راحة البال التي وجدناها، فنصيحتي له أن يسعى لجلطة قلبية أفضل.

وجدنا أنا وليو وفريد راحة البال في الاسترخاء على كراسينا وتشغيل جهاز صغير بحجم تليفزيون المائدة. بلا أعشاب، بلا قاعدة ذهبية، بلا تَحكُّم بالعضلات، بلا دَسِّ أنوفنا في مشاكل الآخرين لنسيان مشاكلنا، بلا هوايات ولا طاوية[1] ولا تمارين ضغط ولا تأمُّل. هذا الجهاز على ما أظن هو ما تنبَّأ البعض بشكل مُبهَم أنه سيكون الإنجاز المتوَّج للحضارة البشرية: شيء ما إليكتروني، رخيص ويسهل إنتاجه على نطاق واسع، يمنح الطمأنينة بضغطة زرٍّ. أرى أنَّ لدينا واحِدًا هنا.

أول احتكاك لي براحة البال الصناعية كان قبل ستة أشهر. وكان حينها أيضًا، وهو ما يؤسفني قوله، أن أتيحت لي فرصة معرفة ليو هاريسون. ليو هو المذيع الرئيسي لمحطة إذاعة مدينتنا. يحصل ليو على قوت يومه بصوته العالي، وسيفاجئني إن كان الأمر قد بلغ عِلمَكم من أي شخص عداه.

يقدم ليو برنامجًا علميًّا أسبوعيًّا، بالإضافة إلى حوالي ثلاثين برنامجًا آخر. يستضيف كل أسبوع بروفيسور من كلية وايندوت ويحاوره في تخصُّصه. قبل ستة أشهر جهَّز ليو لبرنامج عن زميل صغير حالِمٍ لي في الكلية، دكتور فريد بوكمان. أوصلت فريد لمحطة الراديو، ودعاني للمجيء والمشاهدة. وفعلت لعدم وجود شيء أفضل أفعله.

فريد بوكمان في الثلاثين، لكنه يبدو في الثامنة عشرة. لم تترك عليه الحياة علامةً؛ لأنه لم يُلقِ لها بالًا. ما يُلقي له بالًا، وما أراد ليو هاريسون أن يستضيفه بشأنه، هو مظلَّته التي تَزِن ثمانين طنًّا التي يستمع بها للنجوم. إنها هوائيُّ راديو كبير مُثبَّت على حامل تليسكوب. ما يفعله بحسب فهمي هو أنه بدلًا من أن يراقب النجوم عبر التليسكوب، فهو يصوِّب شيئه إلى الفضاء ويلتقط موجات الراديو القادمة من الأجسام السماوية.

---

(1) Taoism، الديانة الفلسفية الدينة القائمة على التعايش في وئام مع الطبيعة. [المترجم]

بالطبـع لا يوجـد مَـن يديـرون محطـات راديـو في الفضـاء. كل مـا في الأمـر أن هنـاك العديـد مـن الأجسـام السـماوية يَنتُـج عنهـا كثـير مـن الطاقـة، وبعضهـا يقـع في نطـاق تـردُّدات الراديـو ويمكـن التقاطـه. إحـدى فوائـد جهـاز فريـد هـي تحديـد مواقـع النجـوم التـي يُخبِّئهـا عـن التلسـكوبات سـحابُ الغبـار الكـوني. تتجـاوز إشـارات الراديـو السـحابَ ويلتقطهـا هـوائيٌّ فريـد.

ليـس هـذا كل مـا تفعلـه مُعِـدَّات فريـد. احتفـظ ليـو هاريسـون في مقابلتـه مـع فريـد، بالجـزء الأكـثر إثـارة لنهايـة البرنامـج. قـال ليـو: "كـم أن هـذا مثـيرٌ للاهتـمام يـا دكتـور بوكـمان. أخـبِرني، هـل وصـل مذياعـك التليسـكوبي إلى أي شيء آخـر عـن الكـون لم تكشـفه التلسـكوبات الضوئيـة؟".

تلـك كانـت اللقطـة. قـال فريـد: نعـم، لقـد وجدنـا حـوالي خمسـين مكانًـا في الفضـاء، لا تخفيهـم غيـوم الغبـار الكـوني، وتتولَّـد منهـا موجـات راديـو قويـة، برغـم ذلـك لا يبـدو أن فيهـم أي أجسـام سـماوية".

قـال ليـو في مفاجـأة مُفتَعَلَـة: "حسـنًا، أعتقـد أن ذلـك شيء هـامٌّ. سـيداتي وسـادتي، لأول مـرة في تاريـخ الراديـو، نقـدِّم لكـم صـوت الفضـاء الغامـض لـد. بوكـمان". كانـوا قـد أنشـؤوا وصلـةً تربطهـم بهـوائي فريـد في الحـرم الجامعـي. أشـار ليـو إلى مهنـدس الصـوت ليشـغل الإشـارات القادمة مـن هنـاك. "سـيداتي سـادتي، إليكـم صـوت الـلا- شيء".

لم يكـن هنـاك الكثـير في الصـوت لتسـمعه، هسـيس متذبـذب، أقـرب إلى عجلـة هوائيـة تُـسرِّب مـن أي شيء آخـر. كان يفـترض أن يـدوم عـلى الهـواء لخمـس ثـوان. عندمـا أغلـق المهنـدس البَـثَّ، كنـتُ وفريـد نضحـك كالبُلَهـاء لسـببٍ يَتعـذَّر فهمـه. شـعرت بالراحـة والتنميـل. بـدا ليـو هاريسـون وكأنـه وقـع في غرفـة ملابـس بكوباكبانـا. نظـر إلى سـاعة السـتوديو مرتاعًـا. ظـلَّ الهسـيس أحـاديُّ النغمـة عـلى الهـواء لخمـس

دقائـق! إن لم تشـتبك ملابـس المهنـدس بالصُّدفـة في زِرِّ الإغـلاق، ربمـا كانـت لتسـتمر حتـى الآن.

ضحـك فريـد بعصبيَّـة، وحـاول ليـو تَذكُّـر نـصِّ الحلقـة. قـال: "هسـيس الـلا- مـكان، هـل هنـاك مَـن اقـترح اسـمًا لذلـك الخـواء الغريـب يـا دكتـور بوكمان؟".

قال فريد: "لا، في الوقت الحالي لا اسم له ولا تفسير".

لا زال الخَـواءُ مصـدر الإشـارة بـلا تفسـير، لكنـي اقترحـتُ عليهـم اسـمًا يبـدو أنـه سـيلتصق: "بوكـمان يوفوريـا". ربمـا لا نعلـم ماهيـة تلـك الأماكـن، لكننـا نعلـم تأثيرهـا؛ لـذا فالاسـم جيِّـد. بمـا أن اليوفوريـا تعنـي نوعًـا مـن البهجـة والرخـاء، فهـي عـلى الأرجـح أكـثر اسـم ملائـم.

* * *

بعد البرنامج، صارت عاطفة ثلاثتنا تجاه بعضنا أكثر من جيَّاشة.

قـال ليـو: "لا أذكـر وقتًـا كان فيـه تقديـم برنامـجٍ بتلـك المتعـة". رغـم أن الصـدق ليـس مـن نقـاط قوتـه، إلى أنـه عنـى ذلـك فعـلًا.

قـال فريـد بنظـرة حائـرة: "تلـك كانـت أكـثر تجربـة لـن تُنـسى في حيـاتي، مبهجـة إلى حَـدٍّ لا يُصـدَّق".

كنَّـا جميعًـا مُحرَجـين مـن المشـاعر التـي غمرتنـا، وافترقنـا مرتبكـين مُتعجِّلـين. هرعـتُ إلى بيتـي سـعيًا إلى مـشروب، فقـط لأتـورَّط في تجربـة أخـرى غـير مريحـة.

كان المنـزل هادئًـا، غَـدَوتُ فيـه مرَّتـين جيئـةً وذهابًـا قبـل أن أكتشـف أني لسـت وحيـدًا. زوجتـي سـوزان، وهـي امـرأة طيبـة مُحِبَّـة فخـورة بإطعامهـا أسرتهـا جيـدًا دون تأخـير، كانـت مُمـدَّدة عـلى الأريكـة، تحـدِّق

بعيون حالمة في السقف. قلتُ بتردُّد: "عزيزتي، لقد عُدتُ. إنه وقت العشاء".

قالت بصوتٍ قادم من مكان بعيد: "كان فريد بوكمان في الراديو اليوم "

"أعلم، كنتُ معه في الستوديو".

"كان وكأنه ليس من عالمنا"، تنهَّدت، "ببساطة ليس من عالمنا. صوت الفضاء... عندما وضعوا ذلك على الهواء، بدا كل شيء آخر عداه غير موجودٍ. منذ ذلك الحين وأنا مستلقية هنا، أحاول تجاوُزَ ما حدث".

قلت بينما أعضُّ على شفتي: "آها، حسنًا، أعتقد أني سأذهب لأجد إيدي". إيدي هو ابني ذو الأعوام العشرة، وقائد فريق بيسبول حَيِّنا الذي يبدو أنه لا يُهزَم.

قال صوت صغير قادم من الظلال: "وفِّر قوَّتَكَ يا بابا".

"أنت في البيت؟ ما الذي حدث؟ هل أُلغِيَت المباراة بسبب هجومٍ نوويٍّ أو ما شابه؟".

"لا، لعبنا ثمانية أشواط".

"هزمتموهم شرَّ هزيمة لدرجة أنهم لم يرغبوا في المتابعة؟".

"لا، بل كانوا جيِّدين. كُنَّا متعادلين، وكان لديهم لاعبون بالملعب ولاعبون بالخارج". كان يتحدَّث كما لو أنه يحكي حلمًا. قال بعيون مُتَّسِعة: "ثم بدا الجميع فجأة وكأننا فقدنا الاهتمام، هِمْنا على وجوهنا. عُدتُ إلى البيت ووجدت أمي مُتكوِّرة على نفسها هنا، فتمدَّدَت على الأرض".

سألت بغير تصديق: "لماذا؟".

قال إيدي بإخلاص: "عليَّ اللعنة إن كنتُ أعرف".

قالت أمه: "إيدي!".

قال إيدي: "عليَّ اللعنة إن كنتِ أنتِ أيضًا تعرفين يا ماما".

عليَّ اللعنة إن كان بوسع أي شخص التفسير، لكن كان لديَّ حَدسٌ مُلِحٌّ. اتَّصلت برقم فريد بوكمان.

"فريد، هل أزعجتك على العشاء؟".

قال فريد: "ليتك فَعَلتَ، لا توجد كسرة خبز في البيت. تركتُ ماريون تأخذ السيارة اليوم لتتمكَّن من التسوق. والآن هي تحاول إيجاد بقالة فاتحة".

"لم تستطع تشغيل السيارة، أليس كذلك؟".

قال فريد: "بالطبع فعلت، ووصلت إلى السوق. ثم شعرت بسعادة لدرجة أنها خرجت منه مُجدَّدًا"، بدا صوت فريد مكتئبًا، "أظنُّ من حقِّ المرأة أن تُغيِّر رأيها، لكن ما يؤلمني هو الكذب".

"ماريون كذَبَت؟ لا أصدق".

"حاوَلَت أن تقنعني أن الجميع خرجوا هائمين من السوق معها، حتى البائعون".

قلت: "فريد، عندي أخبارٌ لك، هل بوسعي المجيء بعد العشاء؟".

عندما وصلت إلى مزرعة فريد بوكمان، كان يُحدِّق مصعوقًا في الجريدة المسائية.

قال فريد: "المدينة كلها أصابها الخَبَل. رُكِنَت السَّيَّارات كلها على الرصيف بلا أي سبب، وكأن هناك سيارة مطافئ في الطريق. تقول الجريدة إن الناس سكتوا فجأة في منتصف الكلام وظلُّوا كذلك لخمس دقائق. مضى المئات في الشوارع بقمصان بلا أكمام برغم البرد،

يبتسـمون وكأنهـم في إعـلان معجـون أسـنان". ثـم هـزَّ الصحيفـة، "أهـذا مـا أَردتَ أن تُحدِّثنـي بشـأنه؟".

أومـأت، "حـدث كل هـذا عندمـا بـثَّ الراديـو الصـوت، وفكَّـرتُ أن ربمـا...".

قـال فريـد: "احتـمال أن يكـون هنـاك أيُّ (ربمـا) في الموضـوع هـو واحـد في المليـون. الوقـت متزامـن بالثانية".

"لكن أكثر الناس لم ينصتوا للبرنامج".

"لـو نظريَّتـي صحيحـة، فهـم لم يحتاجـوا أن يفعلـوا. لقد أخذنا إشـارات واهنـة مـن الفضـاء، كبَّرناهـا حـوالي ألـف مـرة، وأعدنـا بثَّهـا للنـاس. أي شـخص في نطـاق وصـول جهـاز الإرسـال سـتصيبه جرعـة مـن الإشـعاعات المُكـبَّرة، سـواء أراد ذلـك أو لم يـرد"، هـزَّ كتفيـه، "يشـبه الأمـر أن تمـشي بجـوار حقـل ماريجوانـا مشـتعل".

"كيف لم تشعر بذلك التأثير خلال عملك؟".

"لأني لم أُكـبِّر الإشـارات وأعيـد بَثَّهـا. مُحـوِّل محطـة الراديـو هـو مـا حشرهـا في أفواههـم".

"إذن ماذا ستفعل الآن؟".

بـدا فريـد مُتفاجِئًـا. "أفعـل؟ ومـا الـذي يمكـن فعلـه عـدا كتابـة ورقـة عـمَّا حـدث في دوريـة مناسـبة؟".

* * *

بـلا طرقـات مسـبقة، انفتـح البـاب الأمامـي بعنـف، ومنـه اندفـع ليـو هاريسـون، لاهثًـا مُتـورِّدًا، إلى الغرفـة، وخلـع معطفـه البولـو بتَبـاهٍ مصـارع ثـيران. سـأل مشـيراً إليَّ: "أنـت هنـا لتـشرح لـه أيضًـا؟".

رمش فريد تجاهه، "يشرح لي ماذا؟".

قال ليو: "الملايين، المليارات".

قال فريد: "رائع، ما الذي تتحدَّث عنه؟".

قال ليو: "الصوت القادم من النجوم! لقد أحبُّوه، أصاب الجميع بالجنون. أرأيت الصحف؟"، استفاق لوهلة، "كان الصوت هو السبب، أليس كذلك يا دوك؟".

قال فريد: "هذا ما نحسبه"، بدا قلقًا، "كيف تقترح بالضبط أن نضع أيادينا على الملايين أو المليارات؟".

قال ليو منتشيًا: "بالممتلكات العقارية! سألت نفسي: "ليو، كيف نتحصَّل على الأموال من هذه اللعبة طالما لا سبيل لاحتكار الكون؟" وسألت نفسي: "ليو، كيف نبيع هذه الأشياء في حين بوسع أي شخص الحصول عليها بلا مقابل إبَّان بَثِّها؟"".

اقترحت: "ربما ذلك من الأشياء التي لا ينبغي أن نتحصَّل على أموال منها، أعني أننا ما زلنا لا نعلم الكثير عن...".

قاطعني ليو: "هل السعادة شيء سيِّئ؟".

اعترفت: "لا".

"حسنًا، ما سنفعله الآن بتلك الأشياء من النجوم هو جعل الناس سعداء، أعتقد الآن أنك ستقول إن ذلك شيء سيِّئ".

قال فريد: "يحتاج الناس لأن يكونوا سعداء".

قال ليو بتعال: "حسنًا حسنًا. هذا ما سنقدِّمه للناس، والكيفية التي سيُظهر بها الناس امتنانهم لذلك، ستكون في العقارات"، نظر من النافذة، "جيِّد، الإسطبل، بوسعنا البدء من هناك. نبني جهاز إرسال في الإسطبل، ونمدُّ وصلة إلى الهوائي، هكذا صار بين يدينا تطويرٌ عقاري".

قـال فريـد: "آسـف، لا أفهمـك. لا يناسـب هـذا المـكان أي تطويـر. الطرقـات متداعيـة ولا توجـد مواصلات عامـة أو مراكـز تسـوُّق، والإطلالـة سـيئة والأرض مليئـة بالحجـارة".

نغـز ليـو فريـد عـدَّة مـرَّات بكوعـه، "دوك، دوك يـا دوك، لا شـكَّ أن للمـكان عيوبـه، لكـن بوضـع جهـاز الإرسـال في الإسـطبل بوسـعك منحهـم أكـثر الأشـياء قيمـة في تاريـخ الخلـق: السـعادة".

"يوفوريا هايتس".

قـال ليـو: "ممتـاز! تخيَّـل الاحتـمالات يـا دوك؛ أنـت جالس في الإسـطبل وبـين يديـك زِرٌّ، مـا أن يضـع مُشـتَرٍ مُحتَمَـل قدَمَـه في اليوفوريـا هايتـس، تهبـط عليـه بسـيول السـعادة... هـاك أمـرٌ لـن يبخـل عليـك أحدهـم بـشيء مقابلـه". مكتبة سُر مَن قرأ

قلت: "كل مكان يصلح، طالما لم تخذلنا الطاقة".

قـال ليـو وعيونـه تـبرق: "ثـم بعدمـا نبيـع كل حصـص الأرض هنـا، ننقـل جهـاز الإرسـال ونبـدأ مـشروع تطويـر آخـر. بـل ربمـا نبنـي أسـطولًا منهـم"، طرقـع بأصابعـه، "بالطبـع، سـنُرَكِّبهم عـلى عَجَـل".

قال فريد: "لا أظن الشُّرطة ستحبنا كثيراً".

"إذن عندمـا يأتـون للتحـرِّي، تضغـط عـلى زِرِّك وتصعقهـم بالسـعادة"، هـزَّ كتفيـه، "بـل ربمـا يتملَّكنـي الكـرم وأمنحهـم قطعـة الأرض في الزاويـة".

قـال فريـد بهـدوء: "لا. لـو حـدث يـومٌ وذهبـت إلى كنيسـة، لـن يكـون بوسـعي النظـر في وجـه كاهِنِهـا".

"قال ليو بإشراق: "أصعقه بالسعادة أيضًا".

قال فريد: "لا، آسف".

قال ليو بينما يمضي جيئة وذهابًا على الأرض: "حسنًا، كنتُ مُستعدًّا لهذا. لديَّ بديل آخر، بديل شرعيٌّ تمامًا. سنصنع مُكبِّرات صغيرة، بجهاز إرسال وإريال قصير. يفترض ألَّا يُكلِّفنا أكثر من خمسين دولارًا مثلًا، هكذا نستطيع تسعيره في متناول المواطن العادي، خمسمائة دولار مثلًا. ثم نتَّفِق مع شركة الهاتف على ضَخٍّ الإشارات من الهوائي عندك إلى بيوت الناس التي تملك الأجهزة. تأخذ الأجهزة الإشارة من خطوط الهاتف، تُكبِّرها وتبثُّها في البيوت، وتجعل الجميع سُعداءَ. أترى؟ بدلًا من تشغيل الراديو أو التليفزيون، سيَوَدُّ الجميع تشغيل أجهزة السعادة. بلا مُمثِّلين ولا ستوديوهات ولا كاميرات غالية، لا شيء عدا الهسيس".

اقترحت: "بوسعنا تسميتها هواتف اليوفوريا، أو باختصار: هيوفوريا".

قال ليو: "هذا رائع، رائع. ما رأيك يا دوك؟".

بدا فريد قَلِقًا: "لا أدري، هذه الأشياء ليست من اختصاصي".

قال فريد: "على كلٍّ مِنَّا أن يعترف بحدوده يا دوك. سأهتمُّ أنا بناحية إدارة الأعمال، وعليك أنت بالشؤون التقنية"، تحرَّكَ وكأنه سيرتدي معطفه، "أو ربما أنت لا تريد أن تكون مليونيراً؟".

قال فريد بسرعة: "أوه، لا بالطبع بالطبع أريد. بلا شك".

قال ليو نافضًا الغبار عن يديه: حسنًا، علينا أولًا أن نصنع أحد تلك الأجهزة لنختبرها هنا".

وكان هذا الجزء في نطاق اختصاص فريد، واستطعت رؤية أن الفكرة أثارت اهتمامه. قال: "إنه في الواقع جهازٌ بسيط، أعتقد أن بوسعي بناء واحد والشروع في تجربته الأسبوع القادم".

* * *

أول تجربـة لهواتـف اليوفوريـا، أو الهيوفوريـا، حدثـت في غرفـة معيشـة فريـد بوكـمان بعـد ظهـر يـوم الأحـد، بعـد خمسـة أيـام مـن البـث الإذاعـي الحِـسِّي لفريـد وليـو.

كان هنـاك سـتة فـئران تجـارب؛ ليـو وفريـد وزوجتـه ماريـون وأنـا وزوجتـي سـوزان وابنـي إيـدي.

رتَّـب آل بوكـمان المقاعـد في دائـرة حـول منضـدة ألعـاب ورق، عليهـا اسـتقرَّ صنـدوق رمـادي معـدني.

بـرز مـن الصنـدوق إريـال طويـل أشـبه بالسَّـوط يخـدش السـقف. وفيـما عبـث فريـد بالصنـدوق، انخـرط بقيَّتُنـا في محادثـات قصـيرة حـول الشـطائر وأقـداح البـيرة. إيـدي بالطبـع لم يـشرب البـيرة، رغـم أنـه كان في حاجـةٍ ماسَّـة إلى مـا يُهدِّئـه. كان مسـتاءً مـن أخـذه إلى مزرعـة بـدلًا مـن مبـاراة بيسـبول، وكان يُهـدِّد بتفريـغ حنقـه عـلى أثـاث آل بوكـمان الأمريـكي العتيـق. كان يلعـب مبـاراة مُفعَمَـة بالحيويـة مـع نفسـه بالقـرب مـن الأبـواب الزجاجيـة، مسـتخدمًا كـرة تنـس قديمـة ومحـرِّك جـذواتِ النـار المعـدني كمـضرب. قالـت سـوزان للمـرة العـاشرة: "إيـدي، أرجـوك توقَّـف".

قـال إيـدي باسـتياء، بينـما يـضرب الكـرة في الحائـط ويلتقطهـا بيـدٍ واحـدة: "كلـه تحـت السـيطرة، تحـت السـيطرة".

ماريـون، التـي تطلـق عنـان غريـزة أمومتهـا عـلى أثاثهـا المُعتنـى بـه جيـدًا، لم تسـتطع إخفـاء غيظهـا مـن تحويـل إيـدي المـكان إلى صالـة تماريـن. ليـو كان يحـاول تهدئتهـا بطريقتـه، قـال: "دعيـه يهـدُّ هـذه الخرابـة، سـتنتقلين إلى قـصر ذات يـوم".

قال فريد بنعومة: "جاهز".

نظرنــا إليــه بشــجاعة وأمعــاء مضطربــة. وصَّــل فريــد طــرفَيْ سِــلكٍ مــن خَــطِّ الهاتــف إلى الصنــدوق الرمــادي، وذلــك كان خَطًّــا مباشِرًا مــن الهــوائي في الجامعــة، حيــث الهــوائي مُثبَّــت عــلى أحــد الخــواءات الغامضــة في الســماء، التــي تبــثُّ أشــدَّ موجــات البوكــمان يوفوريــا. وأوصــل سِــلكًا خارجًــا مــن الصنــدوق إلى المقبــس الكهربــائي في الحائــط، وأراح أصبعــه عــلى الــزِّرِّ. "مُســتعدِّين؟".

جمَّدَني الخوف كالحجر، قلت: "لا تفعل يا فريد".

قــال ليــو: "شَــغِّلْه، شــغله. لــو لم يمتلــك بيــل جــراءة للاتصــال بأحدهــم، مــا كُنَّــا لنمتلــك الهاتــف اليــوم".

قــال فريــد مطمئنًّــا: "ســأقف هنــا بجــوار الــزِّرِّ، جاهــزًا لضغطــه إن حــدث مــا يســتدعي ذلــك".

كليك، ثم هسيس. اشتغلت اليوفوريا.

مــلأت الغرفــةَ تَنهِــدةٌ جماعيَّــة عميقــة. انزلــق مــن بــين يــدَيْ إيــدي مُحــرِّك الجــذوات، وتهــادى عــبر الغرفــة ببهــاء وكأنــه يرقــص الفالــس، وركــع بجــوار أمــه، وأراح رأســه في حِجرهــا. هــام فريــد مــن مكانــه وهــو يدنــدن، بأعــين نصــف مُغلَقــة.

ليــو هاريســون كان أوَّلَ مَــن تكلَّــم، متابعًــا مُحادَثَتَــه مــع ماريــون، ســأل بصــدق: "ومــن يأبــه للثَّراء المــادِّيِّ؟". دار مواجِهًــا ســوزان بحثًــا عــن تأييــد.

قالــت ســوزان وهــي تهــزُّ رأســها حالِمــةً: "آه آه"، ثــم وضعــت ذراعيهــا حــول ليــو وأخــذت تُقبِّلــه لخمــس دقائــق تقريبًــا.

قلت بينما أربت على ظهر سوزان: "تبدوان رائِعَيْن معًا يا أولاد".

قالت ماريون بإلحاح: "إيدي، أعتقد أن هناك كرة بيسبول حقيقية في خزانة الرَّدهة، كرة صلبة، ألن تكون أفضل من كرة التنس القديمة تلك؟".

لم يحرك إيدي طرفًا.

فريد كان لا يزال يخطو حول الغرفة، مبتسمًا، وقد صارت عيناه مُغلَقَتَيْن بالكامل. تعثَّر في سلك المصباح وانبطح على وجهه في رماد المدفأة. قال وأعينه لا تزال مُغلَقَة: "مساء الفل على الجميع، خبطت رأسي في دعامة المدفأة". وظلَّ هناك، يضحك بين الفينة والأخرى.

قالت سوزان: "جرس الباب يدقُّ منذ فترة، لا أعتقد أن ذلك يعني شيئًا".

صِحتُ: ادخُلْ، ادخُلْ". لسببٍ ما وجد الجميع هذا مُضحِكًا إلى أقصى درجة، فانفجرنا في قهقهة صاخبة، بما فينا فريد، الذي نفخت ضحكاتُه غيومًا صغيرة رمادية من قاع المدفأة.

* * *

سمح رجل ضئيل جادُّ المُحيَّا لنفسه بالدخول، وصار يقف في الرَّدهة ينظر إلينا باستغراب. قال بتردُّدٍ: "بائع اللبن". وأشار لماريون بقصاصة ورق، قال: "لا أستطيع قراءة السطر الأخير، ما الذي يقول عن الجبن القريش، قريش، قريش، قريش...". تداعى صوته فيما يجلس القرفصاء بجوار ماريون. بعدما ظلَّ صامِتًا حوالي ثلاثة أرباع الساعة، عبر وجهَه بعضُ الاهتمام، قال بلا تركيز: "لا أستطيع المكوث أكثر من دقيقة. تركت شاحنتي في عرض الطريق تعيق المرور"، بدأ في النهوض. أدار ليو مفتاح التكبير الهيوفوريا، فهوى بائع اللبن على الأرض.

قال الجميع: "آآآآه".

قال بائع اللبن: "من المفضَّل قضاء اليوم في الداخل، يقول الراديو إننا قد يصيبنا ذيل إعصار أتلانتك".

قلتُ: "دَعه يأتي، لقد ركَنتُ سيَّارتي تحت شجرة كبيرة ميِّتة". بدا ذلك وكأنه يعني شيئًا، ولم يعترض أحدٌ. سقطت في نوبات دافئة من الصمت، وسرحت في اللا- شيء. بَدَت لي هذه النوبات وكأنها تدوم لثوانٍ قبل أن يقطعها حديثُ الوافدين الجُدُد. بالتفكير في الأمر الآن، أعتقد أن كل نوبة لم تَقِلَّ عن ست ساعات.

أذكر أني أَفَقتُ من واحدة بسبب الدَّقِّ المُطوَّل لجرس الباب. تمتمتُ: "قلتُ ادخُلْ"، تمتم بائع اللبن: "وأنا دخلتُ".

تطوَّح باب الغرفة مفتوحًا، وحدَّق فينا شرطيٌّ. سأل آمِرًا: "مَن الذي ترك شاحنته تعيق الطريق بحقِّ الجحيم؟"، ولمح بائع اللبن، "آها! ألا تعلم أنك قد تتسبَّب في مقتل أحدهم؟ لو جاء شخصٌ مسرعًا من بقعة عمياء دون أن يرى..."، تثاءب، وتراخى تعبيره الغاضب إلى ابتسامة حنونة. قال: "احتمال حدوث ذلك ضئيل جدًّا، لا أعرف لماذا حتى ذكَرتُ الموضوع". وجلس بجوار إيدي. "يا فتى، هل تحبُّ المسدَّسات؟"، وأخرج مسدَّسه ذا الساقية الدَّوَّارة من غمده، "انظُرْ كم هو جميل؟".

أخذ إيدي المسدس وصوبه على تجميعة ماريون للزجاجات وأطلق النار. انفجرت زجاجة زرقاء كبيرة وتشظَّت النافذة خلفها. دخل تيار هواء بارد بصرير عبر الفتحة.

قالت ماريون ببشاشة: "سيصبح شرطيًّا رائعًا".

قلت: "ربَّاه، كم أنا سعيد"، شاعرًا برغبة في البكاء، "لديَّ أجمل ابنٍ في العالم، وأجمل صُحبَة أصدقاء، وأجمل زوجة في العالم". سمعت المسدس ينطلق مرتين، ثم سقطتُ في غفوةٍ سماويَّة.

مـرَّةً أخـرى أيقظنـي جـرس البـاب، قلـتُ: "كـم مـرَّة عـليَّ أن أقـول لكـم، ادخلـوا بحـقِّ السـماء"، دون أن أفتـح عينـيَّ.

قال بائع اللبن: "دَخَلتُ".

سـمعت خُطـى أقـدام عديـدة، لكـن لم ينتَبْنـي فضـولٌ بشـأنهم. بعـد قليـلٍ لاحَظـتُ أني أتنفَّـس بصعوبـة. أظهـرت التحقيقـات أني انزَلَقـتُ إلى الأرض، وفـوق صـدري وبطنـي عَسْـكَرَ عِـدَّةُ أولاد كشَّـافة. سـألت الكشَّـافَ الصغـير الـذي كان تَنَفُّسـه السـاخن المنتظـم فـوق وجهـي: "أتريـد شـيئًا؟".

قال: "دورية القنادس تريد الجرائد القديمة، لكن انسَ الأمر".

"وهل تعلم أُسَرُكم أين أنتم؟".

"نعـم بالطبـع، قلقـوا علينـا فجـاؤوا بحثًـا عنَّـا"، وأشـار بإبهامـه إلى عـدَّة أزواج مُصطَفِّـين بجـوار الحائـط، مبتسـمين في مواجهـة الريـح والمطـر اللذيـن يضربـان وجوههـم عـبر النافـذة المكسـورة.

قال إيدي: "أنا جائع نوعًا".

قالـت سـوزان: "أوه يـا إيـدي، أنـت لـن تجعـل أُمَّـكَ تقـوم لتطبـخ بينـما هـي تحظـى بوقـت طيِّـب مثـل الآن".

أدار ليـو هاريسـون مفتـاح تكبـير الهيوفوريـا مـرَّةً أخـرى. "هـاك يـا فتـى، كيـف حالُـكَ الآن؟".

قال الجميع: "آآآآآه".

عندمـا حَـلَّ الوعـي محـلَّ الغفلـة مُجـدَّدًا، تحسَّـستُ بحثًـا عـن دوريـة القنـادس، ولم أجدهـم. فتحـت عينـيَّ فرأيتهـم وإيـدي وبائـع اللـبن وليـو والشرطـي، يقفـون أمـام النافـذة، يُهلِّلـون. الريـح في الخـارج كانـت تـزأر وتعـوي، وتدفـع بقطـرات المطـر عـبر النافـذة المكسـورة وكأنهـا طلقـات بندقيـة. هَـزَزتُ سـوزان برفـقٍ، ومعًـا ذهبنـا إلى النافـذة لـنرى مـا المسـلِّي لهـذه الدرجـة.

صاح بائع اللبن بسعادة: "ها هي تقع، ها هي تقع".

* * *

شارَكتُ أنا وسوزان المتابعين المُهلِّلين في الوقت المناسب لرؤية شجرة دردار تقع على سيارتنا السيدان.

قالت سوزان: "كرررانش!"، فضحكتُ حتى تألَّمَت بطني.

قال ليو: "أحضِرْ فريد، سيَودُّ رؤية الاسطبل ينهار!".

قال فريد من المدفأة: "همم؟".

قالت ماريون: "أوه يا فريد، نفتقدك".

صاح إيدي: "الآن سنرى شيئًا أخيرًا، سينقطع خطُّ الكهرباء هذه المرة، انظروا كيف تميل تلك الشجرة!".

مالت الشجرة أكثر وأكثر تجاه خطِّ الكهرباء، ثم ألقتها العاصفة لتشتبك مع غابة الأسلاك ويهطل منهم سيلٌ من الشَّرَر. وداخل المنزل انطفأت الأضواء.

لم يَعُد الآن من صوتٍ عدا الريح. قال ليو بوهن: "أين التهليل يا جماعة؟".

"الهيوفوريا... لم تَعُد تعمل".

من المدفأة جاء أنين مُريع: "ربَّاه، أظنُّني أُصِبتُ بارتجاج".

ركعت ماريون جوار زوجها وانتحبت: "حبيبي المسكين، ماذا حدث لك؟".

نظرت إلى المرأة التي كانت ذراعاي حولها؛ عجوز قبيحة مُقرِفة، بأعيُن غائرة في أعماق رأسها، ولها شعرُ ميدوزا. قلتُ: "يَعْ"، وابتعدتُ مُشمئِزًّا. بَكَت الساحرة وقالت: "عزيزي، إنه أنا، سوزان". ملأ الأنين

المكان، ونداءات باكية على الأكل والماء. وفجأة شعرتُ أن الغرفة بارِدَة إلى أقصى حَدٍّ، مع أني قبل لحظات تخيَّلتُ أننا في الجُزُر الاستوائية. قال الشرطي واجمًا: "مَن أخذ مُسدَّسي اللعين؟". في الرُّكن جلس صبيٌّ من ويسترن يونيون لم ألاحظه من قبل، يقلِّب بأسًى في كومةٍ من البرقيَّات، وتصدر عنه أصوات قرقرة.

ارتجفت. قُلتُ: "أراهن أننا في صباح الأحد، مرَّ علينا اثنتا عشرة ساعة!".

كنَّا في صباح الاثنين.

بدا صبيُّ ويسترن يونيون مصعوقًا: "صباح الأحد؟ أنا دخلت هنا في مساء الأحد"، وحدَّق في أرجاء الغرفة، "تبدون مثل صُوَر أخبار معسكر اعتقال بوخنفالد".

زعيم دورية القنادس، بطاقة اليافعين التي لا تنضب، كان بطلَ الموقف. قَسَّم رجاله إلى فِرَق، وخطب فيهم مثل رقيبٍ أوَّل في الجيش. وفيما استلقى بقيَّتُنا مُنهَكين حول الغرفة، مُتذمِّرين من الجوع والبرد والعطش، أشعَلَت الدوريَّةُ الفُرنَ مُجدَّدًا، وأحضروا بطاطين، وأجروا الإسعافات الأولية لرأس فريد وجروحه المتعدِّدة، وسدُّوا النافذة المكسورة، وصنعوا دِلاءً من الشكولاتة والقهوة.

* * *

خلال ساعتين من انقطاع الطاقة وانطفاء الهيوفوريا، صار البيت دافئًا وبطوننا ممتلئة. إصابات التنفُّس الحادَّة -الوالدان اللذان جلسا بالقرب من النافذة المكسورة أربعًا وعشرين ساعة- نفخناهم بالبِنسلين وأرسلناهم إلى المستشفى. رفض فتى ويسترن يونيون والشرطي وبائع اللبن العلاج وعادوا إلى بيوتهم. دورية القنادس ألقوا التحية وغادروا. في الخارج كان رجال الصيانة يعملون على تصليح خطِّ الكهرباء. ولم

تَبـقَ إلَّا المجموعـة الأصليـة: ليـو وفريـد وماريـون وسـوزان وأنـا وإيـدي. وفريـد اتَّضـح أنـه مُصـابٌ بكدمـات وسـحجات عميقـة، لكـن لا ارتجـاج.

غرقـت سـوزان في النـوم بعدمـا أكَلَـت، ثـم قامـت مضطربـة. "مـا الـذي حـدث؟".

قلـت لهـا: "سـعادة... سـعادة مُسـتمرَّة لا مثيـل لهـا، سـعادة تقـاس بالكيلـوواتْ".

ليـو هاريسـون، الـذي صـار يبـدو كالأناركيِّـين بعيونـه الحمـراء ولحيتـه السـوداء المشـعثة، كان يكتـب بجنـون في ركـن الغرفـة. قـال: "هـذا رائـع، السـعادة بالكيلـوواتْ، اشـترِ السـعادة كـما تشـتري النـور".

قال فريد: "سعادة مُعدِيَة كما الإنفلونزا"، ثم عطس.

تجاهَلَـه ليـو. "أتـرى؟ إنهـا حملـة، أولهـا إعـلانٌ مُوجَّـه للمُثقَّفـين: "بثمـن كتـاب قـد يخيـب أملـك، يمكنـك شراء سِـتِّين سـاعة مـن الهيوفوريـا، الهيوفوريـا لا تخيـب". ثـم إعـلان يـضرب الطبقـة المتوسِّـطة...".

قال فريد: "تحت الحزام؟".

قال ليو: "ماذا بكم يا جماعة؟ تتصرَّفون وكأن التجربة فشلت".

قالـت ماريـون: "إذن أنـت كنـت تنتظـر الالتهـاب الرئـويَّ وسـوء التغذيـة؟".

قـال ليـو: "كان لدينـا عيِّنـة مـن أمريـكا كلهـا هنـا، وجعلناهـم جميعًـا سـعداء، ليـس فقـط لسـاعة، ليـس فقـط ليـومٍ، بـل ليومـين كاملـين بـلا انقطـاع"، قـام بجَـلالٍ مـن مقعـده، "إذن مـا سـنفعله لنحمـي مُحبِّـي الهيوفوريـا مـن المـوت بسـببها، هـو جعـل شيء مـا يشـغلها ويُطفِئُهـا بتوقيـت مُسـبَق. يضبطـه المالِـك ليشـغلها مـا إن يعـود إلى البيـت مـن عملـه، ثـم يطفئهـا عندمـا يتنـاول العشـاء، ثـم يُشـغِّلها مُجـدَّدًا بعـد

العشـاء، ويطفئهـا سـاعة النـوم، ويشـغلها بعـد الإفطـار، ويغلقهـا عندمـا يحـين وقـت العمـل، ثـم مُجـدَّدًا لأجـل الزوجـة والأولاد".

مـرَّر يـده بـين خصلات شـعره ودارت عينـاه. "ونقـاط قـوة التسـويق، يـا ربي عـلى قـوة التسـويق! لا حاجـة لألعـاب غاليـة للأطفـال. بسـعر زيارة للسـينما، بوسـعك شراء ثلاثـين سـاعة مـن الهيوفوريـا. بسـعر خامـس كأس ويسـكي، بوسـعك شراء سـتين سـاعة مـن الهيوفوريـا".

قال فريد: "أو زجاجة بوتاسيوم السيانيد بالحجم العائلي".

قـال ليـو وهـو لا يـكاد يصـدِّق: "ألا تـرون ذلـك؟ سـتعيد العائـلات إلى بعضهـم، سـتنقذ البيـت الأمريـكي. لا مزيـد مـن الشـجار حـول أي برنامـج راديـو أو تليفزيـون نسـتمع إليـه أو نشـاهده. الهيوفوريـا تُسـعِد الواحـد والجميـع، لقـد أثبتنـا ذلـك. ولا يوجـد برنامـج هيوفوريـا مُمِـلٌّ".

قاطَعَتــه طَرقــاتٌ عــلى البــاب. بــرز رأسُ رجــل الصيانــة ليُعلِــن أن الطاقــة ســتعود بعــد دقيقتــين.

قــال فريــد: "انظُــر يــا ليــو، ذلــك الوحــش الصغــير قــادِرٌ عــلى قتــل الحضــارة في وقــتٍ أقــلَّ مــن الــذي احتاجتــه النــيران لتحــرق رومــا. لــن نعمــل في مجــال تخديــر العقــول، وهــذا آخــر كلامــي".

قـال ليـو مذعـورًا: "أنـت تمـزح!"، اسـتدار ليواجـه ماريـون: "ألا تريديـن أن يصبـح زوجـك مليونـيرًا؟".

قالــت ماريــون بــبرود: "ليــس عــبر إدارة غُــرزَة تَعاطــي أفيــون إليكترونيــة".

ضرب ليــو جبينــه براحتــه. "هــذا مــا يرغــب فيــه الجمهــور. تبــدو وكأنــك لويــس باســتور يرفــض بَسْــتَرَةَ اللــبن".

قالــت ماريــون لتُغــيِّر الموضــوع: "يســعدني أن تعــود الكهربــاء، لتعمــل الأضــواء وســخَّان الميــاه والمضخَّــة و... يــا إلهــي!".

أُضيئت الأنوار في تلك اللحظة، لكني وفريد كُنّا بالفعل في الهواء نطير تجاه الصندوق الرمادي. وقعنا عليه معًا. التوى السلك وانتزع القابس من المقبس بالحائط. توهَّجَت أنابيب الهيوفوريا بالأحمر لثانية، ثم ماتت.

بلا تعبير، أخرج فريد مفكًّا من جيبه وفَكَّ به غطاء الصندوق. قال: "هل تمانع قتل التَّقدُّم؟"، وقدَّم لي مُحرِّك الجذوات الذي أوقعه إيدي من قبل.

محمومًا طعَنتُ زجاج الهيوفوريا وحطَّمتُ مُوَصِّلاته الحيوية. وبِيَدِي اليسرى وبمساعدة فريد، منعتُ ليو من إلقاء نفسه بين مُحرِّك الجذوات والصندوق الرمادي.

قال ليو: "حسبتك في صَفِّي".

قلتُ: "إن نطقتَ بكلمة عن الهيوفوريا لأيِّ شخص، سأكون سعيدًا بأن أفعل بك ما فعلته بها".

* * *

هكذا سيداتي سادتي أعضاء لجنة الاتصالات الفيدرالية، حسبتُ أن المسألة انتهت حينها. كان يجب أن تنتهي حينها. لكن الآن، بفضل فَمِ ليو هاريسون الكبير، تسرَّبَت الأنباء. فقد تقدَّم للحصول على براءة اختراعٍ وإذنٍ للبدء في الاستغلال التجاري للهيوفوريا. وبنى هو وداعموه راديو تليسكوبيًّا خاصًّا بهم.

دعوني أَقُل لكم مُجدَّدًا إن كل مزاعم ليو حقيقية. الهيوفوريا تفعل كل ما يقول إنها تفعله. السعادة التي تمنحها كامِلَة لا تَفتُر في وجه المِحَن. المشاكل قريبة المدى، مثل تلك التي واجهناها في التجربة الأولى، يمكن بلا شكٍّ تجنُّبها بتثبيت مُؤقِّت يُشغِّلها ويُطفئها. وأرى أن الهيوفوريا على المائدة أمامكم مُزوَّدة بمؤقِّت في الواقع.

السؤال ليس إن كان الهيوفوريا تعمل، هو كذلك. بل هو بالأحرى هل أمريكا مُستعدَّة للدخول في حقبة تاريخية ضاغطة جديدة، لا يطارد فيها الرَّجلُ السعادةَ، بل يشتريها. هذا ليس الوقت المناسب لتصبح الغفلة هي الموضة الوطنية الجديدة. الفائدة الوحيدة التي يمكن أن نجدها في هاتف اليوفوريا هي إن كان بوسعنا إسقاط وابل من راحة البال على رؤوس أعدائنا بينما نحمي أهلنا منها.

ختامًا، أوَدُّ الإشارة إلى أن ليو هاريسون، قيصر العالم المنتظر للهيوفوريا، شخص عديم الضمير، لا يستحقُّ الثقة العامَّة. لن يدهشني إن كان قد تلاعب بمؤقِّت جهاز الهيوفوريا حتى تستطيع الإشعاعات التأثير على حُكمِكم فيما تحاولون أخذ قراركم. في الواقع ثمة طنينٌ مُريبٌ الآن، وأنا سعيدٌ حتى أكاد أبكي. لديَّ أجمل ابن في العالم، وأجمل صُحبَة أصدقاء، وأجمل زوجة في العالم. وليو هاريسون الجميل هو مِلحُ هذا الأرض، صدِّقوني. أنا أتمنَّى من أعماق قلبي خالِصَ الحَظِّ السعيد له ولمؤسَّسَتِه الجديدة.

(1951)

عُدْ إلى زَوجَتِكَ وابنِكَ الغالِيَيْن

جلوريا هيلتون وزوجها الخامس لم يعيشا في نيو هامبشير كثيرًا، لكنهما فعَلًا بما يكفي لأبيع لهم إطار حوض استحمام. مجالي الرئيسي هو نوافذ الرياح الألومنيوم والستائر، لكن أي شخص يعمل في نوافذ الرياح يعمل تلقائيًّا في إطارات أحواض الاستحمام أيضًا.

الإطار المطلوب كان لحوض استحمام جلوريا هيلتون الشخصي. أعتقد أن ذلك كان ذروةَ مشواري الوظيفي. بعض الرجال يُطلب منهم بناء سدود هائِلَة أو ناطحات سحاب نبيلة أو هزيمة أوبئة فتَّاكة أو قيادة جيوش عظيمة في المعركة.

وأنا؟

طُلب مني الحفاظ على أشهر جسد في العالم من هَبَّات الهواء.

* * *

يسـألني النـاس إلى أي مـدى عرفـت جلوريـا هيلتـون. أجيـب عـادةً: "المـرة الوحيـدة التـي رأيتهـا فيهـا بشـحمها ولحمهـا، كانـت عـبر منفـذ تدفئـة". وكانـت تلـك طريقـة تدفئـة الحـمَّام الـذي أردوا تركيـب إطـار حـوض الاسـتحمام فيـه؛ بمنفـذ تدفئـة في الأرضيـة. لم يكـن المنفـذ مُتَّصِـلًا بالسَّـخَّان، بـل كان فقـط يمتـصُّ الحـرارة مـن سـقف الغرفـة أسـفله. لا عجـب إذن أن جلوريـا هيلتـون تعتـبر حمامهـا بـاردًا.

كنـتُ أُركِّـب الإطـار عندمـا سـمعت جلبـة حديـثٍ مُتصاعِـد قادمـة مـن المنفـذ. كنـتُ في مرحلـة مُعقَّـدة، ألصـق الحشـية المطاطيـة حـول حافـة الحـوض بإسـمنت لاصِـق؛ لـذا لم أتمكَّـن مـن غلـق المنفـذ. اضطـررت لسـماع مـا ليـس مـن شـأني، سـواء أردتُ ذلـك أو لم أُرِد.

قالـت جلوريـا هيلتـون لزوجهـا الخامـس: "لا تُكلِّمنـي عـن الحـب، أنـت لا تعـرف شـيئًا عـن الحـب، لا تعـرف معنـى الحـب".

لم أكـن قـد نظـرتُ عـبر المنفـذ بعـد، هكـذا كان الوجـه الوحيـد الـذي ربطتـه بالصـوت هـو وجههـا في الأفـلام.

قال زوجها الخامس: "ربما أنت مُحِقَّة".

قالت: "أقسم بشرفي أني مُحِقَّة".

قـال: "حسـنًا، هـذا بـلا شَـكٍّ يضـع نهايـةً قاطِعـةً للنقـاش كلـه. كيـف يتسـنَّى لي مجادلـة قَسَـمٍ مُقـدَّس بـشرف جلوريـا هيلتـون؟".

أمَّـا هـذا فكنـت أعـرف كيـف يبـدو. كان الشـخص الـذي قـام بـكل التفـاوض المطلـوب لإطـار الحـوض. كنـتُ قـد بِعـتُ لـه أيضًـا نافِـذَتَيْ ريـاح مـن نـوع فليتـوود تريـب- إل- تـراك لنافـذتَيْ الحـمَّام. لذلـك النـوع ميـزة سـتارة التخزيـن الـذاتي. طـوال عمليـة التفـاوض كان يشـير إلى زوجته كــ "مِـس هيلتـون"، مِـس هيلتـون تريـد هـذا، مِـس هيلتـون تريـد ذاك.

كان في الخامسة والثلاثين فقط من عمره، لكن الدوائر تحت عينيه جعلته يبدو في الستين.

قالت له جلوريا هيلتون: "أنا أشفق عليك، أشفق على أي شخص لا يستطيع الحب. أكثر نوع من الناس مثير للشفقة".

قال: "كلَّما تحدَّثتِ أكثر، كلَّما اقتَنَعتُ أكثر أني واحِدٌ منهم".

كان كاتبًا بالطبع. تحتفظ زوجتي في رأسها بشتَّى أنواع النميمة الهوليودية. أخبرتني أن جلوريا هيلتون كانت متزوِّجةً بشرطيٍّ جوَّال، ثم بزير نساء مليونير، ثم بشخص ما لعب دور طرزان، ثم بوكيلها، ثم بالكاتب. الشخص الذي عرفته كان چورچ مورا، الكاتب.

قالت جلوريا: "يتساءل الناس دومًا عن خَطبِ هذا العالم. أنا أعلم ما خَطبُه، ببساطةٍ أغلَبُ الرجال لا يعلمون معنى كلمة الحب".

قال مورا: "على الأقل اعترفي بمحاولتي لمعرفة معناه. لسنةٍ كاملة لم أفعل شيئًا واحدًا وحيدًا عدا طلب إطار حوض استحمام ومحاولة معرفة معنى الحب".

قالت: "أعتقد أنك ستلومني على ذلك أيضًا".

قال: "على ماذا؟".

قالت: "على حقيقة أنك لم تكتب كلمة منذ تزوَّجنا، أعتقد أن ذلك أيضًا خطئي".

قال: "أظنُّني لستُ بتلك الضَّحالَة. أعلم المصادفة العاديَّة الصَّريحة عندما أراها. شجاراتنا كلَّ ليلة، المصوِّرون والصحفيُّون ومَن يَدَّعون أنهم أصدقاء، الذين نستقبلهم كل يوم- ليس لهم شأن بحقيقة أنني ذَوَيتُ".

قالت: "أنت من أولئك الذين يستعذبون المعاناة".

قال: "اختيار مُوفَّق للكلمات".

قالت: "سأقولها لك بصراحة، خاب أملي فيك".

قال: "كنتُ أعرف أنَّكِ ستقولينها عاجلًا أم آجلًا".

قالت: "بل وربَّما أقول لك أيضًا، إنني قَرَّرتُ إنهاء هذه المسرحية".

قال: "لطيفٌ مِنكِ أن تجعليني من أوائل مَن يعرفون. هل أبلغ لويلا بارسونز أم أن ذلك تمَّ بالفعل؟".

أنهيتُ لَصقَ الحشية بحافة الحوض، وصار بوسعي غلق المنفذ. نظرتُ عبر شبكته مباشرة، وهناك كانت جلوريا هيلتون. شعرها ملفوفٌ في بَكرات، وبلا أي مساحيق تجميل، ولم تبذل حتى مجهود لرسم حاجِبَيْها، وترتدي قميصًا تحتيًّا من نوعٍ ما تحت روب حمَّام مفتوحٍ على مصراعيه. أقسم أن هذه المرأة لم تكن أجملَ من كنبة الستوديو.

قالت: "لا أجد كلامك مُضحِكًا".

قال: "كُنتِ تعلمين أني كاتبٌ جادٌّ عندما تزوَّجتِني".

نهَضَت، فرَدَت ذراعيها على أقصى اتِّساع لهما مثل موسى يخبر اليهود أن الأرض الموعودة على مرمى جبل من هنا، قالت: "عُد إلى زوجتك الغالية وابنك الغالي، لن أقف في طريقك".

أغلَقتُ المنفَذَ.

* * *

بعد خمس دقائق، صعد مورا إلى الطابق العلوي وأخبرني أن أذهب، قال: "مِس هيلتون تريد استخدام حمَّامها". لم أَرَ على وجه رَجُلٍ تعبيراً أغرب من قبل؛ وجهه كان أحمرَ بالكامل، وفي عيونه دموع، غير أن كانت هناك ضحكة مجنونة تُمزِّقه إربًا تحاول الخروج.

قلت: "لم أنتَهِ بعدُ".

قال: "مِس هيلتون انتهت بالكامل. اذهَبْ".

هكـذا خرَجـتُ إلى شـاحنتي وقُدتُهـا إلى المدينـة، وتناوَلـتُ قهـوةً. بـاب إطـار الحـوض كان عـلى رفٍّ خشـبيٍّ في مؤخِّـرة شـاحنتي، مكشـوفًا، ولا شـكَّ أنـه جـذب انتبـاه الكثـير.

أكـثر النـاس، عندمـا يطلبـون بـاب الإطـار، لا يريـدون عليـه شـيئًا، إلا ربمـا طائـر فلامينجـو أو حصـان بحـر. المصنـع الموجـود في لوارنـس بماساتشوسـتس، مُجهَّـز لسـفع فلامينجـو أو حصـان بحـر بالرمـل عـلى البـاب مقابـل سِـتِّ دولارات زيـادة فقـط. لكـن جلوريـا هيلتـون أرادت حـرف (G) كبـيراً بعـرض قدَمَـيْن، وفي منتصفـه أرادت وَضـعَ رأسـها بالحجـم الطبيعـي. والعينـان في الـرأس يجـب أن تكونـا عـلى ارتفـاع خمـس أقـدامٍ وبوصتـين بالضبـط مـن قـاع الحـوض؛ لأن هـذا هو ارتفـاع عيونهـا الحقيقي عندمـا تقـف حافِيَـةَ القدمـين في المغطـس. طلبهـا جعلهـم يشـدُّون شـعورهم في لورانـس.

كان السَّـبَّاك هـاري كروكـر أحـدَ الأشـخاص الذيـن أتنـاول القهـوة معهـم. قـال لي: "أتمنـى أنـك لم تُفـوِّت فرصـة الإصرار عـلى قياسـها بنفسـك، حتـى تكـون القياسـات تامَّـة الدِّقَّـة".

قلت: "هذا ما فعله زوجها".

قال: "البعض ينالون كلَّ حَظِّ العالَم".

ذهبـتُ لهاتِـفٍ عمومـيٍّ، واتَّصلـتُ ببيـت آل مـورا لأرى إن كانـت العـودة لإنهـاء عمـلي مُتاحـة. كان الخَـطُّ مشـغولًا.

عندمـا عُـدتُ إلى قهـوتي، قـال لي هـاري كروكـر: "لقـد فَـوَّتَّ عـلى نفسـك شـيئًا لا أظـنُّ أن هنـاك مَـن سـيراه في هـذه المدينـة مـرة أخـرى".

قلت: "وما هو؟".

قال: "جلوريا هيلتون وخادمتها، تعبران المدينة بسرعة مائتي ميل في الساعة".

قلت: "في أيٍّ اتجاه؟".

قال: "غربًا".

* * *

هكذا حاوَلتُ الاتصال بموورا مُجدَّدًا. خمَّنتُ أن ما دامت جلوريا هيلتون قد ذهبت، فكل المكالمات الكبيرة انتهت. لكن الهاتف ظلَّ مشغولًا لساعة. فكَّرتُ أن ربما انتزع أحدهم الهاتف من جذوره، لكنَّ عامِلَةَ الهاتف قالت لي إنه يعمل بكفاءة.

قلت لها: "حاولي مُجدَّدًا"، وهذه المرة وصلت.

أجاب مورا على الهاتف. كل ما قُلتُه له كان "مرحبًا"، تحمَّس بعدها للغاية. لم يتحمَّس لرغبته في إنهاء تركيب إطار الحوض، بل كان كذلك لأنه حسبني شخصًا اسمه چون.

قال لي: "چون، چون، حمدًا لله أنَّكَ اتَّصلتَ".

تابع: "چون، أعلم رأيك فيَّ، ولا ألومك عليه، لكن أرجوك اسمع ما عندي قبل أن تقطع الخطَّ. إنها تركتني يا چون، انتهى ذلك الجزء من حياتي... انتهى! والآن إصلاح ما دمَّرته يا چون. إن كان في قلبك رحمة فعليك أن تأتي إلى هنا يا چون. أرجوك، أرجوك يا چون".

قلتُ: "مستر مورا...؟".

قال: "نعم؟"، من الكيفية التي تراجع فيها صوتُه من الهاتف، أعتقد أنه حسبني دخلت الغرفة لتوِّي.

قلت: "إنه أنا يا مستر مورا".

قال: "أنت مَن؟".

قلت: "رَجُل إطارات الأحواض".

قال: "كنتُ في انتظار مكالمة هامَّة من مكان بعيد، أرجوك اخرُج عن الخَطِّ".

قلت: "أستمحيك العذر، أنا فقط أودُّ أن أعرف متى تريدني أن أنهي عملي بالأعلى؟".

قال: "لن تفعل أبدًا، انسَهُ، ليذهب إلى الجحيم".

قلت: "مستر مورا، لا أستطيع إعادة الباب إلى المصنع".

قال: "أرسل لي الفاتورة، سأترك لك الباب هدية".

قلت: "كما تحب. وهناك أيضًا نافذتان فليتوود تريب- إل- تراك".

قال: "ارمِهما في القمامة".

قلت: "مستر مورا، أعتقد أنك مستاء من شيء ما...".

قال: "يا ربي، يا لك من ذكيٍّ!".

قلتُ: "ربما التَّخلُّص من الباب أمرٌ منطقيٌّ، لكن نوافذ الرياح لا تؤذي أحدًا. لماذا لا تدعني آتي لتركيبهم؟ لن تلاحظ حتى وجودي".

قال: "حسنًا حسنًا حسنًا"، وأغلق الخط.

* * *

نوافذ الفليتوود تريب- إل- تراك هي خَطُّ دفاعنا الأول؛ لذا لا توجد طريقة سريعة متلاعبة للتساهُل في تركيبها. نُركِّب الحشية في أطرافها بالضبط مثلما فعلنا مع إطار حوض الاستحمام. هكذا اضطررت للوقوف فترةً غير قصيرة في بيت آل مورا، منتظرًا أن يجفَّ اللاصق. بوسعك في الواقع ملء غرفةٍ نوافِذُها فليتوود بالمياه حتى السقف، ولن تُسرِّبَ نُقطةً، أو على الأقل ليس عبر النوافذ.

فيـما كنـت أنتظـر جفـاف اللاصـق، جـاء مـورا وسـألني إن كنـتُ أرغـب في مشروب.

قلت: "اعذُرني؟".

قال: "أم أنتم يا رجال النوافذ والإطارات لا تشربون أثناء الخدمة؟".

قلت: "هذا يحدث في التليفزيون فقط".

وأخـذني إلى المطبـخ، حيـث أخـرج زجاجـة وثلجًـا وكوبـين. قلـت: "هـذا لطـف منـك".

قـال: "ربمـا أنـا لا أعـرف مـا هـو الحـب، لكنِّـي، بحَـقِّ الـرَّبِّ، ما سَـكِرتُ وحـدي قَطُّ".

قلت: "أهذا ما تنوي فِعلَه؟".

قال: "إلا لو كان لديك اقتراح آخر".

قلت: "دعني أفكِّر دقيقة".

قـال: "هـذا خطـأ، بهـذه الطريقـة يفوتـك مـن الحيـاة الكثـير. هـذا سـبب برودتكـم الشـديدة أيهـا اليانكيُّـون"، وتابَـع، "تُفكِّـرون أكـثر مـن الـلازم، هـذا سـبب نُـدرَة زواجكـم".

قلت: "يرجع ذلك جزئيًّا لقِلَّة المال".

قـال: "لا لا، الأمـر أعمـق مـن هـذا. أنتـم، أهـل هـذه الأنحـاء، لا تقبضـون عـلى الشـوكة بقـوة". واضطـرَّ لأن يـشرح لي كيـف أن الشـوكة لـن تَخِـزَكَ إن شَـدَدتَها بإحـكام وسرعـة.

قلت: "لا أصدِّق ذلك عن الشَّوك".

قال: "هذا هو التحفُّظ المُتوقَّع من أهل نيو إنجلند".

قلت: "أفهم من هذا أنك لستَ من هنا".

قال: "للأسف لستُ كذلك". أخبرني أنه من لوس أنجلس.

قلت: "أظنُّ ذلك لطيفًا أيضًا".

قال: "الناس هناك كلهم مزيَّفون".

قلت: "لا أعرف عن هذا".

قـال: "هـذا هـو سـبب اختيارنـا للإقامـة هنـا. مثلـما قالـت زوجتـي -زوجتـي الثانيـة بالمناسـبة- للمراسـلين في زفافنـا: سـنبتعد عـن كل المزيَّفين، سـنعيش حيـث النـاس حقيقيُّـون، سـنعيش في نيـو هامبشـير. سـنبحث أنـا وزوجـي عـن أنفسـنا. سـيكتب ويكتـب ويكتـب، سـيكتب أجمـل سـيناريو كتبـه إنسـان في تاريـخ الأدب، مـن أجـلي".

قلت: "هذا لطيف".

قال: "ألم تقرأ ذلك في الصحف والمجلات؟".

قلـت: "لا. كنـت عـلى علاقـة بفتـاة مشـتَرِكَة في مجلـة فيلـم فـان، لكـن ذلـك كان منـذ زمـن بعيـد. ليـس عنـدي أي فكـرة عـمَّا صـار لهـا".

في مـكانٍ مـا مـن تلـك المحادثـة، تَبَخَّـر خُمـس جالـون مـن زجاجـة البوربـون، أو سُرِق، أو كان لسـببٍ مـا يختفـي بسرعـة.

ولم تَسـنَح لي فرصـة تصحيـح مسـار المحادثـة؛ لأن في مـكانٍ مـا منهـا، أخـبرني أنـه تـزوَّج عندمـا كان في الثامنـة عـشرة فقـط، وأخـبرني مـن هـو چـون الـذي حسـبني إيَّـاه عـلى الهاتـف.

الحديـث عـن چـون يـؤلم مـورا كثـيراً. قـال: "چـون هـو ابنـي الوحيد، في الخامسـة عـشرة مـن عمـره"، وأظلـم وجهـه، وأشـار إلى الجنـوب الشرقـي، "لا يبعـد أكـثر مـن 22 ميـلًا مـن هنـا. قريـب جـدًّا، لكنـه بعيـدٌ جـدًّا".

قلت: "ألم يَبقَ مع أُمِّه في لوس أنجلس؟".

قال مورا: "بيته مع أمه، لكنه يذهب إلى مدرسة ماونت هنري"، ماونت هنري مدرسة أولاد إعدادية ممتازة قريبة من هنا. "أحد أسباب مجيئي إلى نيو هامبشير كان لأصبح قريبًا منه"، هزَّ مورا رأسه، "حسبت أنه حتمًا في النهاية سيتواصل معي، سيردُّ اتصالًا أو يجيب خطابًا".

قلت: "لكنه لم يفعل؟".

قال مورا: "مطلقًا. أتعلم ما كان آخر شيء قاله لي؟".

قلت: "لا".

"عندما طلَّقتُ أمه وتزوَّجتُ جلوريا هيلتون، آخر ما قاله كان "أبي، أنت وضيعٌ، لا أريد أن أسمع كلمة أخرى منك طيلة ما بقي من حياتي"".

قلت: "هذا... هذا عنيف".

قال بصوتٍ أجشَّ: "ربما ذلك عنيف بالفعل يا صديقي"، ثم حنى رأسه، "وضيع، تلك كانت الكلمة التي استخدمها. رغم أنه كان صغيراً، إلا أنه استخدم الكلمة المناسبة".

قلت: "هل استطعت أخيراً الوصول إليه اليوم؟".

قال مورا: "كلَّمتُ ناظر المدرسة، قلت له إن هناك حالة طوارئ عائلية خطيرة، وعليه أن يجعل چون يتصل بي فوراً".

قال: "الحمد لله نجح الأمر. برغم أني وضيع بكل تأكيد، إلا أنه وافق على أن يأتي ليزورني في الغد".

في مكانٍ ما من تلك المحادثة، قال لي مورا أن ألقي نظرة على الإحصائيات، وعَدتُه أن أفعل. سألته: "الإحصائيات في العموم؟ أم إحصائيات بعينها؟".

قال: "إحصائيات الزواج".

قلت: "أخاف ممَّا سيتسنَّى لي إيجاده".

قال مورا: "انظُر في الإحصائيات وستجد أنه عندما يتزوَّج الناس وهم في الثامنة عشرة -مثلما فَعَلتُ أنا وزوجتي الأولى- ثمَّة احتمال خمسين بالمئة أن هذا الزواج سينفجر".

قلت: "أنا كنت في الثامنة عشرة عندما تزوَّجتُ".

قال: "ولا تزال مع زوجتك الأولى؟".

قلت: "مُستمرُّون لعشرين عامًا".

"ألا تشعر أن أيام عزوبيتك سُرِقَت منك؟ فرصتك لأن تصبح عاشِقًا لاعِبًا ولهان؟".

قلتُ: "في نيو هامبشير، هذه الأيام تأتي بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة".

قال: "دعني أصِغْ لك الأمر كالتالي، لِنَقُل إنك مُتزوِّج كل تلك الأعوام، وتتشاجر الشجارات الغبية التي يتشاجرها المتزوِّجون، عن كَونِك مُفلِسًا وقَلِقًا أغلب الوقت...".

قلت: "أنا معك".

"ولنَقُل إن السينما اشترت الكتاب الذي كتَبتَه، واستأجروك لتكتب له السيناريو، وجلوريا هيلتون ستكون نجمة الفيلم".

قلت: "لا أظنني قادِرًا على تَخيُّل هذا".

قال: "حسنًا، ما هو أكبر شيء قد يحدث لك في مجال عملك؟".

احتَجتُ للتفكير لفترة. قلت: "أظنُّ ذلك قد يكون تمكُّني من إقناع فندق كونرز بتركيب نوافذ فليتوود في كل نافذة. لا بُدَّ أن ذلك يعني خمسمائة نافذة أو أكثر".

قال: "جيد. قُمتَ لِتَوِّكَ بالصفقة، وفي جيبك أموالٌ حقيقية لأول مرة. وتشاجَرتَ مع زوجتك، وفي رأسك أفكارٌ سيِّئة بشأنها. ومديرة الفندق هي جلوريا هيلتون... جلوريا هيلتون كما تبدو في الأفلام".

قلت: "كُلِّي آذان منصتة".

قال: "ولنَقُل إنك بدأت في تركيب نوافذ الرياح الخمسمائة، وكل مرَّة تضع فيها فليتوود آخر، تَجِد جلوريا هيلتون هناك تبتسم لك عبر الزجاج، وكأنَّكَ إلهٌ أو مثل ذلك".

قلت: "ألا يزال هناك ما يمكن شربه في هذا البيت؟".

قال: "ولنَقُلْ إن ثلاثة أشهر قد مرَّت، وكل ليلة تعود للبيت لزوجتك، امرأة عرفتها لعُمرٍ طويل حتى صارت فعليًّا كأُختِكَ، لتبدأ في التَّذمُّر من شيء تافه أو آخر...".

قلتُ: "هذه الغرفة دافئة جدًّا، حتى بلا نوافذ رياح".

قال: "لِنَقُلْ إن جلوريا هيلتون قالت لك فجأة: "تحلَّ بشجاعة السعادة يا عزيزي المسكين! أوه يا عزيزي، لقد خُلِقنا لبعضنا! تَحَلَّ بشجاعة أن تكون سعيدًا معي! أتألَّم وأنا أراك تُثَبِّت نوافذ الرياح! لا أتحمَّل رؤيتك بهذا الحزن، وبمعرفة أنك تنتمي لامرأة أخرى، وأنا أعرف كيف يمكنني إسعادك، فقط لو كنت تنتمي لي!"".

* * *

بعد ذلك، أذكر أني ومورا خرجنا من المنزل بحثًا عن أشواك، ليريني كيف يُمكنني جَذبُ الشَّوك دون ألم.

لا أعتقد أننا وجدنا أيَّها، أذكر اقتلاع الكثير من النباتات وإلقاءها على البيت، وكثيراً من الضحك. لكن لا أعتقد أن أيًّا من تلك النباتات كانت ذاتَ شَوكٍ.

ثـم تُهنـا مـن بعضنـا في الخـواء العظيـم. صِحـتُ مُناديًـا إيّـاه لفـترة، لكـن إجاباتـه تداعـت شـيئًا فشـيئًا، وفي النهايـة عُـدتُ إلى البيـت.

لا أذكـر كيـف كانـت عـودتي إلى البيـت، لكـن زوجتـي تفعـل. قالـت إني تحدَّثـتُ لهـا بفظاظـة وعـدم احـترام. قلـتُ إننـي بِعـتُ خمسـمائة نافـذة فليتـوود لفنـدق كونـورز. وقلـتُ أيضًـا إن عليهـا إلقـاء نظـرة عـلى إحصائيّـات زواج المراهقـين.

ثـم صَعَـدتُ إلى الطابـق العلـوي، وأخـذت أخلـع بـاب إطـار حـوض الاسـتحمام. قلـت لهـا إننـي ومـورا سـنبدِّل الأبـواب. خلَعـتُ البـاب ثـم دخلـتُ للنـوم في المغطـس. أيقظتنـي زوجتـي فطلبـتُ منهـا أن تبتعـد عنـي، وأن جلوريـا هيلتـون اشـترت لتوِّهـا فنـدق كونـورز، وأني سـأتزوَّجها.

حاوَلـتُ أن أخبرهـا بـشيء مهـم جـدًّا عـن الأشـواك، لكنـي لم أسـتطع نُطـقَ الكلمـة، فعُـدتُ للنـوم مـرة أخـرى.

هكـذا رَشَّـت عـليَّ زوجتـي بـودرة فقاعـات الاسـتحمام، وفتحـت صنبـور الميـاه البـاردة عـلى المغطـس، وذهبـت لتنـام في غرفـة الضيـوف.

* * *

في الثالثـة تقريبًـا مـن عـصر اليـوم التـالي، ذهبـت إلى بيـت مـورا لإنهـاء تركيـب النوافـذ، ولأرى إن كُنّـا اتَّفقنـا بالفعـل عـلى أي شيء بشـأن بـاب إطـار حـوض الاسـتحمام. كان في شـاحنتي بابـان، أحدهـما عليـه طائـر فلامنجـو والآخـر جلوريـا هيلتـون.

بـدأت في رَنِّ جـرس البـاب، لكنـي سـمعتُ طَرقًـا مـن نافـذة الطابـق العلـوي. نظـرتُ لأعـلى فرأيـت مـورا يقـف في نافـذة حـمَّام جلوريـا هيلتـون. كان سُـلَّمي يميـل بالفعـل مسـتندًا إلى حافَّـة النافـذة، فصعـدت عليـه وسـألت مـورا مـاذا هنـاك.

فتح النافذة، وقال لي أن أدخل. كان شاحبًا مرتجفًا. قلت: "هل جاء ابنك؟".

قال: "نعم، إنه بالأسفل. أخذته من محطَّة الأوتوبيس قبل ساعة".

قلت: "هل الأمور بينكم على ما يرام؟".

هزَّ مورا رأسه. قال: "لا يزال ساخطًا. إنه في الخامسة عشرة لكنه يتحدَّث وكأنه جَدٌّ جَدٌّ جَدِّي. صعدتُ إلى هنا لدقيقة، والآن لا أجد في نفسي الشجاعة لأنزل مرة أخرى".

جذبني من ذراعي، قال: "اسمع، انزِلْ ومَهِّد الطريق بشكلٍ ما".

قلتُ: "إن كان لا يزال بداخلي أي تمهيد، فمن الأفضل لي أن أحافظ عليه لبيتي"، وأطلَعتُه على الوضع في البيت، والذي كان أبعد ما يكون عن المثالية.

قال: "أيًّا كان ما تفعله، لا ترتكب الخطأ الذي ارتكبته. حافِظْ على بيتك متماسكًا مهما حدث. أعلم أنه يبدو سيِّئًا من وقتٍ لآخر، لكن صدِّقني، هناك دائمًا ثمَّة أشكال للحياة أسوأ بعشرة آلاف المرات".

قلت: "عمومًا، هناك شيء واحدٌ أشكر الله عليه".

قال: "ما هو؟".

قلت: "جلوريا هيلتون لم تأتِ لتخبرني أنها تحبُّني حتى الآن".

* * *

نزلت لأرى ابن مورا.

ابن چون كان يرتدي بذلة رَجُلٍ ناضج، بل كان يرتدي حتى الصديري. وارتدى نظَّارةً كبيرة ذات إطار أسود. بدا مثل مدرس جامعي.

قلت: "چون، أنا صديق قديم لأبوك".

قال: "هكذا إذن؟"، وتفحَّصَني من أعلى لأسفل، لم يَرضَ أن يصافحني.

قلتُ: "أنت بلا شكٍّ تبدو أكبر بكثير من سِنِّكَ".

قال: "يجب أن أكون؛ عندما تركني أبي وترك أمي، صار عليَّ أن أصبح كبير العائلة، ألا ترى ذلك؟".

قلت: "هَوِّن عليك يا چون، فأبوك أيضًا لم يكن سعيدًا كما تعلم".

قال: "كم يُخيِّب هذا أملي، حسبتُ أن جلوريا هيلتون تجعل الرجال أسعد ما يمكن أن يكونوا".

قلت: "چون، عندما تكبر، ستفهم كثيرًا من الأشياء التي لا تفهمها الآن".

قال: "لا بُدَّ أنك تقصد الفيزياء النووية، منتظر بفارغ الصبر"، وأدار لي ظهره ناظرًا خارج النافذة، قال: "أين أبي؟".

"ها هو ذا"، قالها مورا من أعلى السُّلَّم، تابع: "ها قد جاء الأحمق المسكين"، ونزل على السُّلَّم بصرير.

قال الفتى: "أعتقد أني من الأفضل أن أعود للمدرسة يا أبي".

قال مورا: "بهذه السرعة؟".

قال الفتى: "قيل لي إن هناك طوارئ، وإلَّا لم أَكُن لآتي. لا يبدو أن هناك ما طرأ، إذن من الأفضل أن أعود إن كنتَ لا تمانع".

قال مورا: "إن كنتُ لا أمانع؟"، ورفع ذراعيه، "چون، ستكسر قلبي إن تركتَني دون أن...".

قال الفتى: "دون أن ماذا يا أبي؟".

قال مورا: "دون أن تغفر لي".

قـال الفتـى: "أبـدًا، آسـف، ذلـك شيء لـن أفعلـه أبـدًا". أومـأ. قـال: "عندمـا تكـون مُسـتعدًّا للذهـاب يـا أبي، سـأكون منتظـرًا في السـيارة".

جلـس مـورا في كـرسيٍّ واضعًـا وجهـه بـين يديـه، قـال: "مـاذا أنـا فاعـل الآن؟ ربمـا ذلـك هـو العقـاب الـذي أسـتحقُّ، ربمـا مـا عـليَّ فِعلُـه الآن هـو الجَـزُّ عـلى أسـناني والتقبُّـل".

قلت: "أستطيع التفكير في شيء واحد آخر".

قال: "وما ذلك؟".

قلت: "أركله في بنطاله".

* * *

وهذا ما فعله مورا.

ذهب إلى السيارة بوجه مُظلِم.

قـال لچـون إن شـيئًا مـا ليـس عـلى مـا يـرام بالكـرسي الأمامـي، وطلـب منـه النـزول حتـى يسـتطيع إصلاحـه. ثـم ركلـه في مقعدتـه بجانـب قَدَمِـه. لا أعتقـد أنـه سـبَّبَ لـه أيَّ ألم، لكنـي أظـنُّ أنهـا ركلـة تضمَّنَـت بعـض القـوة.

ترنَّـح الفتـى وكأنـه يرقـص، وكاد يقـع في اتجـاه الشـجيرات التـي كُنَّـا نبحـث فيهـا عـن الأشـواك في الليلـة السـابقة، وعندمـا اسـتعاد توازنـه ودار، بـدا متفاجئـًا بالكامـل.

قـال لـه مـورا: "چـون، أنـا آسـف أني فعلـت ذلـك، لكنـي لم أسـتطع التفكـير في شيء آخـر". لأول مـرة لم يكـن لـدى الفتـى ردٌّ لاذعٌ.

قال مورا: "ارتكبتُ أخطاء عديدة في حياتي، لكني لا أعتقد أن تلك كانت منهم. أنا أحبُّك، وأحبُّ أُمَّك، وأعتقد أني سأستمرُّ في ركلك حتى أجد في قلبك مكانًا لتعطيني فرصة أخرى".

لم يستطع الفتى التفكير في شيء ليقوله، لكني كنت قادِرًا على رؤية أنه لم يكن يُفضِّل أن يُركَل مَرَّةً أخرى.

قال مورا: "والآن فلتَعُد إلى البيت، ولنتحدَّث في الأمور مثل الناس المتحضِّرين".

عندما عادا إلى البيت، جعل مورا الفتى يتصل بأمه في لوس أنجلس.

قال مورا: "أخبِرها أننا نحظى بوقتٍ طَيِّب، وأني تعيسٌ إلى أقصى درجة، وأني لم أَعُد مع جلوريا هيلتون، وأني أريدها مرَّةً أخرى بأي شروط تراها".

قال الفتى هذا لأمه، وبكت، وبكى الفتى، وبكى مورا، وبكيتُ أنا.

ثم قالت زوجة مورا الأولى إنه بوسعه العودة إلى البيت وقتما أراد، وهذا كل شيء.

* * *

ثم اتَّفقنا أنا ومورا على تبادُل أبواب إطارات أحواض الاستحمام. في الواقع كنت أبادل بابًا باثنين وعشرين دولارًا بآخر ثمنه ثمانية وأربعين دولار، دون حسابِ صورة جلوريا هيلتون.

زوجتي لم تكن في البيت عندما عُدتُ. ركَّبتُ الباب الجديد. جاء ابني ليشاهدني. كانت أنفه محمرَّة لسببٍ ما.

قلت له: "أين أُمُّكَ؟".

قال: "خرَجَت".

قلت: "متى ستعود؟".

قال الفتى: "قالت إنها ربما لن تعود".

شعرت بالغثيان، لكني لم أترك الفتى يلاحظ. قلتُ "تلك من مزحاتها المتكرِّرة، تُرَدِّدها طوال الوقت".

قال: "لم أسمعها تقولها من قبل".

كنت مذعورًا عندما حان موعد العشاء ولم تَعُد بَعدُ، حاوَلتُ التَّحلِّي بالشجاعة، جهَّزتُ العشاء لنفسي وللفتى، وقلت: "لا بأس، أعتقد أنها تعطَّلَت في مكان ما".

قال الفتى: "أبي...".

قلت: "ماذا؟".

قال: "ماذا فعلت بأمي بالأمس؟". لهجته كانت لائِمةً مُتعالِيَةً.

قلت: "اهتمَّ بشؤونك، وإلَّا نِلتَ رَكلةً حاسمة في بنطالك". هدَّأ ذلك حماسه.

عادت زوجتي للبيت في التاسعة، حمدًا لله.

كانت مبتهجة. قالت إنها حَظِيَت بوقت رائع وحدها؛ بالتسوُّق وحدها والأكل في مطعمٍ وحدها والذهاب إلى السينما وحدها.

قبَّلَتني، وصعدت للطابق العلوي.

سمعتُ جرَيان مياه الاستحمام، وتذكَّرتُ فجأة صورة جلوريا هيلتون على باب إطار الحوض.

قلتُ: "يا ربي!". جَرَيتُ صاعدًا على السُّلَّم لأخبرها ما الذي تفعله تلك الصورة هنا، لأخبرها أني سأزيلها بالسَّفع الرَّمليِّ غدًا صباحًا.

دخلتُ الحَمَّام. كانت تقف في الحوض، تستحمُّ.

كانـت بنفـس طـول جلوريـا هيلتـون، فكانـت الصـورة عـلى البـاب بمثابـة القنـاع لوجههـا. هنـاك كان جسـد زوجتـي بـرأس جلوريـا هيلتـون.

لم تكـن حانِقـةً، ضَحِكَـت، وجَـدَت ذلـك ظريفًـا، قالـت: "خَمِّـن مَـن أنـا".

(1962)

مكتبة
t.me/soramnqraa

غزالٌ في الوِرَش

المداخـن السـوداء الضَّخمـة لـوِرَش إيليـوم التابعـة للمؤسَّسـة الفيدرالية للمُعِـدَّات، نفثـت البخـار الحمـضي والسُّـخام فـوق رؤوس مئـات الرجـل والنسـاء المصطفِّـين أمـام مكتـب توظيـف ريدبريـك. الوقـت صيفًـا، ووِرَش إيليـوم، التـي كانـت بالفعـل ثـاني أكـبر مُنشـأة صناعيـة في أمريـكا، كانـت تزيـد عِمالَتَهـا بمقـدار الثُّلُـث؛ لتسـتطيع الوفـاء بعقـود الأسـلحة. كل عـشر دقائـق تقريبًـا، كان يفتـح شرطـيٌّ تابِـعٌ للشركـة بـاب مكتـب التوظيـف، سـامحًا لدفعـة مـن هـواء التكييـف الداخـلي البـارد بالخـروج، وسـامِحًا لثلاثـة متقدِّمـين بالدخـول.

قال الشرطي: "الثلاثة التَّالون".

بعـد أربـع سـاعات مـن الانتظـار، سُـمح بالدخـول لرَجُـل متوسِّـط الحجـم في أواخـر العشرينـات، وجهـه الشـاب مُمـوَّه بشـارب وعوينـات. ذَوَت معنوياتـه وبذلتـه الجديـدة، التـي اشـتراها خصِّيصًـا لهـذه المناسـبة،

تحت وطأة الأبخرة الحمضيَّة وشمس أغسطس، وتخلَّى عن فرصة تناول الغداء كي لا يخسر مكانه في الطابور. غير أن مشيته ظلَّت متبخترة. كان آخر مجموعته الثلاثية تمثيلًا أمام موظَّفة الاستقبال.

قال الرجل الأول: "عامل ماكينة مسامير يا سيدتي".

قالت: "اذهَبْ إلى مستر كورمودي في الكابينة السابعة".

قال الرجل التالي: "مشغل بثق بلاستيك يا آنسة".

قالت: "إلى مستر هويت في الكابينة الثانية".

سألت الشاب المهذَّب في البذلة الذاوية: "تَخصُّصك؟ ماكينة الطَّحن؟ مُشغِّل حَفَّار؟".

قال: "الكتابة، أي نوع من الكتابة".

"أتعني الإعلانات والترويج للمبيعات؟".

"نعم، هذا ما أعني".

بَدَت مُتردِّدةً. "حسنًا، لستُ متأكِّدة، لم نطلب ذلك النوع من الناس. أتعرف كيف تدير آلة؟".

قال مُمازِحًا: "الآلة الكاتبة".

كانت موظَّفة استقبال شابَّة رصينة. قالت: "لا تستخدم الشركة كُتَّابَ اختزالٍ ذكور. أذهب إلى مستر ديلينج في الكابينة السادسة والعشرين. ربما يعرف شيئًا عن وظائف الإعلانات وترويج المبيعات".

عدل من ربطة عنقه ومعطفه، أجبر نفسه على رسم ابتسامة تُلمِّح إلى أنه يبحث عن وظيفة في الورَش على سبيل اللهو فقط. مضى إلى الكابينة السادسة والعشرين ومدَّ يده إلى مستر ديلينج، الذي كان في مثل عمره.

"مستر ديلينج، اسمي ديڤيد بوتر. كان عندي فضول لمعرفة إن كان ربّما لديكم وظائف مُتاحة في الإعلانات وترويج المبيعات، وفكّرت في القدوم لتبادل الحديث".

مستر ديلينج، الذي كان خبيرًا في مواجهة الشباب الذين يحاولون إخفاء لهفتهم للحصول على وظيفة، كان مهذّبًا، لكن قِلّة اهتمامه كانت بادِيَةً بوضوح. "أخشى أنك جِئتَ في وقت صعب يا مستر بوتر، المنافسة على أشُدِّها في هذا النوع من الوظائف، مثلما تعرف على الأرجح، والمتاح الآن أبعد ما يكون عن الكثير".

أومأ ديڤيد، "أرى ذلك". لم تكن لديه أية خبرة في كيفية السؤال عن وظيفة في مؤسَّسةٍ كبرى، ومستر ديلينج جعله يدرك إلى أي مدًى يُعَدُّ ذلك فنًّا خاصًّا، طالما أنت غير قادر على تشغيل ماكينة. هكذا بدأت المباراة.

"لكن تَفضَّل بالجلوس على أي حال يا مستر بوتر".

"شكرًا"، نظر إلى ساعته، "يجدر بي العودة إلى جريدتي قريبًا".

"أتعمل في جريدة بالقرب من هنا؟".

"نعم، أمتلك جريدة أسبوعية في دورسيت، تبعد عشرة أميال تقريبًا عن إيليوم".

"أوه، قرية صغيرة جميلة. تفكِّر في التَّخلِّي عن الجريدة إذن؟".

"لا، ليس بالضبط. هذا احتمال بين احتمالات. اشتريت الجريدة بعد الحرب بقليل، أي أن صار لي معها ثماني سنوات، ولا أريد أن أتيبَّس في مكاني. ربما تقتضي الحكمة أن أمضي قُدُمًا. يعتمد كل شيء على الفرص المتاحة".

قال مستر ديلينج بلطف: "ألديك عائلة؟".

"نعم، زوجة وولدان وبنتان".

قال مستر ديلينج: "عائلة لطيفة كبيرة متوازنة، وأنت لا زلتَ شابًّا صغيراً أيضًا".

قال ديڤيد: "في التاسعة والعشرين"، وابتسم، "لم نُخطِّط لأن نكون بهذا الكبر. يعود الفضل للتَّوائم. الولدان توأم، ثم منذ بضعة أيام، شرَّفَتنا بنتان".

قال مستر ديلينج: "غير معقول!"، ثم غمز، "أسرة مثل تلك لا شكَّ أنها تدفع الشاب الصغير للبحث عن بعض الأمان".

تعامل كلاهما مع الملاحظة وكأنها أمرٌ عابِر، مزاح يتبادله أربابُ الأُسَر. قال ديڤيد: "في الواقع ذلك ما كُنَّا نريد، ولدان وبنتان. لم نتوقَّع الحصول عليهم بهذه السرعة، لكنَّنا مُمتَنُّون لذلك الآن. أمَّا فيما يخصُّ الأمان... فربما أنا أجامل نفسي، لكني أعتقد أن الخبرات الكتابية والإدارية التي جَنَيتُها من إدارتي للصحيفة، ستكون ذاتَ قيمةٍ جيِّدة نوعًا للأشخاص المناسبين، إن حدث شيء ما للجريدة".

بينما كان يركِّز على إشعال سيجارة، قال ديلينج متفلسفًا: "أحد أكبر مواطن النَّقص في هذا البلد، هو الرجال الذين يعرفون كيف يفعلون الأشياء، وكيف يحملون المسؤولية وكيف ينجزون الأمور. أتمنى لو كانت لدينا فرص أفضل في الإعلانات والترويج للمبيعات من تلك المتاحة. إنها وظائف مُهِمَّة مثيرة للاهتمام، لكن لا أعلم ماذا سيكون شعورك حيال الراتب الافتتاحي".

"عمومًا أنا لا زلتُ أحاول استيعاب تضاريس الطريق ورؤية كيف تصير الأشياء. ليس لديَّ أدنى فكرة عن الراتب الذي قد تدفعه مؤسسة صناعية لرَجُلٍ مثلي، بمثل خبراتي".

"السؤال الذي يسأله الرِّجالُ ذوو الخبرة أمثالك عادةً هو: إلى أَيِّ ارتفاعٍ بوسعي التحليق؟ وبأي سرعة؟ والإجابة هي: بالنسبة لرجُلٍ ذي حافِزٍ وطموح وإبداع، فالسماء هي السقف. وبوسعه الطيران

بسرعة أو ببطء، هذا يعتمد على ما يستطيع فِعلُه ومُستَعدٌّ لِبَذلِه في وظيفته. يُمكِننا البدء مع رَجُلٍ مثلك مثلًا بمائة دولار في الأسبوع، لكن هذا لا يعني أنك ستعلق في ذلك المستوى لعامين، أو حتى لشهرين".

قال ديڤيد: "أعتقد أن بوسع المرء إعاشة أهله بذلك إلى أن تُسرع الأمور".

"ستجد أن العمل في القطاع الإعلامي عندنا لا يختلف عمَّا تفعله الآن. لدى إعلاميِّينا معايير عالية في الكتابة والمراسلة والتحرير، وبياناتنا الصحفية لا ينتهي بها الحال في سِلال مُهمَلات مُحرِّري الصُّحُف. موظَّفونا مهنيُّون مُحتَرِفون، وصحفيُّون محترمون". نهض، "هناك أمرٌ صغير أحتاج للاهتمام به، سيستغرق حوالي عشر دقائق. أيمكنك الانتظار؟ أنا أستمتع بحديثنا".

نظر ديڤيد في ساعته. "أوه... أعتقد أني لديَّ عشر أو خمس عشرة دقيقة أخرى".

عاد ديلينج لكابينته بعد ثلاث دقائق، يضحك بهدوء على مَزحَةٍ ما خاصَّة. "تحدَّثتُ لِتَوِّي على الهاتف مع لو فليمر، المشرف الإعلامي. يحتاج إلى كاتب اختزال جديد. الكل يحبُّ لو، دَمُه خفيف. من خلفية صحافة أسبوعية أيضًا، وأظنُّ ذلك كان حيث تعلَّم أن يكون سَهلَ المعشر. فقط لأجسَّ نبضه قلتُ له عنك. لا ألزمك بشيء... أنا فقط أخبرته بما قلته لي، أنك فقط تتصفَّح الفرص المتاحة. وخَمِّن ماذا قال لو؟".

* * *

"خَمِّني ماذا حدث يا نان"، قالها ديڤيد بوتر لزوجته في التليفون. كان يرتدي فقط سرواله الداخلي ويتحدَّث في هاتف مستشفى الشركة. "عندما تعودين إلى البيت من المستشفى غدًا، ستكونين في بيت

مواطـن مُحـتَرم يقبـض مائـة وعـشرة دولارات في الأسـبوع، كل أسـبوع. حصلـت لتـوِّي عـلى هويَّـة تعريـف ومَـرَرتُ بالكشـف الطبـي".

قالـت نـان مرتبكـة: "أوه، حـدث ذلـك بسرعـة شـديدة، أليـس كذلـك؟ لم أحسـب أنـك سـتغطس في قلـب الشُّـغل مبـاشرة هكـذا".

"وما الذي ننتظره؟".

"لا أعـرف... أعنـي، كيـف تعـرف في مـاذا سـتعمل؟ أنـت لم تعمـل لحسـاب أيِّ شـخص عـدا نفسـك، ولا تعـرف شـيئًا عـن تسـيير الأمـور في المؤسَّسـات الهائلـة. كنـتُ أعلـم أنـك سـتتحدَّث مـع النـاس في إيليـوم عـن الوظائـف، لكنـي حسـبتُ أنـك تُخطِّـط أن تسـتمر في الجريـدة لعـام آخـر عـلى أي حـال".

"عام آخر يعني أن أصبح في الثلاثين يا نان".

"وماذا في هذا؟".

"هـذا سِـنٌّ كبـيرٌ بالنسـبة لبدايـة مشـوار وظيفـي في مجـال الصناعـة. هنـاك رجـال في مثـل عمـري يعملـون هنـاك منـذ عـشر سـنوات. تلـك منافسـة شرسـة، وسـتزداد شراسـة بعـد عـام مـن الآن. كيـف لنـا أن نعلـم أن جيسـون سـيظل راغبًـا في شراء الجريـدة بعـد سـنة؟". إد جيسـون كان مسـاعد ديڤيـد، خريـج جامعـيٌّ حديـثٌ يريـد أبـوه أن يشـتري لـه الجريـدة. "والوظيفـة المتاحـة اليـوم في القطـاع الإعلامـي لـن تكـون كذلـك بعـد سـنةٍ يـا نـان. الآن هـو وقـت التغيـير، اليـوم بالـذات".

تنهَّـدَت نـان. "أعتقـد ذلـك. لكنهـا لا تبـدو وظيفـة مناسـبة لك. الـوِرَش جيِّـدة بالنسـبة لبعـض النـاس، وكأنهـم ينتعشـون في تلـك الحيـاة. لكنـك كنـت دومًـا حُـرًّا. وأنـت تحـب الجريـدة... تعلـم أنـك تفعـل".

قال ديڤيد: "أُحبُّها، وسينفطر قلبي لرؤيتها تذهب. كانت الجريدة شيئًا رائعًا عندما لم يَكُن لدينا أبناء، لكنها الآن عيشة على المحكّ... صار يوجد أطفال ويجب تعليمهم وما إلى ذلك".

قالت نان: "لكن يا عزيزي، الجريدة تجني أموال".

قال ديڤيد: "قد تنهار في لحظة مثل ذلك"، وطرقع بأصابعه، "قد تُخصِّص صحيفة أسبوعية صفحةً لأخبار دورسيت أو...".

"دورسيت تحبُّ جريدتها الصغيرة لدرجة أنها لن تسمح بذلك. يحبُّونك ويحبُّون ما تفعله كثيراً".

أومأ ديڤيد. "وما الحال بعد عشرة أعوام من الآن؟".

"وما الحال بعد عشرة أعوام في الوِرَش؟ وما الحال بعد عشر أعوام في أي مكان؟".

"الرهان على وجود الوِرَش هنا بعد عشرة أعوام أفضل ممَّا عداه، لم يَعُد من حقِّي يا نان أخذ مخاطرات بعيدة المدى، ليس وهناك عائلة ضخمة تعتمد عليَّ".

"لن تكون عائلة شديدة السعادة يا عزيزي وأنت لا تعمل فيما تريد عمله. أريدك أن تبقى سعيدًا مثلما أنت، تقود سيارتك حول الريف، تجمع الأخبار وتتبادل الأحاديث وتبيع الإعلانات، وتعود للبيت وتكتب ما تريد كتابته، ما تؤمن به. لا أتخيَّلُك تعمل في الوِرَش!".

"هذا ما يتوجَّب عليَّ فِعلُه".

"حسنًا، إن كان هذا قولك، فقد قُلتُ ما عندي".

قال ديڤيد: "تظلُّ صحافة، صحافة رفيعة المستوى".

"فقط لا تبيع الجريدة لجيسون مباشرة. اجعَلْه على رأسها، لكن انتَظِر شَهرًا أو أكثر. أرجوك؟".

"لا معنى للانتظار، لكن إن كنتِ تريدين ذلك حقًّا، فلا بأس". رفع ديڤيد كُتيِّبًا أعطوه له بعد انتهاء الكشف الطبي، "اسمعي يا نان: حزمة الشركة التأمينية تعطيني عشرة دولارات يوميًّا لنفقات المستشفى في حالة المرض، ويتحمّلون نفقات ستة وعشرين أسبوعًا كاملين، ومائة دولار للنفقات الخاصَّة بالمستشفى. وأحصل على تأمين حياة مقابل نصف تكلفته العادية. ومقابل ما استثمره في سندات الحكومة في خطَّة ادِّخار الرواتب، ستمنحني الشركة علاوة خمسة بالمائة في سندات الشركة بعد اثني عشر عامًا من الآن. لي أسبوعان إجازة مدفوعة كل سنة، وبعد خمس عشرة سنة تصبح ثلاثة أسابيع. ولي عضويَّة مجَّانيَّة في نادي الشركة الريفي. وبعد خمس وعشرين سنة، سأصبح مُستَحِقًّا لمعاش تقاعُدٍ لن يَقِلَّ عن مائة وخمسة وعشرين دولارًا في الشهر، وأكثر بكثير إن ترقَّيتُ في المؤسَّسة وظللت بها لأكثر من خمس وعشرين سنة!".

قالت نان: "يا إلهي الرحيم!".

"سأكون أحمقَ ملعونًا لو تركت هذه الفرصة تمرُّ يا نان".

"لا زلتُ أتمنَّى لو كنت انتظرت حتى أعود إلى البيت مع البنات وتتعوَّد على وجودِهنَّ. أشعر أن هلعك هو ما قادك لهذا".

"لا، الأمر ليس أكثر ممَّا هو عليه يا نان. قبلي الفتيات لأجلي. عليَّ أن أذهب الآن والمثول أمام مديري الجديد".

"ماذا؟".

"مديري".

"أوه، حَسِبتُ أنَّك قلتَ هذا، لكني لم أكن متأكِّدةً تمامًا".

"وداعًا يا نان".

"وداعًا يا ديڤيد".

* * *

ثَبَّت ديڤيد هويَّة الشركة على صدر قميصه، وخرج من المستشفى إلى الأرض الأسفلتيَّة في نطاق أسوار الورَش. تَرَدَّد رعدٌ باهتٌ من المباني المحيطة به، زمَّرَت عليه شاحنة، وألقت الريح في عينه خَبَثَ حديدٍ. مسح الخَبَث بركن منديله، وذهب أخيرًا. عندما استعاد الرؤية، نظر باحثًا عن مبنى 31، حيث يوجد مكتبه الجديد ومديره. من حيث وقف كانت تتفرَّع أربعة شوارع، وبدا كل منهم ممتدًّا إلى ما لا نهاية.

أوقف من العابرين مَن بدا أقلَّ تَعجُّلًا من البقية. "أيمكنك أن تخبرني أرجوك كيف أجد مبنى 31، مكتب مستر فليمر؟".

الرجل الذي سأله كان عجوزًا ذا أعيُنٍ برَّاقة، بدا وكأنه يجد في الضَّجَّة والروائح والهياج العصبي للورَش سعادة بقدر التي يجدها ديڤيد في قضاء أبريل في باريس. حدَّق في هويته ثم في وجهه. "بدأت لتوِّك، ألست كذلك؟".

"نعم يا سيدي، يومي الأول".

"يا عيني على الشباب". هزَّ العجوز رأسه بتأمُّلٍ، وغمز. "يومك الأول، مبنى 31؟ حسنًا يا سيدي، عندما جِئتُ لأعمل هنا أول مرة عام 1899، كان يمكنك رؤية مبنى 31 من هنا، بلا شيء بينك وبينه عدا الطين. الآن في كل رُقعَة مبنى. أترى خزَّانَ المياه هناك، على بُعد رُبع ميل تقريبًا؟ تتفرَّع الجادَّة رقم 17 هناك، اتبَعْها إلى النهاية تقريبًا، ثم اقطع الخَطَّ و... أتقول يومك الأول؟ من الأفضل أن أصطحبك.

جِئتُ هنا للحديث مع جماعة المعاشات، لكن بوسع ذلك أن ينتظر، سأستمتع بالتمشية".

"شكرًا لك".

قال بفخر: "قضيتُ خمسين عامًا يا رَجُل"، وقاد ديڤيد عبر الجادَّات والحارات وخطوط سكك حديدية، فوق منحدرات وتحت أنفاق، وخلال مبانٍ مُفعَمة بآلاتٍ تبصق وتتبرَّم وتتألَّم، وفي ممرات حوائطها خضراء وأبوابها مُرقَّمة سوداء.

قال العجوز مشفقًا: "لا يمكنك أن تقضي خمسين عامًا الآن، لا تستطيع العمل حتى الثمانين، يجعلونك تتقاعد في الخامسة والسِّتِّين". نكز بإبهامه طيَّة قميصه ليبرز زِرٌّ ذَهبيٌّ صغير، عليه كان الرقم (50) فوق شعار الشركة التجاري. "هاك شيئًا لا تستطيعون أن تطمحوا لارتدائه ذات يوم يا معشر الصغار، مهما كانت رغبتك في أن تفعل".

قال ديڤيد: "زِرٌّ لطيف جدًّا".

أشار العجوز لأحد الأبواب. "هذا هو مكتب فليمر، احتَفِظ بِفيكَ مُطبَقًا حتى تعرف مَن يفعل ماذا وفي ماذا يفكر. حظًّا سعيدًا".

لم تكن سكرتيرة لو فليمر على مكتبها، فذهب ديڤيد إلى الباب الداخلي وطرقه.

قال الصوت بلطف: "نعم؟ ادخل".

فتح ديڤيد الباب: "مستر فليمر؟".

كان لو فليمر رَجُلًا قصيرًا مُمتَلئًا في أوائل ثلاثيناته، أشرق في وجه ديڤيد، "كيف أساعدك؟".

"أنا ديڤيد بوتر يا سيد فليمر".

اختفى لُطف بابا نويل من على وجه فليمر. تراجع في مقعده، رفع قدميه على المكتب، والتقم في فمه الضخم سيجارًا كان يخفيه في كفِّه المضمومة. "تبًّا، حَسِبتُكَ مُرشِدَ الكشَّافة". نظر إلى ساعة مكتبه المثبَّتة على نموذج مُصغَّر لأجدد غسَّالة أطباق أنتجتها الشركة. "يَمرُّ صِبيَةُ الكشَّافة في جولة بالوِرَش، كان يُفتَرَض بهم أن يأتوا إلى هنا قبل خمس عشرة دقيقة لأُحدِّثَهم عن الكشَّافة والصناعة. ستة وخمسون بالمئة من مديري المؤسسة الفيدرالية للمُعِدَّات التنفيذيين كانوا كشافة".

شرع ديڤيد في الضحك، لكنه وجد نفسه يفعل وحيدًا، فتوقَّف. قال: "إحصائيَّة مُذهِلة".

قال فليمر بجدِّيَّة: "هي كذلك. تقول شيئًا عن الكشافة وشيئًا عن الصناعة. والآن، قبل أن أخبرك أين مكتبك، يُفتَرَض بي أن أشرح لك نظام التقييم، هكذا تقول اللائحة. هل أخبرك ديلينج عن ذلك؟".

"ليس بحسب ما أذكر، كانت هناك كثير المعلومات في وقت واحد".

قال فليمر: "حسنًا لا يوجد الكثير ليُقال. كل ستة أشهر يجري تقييمك في جدول، لنعرف وندعك تعرف أين تقف، وما نوع التطوُّر الذي أحرزتَه. يقوم بالتقييم ثلاثة أشخاص يعملون بالقرب منك بشكلٍ مُستقلٍ، ثم تُجمع المعلومات كلها في نسخة رئيسية، مع نُسَخ كاربونية: لكَ، ولي، ولقسم الأفراد، والنسخة الرئيسية تذهب إلى رئيس قسم الإعلانات وترويج المبيعات. يساعد هذا الجميع، أوَّلهم أنت، إن سَلَكتَ الطريق الصحيح". ولوَّح بجدول تقييم أمام ديڤيد. "أترى؟ توجد خانات لمظهرك ووَلائِكَ وسرعة مبادَرَتِكَ وتَعاوُنِك... وأشياء مشابهة. وستقوم بتقييم آخرين أيضًا. وستظلُّ هويَّات المُقيِّمين مُجهَّلَة".

"أرى ذلـك". شـعر ديڤيـد بوجهـه يَحمَـرُّ مـن الاسـتياء. قـاوم الشـعور، قـال لنفسـه إن رَدَّ فعلـه نابِـعٌ مـن كونـه ابـن قريـة، وأنـه سـيصنع في نفسـه معروفًـا بـأن يصبـح جـزءًا مـن فريـق عظيـم فعَّـال.

قـال فليمـر: "والآن بخصـوص الراتـب يـا بوتـر، لـن تكـون هنـاك أي لحظـة سـتأتيني فيهـا مُطالِبًـا بزيـادة راتـب. يحـدث ذلـك كلـه بنـاءً عـلى جـداول التقييـم ومنحنـى المرتَّـب". عبـث في دُرجـه حتـى وجـد رسـمًا بيانيًّـا، فَـرَدَه عـلى مكتبـه. "هكـذا... أتـرى ذلـك المنحنـى؟ إنـه منحنـى الراتـب المتوسـط للرجـال ذوي الشـهادة الجامعيـة. أتـرى، بوسـعك تَتَبُّعـه. في الثلاثـين، يجنـي الرَّجُـل المتوسِّـط هـذا القـدر، وفي الأربعـين ذلـك القـدر، وهكـذا. أمَّـا المنحنـى الـذي فوقـه فهـو لِـما يجنيـه الرِّجـالُ ذوو احتـمالات النُّمـوِّ الحقيقيـة. أتـرى؟ أنـه أعـلى قليـلًا ويتقعَّـر لأعـلى أسرع. كـم عمـرك؟".

قـال ديڤيـد: "تسـعة وعـشرون"، محـاوِلًا رؤيـة الأرقـام الموجـودة عـلى أحـد جوانـب الرسـم. رآه فليمـر يفعـل ذلـك، وتعمَّـد إبقـاءَ سـاعِدِه يغطِّي الأرقام.

"آهـا"، بَلَّـل فليمـر سِـنّ القلـم الرصـاص بأسـنانه، ثـم رسـم علامـة x صغـيرة عـلى الرسـم، قاطِعًـا منحنـى الرجـل المتوسِّـط. "هـا أنـت ذا!".

نظـر ديڤيـد إلى العلامـة، واتَّبـع المنحنـى بعينـه عـبر الورقـة، فـوق المطبَّـات الصغـيرة، وصاعـدًا المنحـدرات المعتدلـة، وعـلى طـول الهضـاب المعزولـة، حتـى مـات بشـكلٍ مفاجـئ عـلى حافَّـةٍ تُمثِّـل عمـر الخامسـة والسـتين. لم يـترك مجـالًا لسـؤال، وكان أصـمَّ عـن الجـدال. حـول ديڤيـد نظـره إلى الإنسـان الـذي سـيكون عليـه التعامُـل معـه. "كان عنـدك أسـبوعيَّة ذات مـرة، أليـس كذلـك يـا مسـتر فليمـر؟".

ضحك فليمر. "في طفولتي الساذجة المثالية يا بوتر. بِعتُ إعلاناتٍ لمتاجر الأعلاف، وجمعتُ النميمة، واشتغلت على ماكينات الطباعة، وكتبتُ افتتاحيَّاتٍ بغرض إنقاذ العالم... بحقِّ الله".

ابتسم ديڤيد بإعجاب. "سيرك، أليس كذلك؟".

قال فليمر: "سيرك؟ بل أقرب لمهرجان مُسوخ ربما. إنها طريقة فعَّالة لتكبر بسرعة. استغرقت ستَّة أشهر تقريبًا لأُدرِك أني كنتُ أقتل نفسي مقابل ملاليم، وأن الشخص الضئيل ليس قادرًا على إنقاذ قرية صغيرة ذات ثلاثة مُربَّعات سَكنيَّة، وأن العالم لا يستحقُّ الإنقاذ على أية حال. هكذا بدأت أبحث عن مصلحتي الخاصَّة. بِعتُ السلسلة، وجئت إلى هنا، وها أنا ذاك".

رنَّ الهاتف. أجاب فليمر بلطف: "نعم؟"، "فاا-ضيي-حاااة"، تلاشت ابتسامته الطيبة، "لا، أنت تمزح ألست كذلك؟ أين؟ فعلًا هذا ليس مَقلَبًا؟ حسنًا حسنًا. ربَّاه! يا له من توقيتٍ سيِّئ. ليس لديَّ أحدٌ هنا، ولا أستطيع الذهاب بسبب أطفال الكشَّافة المقرفين". أنهى المكالمة. "بوتر، هذا هو تكليفك الأول، هناك غزالٌ طليقٌ في الوِرَش!".

"غزال؟".

"لا أعرف كيف دخل، لكنه هنا. ذهب سبَّاكٌ ليُصلِح نافورة الشُّرب في ملعب السوفتبول أمام مبنى 217، فاندفع غزالٌ مذعورٌ من تحت المُدرَّجات. وهو الآن مُحاصَرٌ بالقرب من معمل التعدين". نهض وخبط على مكتبه. "جريمة قتل! ستذيع القصة في البلد كلها يا بوتر. تحدَّث عن المنفعة الإنسانية. صفحة أولى! من بين كل الأوقات يحدث هذا وآل- تابين في وِرَش أشتابولا ليأخذ صورَ مقياسِ اللُّزوجة الجديد هناك! حسنًا، سأتَّصِل بمُصوِّر فوتوغرافيٍّ أي كلام من وسط المدينة لأجعله يقابلك عند معمل التعدين يا بوتر. أحصل على قِصَّتِك وأجعله يأخذ اللقطات المناسبة، تمام؟".

قـاد ديڤيـد عـبر الرَّدهــة. "عُـد مـن الطريـق الـذي جِئـتَ منـه، انعطـف يسـارًا بـدلًا مـن اليمـين عنـد مواتـير القُـدرَة الحصانيـة الجزئيـة، مُـرَّ عَـبرَ الهندسـة الهيدروليكيـة، خُـذ الحافِلَـة مـن عنـد الجـادَّة التاسـعة، وسـتأخذك إلى هنـاك. بعدمـا تحصـل عـلى القصَّـة والصـور، سـنحصل عـلى موافقـة القطـاع القانـوني ومديـر أمـن المصنـع ورئيـس قطاعنـا والمبـاني والأرض، وسنرسـلها للعـالم فـورًا. والآن اذهـب، الغـزال لا يحصـل عـلى راتـب، لـن يقـف في انتظـارك. هـا أنـت تبـدأ العمـل اليـوم، وغـدًا سيُنشر شُـغلُكَ في كُلِّ صفحـة أولى في البلـد إن تمَّـت الموافقـة عليـه. اسـم المصـوِّر الـذي سـتقابله هـو ماكجـارفي، سَـمِعتَ؟ هـذا الـكلام كبـير يـا بوتـر، سـتكون أعيُنُنـا عليـك". أغلـق البـاب خلـف ديڤيـد. ووجـد ديڤيـد نفسـه يهـرول عـبر الرَّدهـة ونـازلًا عـلى السُّـلَّم إلى زقـاق، يَمـرُق بـين النـاس مسـابقًا الزمـن. دار العديـد منهـم ليتأمَّلـوا الشـاب الصلـد بإعجـاب.

مـضى بخطـوةٍ تسـبق الأخـرى، رأسـه تغـلي بالمعلومـات: فليمـر، المبنـى 31، غـزال، معمـل التعديـن، آل تابـين، لا، آل تابـين في أشـتابولا. فلينـي مُصـوِّر أي كلام، لا بـل هـو ماكّيمـر، لا ماكّيمـر هـو المديـر الجديـد. 65% مـن أولاد الكشَّـافة. الغـزال عنـد معمـل مقيـاس اللزوجـة. اتَّصـل بدانـر، المديـر الجديـد، واحصـل منـه عـلى التعليـمات السـليمة. ثلاثـة أسـابيع إجـازة بعـد خمـس عـشرة سـنة. دانـر ليـس المديـر الجديـد. عمومًـا المديـر الجديـد في مبنـى 319. لا، فانـر في مبنـى 39981983319.

توقَّـف عنـد نافـذة مُتَّسِـخة في نهايـة حـارة سـد. كل مـا كان يعرفـه أنـه لم يكـن هنـا مـن قبـل، وأن تـروس ذاكرتـه علقَـت، وأن الغـزال لا يحصـل عـلى راتـب. هـواء الحـارة كان مُترَعًـا بموسـيقى التانجـو ونتانـة مـواد العـزل المحترقـة. مسـح ديڤيـد بعضًـا مـن القـشرة عـلى النافـذة بمنديلـه، مُتمنِّيًـا أن يـرى شـيئًا ذا معنـى.

في الداخـل كانـت صفـوف مـن النسـاء يجلسـن عـلى دِكَك، يهـززن رؤوسـهن عـلى دقّـات الموسـيقى، ويغمسـن كاويـات اللحـام في أعشـاشٍ مـن الأسـلاك الملوَّنـة التـي تزحـف خارِجـةً مـن أحزمـة لا نهائيـة. نظَـرَت إحداهـن لأعـلى ورأت ديڤيـد، وغمـزت مـع إيقـاع التانجـو. هـرب ديڤيـد.

في مدخـل الحـارة، أوقـف ديڤيـد رَجُـلًا وسـأله إن كان قـد سـمع أي شيء عـن غـزال في الـوِرَش. هـزَّ الرجـل رأسـه ونظـر لديڤيـد بغرابـة، مـا جعـل ديڤيـد واعيًـا إلى أي مـدى لا بُـدَّ أنـه يبـدو مخبـولًا. قـال ديڤيـد بمزيـد مـن الهـدوء: "سَـمِعتُ أنـه في الخـارج بالقـرب مـن المعمـل".

قال الرجل: "أي معمل".

قال ديڤيد: "أمَّا هذا فلست متأكِّدًا منه. لدينا أكثر من معمل؟".

قـال الرجـل: "معمـل الكيميـاء؟ معمـل اختبـار المـواد؟ معمـل الطـلاء؟ معمـل العـزل؟".

قال ديڤيد: "لا أظن أنه أي من هؤلاء".

"يمكننـي أن أقـف هنـا طـول النهـار أُسـمِّي المعامـل، وفي الغالـب لـن أصـل الـذي تبحـث عنـه. آسـف، علـيَّ الذهـاب. أنـت لا تعـرف في أي مبنـى يحتفظـون بالمُحلِّـل التفاضُـلي، ألسـت كذلـك؟".

قـال ديڤيـد: "آسـف". أوقَـفَ عِـدَّة مـارَّة آخريـن، لم يعلـم أيُّهـم أيَّ شيء عـن الغـزال، وحـاول إعـادة تَتَبُّـع خطواتـه إلى مكتـب المديـر، أيًّـا كان اسـمه. لكـن جرفتـه تيّـارات الـورش إلى ذلـك الطريـق وذاك، وتـاه في الدَّوَّامـات، وسـحبه التيـار الرئيـسي مُجـدَّدًا، وأصـاب عقلـه الخَـدَرُ أكـثر فأكـثر، وبـات التَّحكُّـم شـبه الكامـل لغريـزة البقـاء حيًّـا.

خطـا إلى مبنـى اختـاره عشـوائيًّا باحثًـا عـن حمايـة مؤقَّتَـة مـن حَـرِّ الصيـف، ودافَعَـت عنـه قعقعـة ألـواح الحديـد التـي تُقطـع وتُثقـب، وتنهمـر عليهـا المطـارق الهائلـة المتدليـة مـن الدخـان والغبـار بالأعـلى

لتُشكِّلها إلى أشكال غريبة. جلس بالقرب من الباب رجُلٌ مُشعِر كثيف العضلات على مقعد خشبي، يراقب المخرطة العملاقة تدير لوحًا حديديًّا في حجم صومعة الغلال.

خطَرَت لديڤيد الآن فكرة البحث في دليل هواتف الشركة حتى يتعرَّف على اسم مديره. نادى على مُشغِّل الماكينات من على بُعد أقدام قليلة، لكن صوته ضاع في الضجيج. فخبط على كتف الرجل.

"أثمة هاتِفٌ قريب؟".

أومأ الرجل. كوَّر يديه حول أذن ديڤيد وصاح: "اصعد من هنا، واعبر الـ..."، ودوَّى ارتطام مطرقة، "انعطِفْ يسارًا وتابِعْ إلى الأمام حتى..."، ألقت رافعة مُثبَّتة في السقف حزمة من الشرائح الفولاذية، "وبعد أربعة أبواب ستجده، لن تُخطِئَه".

خرج ديڤيد، بآذان تَرنُّ ورأس تَئِنُّ، إلى الشارع مُجدَّدًا واختار بابًا آخر. ووجد السلام والهواء المكيَّف. كان في بهو قاعة عرض كبيرة، حيث كانت مجموعة رجال تفحص صندوقًا مُرصَّعًا بالأزرار والأقراص، عليه بقعة ضوء، ومُثبَّتًا على منصَّة تدور حول نفسها.

قال لموظَّفة الاستقبال عند الباب: "أرجوكِ يا آنسة، هل بوسعك أن تخبريني بمكان الهاتف؟".

قالت: "إنه في الرُّكن التالي يا سيدي، لكن أخشى أنه من غير المسموح بالدخول لأيِّ شخصٍ اليوم عدا علماء البلَّوريَّات. هل أنت معهم؟".

قال ديڤيد: "نعم".

"أوه، في هذا الحالة ادخُلْ. اسمُك؟".

أخبرها، فدوَّنه الرَّجُلُ الجالس بجوارها على بطاقة. فعلَّق ديڤيد البطاقة على صدره وتوجَّه نحو الهاتف. رجُلٌ مُبتَسِمٌ أصلَعُ أسنانه

كبيرة، يرتدي بطاقة تقول "ستان دنكل، مبيعات"، أوقفه وقاده تجاه منصَّة العرض.

قال دنكل: "دكتور بوتر، دعني أسألك: أليست هذه الطريقة المثلى لبناء سبيكتروجونيمتر أشعَّة سينية؟".

قال ديڤيد: "نعم هذه هي الطريقة بالتأكيد".

قالت خادِمة تحمل صينية: "مارتيني يا دكتور بوتر؟".

أفرغ ديڤيد مارتيني في جرعة واحدة ساخنة لاذعة.

قال دنكل: "ما المميِّزات التي تريدها في سبيكتروجونيمتر الأشعَّة السينية يا دكتور؟".

قال ديڤيد: "يجب أن يكون متينًا يا مستر دنكل"، وترك دنكل يقسم بسُمعَتِه أن ليس هناك ما هو أمتن منه على الأرض.

في كابينة الهاتف، لم يكد ديڤيد يمرُّ على سِجِلِّ حرف A حتى عاد إلى وعيه اسم مديره بمعجزة: فليمر! وجد رقمه واتَّصل به.

قالت امرأة: "مكتب مستر فليمر".

"هل أستطيع الحديث معه لو سمحتِ؟ أنا ديڤيد بوتر".

"أوه مستر بوتر. مستر فليمر خرج لمكان ما في الورش الآن، لكنه ترك لك رسالة. قال إن هناك إضافة جديدة في قصَّة الغزال. عندما يمسكونه، سيُقدَّم لحمه في نادي الرُّبع قرن".

قال ديڤيد: "نادي الربع قرن؟".

"إنه شيء كبير يا مستر بوتر. هو للناس الذين أمضوا في الشركة خمسة وعشرين عامًا أو أكثر. مشروبات مجَّانيَّة وسيجار مجاني، وأفضل شيء في كل شيء. يقضون هناك أمتع الأوقات".

"أي شيء آخر عن الغزال؟".

قالت: "لا شيء لم يَقُله لك"، وقطَعَت الاتصال.

وقـف ديڤيـد بوتـر، بثلاثـة مارتينـي عـلى مَعِـدَة خاويـة، أمـام قاعـة العـرض ينظـر يمينًـا ويسـارًا بحثًـا عـن الغـزال.

"لكـن سـبيكتروجونيمترنا متـينٌ يـا دكتـور بوتـر"، قالهـا سـتان دنـكل مـن مدرَّجـات قاعـة العـرض.

عـبر الشـارع كانـت هنـاك مسـاحة خـضراء تحدُّهـا شـجيرات. حـشر ديڤيـد نفسـه عبرهـا مـارًّا إلى ملعـب السـوفتبول، عبره إلى خلـف المدرجات حيـث وجـد ظِـلًّا بـارِدًا، فجلـس مسـتندًا بظهـره إلى السـياج الشَّـبكيِّ السِّـلكي الـذي يفصـل نهايـة الـورش عـن غابـة الصنوبـر العميقـة. كان في السـياج بوَّابتـان، لكـن كلتاهـما كانـت مُغلَقـة.

كان ينـوي الجلـوس هنـاك لهُنَيهَـة، بمـا يكفـي لاسـتجماع أعصابـه وتخمـين مـاذا سـيفعل. ربمـا بوسـعه تَـركُ رسـالة لفليمـر تقـول إنـه مَـرِضَ فجـأةً، وهـو مـا حـدث فعـلًا، أو...

صـاح أحدهـم مـن الجانـب الآخـر للملعـب: "هـا هـو هنـاك". انطلقت صيحـاتٌ مُبتَهِجَـة وأوامـر عاليـة، وأصـوات رجـالٍ تجري.

اندفـع غـزال بقـرونٍ مكسـورة تحـت المُدرَّجـات، ورأى ديڤيـد، وجـرى كالمحمـوم إلى المسـاحة المفتوحـة أمـام السـياج. كان في جَريَتِـه عَـرَج، وصوفـه البُنِّـيُّ المائـل للحَـمار كان مُبقَّعًـا بالسُّـخام والدهـون.

"عـلى رِسـلكم! لا تُفزِعـوه! حافِظـوا عليـه هنـا. أطلِقـوا في اتجـاه الغابـة لا الوِرَش".

خـرج ديڤيـد مـن تحـت المدرَّجـات ليجـد نصـفَ دائـرة واسـعة مـن الرجـال ذات عـدَّة صفـوف، تقفـل نفسـها ببـطء عـلى ركـن السـياج المُحـاصَر فيـه الغـزال. في الصـف الأمامـي كانـت هنـاك دسـتة مـن رجـال

شرطـة الشركـة بمسدَّسـات مُشـهَرة، وآخـرون يحملـون عِصيًّـا وطوبًـا وأوهـاق صُنِعَـت عـلى عَجَـلٍ مـن أسـلاك.

نبـش الغـزال في العُشـب، وقفـز، وهَـزَّ قرونـه المكسـورة تجـاه التَّجَمهُر. صـاح صـوتٌ مألـوف: "انتظـروا!". عـبرت ليموزيـن تابِعَـة للشركـة الملعـب ووقفـت خلـف الصفـوف. مـن النافـذة تـدلَّى لـو فليمـر، مديـر ديڤيـد. أمـر فليمـر: "لا تقتلـوه قبـل أن نُصَـوِّره حيًّـا". سـحب مـن الليموزيـن مُصـوِّرًا ودفعـه إلى الصفـوف الأماميـة.

رأى فليمـر ديڤيـد يقـف وحيـدًا عنـد السـياج بظهـره إلى البوَّابـة. قـال لـه: "رائـع يـا بوتـر، في مركـز الأحـداث مبـاشرة، تـاه المصـوِّر واضطـررت لإحضـاره إلى هنـا بنفـسي".

لمعـت مصابيـحُ الفـلاش مـن كامـيرا المصـوِّر. جفـل الغـزال وأسرع عـلى طـول السـياج باتجـاه ديڤيـد. فَـكَّ ديڤيـد قُفـلَ البوَّابـة فانفتحـت عـلى مصراعيهـا. وبعـد ثانيـة كان ذيـل الغـزال الأبيـض يلمـع بينـما يبتعـد تجـاه الغابـة.

الصَّمـتُ العميـق كسرتـه أوَّلًا صافـرَةُ بَـدءِ المُحـرِّك، ثـم تكَّـة مـزلاجٍ بعدمـا خَطـا ديڤيـد إلى الغابـة وأغلـق البوَّابـة خلفـه. لم ينظـر إلى الـوراء.

(1955)

الكذبة

كان الربيـع في بدايتـه. تَمـدَّدَت أشـعَّةُ الشـمس الواهنـة عـلى الجليـد الرمـادي القديـم. التمَعَـت أغصـان الصفصـاف تحـت السـماء بهالَـةٍ ذهبيـة تُظهـر عُسَـيلات الصفصـاف وقـد أوشـكت عـلى الإزهـار. قطعـت سـيارة رولـز رويـس سـوداء طريـق كونيتيكـت الرئيـسي قادِمـةً مـن مدينـة نيويـورك. خلـف مقودهـا جلـس بِـن بـاركلي، الشـوفير الأسـود.

قـال دكتـور ريمنـزل: "التَـزِمْ بالسرعـة القانونيـة يـا بِـن. مهـما بـدت حـدود السرعـة سـخيفةً، أنـا لا أهتـمُّ، لا تتجاوَزهـا. لا نحتـاج للتَّعجُّـل، لدينـا الكثـير مـن الوقـت".

خَفَّـف بِـن ضغطـه عـلى دوَّاسـة الوقـود. قـال: "يبـدو أنهـا أيضًـا تـودُّ أن تقـوم وتجـري".

قال الدكتور: "افعَلْ ما بوسعِكَ لتكبحها، حسنًا؟".

قـال بِـن: "حسـنًا يـا سـيدي". ثـم تَحـدَّث بصـوت منخفـض إلى الفتـى ذي الأعـوام الثلاثـة عـشر الـذي يركـب بجـواره، إلى إيـلاي ريمـنـزل. قـال لـه: "ليـس النـاس والحيوانـات فقـط مَـن يشـعرون بالانتعـاش في الربيـع، المواتـير تشـعر بذلـك أيضًـا".

قال إيلاي: "همم".

قال بِن: "كل شيء سعيد، ألا تشعر بالسعادة؟".

قال إيلاي بخواء: "طبعًا طبعًا أنا سعيد".

قـال بِـن: "يجـدر بـك أن تكـون كذلـك، فأنـت ذاهـب إلى مدرسـة رائعـة".

المدرسـة الرائعـة كانـت مدرسـة وايتهيـل لـلأولاد، مدرسـة إعداديـة خاصَّـة في نـورث مارسـتون بماساتشوسـتس.

تلـك كانـت وجهـة الرولـز رويـس. الخطَّـة كانـت إلحـاق إيـلاي بفصـل الخريـف الـدراسي، بينـما يحـضر والـده، خريـج دفعـة 1939، اجتـماع مجلـس مـشرفي المدرسـة.

قـال بِـن: "لا أصـدِّق أن هـذا الولـد سـعيدٌ للغايـة يـا دكتـور". لم يكـن بالـضرورة يعنـي مـا قـال، بـل كان أقـرب لدردشـة الربيـع الوديـة.

قـال الدكتـور بغـير تركيـز: "مـا الأمـر يـا إيـلاي؟". كان يـدرس مُخطَّطات الثلاثـين غرفـة الإضافيـة لمهجـع إيـلاي ريمـنـزل التـذكاري؛ وهـو مبنـى سُـمِّي كذلـك تكريمًـا لجَـدِّ جَـدِّ جَـدِّه. مُخطَّطـات دكتـور ريمـنـزل كانـت تغطِّـي سـطح نافـذة مـن خشـب الجَـوز مُثبَّتـة في ظهـر المقعـد الأمامـي. كان رجـلًا ضخـمًا مهيبًـا، طبيبًـا، يعالـج النـاس بغـرض العـلاج، بمـا أنـه وُلِـدَ ثريًّـا ثـراءَ شـاه إيـران. سـأل إيـلاي دون أن يرفـع عينـه مـن المخططـات: "أهنـاك مـا يُقلِقُـكَ؟".

قال إيلاي: "لا".

أم إيـلاي الجميلـة، سـيلفيا، جلسـت بجـوار الدكتـور، تقـرأ كتالـوج مدرسـة وايتهيـل. قالـت لإيـلاي: "لـو كنـتُ مكانـك، كنـت سـأتحمَّس حتـى ينقطـع نفـسي. أفضـل أربعـة أعـوام في حياتـك عـلى وشـك أن يبـدؤوا".

قـال إيـلاي: "طبعًـا". لم يُرِهـا وجهـه، قـدَّم لهـا فقـط ظهـر رأسـه، مروحـة مـن الشَّـعر البُنِّـيِّ الخَشِـن الـذي يعلـو ياقـة بيضـاء متيبِّسـة، لتتكلَّـم معهـا.

قالت سيليفيا: "أتساءل كم ريمنزل ذهب إلى وايتهيل".

قـال الدكتـور: "وكأنـك تسـألين كـم مَيِّتًـا في المقابـر"، وأجـاب عـلى المَزحـة القديمـة وسـؤال سـيليفيا في نفـس الوقـت: "كلهـم".

قالـت سـيلفيا: "لـو أحصـوا كل ريمـنزل ذهـب إلى وايتهيـل، مـاذا سـيكون رقـم إيـلاي؟ هـذا قصـدي".

أزعـج السـؤالُ دكتـور ريمـنزل قليـلًا، لم يَبـدُ نابعًـا مـن ذَوقٍ رفيـع. قـال: "ذلـك ليـس مـن الأشـياء التـي نحصيها".

قالت زوجته: "خَمِّن".

قـال: "أوه، ليكـون بوسـعنا البـدء في التخمـين، سـيكون علينـا فحـص كل السِّـجلَّات، حتـى تلـك التـي تعـود إلى نهايـات القـرن الثامـن عـشر. وسـيكون عليـكِ أن تُقـرِّري إن كُنَّـا سـنعتبر آل سـكوفيلد وآل هـالي وآل مكليلانـز مـن آل ريمـنزل أم لا".

قالـت سـيلفيا: "خَمِّـن أرجـوك، فقـط أولئـك الذيـن يحملـون اسـم ريمـنزل".

هزَّ الدكتور كتفيه، "أوه..."، عبث في مُخططَّاته، "ربما ثلاثون".

قالـت سـيلفيا مبتهجـة بالرَّقـم: "إذن إيـلاي رقـم واحـد وثلاثـين!"، وقالـت لظهـر رأس إيـلاي: "أنـت رقـم واحـد وثلاثـين يـا عزيـزي".

عبث دكتور ريمنزل في مُخططاته مُجددًا. قال: "لا أريده أن يدور هنا وهناك مُرددًا شيئًا أحمق مثل أنه رقم واحد وثلاثين".

قالت سيلفيا: "إنه أذكى من ذلك". كانت امرأةً بسيطة طموحة، بلا ممتلكات شخصية على الإطلاق. كانت متزوِّجة منذ ستة عشر عامًا، لكن فضولها وحماسها تجاه أساليب حياة الأغنياء عبر الأجيال لا يزالان مُتَّقِدين.

قالت سيلفيا: "هذا فقط لإرضاء فضولي الشخصي، وليس كي يمضي إيلاي مُرددًا رقمه. سأذهب إلى حيث يحتفظون بالسِّجلَّات لمعرفة ما هو رقمه. هذا ما سأقوم به بينما أنت في الاجتماع وإيلاي يفعل أيًّا كان ما يفعلونه في مكتب القبول".

قال دكتور ريمنزل: "حسنًا، افعلي ما تريدين".

قالت سيلفيا: "سأفعل، أعتقد أن تلك الأشياء مثيرة للاهتمام حتى وإن كان رأيك العكس". انتظرت رَدَّ فِعلٍ تَصاعُديٍّ على ذلك، لكنها لم تَنل واحدًا. تستمتع سيلفيا بالجدال مع زوجها بخصوص قِلَّة تَحفُّظها مقابل تَحفُّظه المبالغ فيه، وتستمتع بأن تقول في نهاية كل جدال: "حسنًا، أعتقد أني لستُ في الأساس إلَّا فلَّاحة ساذجة، ولن أكون غير ذلك، وأخشى أن عليك التعوُّد على ذلك".

لكن دكتور ريمنزل لم يرغب في لعب تلك اللعبة، مُخطَّطات المهجع كانت بالنسبة له أجدر بانتباهه. قالت سيلفيا: "هل سيكون في الغُرَف الجديدة مدافئ؟". في أقدم أجزاء المهجع، توجد في بعض الغرف مدافئ فاخرة.

قال الدكتور: "عمليًّا سيُكلِّف هذا الضعف".

قالت سيلفيا: "أريد أن يحظى إيلاي بغرفة ذات مدفأة، لو كان ذلك ممكنًا".

"هذه الغرف للطلاب الأكبر".

قالت سيلفيا: "فكَّرتُ أن ربما ببعض الحظ...".

قال الدكتور: "أي نوع من الحَظِّ تفكِّرين فيه؟ أتعنين أن أُطالب لإيلاي بغرفة بمدفأة؟".

قالت سيلفيا: "لا تُطالِب...".

قال الدكتور: "أطلب بحزم؟".

قالت: "ربما أنا لستُ في الأساس إلا فلاحة ساذجة، لكني أنظر في الكتالوج وأرى كل تلك المباني عليها أسماء ريمنزل، وأرى مئات آلاف الدولارات يدفعها آل ريمنزل للمِنَح الدراسية، ولا يسعني إلا التفكير أن أولئك المدعوُّون بريمنزل من حقِّهم أن يطلبوا قليلًا من التَّميُّز".

قال دكتور ريمنزل: "دعيني أخبرك بكلمات لا تقبل المُساءَلَة، أنتِ لن تطلبي أيَّ شيء خاص لإيلاي، لا شيء على الإطلاق".

قالت سيلفيا: "بالطبع لن أفعل. لماذا تظنُّ دومًا أني سأفعل ما يُحرِجُك؟".

قال: "لا أفعل".

قالت: "لكن يَحقُّ لي أن أفكِّر كما أفكِّر، أليس كذلك؟".

قال: "إن كنتِ مُضطرَّة لذلك".

قالت بفرحة غير نادمة على الإطلاق: "أنا كذلك"، ثم انحنت على المُخطَّطات، "أتظنُّ أولئك الناس سيحبُّون هذه الغرف؟".

قال: " أي ناس؟".

قالت: "الإفريقيُّون". كانت تتحدَّث عن الأفارقة الثلاثين الذين سيلتحقون بوايتهيل في الفصل الدراسي القادم، بناءً على طلب وزارة الخارجية. وكان ذلك سبب بناء امتدادٍ للمهجع.

قـال: "الغـرف ليسـت مـن أجلهـم، لـن يضعوهـم في معـزل عـن الآخريـن".

قالـت سـيلفيا: "أوه"، فكَّـرَت في الأمـر لوهلـة ثـم قالـت: "هـل هنـاك احتـمال أن يصبـح أحدهـم رفيـق غرفـة إيـلاي؟".

قـال الدكتـور: "يقـترع الطَّلبَـة الجُـدُد لاختيـار رفـاق السَّـكن. هـذه المعلومـة أيضًـا في الكتالـوج".

قالت سيلفيا: "إيلاي؟".

قال إيلاي: "همم؟".

"كيف سيكون شعورك لو صار أحد أولئك الأفارقة رفيق غرفتك؟".

هزَّ إيلاي كتفيه بفتور.

"هل هذا مناسب؟".

هزَّ إيلاي كتفيه مُجدَّدًا.

قالت سيلفيا: "أظنُّه مناسب".

قال الدكتور: "من الأفضل أن يكون كذلك".

مـرَّت الرولـز رويـس بمحـاذاة شـيڤروليه قديمـة، سـيارة في حالـة متداعيـة حتـى إن بابهـا الخلفـي كان مُغلقًـا بحبـل غسـيل. نظـر دكتـور ريمنـزل عَرَضًـا إلى سـائقها، ثـم بسـعادة وحـماس مباغِتَـيْن، طلـب مـن بِـن بـاركلي أن يظـلَّ بمحاذاتهـا.

مـال الدكتـور متجـاوزًا سـيلفيا، أنـزل نافذتـه، صـاح عـلى سـائق الشـيڤروليه: "تـوم! تـوم!".

كان الرَّجُـل زميـل وايتهيـلي للدكتـور، وكان يرتـدى رابطـة عنـق وايتهيـل. لـوَّح للدكتـور سـعيدًا بعدمـا عرفـه، ثـم أشـار لابنـه الوسـيم

بجـواره، مُوضِّحًـا بابتسـاماتٍ وإيمـاءات فخـورة أن الولـد في طريقـه إلى وايتهيـل.

أشـار دكتـور ريمنـزل إلى الفـوضى في خلفيَّـة رأس إيـلاي، مُوضِّحًـا الأمـر نفسـه. وعـبر الريـح التـي تـزأر بـين السـيارتين، اتَّفقـا عـلى موعـد غـداء في هـولي هـاوس بقريـة نـورث مارسـتون، في النُـزُل الـذي يهـدف أساسًـا لخدمـة زُوَّار وايتهيـل.

قال دكتور ريمنزل لبن باركلي: "تمام، تابع القيادة".

قالـت سـيلفيا: "أتعـرف، يجـب أن يكتـب أحدهـم مقـالًا..."، ثـم دارت لتنظـر مـن النافـذة الخلفيـة إلى السـيارة القديمـة التـي تركوهـا ترتجـف عـلى الطريـق خلفهـم، "عـلى أحدهـم أن يفعـل بالتأكيـد".

قـال الدكتـور: "عـن مـاذا؟"، لاحـظ أن إيـلاي قـد انكمـش في مقعـده الأمامـي، قـال بجِـدَّة: "إيـلاي! اعتَدِلْ في مجلسـك". وأعـاد انتباهه لسـيلفيا.

قالــت سـيلفيا: "أغلــب النــاس يحســبون المــدارس الإعداديــة شــيئًا متبجِّحًــا يتفاخــر بــه الأثريــاء، لكــن هــذا ليــس صحيحًــا". قلبــت في الكتالــوج حتــى وجــدت الاقتبــاس الــذي تبحــث عنــه.

"مدرسـة وايتهيـل تقـوم عـلى مبـدأ أن أحـدًا لا يجـب أن يمتنـع عـن التقـدُّم للمدرسـة؛ لأن أسرتـه غـير قـادرة عـلى تحمُّـل نفقـة التعليـم في وايتهيـل كاملـة. بأخـذ هـذا في الاعتبـار، تختـار لجنـة القبـول كلَّ سـنة مـن بـين حـوالي 3000 مرشـح 150 مـن أكـثر الأولاد الواعديـن المسـتحقِّين، بغَـضِّ النظـر عـن قُـدرَة والديهـم عـلى دفـع 2200 دولار كمصاريـف. وتُمنَـح للمحتاجـين مسـاعدة ماليـة بقـدر حاجتهـم مهـما كانـت. حتـى إن المدرسـة في بعـض الحـالات سـتدفع مقابـل الملابـس والمواصـلات للولـد".

هـزَّت سـيلفيا رأسـها. "أعتقـد أن ذلـك رائـع جـدًّا، إنـه شيء لا يدركـه أغلـب النـاس عـلى الإطـلاق. يسـتطيع ابـن سـائق شـاحنة أن يلتحـق بوايتهيـل".

قال: "إن كان ذكيًّا بما يكفي".

قالت سيلفيا بفخر: "بفضل آل ريمنزل".

قال الدكتور: "والكثير غيرهم أيضًا".

قـرأت سـيلفيا بصـوت عـالٍ مُجـدَّدًا: "في 1799، أسَّـس إيـلاي ريمنـزل "صنـدوق المِنَـح الدراسـية"، بتَبَرُّعهـم للمدرسـة بأربعـين فدانًـا في بوسـطن. لا تـزال المدرسـة تملـك اثنـي عـشر فدَّانًـا منهـم، قيمتهـم الحاليـة هـي ثلاثـة ملايـين دولار".

قال الدكتور: "إيلاي! اعتَدِلْ في مجلس، ما خَطبُكَ؟".

اعتـدل إيـلاي مُجـدَّدًا، لكنـه بـدأ ينكمـش مـرَّةً أخـرى فـورًا تقريبًـا، كرَجُـلٍ ثَلجـيٍّ في الجحيـم. كان لـدى إيـلاي داعٍ حقيقـيٌّ للانكـماش، أو في الواقـع لِتَمنِّـي المـوت أو الاختفـاء. لم يقـدر عـلى إرغـام نفسـه عـلى قـول السـبب. انكمـش إيـلاي لأن طلـب التحاقـه بوايتهيـل قوبِـلَ بالرفـض، لقـد رسـب في امتحانـات القبـول. والـدا إيـلاي لم يَعلَـما هـذا؛ لأن إيـلاي وجـد الرسـالة البريديـة الشـنيعة قبلهـم ومزَّقهـا.

دكتـور ريمنـزل وزوجتـه لم تراودهـما أي شـكوك بخصـوص قبـول ابنهـما في وايتهيـل. لم يكونـا قادِرَيْـن عـلى مجـرَّد تَخيُّـل أن إيـلاي لـن يسـتطيع الالتحـاق بهـا؛ لـذا لم يشـعرا بفضـول إزاء أداء إيـلاي في الاختبـارات، ولم يُحيِّرهـما عـدم وصـول أي تقاريـر أداء.

قالـت سـيلفيا فيـما تقطـع الرولـز رويـس حـدود رود آيلانـد: "مـاذا سـيكون عـلى إيـلاي أن يفعـل للتسـجيل؟".

قال الدكتور: "لا أدري، أعتقد أن الأمور اختلطت عليهم مع كل تلك الاستمارات التي يجب مَلؤُها أربعَ مَرَّات، وآلات الكروت المثقوبة، والبيروقراطيِّين. موضوع اختبارات القبول هذا كله جديد. على أيَّامي، كان الناظر يقابل الولد ببساطة، ينظر إليه ويسأله عدَّة أسئلة، ثم يقول "صار لدينا ولد وايتهيلي جديد"".

قالت سيلفيا: "هل قال قَطُّ هذا ليس ولد وايتهيلي؟".

قال دكتور ريمنزل: "أوه، بالطبع. إن كان الولد غبيًّا إلى حدٍّ استثنائي أو شيء كهذا. لطالما كانت هناك معايير. والصبية الأفارقة يجب أن يتجاوزوا تلك المعايير مثل البقية. هم لم يلتحقوا فقط لأن وزارة الخارجية تريد أن تكوِّن صداقات. لقد أوضحنا ذلك تمامًا، يجب أن يلائم الصِّبية المعايير".

قالت سيلفيا: "وهل فعلوا؟".

قال دكتور ريمنزل: "أعتقد ذلك. لقد قُبلوا جميعًا، وكلهم أخذوا الامتحان نفسه الذي أخذه إيلاي".

سألت سيلفيا إيلاي: "أكان امتحانًا صعبًا يا عزيزي؟". تلك كانت أول مرَّة تسأله بشأن الامتحان.

قال إيلاي: "همم".

قالت: "ماذا؟".

قال إيلاي: "نعم".

قالت: "أنا سعيدة لأن معاييرهم عالية لهذه الدرجة"، ثم شعرت أن هذه عبارة ساذجة نوعًا. قالت: "بالطبع معاييرهم عالية؛ لهذا تتمتَّع مدرستهم بهذه الشُّهرة؛ لهذا يُحقِّق مَن يَتخرَّجون منها الكثير في حياتهم لاحقًا".

تابَعَت سيلفيا القراءة في الكتالوج من جديد، فتحت خريطة مطويَّةً تحت عنوان "المرعى"، الاسم القديم لحرم مدرسة وايتهيل. قرأت أسماء المعالم التي خلَّدت ذكرى آل ريمنزل: بيت طيور سانفورد ريمنزل، ساحة تَزلُّج چورچ مكليلان ريمنزل، مهجع إيلاي ريمنزل التذكاري. ثم قرأت بصوت مسموعٍ رُباعيَّةً مطبوعةً في رُكن الخريطة:

عندما يهبط الليل برِقَّة، على المرعى البرَّاق

إلى وايتهيل يا عزيزي وحدها، قلوبنا تشتاق

قالت سيلفيا: "أتعلم، أناشيد المدارس تبدو شديدة السذاجة عندما تقرؤها. لكن عندما أسمع فريق الكورال يغنِّي تلك الكلمات، تبدو لي أجمل ما كُتب من كلمات على الإطلاق، وتجعلني أرغب في البكاء".

قال دكتور ريمنزل: "هممم".

"هل كتبها ريمنزل؟".

قال دكتور ريمنزل: "لا أظنُّ ذلك"، ثم قال: "لا، انتظري... هذه هي الأغنية الجديدة، لم يكتبها ريمنزل، بل كتبها توم هيلر".

"الرجل الذي مَرَرنا بسيَّارته لتوِّنا؟".

قال دكتور ريمنزل: "بالطبع. توم كتبها، أتذكَّر عندما فعل".

قالت سيلفيا: "كتبها طالِبُ مِنحَة؟ أظنُّ ذلك أمرًا لطيفًا جدًّا. كان طالب منحة دراسية، أليس كذلك؟".

"كان أبوه ميكانيكي سيارات عاديًّا من نورث مارستون".

قالت سيلفيا: "أترى إلى أيِّ مدى مدرستك ديموقراطية يا إيلاي؟".

* * *

بعد نصف ساعة، أوقف بِن باركلي الليموزين أمام الهولي هاوس، نزل قرويٌّ مُتداعٍ أقدم من الجمهورية بعشرين عامًا. كان النُّزُل على حافَّة مرعى وايتهيل، يمكنك أن تلمح منه أسطح مباني المدرسة وأبراجها تطلُّ على الجموح البريء لبيت طيور سانفورد ريمنزل.

أُرسل بِن باركلي بعيدًا مع السيارة لساعة ونصف. أرشد دكتور ريمنزل سيلفيا وإيلاي إلى عالَمٍ مألوف منخفض السَّقف من الأواني القصديريَّة والساعات والأخشاب القديمة المُحبَّبة والخدم المُهذَّبين والطعام والشراب الفاخر.

إيلاي، الذي كان يتحرَّك بخرق من رعبه ممَّا سيأتي حتمًا، ارتطم كوعه بساعة جَدَّة[1] بينما يمرُّ؛ ما جعل الساعة تصيح.

استأذَنَت سيلفيا. دكتور ريمنزل وإيلاي عبَرَا عتبةَ غرفة تناول العشاء، حيث رحَّبت بهما مضيفة مستَخدِمَةً أسماءهم. خُصِّصت لهم مائدة تحت لوحات لفتيان وايتهيل الثلاثة الذين صاروا رؤساء للولايات المتحدة الأمريكية.

امتلأت الغرفة بسرعة بالعائلات. الشيء المشترك بينهم جميعًا كان وجود صبيٍّ واحد على الأقل في عمر إيلاي. أغلب الصِّبية ارتدوا سُترات وايتهيل؛ سوداء ذات شرائط شاحبة زرقاء، مع ختم وايتهيل على جَيب الصدر. قليلًا منهم، مثل إيلاي، لم يكونوا مستحقِّين بَعدُ لارتداء السُّترات، كانوا ببساطة يأملون في الالتحاق.

طلب الدكتور مارتيني، ثم توجَّه إلى ابنه وقال: "لدى أُمِّكَ اقتناعٌ أنَّك تستحقُّ مُعامَلَةً خاصَّة هنا. أتمنى أنك لا تعتنق ذات الرأي أيضًا".

قال إيلاي: "لا يا سيدي".

---

(1) ساعة جدَّة grandmother clock: ساعة الجدَّة هي ساعة ذات بندول في إطار طويل تقف على قاعدة (أي غير مُعلَّقة على حائط). [المترجم]

قال دكتور ريمنزل بعَظَمةٍ ملحوظة: "لو سمعت في أي وقت أنك استخدمت اسم ريمنزل وكأن آل ريمنزل مميَّزون بشكل ما، سيكون ذلك مصدرَ إحراج عظيم لي".

قال إيلاي ببؤس: "أعلم".

قال الدكتور: "هذا يُنهي المسألة". لم يكن لديه أيُّ شيء آخر يضيفه في هذا الخصوص. وَزَّع تحيات مُقتَضَبة على بعض الأشخاص في الغرفة، وأخذ يَحزر نوعَ الناس الذين حُجزت لهم مائدة الولائم الطويلة التي تُجهَّز حذاء أحد الحوائط، وقرَّر أن يزور الفريق الرياضي. وصلت سيلفيا، وقيل لإيلاي في همسة حادَّة أن ينهض عندما تنضمُّ إلى المائدة امرأة.

كانت سيلفيا مُفعَمة بالأخبار. ذكرت أن المائدة الطويلة كانت مُخصَّصةً للفِتية الثلاثين من إفريقيا. قالت بنعومة: "أراهن أن ذلك أكبر عدد مُلوَّنين يأكلون الطعام هنا منذ وُضِعَ أساس ذلك المكان. كم تتغيَّر الأشياء بسرعة هذه الأيام!".

قال دكتور ريمنزل: "أنتِ مُحقَّة بشأن سرعة تغيُّر الأشياء، لكنَّكِ مُخطِئة بشأن كَمِّ المُلَوَّنين الذين أكلوا هنا. كان هذا المكان جزءًا نَشِطًا من خطوط قطار تحت الأرض".

قالت سيلفيا: "فعلًا؟ كم أن هذا مثير". بَدَت منشغلة بنفسها بالكامل بطريقةٍ تشبه الطيور. "أعتقد أن كل شيء هنا مثير. أتمنى فقط لو كان إيلاي يرتدي سترة".

احمرَّ وجه دكتور ريمنزل. قال: "ليس مُستحقًّا لفعل ذلك بعد".

قالت سيلفيا: "أعلم".

قال الدكتور: "حسبتُكِ ستسألين أحدهم أن يأذن لإيلاي بارتداء السترة حالًا".

قالت سيلفيا وهي تشعر ببعض الإهانة: "لم أكن لأفعل ذلك. لماذا تخاف دومًا من أني سأحرجك؟".

قال دكتور ريمنزل: "لا يهمُّكِ، اعذريني، انسي الأمر".

أشرَقَت سيلفيا مُجدَّدًا، وضعت يدها حول ذراع إيلاي، ونظرت ببهاء إلى رَجُلٍ في مدخل غرفة العشاء. قالت: "ها هو شخصي المفضَّل في العالم كله، بعد زوجي وابني". كانت تعني دكتور دونالد وارين، ناظر مدرسة وايتهيل. رَجُل نبيل نحيل في أوائل ستِّيناته. دكتور وارين كان في مدخل الغرفة بصُحبَة مدير النُّزل، يُشرِف على تجهيزات استقبال الإفريقيين.

وكان حينها أن نهض إيلاي بغتةً، وهرب من غرفة العشاء، هرب من أكبر قدرٍ مُمكِن من الكابوس يستطيع أن يتحاشاه. احتكَّ بدكتور وارين بوقاحة، رغم أنه يعرفه جيدًا، رغم أن دكتور وارين نَطَقَ باسمه. نظر له دكتور وارين وهو يذهب بحزن.

قال دكتور ريمنزل: "فليرحمني الله! ما الذي أَلَمَّ به؟".

قالت سيلفيا: "ربما هو مريض جدًّا".

لم تسنح الفرصة لآل ريمنزل أن يستجيبوا لما حدث بوضوح؛ لأن دكتور وارين رآهم واجتاز الغرفة بسرعة إلى مائدتهم. حيَّاهم، تحيَّةً يشوبها بعض من ارتباكه بسبب إيلاي. وسأل إن كان بوسعه الجلوس.

قال دكتور ريمنزل بمبالَغَة: "بالطبع، بلا شكٍّ. يا للسماء! يُشرِّفنا أن تفعل".

قال دكتور وارين: "ليس لآكُلَ، سآكُلُ على المائدة الطويلة مع الأولاد الجُدُد. لكني أوَدُّ الحديث". لاحظ أن المائدة مُجهَّزة لخمسة أفراد، "أتنتظرون أحدهم؟".

قـال دكتـور ريمنـزل: "مَرَرنـا بتـوم هيلـر وابنـه في طريقنـا، سـيكونان هنـا في أي لحظـة".

قـال دكتـور واريـن بـشرود: "جيـد، جيـد". تَمَلمَـلَ، نظـر مُجـدَّدًا حيـث اختفـى إيـلاي.

قال دكتور ريمنزل: "ابن توم سيلتحق بوايتهيل هذا الخريف؟".

قال دكتور وارين: "ماذا؟ أوه... نعم، نعم سيفعل".

قالت سيلفيا: "هل سيكون طالِبَ مِنحةٍ مثل أبيه؟".

قال دكتور ريمنزل بحدَّة: "هذا ليس سؤالًا مهذَّبًا".

قالت سيلفيا: "أستميحكم العذر".

قـال دكتـور واريـن: "لا لا، صار هـذا سـؤالًا مناسـبًا تمامًـا هـذه الأيـام. لم نَعُـد نحتفـظ بهـذا النـوع مـن المعلومـات سرًّا. نحـن فخـورون بطُـلَّاب المِنـح، ولديهـم كل أسـباب الفخـر بأنفسـهم. ابـن تـوم أحـرز درجـات أعـلى مـمَّا أحـرز أيُّ صَبـيٍّ دخـل امتحانـات القبـول مـن قبـل. إننـا محظوظـون باسـتقباله".

قـال دكتـور ريمنـزل: "لم نعـرف قَـطُّ درجـات إيـلاي". قالهـا بتراجُـعٍ مُـمازِح، دون توقُّـع أن أداء إيـلاي كان جيـدًا بشـكل اسـتثنائي.

قالـت سـيلفيا: "أتخيَّـل أنـه فـوق المتوسـط". قالتهـا بنـاءً عـلى درجـات إيـلاي في المدرسـة الابتدائيـة، التـي تراوَحَـت بـين المتوسـط والمريـع.

بدا الناظر متفاجئًا. قال: "لم أخبركم بدرجاته؟".

قال دكتور ريمنزل: "لم نَرَكَ منذ وقت الاختبارات".

قال دكتور وارين: "الخطاب الذي أرسلته لكم...".

قال دكتور ريمنزل: "أي خطاب؟ أَوَصَلنا أي خطاب؟".

قال دكتور وارين بارتياب مُتصاعِد: "خطابٌ مِنّي، أصعب خطابٍ كَتبتُه في حياتي".

هزّت سيلفيا رأسها. "لم يصلنا منك أي خطابات".

تراجع دكتور وارين في مجلسه، وقد بدا عليه السقم. قال: "لقد أرسَلتُه بنفسي، فعَلتُ بالتأكيد... قبل أسبوعين".

هزَّ دكتور ريمنزل كتفيه. قال: "البريد الأمريكي لا يُضيِّع الكثير، لكني أظنُّ أن من حين لآخر شيء ما يضيع".

أراح دكتور وارين رأسه على يديه. قال: "أوه، يا ربي.. لقد فاجَأَتني رؤية إيلاي هنا، استغرَبتُ أنه سيَودُّ المجيء معكم".

قال دكتور ريمنزل: "لم يأتِ معنا ليستمتع بالفسحة، جاء يلتحق".

قالت سيلفيا: "أريد معرفة ما الذي في الخطاب".

رفع دكتور وارين رأسه، وطبَّق يديه. "ما قاله الخطاب كان كلامًا لا أجد ما هو أصعب في قوله، وهو التالي: "بناءً على أدائه في المدرسة الابتدائية ودرجاته في اختبارات القبول، مُضطر لأن أقول إن ابنكم وصديقي الطيب إيلاي، لن يستطيع على الأرجح أداء ما هو مطلوب من أولاد وايتهيل"". ثَبَتَ صوت دكتور وارين، وكذلك نظرته. تابع: ""إلحاق إيلاي بوايتهيل، وتوقُّع أنه سيقوم بما هو مطلوب في وايتهيل، هي أمور غير واقعية، وقاسية"".

بصُحبة عدد من هيئة التدريس، ورجال الخارجية ودبلوماسيين من بلادهم، دخل الأولاد الأفارقة الثلاثون الغرفة.

ودخل توم هيلر وابنه أيضًا، ودون أدنى فكرة عن المنحى شديد السوء الذي آلت إليه أمور آل ريمنزل، ألقيا التحية على آل ريمنزل ودكتور وارين بسعادة، وكأنَّ الحياة لا يمكن أن تكون أفضل.

قال دكتور وارين لآل ريمنزل بينما ينهض: "سأتكلّم معكم أكثر عن هذا لاحقًا، إن أحببتم. الآن أنا مضطرٌّ للذهاب، لكن فيما بعد..."، وغادر بسرعة.

قالت سيلفيا: "رأسي خاوٍ، رأسي خاوٍ تمامًا".

جلس توم هيلر وابنه، نظر هيلر إلى القائمة أمامه، صفَّق بيديه وقال: "ما الجيد هنا؟ أنا جائع"، ثم قال: "أخبرني، أين ابنك؟".

قال دكتور ريمنزل بحياد: "لقد خرج لوهلة".

قالت سيلفيا لزوجها: "علينا أن نجده".

قال دكتور ريمنزل: "في وقته، كل شيء في وقته".

قالت سيلفيا: "ذاك الخطاب، إيلاي عرف به. بالطبع هو فعل!". بدأت تبكي وهي تفكِّر في الفخ القبيح الذي أوقع فيه إيلاي نفسه.

قال دكتور ريمنزل: "أنا لست مهتمًّا الآن بما فعله إيلاي. كل ما أهتمُّ به الآن هو ماذا سيفعله بعض الناس الآخرين".

قالت سيلفيا: "ماذا تعني؟".

وقف دكتور ريمنزل غاضبًا حازمًا بشكل مثير للإعجاب. قال: "أعني أني سأرى السرعة التي يستطيع بعض الناس هنا تغيير رأيهم بها".

قالت سيلفيا محاوِلَةً إبقاءه، محاوِلَةً تهدئته: "أرجوك، نحتاج لإيجاد إيلاي، هذا أهم شيء".

قال دكتور ريمنزل بصوتٍ عالٍ نوعًا: "الشيء الأهم هو إلحاق إيلاي بوايتهيل. بعدها سنجده وسنعيده".

قالت سيلفيا: "لكن يا عزيزي...".

قال دكتور ريمنزل: "لا "لكن" في الأمر. أغلب مجلس مُشرفي المدرسة موجودون في هذه الغرفة الآن. وكل منهم إمَّا هو صديق مُقرَّب لي

أو صديـق مُقـرَّب لأبي. لـو قالـوا جميعًـا لدكتـور واريـن إن إيـلاي مقبـول، فـلا كلامَ آخـر، إيـلاي مقبـول. لـو كان هنـاك مـكان لـكل هـؤلاء الآخريـن، فثمَّـة مـكان لعـينٌ لإيـلاي أيضًـا".

بخُطـى واسـعة ذهـب إلى مائـدة قريبـة، جلـس بتثاقُـل وبـدأ في الحديـث لرَجُـلٍ نبيـل مُسِـنٍّ ذي هيئـة مهيبـة جليلـة كان يـأكل هنـاك. العجـوز النبيـل كان رئيـس المجلـس.

اعتذَرَت سيلفيا بارتباكٍ لآل هيلر، وذهبت لتبحث عن إيلاي.

وجدتـه سـيلفيا بعدمـا سـألت عنـه هـذا وذاك. كان في الخـارج، وحيـدًا عـلى مقعـد في تعريشـة زهـور الليلـك، التـي بـدأت لتوِّهـا في التَّبرعُـم.

سـمع إيـلاي أُمَّـه قادمـة عـلى الطريـق الحصـوي، ظـلَّ في مكانـه مُذعِنًـا. قـال: "هـل عرفتـم؟ أم لا يـزال عـليَّ أن أخبركـم؟".

قالت برقَّة: "عرفنا ماذا؟ بعدم قبولك؟ أخبرنا دكتور وارين".

قال إيلاي: "مزَّقتُ خطاباته". مكتبة سُر مَن قرأ

قالـت: "أتفهـم ذلـك. جعلنـاك أنـا وأبـوك تشـعر أنـك مضطـرٌّ للذهـاب إلى وايتهيـل، وأن لا شيء عداهـا سيصلح".

قـال إيـلاي: "أشـعر الآن أفضـل". حـاول أن يبتسـم، وجـد أنـه قـادر عـلى ذلـك بسـهولة. "أشـعر أفضـل بكثـير بعدمـا انتهـى الأمـر. حاولـتُ إخباركـم عـدَّة مـرَّات، لكنـي لم أسـتطِع، لم أعـرف كيـف أفعـل".

قالت: "هذا خطئي، ليس خطَأك".

قال إيلاي: "ماذا يفعل أبي؟".

كانـت سـيلفيا مُركِّـزةً عـلى طمأنـة إيـلاي، لدرجـة أنهـا لم تُلـقِ بـالًا لمـا يفعلـه زوجهـا. الآن أدركـت أن دكتـور ريمنـزل يرتكـب خطـأ مُريعًـا. لم

تَعُد تريد إلحاق إيلاي بوايتهيل، استطاعت رؤية كيف سيكون ذلك فعلًا قاسيًا.

لم تستطِع إخبار ابنها بما يفعله أبوه، فقالت: "سينضمُّ لنا بعد دقائق يا عزيزي. أبوك يتفهَّم". ثم قالت: "انتظر هنا وسأذهب لأحضره وأعود".

لكنها لم تضطرّ للذهاب إلى دكتور ريمنزل؛ ففي تلك اللحظة خرج الرجل الكبير من النُّزُل ورأى زوجته وابنه، فانضمَّ لهما. بدا دائخًا.

قالت: "خيرًا؟".

قال دكتور ريمنزل بخفوت مهزوم: "قالوا... قالوا جميعًا لا".

قالت سيلفيا: "هذا أفضل. أنا مرتاحة، مرتاحة فعلًا".

قال إيلاي: "مَن قال لا؟ مَن قال لا على ماذا؟".

قال دكتور ريمنزل، متحاشيًا النظر في أي عين: "أعضاء المجلس، سألتهم استثناءً لحالتك، لعكس قرارهم وإلحاقك".

وقف إيلاي بوجهٍ امتلأ بعدم التصديق والخِزي في نفس اللحظة. قال: "سألتهم ماذا؟"، ولم يكن هناك أي طفولية في الطريقة التي نطق بها. ثم جاء الغضب: "لم يكن عليك أن تفعل ذلك!".

أومأ دكتور ريمنزل: "هذا ما قيل لي بالفعل".

قال إيلاي: "لم ينتهِ الأمر! يا له من أمر شنيع! لم يكن عليك أن تفعل".

قال دكتور ريمنزل: "أنت مُحقٌّ"، مُتقبِّلًا التقريع بخضوع.

قال إيلاي: "أنا الآن يُكلِّلني العار"، وأظهر كم يشعر بذلك.

دكتور ريمنزل، في تعاسته، لم يجد كلمات قوية يقولها، قال في النهاية: "أعتذر لكليكما، كانت فكرةً سيِّئة للغاية".

قال إيلاي: "الآن طلب ريمنزل معروفًا".

قـال دكتـور ريمنـزل: "لا أعتقـد أن بِـن عـاد بالسـيارة بعـد؟"، كان مـن الواضـح أن بِـن لم يَعُـد، قـال: "سـننتظره هنـا، لا أريـد أن أعـود إلى هنـاك الآن".

قـال إيـلاي: "طلـب ريمنـزل معروفًـا، وكأن الريمنـزل مميَّـزون بشـكل مـا".

قـال دكتـور ريمنـزل: "لا أعتقـد..."، وتـرك جُملَتَـه دون تكملـة، متدليـة في الهـواء.

قالت زوجته: "لا تعتقد ماذا؟"، وجهها ينطق بالحيرة.

قال دكتور ريمنزل: "لا أعتقد أننا سنعود إلى هنا أبدًا".

(1962)

غير جاهز للبس

لا أظنُّ أن كبارنا، أولئك الذين لم يُولَدوا هكذا، سيعتادون أبدًا على كونهم ثُنائِيِّين، ثنائيين بالمعنى الجديد للكلمة. لا زِلتُ أضبط نفسي أحيانًا أشعر بالحزن على أشياء لم تَعُد تهمُّ الآن.

لا أستطيع منع نفسي من القلق على عملي مثلًا، أو ما كان عملي. في النهاية لقد قضيت ثلاثين عامًا من حياتي أبني المباني من الصِّفر، والآن صارت المُعدَّات صَدِئَة يغطِّيها التراب. لكن حتى وأنا أعلم أن من السُّخف أن أهتمَّ بما يحدث لعملي، أستعير جسدًا من مركز التخزين بين الفينة والأخرى، وأمشي في المدينة القديمة، أنظِّف وأُزيِّت ما تَيَسَّر من المعدات بقدر الإمكان.

بالطبع كل فائدة المعدات في العالم هو جني النقود، والرب يعلم أن هناك الكثير من النقود في كل مكان. ليس بقدر ما كان موجودًا ذات يوم؛ لأن في البداية كان هناك الكثيرون ممَّن غلبتهم النشوة

وألقوها بعيدًا، وحملتها الريح إلى كل مكان. وكثير من مُنتَهِزي الفرص الذين جمعوها وخبَّؤوها. أكره أن أعترف بذلك، لكني جمعتُ ما يقرب من نصف المليون بنفسي وخبَّأتهم بعيدًا. اعتَدتُ أن أذهب لأعدهم أحيانًا، لكن ذلك كان منذ سنين. الآن يصعب عليَّ حتى قول أين هم.

لكن القلق على شُغلي القديم ليس إلَّا لعب أطفال مقارنة بقلق زوجتي مادج على بيتنا القديم. هذا ما استثمرتُ فيه الأعوام الثلاثين الذين قضيتهم في بناء عملي. ثم، عندما واتتنا الجرأة أخيرًا لبناء وتزيين مكاننا، أصبح كلُّ مَن يهمُّنا أمرهم ثُنائيِّين. تستعير مادج جسدًا كل شهر لتنظيف المكان، رغم أن الشيء الوحيد الذي تصلح له المنازل الآن هو حماية النَّمل والفئران من الإصابة بالالتهاب الرئوي.

* * *

كلَّما حان دوري للدخول في جسدٍ والعمل كمضيف في مركز التخزين المحلي، أُدرِك من جديد إلى أي مدى يصعب على الناس أكثر التعوُّد على الثنائية.

تستعير مادج أجساد أكثر بكثير ممَّا أفعل، وهذا هو حال النساء في العموم. نحتاج للاحتفاظ بأجساد نساء أكثر بثلاث مرَّات من أجساد الرجال لتلبية الطلب. يبدو أن النساء بحاجة من حين لآخر للحصول على جسدٍ وتدليله بالملابس، والنظر لأنفسهن في المرآة. ومادج، بارك الله فيها، أظنُّ أنها لن ترتاح حتى تُجرِّب كل جسد في كل مراكز التخزين على سطح الأرض.

غير أن ذلك كان أمرًا طيِّبًا لمادج. لا أمازحها في ذلك الشأن لأنه أثَّر في شخصيتها كثيرًا. بصراحة شديدة جسدها القديم، لم يكن يثير أي حماس، واضطرارها لحمله في كل مكان جعلها مُتجهِّمةً أغلب الوقت في الأزمنة المنقضية. لم تستَطِع المسكينة فِعلَ شيء حيالَه، مثلما

لا يستطيع أي شخص فعل شيء حيال نوع الجسم الذي وُلِد فيه. أحببتها برغم ذلك.

بعدما تعلَّمنا أن نصير ثُنائيِّين، وبَنَينا مراكز التخزين، ووضعنا حصيلة الأجساد وفتحناهم للجمهور، لم يستَطِع أحدٌ كبحَ جماح مادج. استعارت مادج جسدَ شقراء بلاتينية الشَّعر تبرَّعَت به راقصة إغراء، وحسبت أننا لن نستطيع إخراجها منه أبدًا. فعل ذلك بثقتها بنفسها الأعاجيب.

أنا مثل أغلب الرجال لا أهتمُّ أي جسدٍ أحصل عليه. لا يوضع في المخزن إلا الأجساد القوية الوسيمة السليمة؛ لذا لا يفرق أحدهم عن الآخر. أحيانًا، عندما نأخذ أنا ومادج أجسادًا لنستعيد أيام زمان، أدعها تختار لي جسدًا يليق عليَّ، أيًّا كان ما تختاره لنفسها. من المُضحِك أنها كل مرَّة تختار لي جسدًا أشقر طويلًا.

جسدي القديم، الذي تدَّعي أنها أحبَّته لقُرابة ثلث القرن، كان أسودَ الشَّعر، وقصيرًا، وأقرب للامتلاء في الفترة الأخيرة. أنا إنسان في الأصل، لم أستطع منع نفسي من الانزعاج عندما تخلَّصوا من جسدي بعدما تركته بدلًا من أن يضعوه في المخزن. كان جسدًا طيِّبًا أليفًا مريحًا، لم يكن سريعًا برَّاقًا، لكنه كان يُعتمد عليه. لكن ليس هناك طلب على هذا النوع من الأجساد في المراكز على ما أعتقد. أنا نفسي لم أطلب واحدًا قطُّ.

أسوأ خبرة مررتُ بها على الإطلاق مع جسد، كانت عندما خدعوني لآخذ جَسدَ دكتور إليس كونيجسفاسر. وهو ملك لجمعية روَّاد الثُّنائيِّين، ويؤخذ مرَّةً واحدةً كلَّ سنة في موكب يوم الرُّوَّاد الضخم، يوم ذكرى اكتشاف كونيجسفاسر. قال الجميع إن اختياري لجسد كونيجسفاسر وقيادة الموكب كان شرفًا عظيمًا.

ومثل أحمق غرٍّ لعين، صدَّقتهم.

* * *

سيتعبون جدًّا إن حاولوا إقناعي بدخوله مُجدَّدًا. أَخذُ ذلك الحُطامِ أظهر بوضوحٍ دافِعَ كونيجسفاسر لاكتشاف كيف يستطيع الناس العيشة دون أجسادهم. جسده القديم عمليًّا يدفعك للخروج منه. قرحة وصداع والتهاب مفاصل وقدم مُسطَّحة، وأنف كمنجل التشذيب، وعيون صغيرة كعيون الخنزير، وهيئة كصناديق الملابس القديمة. كان ولا يزال ألطفَ شخصٍ قد تَودُّ أن تُقابِله، لكن، عندما كان لا يزال محشورًا في جسده، لم يقترب منه أحدهم بما يكفي ليكتشف ذلك.

حاولنا إقناع كونيجسفاسر بالعودة إلى جسده القديم ليقودنا عندما بدأنا نقيم مواكب يوم الروَّاد، لكنه لم يرغب في أن يقترب منه بأي شكل. هكذا بات علينا أن نتملَّق أي ساذج مسكين ليقوم بهذا الدور. يسير كونيجسفاسر في الموكب بالفعل، لكن في جسد راعي بقر طوله ستة أقدام يستطيع ثني عُلبَة بيرة معدنية مرَّتين بين إبهامه وأوسطه.

في ذلك الجسد يتصرَّف كونيجسفاسر مثل طفل. لا يتعب أبدًا من ثني عُلَب البيرة به، وعلينا أن نقف حوله بأجسادنا بعد الموكب، والفُرجة عليه كأننا شديدو الانبهار.

لا أظنُّه كان قادرًا على ثني أي شيء زمان.

لا يوجد مَن ينبِّهه لذلك؛ لأنه المؤسِّس الأعظم لزمن الثنائيين، لكنه يسيء إلى الأجساد. تقريبًا كلما أخذ جسدًا يفسده بالتباهي به. فيحتاج أحدهم للدخول في جسد جراح لتخييطه من جديد.

لا أقصد أيَّ قِلَّة احترام لكونيجسفاسر. في الواقع، إن من الاحترام قول إن أحدهم طفوليٌّ في شيء بعينه؛ لأنه يبدو أن ذلك النوع من الناس هم مَن تواتيهم كل الأفكار العظيمة.

ثمَّة صورة له من أيام زمان مُعلَّقة في المجتمع التاريخي، يمكنك منها رؤية أنه لم ينضج قطّ فيما يخصُّ المحافظة على هيئته، وفعل القليل الذي بوسعه مع ذلك الجسد البائس الذي منحته له الطبيعة.

شعره كان تحت ياقته، ارتدى بنطاله بتهدُّلٍ لدرجة أن كاحليه كانا فوق ثنية البنطال، بطانة معطفه تدلَّت مثل إكليل حول المؤخِّرة. كان ينسى وجباته، ويخرج في الجوِّ البارد بلا ملابس كافية، ولم يلاحظ قَطُّ مَرضًا إلَّا بعدما يكاد يقتله. كان ما اعتدنا أن نسمِّيه عقل شارد. بالتفكير في الأمر الآن بالطبع، نقول إنه كان قد بدأ في التحوُّل لثنائي.

كان كونيجسفاسر عالِمَ رياضيات، كل ما فعله في حياته كان بعقله. الجسد الذي كان مضطرًّا لاستخدامه مع ذلك العقل المذهل، كان بالنسبة له كعربة شحن مُسطَّحة في قطار من الحديد الخُردة. كلَّما مرض واضطرَّ للاهتمام بجسده، كان يتشدَّق بقول ما يشبه ذلك:

"العقل هو الشيء الوحيد عند البشر الذي له أي قيمة. لماذا يجب أن يكون مربوطًا بشوال من الجلد والدم والشَّعر واللحم والعظام والأنابيب؟ لا عجب أن الناس لا يستطيعون فِعلَ شيء، وهم عالقون طوال حياتهم مع ذلك الطُّفَيليِّ الذي يحتاج لحشوه بالطعام وحمايته من الجو والجراثيم طوال الوقت. بل إن ذلك الشيء الأحمق يتداعى برغم كل شيء، مهما حَشَوته وحميته!

مَن الذي يريد تلك الأشياء؟ ما الجميل في البروتوبلازم لدرجة أن علينا حملَ كلِّ ذلك الكَمِّ منه أينما ذهبنا؟

مشكلة العالم ليست كثرة الناس، بل كثرة الأجساد".

عندما نُخِرَت كُلُّ أسنانه واضطرَّ لخَلعِهم جميعًا، ولم يستطع إيجاد طقم أسنان صناعية مريح بأي شكل، كتب في مذكِّراته: "إن كانت الكائنات الحية قادرة على التطوُّر بما يكفي للخروج من المحيط، الذي كان في الواقع مكانًا لطيفًا للحياة، فعليها أن تكون قادرة على

اتخاذ خطوة أخرى والخروج من الأجساد، التي هي، عندما تقف لتفكر فيها، مصدر إزعاج لا ينضب".

فلتفهم أنه لم يكن مُشجِّعًا للأجساد، ولم يكن غيورًا من الناس الذين كانت أجسادهم أفضل منه. بل كان يعتقد فقط أن الأجساد كانت سببَ مشاكل أكثر بكثير ممَّا تستحقُّ.

لم تكن لديه آمال عظيمة أن الناس سيتطوَّرون خارجين من أجسادهم خلال حياته. كان فقط يتمنى أن يفعلوا. مُفكِّرًا في ذلك الأمر، مشى في الحديقة بملابس خفيفة وتوقَّف عند حديقة الحيوانات ليشاهد إطعام الأسود. ثم عندما تحوَّل المطر إلى ثلج، اتجه إلى البيت، وكان مهتمًّا بمراقبة رجال الإطفاء على حافة البحيرة، حيث كانوا يحاولون إنعاش شخص غارق.

قال الشهود إن الرجل الهَرِم مشى إلى المياه واستمرَّ في المشي دون تَبدُّل في تعبير وجهه حتى اختفى. نظر كونيجسفاسر إلى وجه الضحيَّة وقال إنه لم يَرَ قبلًا سببًا أكثر وَجاهةً للانتحار. بدأ السير إلى البيت مُجدَّدًا، وكاد أن يصل قبل أن يدرك أن الجسد الممدَّد هناك كان جسده.

* * *

عاد ليركب الجسد مرة أخرى في الوقت الذي استطاع فيه رجال الإطفاء جَعلَه يتنفَّس من جديد، ومشى به إلى البيت، على سبيل المعروف للمدينة أكثر من أي شيء آخر. مشى به إلى خزانته الأمامية، ثم خرج منه مرَّةً أخرى وتركه هناك.

صار يأخذه فقط عندما يريد أن يكتب قليلًا أو ليقلب صفحات كتابٍ، أو عندما يضطرُّ لإطعامه حتى تكون لديه طاقة كافية للقيام بالمهام القليلة الغريبة الذي كلَّفه بها.

أمَّـا باقـي الوقـت فقـد جلـس الجسـد بـلا حركـة في الخزانـة، يبـدو ذاهـلًا ولا يسـتخدم أي طاقـة تقريبًـا. قـال لي كونيجسـفاسر ذات مـرَّة أن ذلـك الـشيء لم يُكلِّفـه أكـثر مـن دولار بالأسـبوع، لا يسـتخدمه إلا عندمـا يحتاجـه بشـدَّة.

لكـن الجـزء الأفضـل كان أن كونيجسـفاسر لم يَعُـد بحاجـةٍ للنـوم لأنـه مضطـرٌّ لذلـك، أو للخـوف مـن أن هنـاك مـا قـد يؤذيـه، أو للذهـاب بحثًـا عـن الأشـياء التـي كان يبـدو لـه أنهـا كانـت عنـده. وعندمـا لم يشـعر أنـه بخـير، يـترك كونيجسـفاسر جسـده حتـى يشـعر أنـه أفضـل، ولم يكـن مضطـرًّا لإنفـاق ثـروة ليحافـظ عـلى شيئه مرتاحًـا.

عندمـا أخـرج جسـده مـن الخزانـة ليكتـب، كتـب كتابًـا عـن كيـف يخـرج الواحـد مـن جسـده، والـذي رفضـه بـلا تعليـق ثلاثـة وعـشرون نـاشرًا. الرابـع والعـشرون بـاع مليـونَي نسـخة، وغـير الكتـاب حيـاة البـشر أكـثر ممَّا فعـل اخـتراع النـار أو الأرقـام أو الأبجديـة أو الزراعـة أو العجلـة. عندمـا قـال أحدهـم ذلـك لكونيجسـفاسر، تذمَّـر وقـال إنهـم كانـوا يلعنون كتابـه بالمديـح الزائـف. أقـول إنهـم كانـوا مُحِقِّـين هنـا.

باتِّبـاع التعليـمات في كتـاب كونيجسـفاسر لحـوالي عامـين، يسـتطيع أي شـخص تقريبًـا الخـروج مـن جسـده وقتـما يريـد. الخطـوة الأولى هـي فهـم كيـف أن الجسـد البـشري طُفَيـليٌّ وطاغيـة أغلـب الوقـت، ثـم فصـل مـا يريـده الجسـد أو مـا لا يريـده عـمَّا أنـت نفسـك -عقلـك- تريـده أو لا تريـده. ثـم بالتركيـز عـلى مـا تريـده وتجاهُـل بقـدر الإمـكان مـا يريـده الجسـد باسـتثناء أساسـيات الصيانـة، سـتجعل عقلـك يطالـب بمـا هـو حـقٌّ لـه، ويصبـح مكتفيًـا ذاتيًـا.

ذلـك مـا فعلـه كونيجسـفاسر دون أن يعـي مـا يفعلـه، حتـى انفصـل عنـه جسـده في الحديقـة، تـارِكًا عقلـه يذهـب ليراقـب الأسـود تـأكل، وهـام الجَسـدُ بـلا تحكُّـم إلى البحـيرة.

آخر خطوة في الفصل، ما إن يتدرَّب عقلك على الاستقلال الكافي، هي أن تجعل جسدك يمشي في اتجاه بعينه، ثم فجأة تأخذ عقلك في اتجاه آخر. لسببٍ ما لا تستطيع فِعل ذلك واقفًا، يجب أن تمشي.

في البداية كان عقلانا، أنا ومادج، أخرقَيْن في إتقان التَّعايُش خارج جسدَيْنا، مثل أول حيوان بحريٍّ تاه على اليابسة قبل ملايين السنين، وصار يتشنَّج ويلهث ويتقافز في الطين. لكننا صِرنا أفضل بمرور الوقت؛ لأن العقول تستطيع التكيُّفَ أسرع بكثير من الأجساد.

* * *

كان لديَّ أنا ومادج سببٌ وجيهٌ لرغبتنا في الخروج. كلُّ مَن كان مجنونًا كفاية لتجربة الخروج أوَّلَ مرَّة كان لديه أسباب وجيهة. جسد مادج كان مريضًا ولن يستمرَّ طويلًا، ولم أجد في نفسي الحماس للبقاء كثيرًا بعد ذهابها. هكذا درسنا كتاب كونيجسفاسر وحاولنا إخراج مادج من جسدها قبل أن يموت، وذهبت معها لأمنع كِلَينا من الوقوع في الوحدة. ونجحنا في الوقت المناسب بالكاد؛ قبل ستة أسابيع من انهيار جسدها.

لهذا استحققنا شرف المشي في موكب يوم الرُّوَّاد كل عام. لا ينال ذلك الجميع، فقط أول خمسة آلاف ممَّن تحوَّلوا إلى ثنائيِّين. كُنَّا فئران تجارب بلا شيء لنخسره في كلتا الحالتين، وكُنَّا أوَّل مَن أثبتوا للبقية كم كان الأمر رائعًا آمنًا، أكثر أمانًا بكثير من المراهنة بما لديك على جسد طوال عمرك.

عاجلًا أم آجلًا، سيصير لدى الجميع أسباب وجيهة لتجربة الأمر. يجب أن يكون من أمثالنا الملايين، وفي النهاية أكثر من مليار؛ أشخاص خَفيَّة، غير حِسِّيَّة، منيعة، وبحق السماء، صادقة مع نفسها، وغير خائفة من أي شيء.

عندما نكون بلا أجساد، بوسع رُوَّاد الثُّنائيِّين كلهم أن يجتمعوا على رأس دبوس. عندما نأخذ أجسادًا لموكب يوم الرُّوَّاد، نحتلُّ أكثر من خمسين ألف قدمٍ مُربَّعة، ونحتاج لابتلاع أكثر من ثلاثة أطنان من الطعام لنحصل على طاقة كافية للمسيرة. ويصاب الكثير منَّا بالبرد أو ما هو أسوأ، والألم لأن جسد أحدهم داس على كعب جسد آخر عَرَضًا، والغيرة لأن بعض الأجساد تقود غيرها في الصفوف، و... يا للجحيم، ومن يعرف ماذا أيضًا.

لستُ مولَعًا بالموكب. فوجودنا جميعًا هناك، متلاصقين بالأجسام... بصراحة، يُخرِج أسوأ ما فينا، مهما كانت عقولنا طيبة. العام السابق مثلًا، كان الموكب في يوم قائظ. لم يستطع الناس عدم الخروج عن شعورهم بينما هم عالقون في أجسادٍ تَشعُر بالحرِّ والعطش لساعات.

حصل شيء وأدَّى لآخر، وقال قائد المسيرة إنه سيضرب جسدي بجسده ضربًا مبرحًا لو خرج جسدي عن الخطوة من جديد. لأنه قائد المسيرة كان لديه -بطبيعة الحال- أفضل جسد ذلك العام، باستثناء راعي بقر كونيجسفاسر، لكني أخبرته أنه لا يَفقَه شيئًا. عندها طوَّح لكمة، وهجرت جسدي فورًا، ولم أبقَ حتى لأرى إن كان لا يزال في جسده. اضطرَّ لحمل جسدي حتى مركز التخزين بنفسه.

لم أَعُد غاضبًا ما إن خرجتُ من الجسد. فهمتُ أن لا أحد سوى القِدِّيسين بوسعه أن يكون مُتعاطِفًا فعلًا أو ذكيًّا أكثر من خمس دقائق طالما هو في جسد، أو سعيدًا حتى، إلا لدفقات قصيرة. لم أقابل أيَّ ثنائيٍّ حتى الآن غير سَلِسٍ في التعامُل ومُبهِج ومثير للاهتمام، طالما هو خارج الأجساد. ولم أقابل أي شخص حتى الآن لم يصبح أكثر حدَّة ما إن يدخل جسدًا.

ما إن يدخل، حتى تحتلَّ الكيمياء مقاعِدَ التَّحكُّم؛ تجعلك الغُدَدُ مُهتاجًا أو مستعدًّا للشجار أو جائعًا أو غاضبًا أو متعاطفًا أو... لن تعرف أبدًا ما الذي سيحدث بعدها.

* * *

ذلك سبب عدم قُدرَتي على الغضب من العدو، أولئك الذين يرفضون الثنائيين، الذين لا يخرجون من أجسادهم قطُّ ولا يحاولون التعلُّم. لا يريدون من أي شخص آخر أن يفعل أيضًا، ويريدون إعادة الثنائيين إلى أجسادهم وبقاءهم فيها.

بعد شِجاري مع قائد المسيرة، سمعت مادج بذلك وترَكَت جسدها في قلب جناح الزوجات. وبشعور الشَّيطَنة يغمرنا بعدما تخلَّصنا من أجسادنا في الموكب، ذهبنا معًا لإلقاء نظرة على العدو.

لا أتحمَّس أبدًا للذهاب لمراقبتهم. لكن مادج تحب أن ترى ما يرتديه النساء. فنساء العدوِّ العالِقات في أجسادٍ طوال الوقت، يُغيِّرن ملابسهن وشَعرهنَّ ومستحضرات تجميلهن أكثر بكثير ممَّا نفعل نحن في أجساد النساء في مراكز التخزين.

لا أحبُّ كثيرًا الحديث عن الموضة، وتقريبًا كل شيء آخر تسمعه في نطاق العدو قد يدفع تمثال جصٍّ للحركة من فرط الملل.

عادة ما يتحدَّث العدو عن التكاثُر على الطريقة القديمة، والتي هي أكثر شيء أخرق مُضحِك ومُزعِج بوسع أي شخص تخيُّله، مقارنة بما لدى الثنائيين في هذا المجال. إن لم يتحدَّثوا عن ذلك فهم يتحدَّثون عن الطعام؛ كُتَل من المُركَّبات الكيميائية يحشرونها في أجسادهم. أو يتحدَّثون عن الخوف، أي ما كُنَّا نُسمِّيه بالسياسة؛ سياسة الوظائف، السياسة الاجتماعية، السياسة الحكومية.

يكـره العَـدوُّ قُدرَتَنـا عـلى التلصُّـص عليهـم وقتـما نريـد، بينـما لا يسـتطيعون هـم رؤيتنـا إلَّا عندمـا ندخـل أجسـادًا. يبـدو أنهـم يخافوننـا حتـى المـوت، برغـم أن الخـوف مـن الثنائيـين لا معنـى لـه إلا بقـدر مـا يعنيـه الخـوف مـن شروق الشـمس. لديهـم العـالم كلـه إلَّا مراكـز التخزين، ولا يأبـه الثنائيُّـون بذلـك. لكنهـم يتكتَّلـون معًـا وكأننـا سـنهبط عليهـم مـن السـماء ونفعـل فيهـم أشـياء كريهـة في أي لحظـة.

لديهـم أجهـزة غريبـة في كل مـكانٍ يفـترض بهـا أن تكشـف وجـود الثنائيـين. لا تسـاوي هـذه الأشـياء مليـمًا، لكـن يبـدو أنهـا تجعـل العَـدوَّ يشـعر وكأنـه يقـف في مواجهـة قـوى عُظمـى، لكنـه مُحافِـظ عـلى أعصابـه ويفعـل أشـياء مُهِمَّـة حاذقـة. المعرفـة... طـوال الوقـت يتبجَّحـون لبعضهـم بـأن لديهـم كثـير مـن المعرفـة، وكيـف أننـا لا نملـك منهـا أي شيء بالمقارنـة. لـو أن المعرفـة تعنـي الأسـلحة، فهـم عـلى حـقٍّ تمامًـا.

* * *

أعتقـد أن بينهـم وبيننـا حربًـا. لكننـا لا نفعـل شيء فيهـا غـير الحفـاظ عـلى مواقـع موكبنـا ومراكـز تخزيننـا سرًّا، والخـروج مـن الأجسـاد كلـما كانـت هنـاك غـارة جوِّيَّـة، أو كلـما ضرب العَـدوُّ صاروخًـا، أو أي شيء مشـابه.

لا يصيـب هـذا العـدو إلا بمزيـد مـن الجنـون، فالغـارات والصواريـخ تكلِّـف الكثـير، وتفجـير أشـياء لا يريدهـا أحـدٌ عـلى أي حـال لا يعـود بعائدٍ كبـير عـلى أمـوال دافِعـي الضرائـب. دائمًـا مـا نعلـم مـا الـذي سـيحدث بعـد ذلـك، وأيـن ومتـى؛ لـذا لا نحتـاج لمهـارة اسـتثنائية للابتعـاد عـن طريقهـم.

لكنهـم كانـوا أذكيـاء فعـلًا، بالنظـر لكونهـم مُضطرِّيـن لرعايـة أجسـادٍ بجـوار التفكـير؛ لـذا أحـاول دومًـا توَخِّـي الحـذر عندمـا أذهـب لمراقبتهـم. ذلـك كان سـبب رغبتـي في الابتعـاد عندمـا رأيـتُ أنـا ومـادج مركـزَ تخزيـنٍ

في منتصـف أحـد حقولهـم. لم نتحـدَّث مـع أي شـخص مؤخَّـرًا عـن آخـر أخبـار العـدوِّ، وبـدا المركـز مريبًـا إلى حـدٍّ كبـير.

مـادج كانـت مُتفائِلَـة، مثلـما كانـت منـذ اسـتعارت جسـد الراقصـة، قالـت إنهـا متأكِّـدة أن مركـز التخزيـن هـو علامـة أكيـدة عـلى أن العـدوَّ قـد رأى النـور، وأنهـم يتجهَّـزون للتحـوُّل إلى الثنائيـة.

بـدا الأمـر كذلـك. كان هنـاك مركـزٌ جديـد، مُعبَّـأ بالأجسـاد وجاهـز للعمـل، بريئًـا بقـدر مـا تتمنَّـى منـه أن يكـون. دُرنـا حولـه عـدَّة مـرَّات، وباتـت دوائـر مـادج أضيـقَ فأضيـق، فيـما حاوَلَـت أن تنظـر عـن كثـب إلى مـا لديهـم مـن أجسـاد النسـاء "الجاهـزة للبـس". قلـتُ: "هيـا نذهـب".

قالـت مـادج: "أنـا فقـط ألقـي نظـرة، لا ضَرَرَ في النظـر". ثـم رأت مـا في نافـذة العـرض الرئيسـية، ونسـيت أيـن هـي ومـن أيـن أتـت.

أجمـل جسـد امـرأة وقعـت عليـه عينـاي عـلى الإطـلاق كان في النافـذة، بطـول سـتِّ أقـدام وبنيـان ربَّـة. لكـن ذلـك لم يكـن أجمـل مـا فيـه؛ كانـت بـشرة الجسـد بلـون النحـاس، وشـعره وأظافـره باللـون الأخـضر المصفـر، تمـدَّد الجسـد في عبـاءة مسـائية مـن قـماش اللاميـه الذهبـي. بجـواره كان جسـد ذَكَـرٍ أشـقر عمـلاق، في زي أزرق شـاحب لقائـد عسـكري برتبـة مشـير، ذي شرائـط قرمزيـة ومُزيَّـن بالميداليـات.

أظـنُّ العـدو قـد اغتنـم الأجسـاد في غـارة عـلى أحـد مراكـز تخزيننـا النائيـة، وحشـاها وصبغهـا وألبسـها. قلـت: "مـادج، عـودي!".

المـرأة النحاسـية ذات الشـعر الأخـضر المصفَـرِّ تحرَّكَـت، وصرخـت سرينـة، وهـرع جنـدي خارجًـا مـن حيـث يختبـئ ليقبـض عـلى الجسـد الـذي تلبسـه مـادج.

كان المركز فخًّا للثنائيين!

الجسـد الـذي كانـت فيـه مـادج لم يكـن قـادرًا عـلى المقاومـة؛ فكاحـلاه كانـا مربوطـين معًـا؛ لـذا لم تسـتطع مـادج أخـذ الخطـوات القليلـة التـي عليهـا أخذهـا لتخـرج منـه مُجـدَّدًا.

أخذهــا الجنــود بانتصــار كســجينة حــرب. دخلــت الجســد الوحيــد المتوفِّـر، جسـد المشـير الفخـم، محـاولًا مسـاعدتها. كان موقفًـا يائسًـا؛ لأن جسـد المشـير كان فخًّـا أيضًـا، بكاحلـين مربوطـين. سـحبني الجنـود وراء مـادج.

* * *

قائــد الجنــود الرائــد الشــاب المغــرور، رقــص مختــالًا عــلى جانــب الطريـق. كان في غايـة الفخـر. كان أول رجـل اسـتطاع القبـض عـلى ثنائيِّيـن عـلى الإطـلاق؛ مـا كان أمـرًا جلـلًا مـن وجهـة نظـر العـدو. كانـوا في حـرب معنـا لسـنين، وصرفـوا مليـارات لا يعـرف عددهـا إلا الـرب، لكـن الإمسـاك بنـا كان أوَّلَ شيء يجعـل أيَّ ثنـائي يأبـه بهـم.

عندمــا بلغنــا المدينــة، كان النــاس يتدلُّــون مــن النوافــذ ويُلوِّحــون بالأعــلام، ويُحيُّــون الجنــود، ويشــتمونني ومــادج. هنــا كان كل النــاس الذيـن لم يريـدوا أن يكونـوا ثنائيـين، الذيـن آمنـوا أن مـن السـيِّئ أن يكـون أي شـخص ثنائيًـا. أنـاس مـن كل الألـوان والأشـكال والأحجـام والجنسـيات، مُتَّحِـدون معًـا ليحاربـوا الثنائيـة.

اتَّضـح أننـا ذاهبـان إلى محاكمـة ضخمـة. بعدمـا قيَّدونـا بـكل الطُّرُق في السـجن طـوال الليـل، أخذونـا إلى المحكمـة، حيـث حدَّقـت فينـا أعـين كامـيرات التليفزيـون.

أصبحــت ومــادج مُنهَكَــيْن إلى أقــصى درجــة؛ لأن أيًّــا منَّــا لم ينحــشر في جسـدٍ مـن قبـل كل هـذا الوقـت منـذ زمـن لا أعـرف مـداه. في أكـثر وقـت احتجنـا فيـه للتفكـير في حياتنـا، في السـجن قبـل المحاكمـة، عانـت

الأجساد من آلام الجوع، ولم نستطع جعلها ترتاح في الأَسِرَّة، مهما حاولنا، وبالطبع الأجساد بحاجة لساعاتها الثمانية من النوم.

التُّهمة المُوجَّهة إلينا كانت تستحقُّ الإعدام في أدبيَّات العَدوِّ؛ الهروب من الواجب. في رأي العدو، الثنائيّون كلهم جبناء هربوا من أجسادهم في حين كانت هناك حاجة إلى أجسادهم ليفعلوا أشياء شجاعة ومُهِمَّة للبشرية.

لم يكن لدينا أملٌ في البراءة. السبب الوحيد لإخضاعنا للمحاكمة كان منحهم فرصة للتعبير عن لماذا هُم على حَقٍّ كامل ونحن على كل خطأ. امتلأت المحكمة بقاداتهم وكُبَرائِهم، يبدون غاضبين شجعان نبلاء.

قال المدَّعي: "السيد ثنائي، أنت كبيرٌ بما يكفي لتذكُّر عندما كان على كل الناس مواجهة الحياة بأجسادهم، والعمل والقتال في سبيل ما يؤمنون به، ألست كذلك؟".

قلتُ بأدب: "أذكر عندما كانت الأجساد كلها تنخرط في القتال، ولا أحد يبدو أنه يعلم السبب، ولا كيفية التوقُّف عنه. والشيء الوحيد الذي بدا أن الجميع مُتَّفِقون عليه هو أنهم لا يحبُّون القتال".

أراد أن يعرف: "ما قولك في جنديٍّ يهرب من مواجهة النيران؟".

"أقول إنه في غاية الرعب".

"هو يساعد على خسارة المعركة، أليس كذلك؟".

"بالطبع"، لم يكن ثمَّة حجَّة أمام ذلك.

"أليس هذا هو ما فَعَله الثنائيُّون؟ الهروب من الجنس البشري في مواجهة معركة الحياة؟".

قلت: "أغلبنا لا يزال حيًّا، إن كان ذلك ما تقصده".

* * *

وتلـك كانـت حقيقـة. لم نَلعَـق المـوتَ بَعـدُ، ولم نكـن متأكّديـن إن كُنَّـا نَـوَدُّ ذلـك، لكننـا بـلا شـك حظينـا بحيـاة طويلـة، مقارنـة بمـدد الحيـاة المتوقَّعـة مـن الأجسـاد.

قال: "لقد هربتم من مسؤولياتكم".

قلت: "مثلما تهرب من مبنى يحترق يا سيدي".

"تاركين البقية يعانون وحدهم!".

"بوسـعهم جميعًـا الخـروج مـن البـاب نفسـه الـذي خرجنـا منـه. تسـتطيع الخـروج في أي وقـت تريـد. كل مـا عليـك فعلـه هـو اكتشـاف مـا الـذي تريـده أنـت ومـاذا يريـد جسـمك، والتركيـز عـلى...".

ضرب القـاضي بمطرقتـه حتـى حسـبتها سـتنكسر. لقـد حرقـوا هنـا كلَّ نسـخة مـن كتـاب كونيجسـفاسر اسـتطاعوا إيجادهـا، وهـا أنـا أعطـي محـاضرة عـن كيفيـة الخـروج مـن الجسـد أمـام شـبكة التليفزيـون.

قـال المُدَّعـي: "إن حصـل مـا أردتـم أيهـا الثنائيُّـون، سـيهرب الجميـع مـن مسـؤولياتهم، وسـيختفي التطـوُّر والحيـاة التـي نعرفهـا تمامًـا".

وافقت: "نعم بالطبع، هذا هو القصد".

تحدَّاني: "لن يعود الرجال يعملون فيما يؤمنون به؟".

"كان لي صديـقٌ منـذ زمـن بعيـد يصنـع ثقوبًـا في أشـياء مُربَّعـة صغـيرة في مصنـع، لسـبعة عـشر عامًـا، ولم يَصِـل لفكـرة واضحـة قَـطُّ عـمَّا كان الغـرض منهـا. واحـد آخـر كان يصنـع الزبيـب لشركـة نَفـخِ زُجـاجٍ، ولم يكـن الزبيـب ليأكلـه أحدهـم، ولم يعـرف قَـطُّ لمـاذا كانـت الشركـة تشـتريهم. مثـل تلـك الأشـياء تصيبنـي بالغثيـان -فقـط بمـا أننـي في جسـدٍ طبعًـا- ومـا كنـتُ أعمـل بـه يصيبنـي بمزيـد مـن الغثيـان".

قال: "إذن فأنت تحتقر البشر وكل ما يفعلونه".

"بـل أحبُّهـم جـدًّا، أكـثر مـمَّا كنـتُ أفعـل مـن قبـل. أنـا فقـط أرى أن مـا يضطـرُّون لفِعلِـه ليعتنـوا بأجسـادهم شيء مُقـرِف ومُخـزٍ. عليـك أن تصير ثنائيًّـا لـترى إلى أي مـدى يسـتطيع النـاس أن يصيروا سـعداءَ عندمـا لا يكونـون مُضطرِّيـن للقلـق بشـأن مـن أيـن سـتأتي وجبـة جسـدهم التاليـة، أو كيـف سـيحافظون عليـه مـن التَّجمُّـد في الشـتاء، أو مـا الـذي سـيحدث لهـم عنـدم تبـلى أجسـادهم".

"وهذا يا سيدي يعني نهاية الطموح، نهاية العَظَمَة".

قلـت: "أوه، لا أظـنُّ ذلـك. لدينـا بعـض النـاس العظـماء فعـلًا في جانبنـا، سيكونون عظـماء سـواء كانـوا بأجسـام أو بدونهـا. إنهـا في الواقـع نهايـة الخـوف". نظـرتُ مبـاشرة في عدسـة أقـرب كامـيرا تليفزيونيـة، "وهـذ أفضـل مـا حـدث للبـشر".

وهبَطَـت مطرقـةُ القـاضي مـن جديـد، وبـدأ النخبـة مـن الحضـور في الصيـاح عـليَّ. أغلـق رجـال التليفزيـون كاميراتهـم، وكل الحاضريـن، عـدا النخبـة منهـم، اخرُجـوا مـن المـكان. علمـتُ أني قُلـتُ شـيئًا جلـلًا. وكل مـا سـيصل النـاس عـلى تليفزيوناتهـم الآن سـيكون موسـيقى الأورغـان.

وعندمـا هـدأت الجلبـة، قـال القـاضي إن المحاكمـة انتهـت، وأني ومـادج مُدانـان بالهـروب مـن الواجب.

* * *

لأن لا شيء سيزيد وضعنا سوءًا، رَددتُ.

قلـت: "الآن أفهمكـم أيَّتهـا الأسـماك المسـكينة؛ لا تسـتطيعون العيـش بـلا خـوف. تلـك هـي موهبتكـم الوحيـدة، إفـزاع أنفسـكم والآخريـن حتى يفعلـوا الأشـياء. تلـك هـي متعتكـم الوحيـدة، مراقبـة النـاس يتقافـزون خوفًـا مـمَّا سـتفعلونه بأجسـادهم".

وأدلـت مـادج بدلوهـا: "الوسـيلة الوحيـدة التـي تجلبـون بهـا أيَّ ردِّ فِعـلٍ مـن أي شـخص، هـي إخافتـه".

قال القاضي: "هذا احتقارُ المحكمة!".

قلـتُ لـه: "الوسـيلة الوحيـدة لإفـزاع النـاس هـي عـبر إبقائهـم في أجسـادهم". جذبنـي الجنـدي ومـادج وبـدأ في جَرِّنـا لخـارج قاعـة المحكمـة. صحـت: "ذلـك يعنـي الحـرب!".

كل شيء وقـف وهـدأ في مكانـه حينهـا. قـال القـاضي بتوتُّـر: "نحـن بالفعـل في حـرب".

أجبـتُ: "أمَّـا نحـن فـلا، لكننـا سنشرع فيهـا إن لم تَفُكَّنـي وتَفُـكَّ مـادج في هـذه اللحظـة". كنـت مخيفًـا ومُبهـرًا في جسـد المشـير.

قـال القـاضي: "ليـس لديكـم أي أسـلحة ولا معرفـة خـارج أجسـادكم. الثنائيُّـون لا شيء".

قلـتُ لـه: "إن لم تطلـق سراحنـا قبـل أن أعـدَّ حتـى عـشرة، سـيحتل الثنائيـون أجسـادكم جميعًـا، ويقفـزون بهـا مـن أقـرب جـرف. المـكان كلـه مُحـاصَر". ذلـك بالطبـع كان هـراءً، لا يسـتطيع احتـلال الجسـد أكـثر مـن شـخص واحِـدٍ كلَّ مَـرَّة، لكـن لا سـبيل للعـدو للتَّيقُّـن مـن ذلـك.

"واحد! اثنان! ثلاثة!".

ازدرد الچـنرال لعابـه، شـحب وجهـه، ولـوَّح بيـده بغـير وضـوح، وقـال بضعـف: "أطلقـوا سراحهـم".

وكان الجنـود سـعداء لفِعـل ذلـك، مـن فـرط خوفهـم. وصِرتُ أنـا ومـادج أحـرارًا.

أخـذتُ خطوتـين، ومضيـتُ بعقـلي في اتجـاه آخـر، ووقـع ذلـك المشـير العسـكري الجميـل، بـكل ميداليتـه، عـلى الأرض بجلبـة ضخمـة مثـل سـاعة حائـط.

أدركت أن مادج ليست معي. كانت لا تزال في الجسد النحاسي ذي الشَّعر والأظافر الخُضر.

سمعتها تقول: "وأيضًا، في مقابل كل ما سبَّبتموه لنا من مشاكل، سيُرسل هذا الجسد لي في نيويورك، بحالة جيِّدة جدًّا، ليس قبل الاثنين القادم".

قال القاضي: "أمرك يا سيدتي".

* * *

عندما عُدنا للبيت، كان موكب يوم الرواد ينفضُّ في مركز التخزين، وقائد المسيرة بعدما خرج من جسده اعتذر لي عن التصرُّف الذي فعله.

قلتُ له: "لا يا هيرب، لستُ بحاجة للاعتذار، أنتَ لم تكن نفسك، بل كنتَ تمشي في جسد".

وهذا أجمل شيء في كونك ثنائيًّا، بعد عدم الخوف؛ يغفر لك الناس أي شيء أحمق فعلته وأنت في جسد.

ثمَّة عيوب على ما أعتقد، مثلما يوجد عيوب لكل شيء. لا نزال بحاجة للعمل بين الفينة والأخرى، للاعتناء بمراكز التخزين وإحضار الطعام للحفاظ على أجساد مجتمعنا. لكن ذلك عيب ثانوي، وكل العيوب الكبرى التي سمعت عنها ليست حقيقية، ليست إلَّا تفكيرًا تقليديًّا لناس لا تستطيع التوقُّف عن القلق بشأن ما كانوا يفعلون قبل أن يصيروا ثنائيِّين.

مثلما قلت، كبارنا لن يعتادوا أبدًا في الغالب على ذلك. أضبط نفسي أحيانًا قَلِقًا بشأن ما حدث لعملي في المراحيض مدفوعة الأجر الذي قضيتُ ثلاثين عامًا أبنيه.

لكنَّ الصِّغار لا يعانون من آثار ما بعد الثُّمالة من الماضي مثلنا. لا يقلقون كثيراً عمَّا يحدث لمراكز التخزين مثلما يفعل الكبار.

أعتقد أنهم ربما سيكونون الخطوة التالية في التطوُّر، للتخلُّص تمامًا من بقايا الثُّنائيِّين الأوائل الذين زحفوا خارجين من الطين إلى نور الشمس، ولم يعودوا للماء قَطُّ.

(1953)

الفتى الذي غلب معه الجميع

كانت الساعة السابعة والنصف صباحًا. الماكينات كانت تهدر فيما تُمزِّق التَّلَّ إربًا خلف المطعم، والشاحنات تأخذ أشلاءه بعيدًا. داخل المطعم، اختلط صوت تخبُّط الصحون على الأرفف بارتجاف الموائد. وجلس رجل سمين شديد اللطف ذو رأس مفعم بالموسيقى ينظر إلى الصَّفار المتراقص في بيض وجبة إفطاره. زوجته كانت تزور أقاربها في المدينة. كان مع نفسه.

الرجل السمين اللطيف كان چورچ إم. هيلمهولتز، عمره أربعون خريفًا، وهو رئيس قسم الموسيقى بمدرسة لينكولن الثانوية، وقائد فرقتها. عامَلَته الحياةُ برقَّة. كل سنة كان يحلم الحلم الكبير نفسه. حلم قيادة فرقة من الأفضل على وجه الأرض. وفي كل سنة، يتحقَّق حلمه.

كان يتحقـق لأن هيلمهولتـز آمَـن أن ليـس في إمـكان أي إنسـان أن يحلـم بحلـم أفضـل مـن حلمـه. أمـام هـذا اليقـين الـذي لا يتزحـزح، دفـع أعضـاء الكيوانيـس والروتـاري والليونـز تكاليـفَ زِيِّ الفرقـة الرسـمي الـذي يسـاوي ضِعفَـيْ ثمـن أفضـل حُلَلِهـم، وتركـت إدارة المدرسـة هيلمهولتـز يجتـاح ميزانيتهـم ليشـتري آلاتـه الغاليـة، وعـزف الصغـارُ بقلوبهـم لأجلـه. وعندمـا لا يكـون لـدى الصغـار موهبـة، كان يجعلهـم يعزفـون بغريزتهـم وحدهـا.

كل شيء كان جيِّـدًا في حيـاة هيلمهولتـز عـدا المادِّيَّـات. كان مهووسًـا بحلمـه الكبـير، لدرجـةٍ جعلتـه مثـل طفـل في السـوق. قبـل عـشر سـنوات، بـاع التـل خلـف المطعـم لبـيرت كويـن، صاحـب المطعـم، مقابـل ألـف دولار. بـات الآن مـن الواضـح، حتـى لهيلمهولتـز نفسـه، أنـه مضحـوك عليـه.

جلـس كويـن في كابينـة مـع قائـد الفرقـة. كان أعـزب، رجُـلًا ضئيـلًا كئيبًـا بـلا حِـسّ دُعابـة، ولم يكـن بخـير. لم يكـن في وسـع كويـن النـوم ولا التوقُّـف عـن العمـل ولا الابتسـام بـدفء. كان لـه حـالان: مرتابًـا يشـفق عـلى ذاتـه، ومغـرورًا مُتبجِّحًـا؛ الأول يكـون عندمـا يخـسر المـال، والثـاني عندمـا يكسـبه.

كويـن كان مغـرورًا متبجِّحًـا عندمـا جلـس مـع هيلمهولتـز. امتـصَّ خلَّـة أسـنان مُصفَّـرًا، وتحـدَّث عـن الرؤيـة... رؤيتـه.

"أتسـاءل كـم عينًـا رأت التَّـلَّ قبـل أن تقـع عليـه عينـاي؟ أراهـن أنهـم آلاف وآلاف، ومـع ذلـك لم يَـرَ أيهـم مـا رأيتـه. كـم عينًـا؟".

قـال هيلمهولتـز: "عـلى الأقـل عينـاي". كل مـا كان التـل يعنـي لـه كان تسـلُّقًا لاهِثًـا، وتوتًّـا مجَّانيًّـا، وضرائـب، ومكانًـا مناسـبًا لتنَـزُّه الفرقـة.

قـال كويـن: "لقـد ورثـتَ التَّـلَّ مـن والـدك، ولم يكـن شـيئًا بالنسـبة لـك إلا وجـع قلـب. فحسـبت أنـك سـتورِّطني بـه".

اعترض هيلمهولتز: "لم أعتقد أني سأُورِّطُكَ به، يعلم الرب الرحيم أن الثمن كان أكثر من عادل".

قال كوين بإشراق: "تقول ذلك الآن، بالتأكيد يا هيلمهولتز تقول ذلك الآن. الآن وأنت ترى كيف تتَّجه المقاطعة التجارية للنمو. الآن وأنت ترى ما أرى".

قال هيلمهولتز: "نعم، بعد فوات الأوان". نظر حوله باحثًا عمَّا يلهيه، ورأى فتى في الخامسة عشرة يقترب منه، يمسح الأرض بين الكبائن.

كان الفتى ضئيلًا لكن شديدًا، تبرز العضلات من رقبته وساعديه. تلكَّأت الطفولة في ملامحه، لكن عندما توقَّف ليرتاح، ذهبت أصابعه بأمل إلى حيث البدايات الحريرية للشارب والسوالف. كان يمسح مثل روبوت، بحركات سريعة دون تفكير، لكنه كلَّف نفسه عناء عدم تلطيخ مقدِّمة حذائه الأسود ذي الرقبة برغوة الصابون.

قال كوين: "إذن ماذا أفعل عندما أحصل على التَّلِّ؟ أُزيله طبعًا، عندها أكون كمن هدَّ سَدًّا، فجأة يريد الجميع بناء متجر حيث كان التل".

قال هيلمهولتز: "همم". ابتسم للفتى بلطف، عين الفتى تجاوزته دون حتى ارتجافة عرفان.

قال كوين: "كُلٌّ مِنَّا لديه شيئًا: أنتَ لديكَ الموسيقى، وأنا لديَّ الرؤية". وابتسم، فقد كان من الواضح تمامًا لكليهما أين يكمن المال. قال كوين: "وسِّع دماغك! وَسِّع أحلامك! تلك هي الرؤية. أَبقِ عينيك مفتوحَتَيْن أكثر من عيون الآخرين".

قال هيلمهولتز: "ذاك الفتى، رأيته من قبل في المدرسة، لكن لم أعرف اسمه قَطُّ".

ضحـك كويـن بـلا بهجـة. "بيـلي الفتـى؟ سـتورم تروبـر؟ رودلـف فالانتينـو؟ فـلاش جـوردون؟"[1]، ثـم نـادى الفتـى، "يا چيـم! تعـال لدقيقة".

روَّع هيلمهولتز أنه رأى أَعيُنَ الفتى بلا تعبير كالمحار.

قـال كويـن: "ذلـك ابـن زوج أختـي مـن زواج آخـر، قبـل أن يتـزوَّج أختـي. اسـمه چيـم دونينـي، مـن الناحيـة الجنوبيـة لشـيكاغو، وهـو شـديد القـوة".

ضاقـت قبضـة چيـم دونينـي عـلى مقبـض الممسـحة. قـال هيلمهولتـز: "كيـف حالـك؟".

قال چيم بخَواءٍ: "أهلًا".

قال كوين: "إنه يعيش معي الآن، صار طفلي".

"أتريد توصيلة للمدرسة يا چيم؟".

قـال كويـن: "نعـم هـو يريـد توصيلـة للمدرسـة، فلـتَرَ كيـف تتـصرَّف معـه. هـو لا يتحـدَّث معـي"، دار لچيـم، "هيـا يـا ولـد، اغتَسِـل واحلـق".

بحركة روبوتية مشى چيم مبتعدًا.

"أين والداه؟".

"ماتـت أمـه. أبـوه تـزوَّج أختـي، ثـم هجرهـا، تـاركًا إيَّاهـا عالِقـةً معـه. ثـم لم تحـب المحكمـة كيـف كانـت تُربِّيـه؛ فوضعـوه في ملجـأ لفـترة. ثـم قـرَّروا أن يخرجـوه مـن شـيكاغو، فورَّطـوني بـه"، هـزَّ رأسـه، "الحيـاة مضحكـة يـا هيلمهولتـز".

قـال هيلمهولتـز، مُزيحًـا طبـق البيـض جانبًـا: "ليسـت مُضحِكـةً جـدًّا في بعـض الأحيـان".

---

(1) كلهـا أسـماء شـخصيات خياليـة لأبطـال أفـلام وحكايـات بـوب أمريكيـة شـائعة وقـت كتابـة القصـة: راعـي بقـر وجنـدي شـجاع ومجـرم حـاذق ومغامـر فضـائي. [المترجـم]

قـال كويــن بتعجُّــب: "وكأن نوعًـا جديــدًا مــن النــاس يكــبرون. لا يشـبهون بـأي حـال الأطفـال الذيـن كبرنـا معهـم. انظُـر للحـذاء ذي الرقبـة، والجاكـت الأسـود... إنـه لا يتحـدث، لا يتجـوَّل مـع الشـباب الآخريـن، لا يـدرس. لا أظنـه حتـى قـادِرًا عـلى الكتابـة والقـراءة كـما ينبغـي".

قـال هيلمهولتـز: "أيُحـبُّ الموسـيقى؟ أو الرسـم؟ أو الحيوانـات؟ أيجمـع أي شيء؟".

قـال كويـن: "أتعلـم مـا يحـب؟ يحـب تلميـع حذائـه. مزاجـه في تلميـع هـذا الحـذاء. ينـثر مجـلَّات الكومِكـس حولـه عـلى الأرض، ويُلمِّـع حـذاءه، ويشـاهد التليفزيـون"، وابتسـم بشـفقة، "وكانـت لديـه مجموعـة أيضًـا، وأخذتهـا منـه وألقيتهـا في النهـر".

قال هيلمهولتز: "ألقيتها في النهر؟".

قال كوين: "نعم، ثمانية سكاكين... بعضها بنِصالٍ طويلة مثل يَدِك".

شـحب هيلمهولتــز: "أوه". شــعور بالوخــز انتــشر في مؤخِّــرة عُنُقــه. "تلــك مشــكلة جديــدة في مدرســة لينكولــن. لا أكاد أعــرف كيــف أفكِّــر فيهـا". جمـع الملـح المسـكوب في كومـة صغـيرة أنيقـة، مثلـما كان يحـب أن يجمـع أفـكاره المبعـثرة. "إنهـا نـوعٌ مـن المـرض؟ أليـس كذلـك؟ أتلـك هـي الطريقـة المناسـبة للنظـر في الأمـر؟".

قـال كويـن: "مـرض؟"، ثـم صفـع المائدة، "بوسـعك قـول ذلك مُجـدَّدًا!"، خبـط عــلى صــدره، "ودكتــور كويــن هــو الرجــل المناســب لإعطائــه مــا يشـفيه".

قال هيلمهولتز: "وما ذلك؟".

قــال كويــن بتجهُّــمٍ: "لا مزيــد مــن الحديــث عــن الطفــل المســكين المريـض، هـذا هـو كل مـا سـمعه مـن الأخصائيِّـين الاجتماعيـين ومحكمـة الأحــداث، والــرَّبُّ يعلــم مِمَّــن أيضًــا. مــن الآن فصاعــدًا هــو رَجُــلٌ بــلا

قيمة. سأشدُّ ذيله حتى ينعدل ويستقيم، وإلا سينتهي أمره إلى الأبد. إما ذلك أو ذاك".

قال هيلمهولتز: "أرى ذلك".

* * *

في طريقهم للمدرسة في سيارة هيلمهولتز، قال هيلمهولتز لچيم ببهجة: "أتحبُّ الاستماع للموسيقى؟". لم يَقُل چيم شيئًا. كان يُدلِّك شاربه وسوالفه، الذين لم يحلقهم.

قال هيلمهولتز: "هل تَدقُّ بأصابعك؟ أو تحافظ على إيقاع أقدامك؟". لاحظ أن حذاء چيم مُزيَّنٌ بسلاسل لا فائدة لها إلَّا الخشخشة بينما هو يمشي.

تنهَّد چيم بضجر.

قال هيلمهولتز: "أو تُصفِّر؟ أتفعل أيًّا من تلك الأشياء؟ إنها مثل التقاط مفاتيح عالم جديد كامل، عالم جميل مثلما ينبغي على أي عالم أن يكون".

أصدر چيم صافرة استهجان ساخرة.

قال هيلمهولتز: "بالضبط! لقد عبرت لتَوِّك عن المبدأ الأساسي لعائلة آلات النفخ النحاسية. الصوت المجيد لكل منهم يبدأ بزنَّة على الشفاه".

أصدر الزنبرك تحت مقعد چيم في سيارة هيلمهولتز القديمة صريرًا، فيما نقل چيم مركز ثقله. اعتبر هيلمهولتز ذلك علامة اهتمام، فدار ليبتسم له بودٍّ. غير أن تبديل چيم لمركز ثِقَلِه كان ليخرج سيجارة من معطفه الجلدي الضيق.

تصاعد ضيق هيلمهولتز حتى صار أكبرَ من قدرته على أن يُعلِّق لحظيًّا. ولم يحدث إلا عند نهاية رحلتهم، عندما دخل موقف سيارات المعلمين، أن فكَّر في شيء يقوله.

قال: "أحيانًا ما يتملَّكني الاشمئزاز والوحدة، حتى لا أعود أعرف كيف أتحمَّلهم. فأشعر برغبة في فِعل كُلِّ الأشياء المجنونة بلا سبب بعينه، أشياء قد تؤذيني أنا نفسي".

نفخ چيم دائرة دخان مثل خبير.

تابع هيلمهولتز: "وعندها..."، وطرقع بإصبعيه وأطلق نفير سيارته، "وعندها يا چيم، أتذكَّر أن لديَّ على الأقل رُكنًا صغيرًا جدًّا من الكون بوسعي جعله بالشكل الذي أريده! بوسعي اللجوء إليه والاستمتاع به حتى أصبح مولودًا من جديد وسعيدًا مرَّةً أخرى".

قال چيم: "يا لك من محظوظ". تثاءب.

قال هيلمهولتز: "أنا كذلك في الواقع. رُكني من الكون صادَفَ أنه الهواء المحيط بفرقتي. أستطيع مَلأَه بالموسيقى. مستر بيلر في قسم الأحياء لديه فراشاته، مستر تروتمان في الفيزياء لديه بندوله وشوكته الرَّنَّانة. التأكُّد من أن لكل شخص رُكنًا مُشابِهًا هو في الواقع أهم وظيفة لدى المدرِّسين. أنا...".

انفتح باب السيارة وانغلق بعنف، وذهب چيم. دهس هيلمهولتز سيجارة چيم ودفنها تحت حصى موقف السيارات.

* * *

أول حصَّة لهيلمهولتز في الصباح كانت مع الفرقة سي، حيث يدبُّ ويَئزُّ وينفخ المبتدئون بأفضل ما بوسعهم، ويتطلَّعون إلى طريق طويل طويل، عبر الفرقة بي إلى الفرقة إيه، فرقة تين سكوير لمدرسة لينكولن الثانوية، أفضل فرقة في العالم.

اعتـلى هيلمهولتـز المنصَّـةَ ورفـع عصـا المايسـترو. قـال: "أنتـم أفضـل مـمًّا تَحسَـبون أنفسـكم. واحـد... اثنـان... ثلاثـة". ونزلـت العصـا.

وخرجـت الفرقـة سي في رحلـة البحـث عـن الجـمال؛ خرجـت بمحـرِّكٍ صـدئ وأنابيـب مسـدودة ووصـلات مثقوبـة ومحامـل جافـة.

كان هيلمهولتـز لا يـزال يبتسـم في نهايـة السـاعة؛ لأنـه سـمع في عقلـه الموسـيقى مثلـما سـتكون ذات يـوم. حلقـه كان جافًّـا؛ فقـد كان يغنّـي مـع الفرقـة طـوال السـاعة كلهـا. خطـا خارجًـا إلى القاعـة ليـشرب مـن الصنبـور.

بينـما كان يـشرب، سـمع خشخشـة السلاسـل. رفـع بـصره ليقـع عـلى چيـم دونينـي. تدفَّقَـت أنهـار مـن الطلبـة بـين الحصـص، تتوقَّـف في دوَّامـات ودودة، ثـم تعـود لتتابـع التَّدفُّـق. چيـم كان وحيـدًا، عندمـا توقَّـف لم يكـن لتحيـة أي شـخص، لكـن ليلمـع مقدِّمـة حذائـه طويـل الرقبـة بأرجـل بنطالـه. كان لـه طابـع الجاسـوس في المسلسـلات الدرامية، لا يفتقـد شيء، لا يعجبـه شيء، ويتطلَّـع قُدُمًـا لليـوم العظيـم الـذي سـينقلب فيـه كل شيء رأسًـا عـلى عقـب.

قـال هيلمهولتـز: "أهـلًا يـا چيـم. تخيَّـل، كنـتُ أفكِّـر فيـك للتَّـوِّ. لدينـا العديـد مـن النـوادي والفـرق التـي تجتمـع بعـد المدرسـة. تلـك طريقـة رائعـة لمعرفـة العديـد مـن الأشـخاص".

تفحَّـص چيـم هيلمهولتـز جيـدًا بعينيـه. قـال: "ربمـا أنـا لا أريـد معرفـة العديـد مـن الأشـخاص. هـل فكَّـرتَ في هـذا قَـطُّ؟". هبـط بقدمـه بقـوة كي يجعـل سلاسـله تخشـخش، ومـشى مبتعـدًا.

عندمـا عـاد هيلمهولتـز إلى المنصـة لتدريـب الفريـق بي، كانـت هنـاك ملاحظـة بانتظـاره، تسـتدعيه لاجتـماع خـاص لـلإدارة.

الاجتماع كان عن التخريب.

اقتحم أحدهم المدرسة وخرَّب مكتب مستر كرَين، رئيس قسم اللغة الإنجليزية. كنز الرجل المسكين -كتبه وشهاداته وصوره لإنجلترا وبداية إحدى عشرة رواية- مُزِّق وسُحِقَ وخُلِط وأُلقي وانداس، وأُغرق بالحبر.

هيلمهولتز صُعق، لم يستطع تصديق ذلك، لم يقدر على جعل نفسه يفكر في ذلك. لم يستوعب أن هذا حدث بالفعل إلا في أواخر الليل، في حلمٍ. رأى في الحلم ولدًا بأسنان سمك الباراكودا ومخالب كخطّافات البالات. تسلَّق الوحشُ نافذةَ المدرسة الثانوية ونزل في غرفة تدريب الفرقة الموسيقية. مزَّق الوحش بمخالبه رؤوس طبول أكبر آلة درامز في الولاية. استيقظ هيلمهولتز صارخًا. ولم يكن لديه ما يفعله عدا ارتداء ملابسه والتوجُّه للمدرسة.

* * *

في الثانية صباحًا، تحسَّس هيلمهولتز رؤوس الطبول في غرفة تدريب الفرقة، بينما يراقبه الخفير الليلي. دحرج الطبلة إلى الأمام والخلف على قاعدتها، وأضاء النورَ الداخليَّ وأطفأه، وأضاءه وأطفأه. لم يُصِب الطبول أذى. غادر الخفير ليتابع جولاته.

كنز الفرقة كان في أمان. راضيًا كبخيل يَعدُّ أمواله، داعب هيلمهولتز بقيَّة الآلات، واحدة تلو الأخرى. ثم بدأ في تلميع السوسفون. وبينما يفعل، كان يسمع الأبواق العظيمة تهدر، رآهم يلمعون تحت ضوء الشمس، مع الشرائط والنجوم في عَلَم مدرسة لينكولن في الخلفية.

"يامب يامب، تيدل تيدل، يامب يامب، تيدل تيدل!"، غنَّى هيلمهولتز في سعادة، "يامب يامب يامب، رااااا، يامب يامب، يامب يامب، بووم!".

وعندما توقَّف ليختار النمرة التالية التي ستعزفها فرقته الخيالية، سمع ضجَّة مكتومة في معمل الكيمياء المجاور. تسلَّل هيلمهولتز إلى الرَّدهة، وفتح باب المعمل على أقصى اتِّساع وأضاء النور. كان چيم دونيني يحمل في كل يدٍ زُجاجةَ حمضٍ، وينثره على الجدول الدوري للعناصر، وعلى السبورة التي تغطِّيها المعادلات، وعلى تمثال لافوازييه[1]. كان المشهد برُمَّته أكثر شيء مُنفِّر وقَعَت عليه عينا هيمهولتز في حياته.

ابتسم چيم في تبجُّح محدود.

قال هيلمهولتز: "اخرُج".

قال چيم: "ماذا ستفعل؟".

قال هيلمهولتز بدوخة: "سأنظِّف، وأنقذ ما بوسعي". والتقط حزمةً من مخلَّفات القطن وبدأ في تنظيف الحمض.

قال چيم: "أستطلب الشرطة؟".

قال هيلمهولتز: "أنا... أنا لا أعلم. لا أستطيع التفكير في شيء. لو كنت أمسكتك تؤذي الطَّبلة الأساسية، ربما كنتُ لأقتلك بضربة واحدة. لكني لا تراودني أي أفكار ذكية بشأن ما كنت... ما كنت تحسب نفسك فاعله".

قال چيم: "حان وقت أن يقلب أحدهم المكان على رأسه".

قال هيلمهولتز: "هل حان فعلًا؟ لا بُدَّ أنه حان، طالما أن أحد تلاميذنا يودُّ القضاء عليه".

قال چيم: "أي فائدة فيه؟".

(1) أنطوان لافوازييه (1743-1794): عالم كيمياء فرنسي، أشهر إسهاماته اكتشافه دور الأكسچين في عملية الاشتعال. [المترجم]

قـال هيلمهولتـز: "ليـس الكثـير عـلى مـا أظـنُّ. هـو فقـط أفضـل شيء تمكَّـن البـشر مـن الوصـول إليـه". كان يائسًـا، يتحـدَّث مـع نفسـه. لديـه جَعبَـةٌ مـن الخـدع التـي تجعـل الصبيـة يتصرَّفـون كالرجـال، خُـدَعٌ لَعِبَـت عـلى مخاوفهـم وأحلامهـم ورغباتهـم. لكنـه هنـا في مواجهـة صبـيٍّ بـلا خـوف ولا حلـم ولا رغبـة.

قال هيلمهولتز: "لو دُمِّرَت كل المدارس، فلن يعود لدينا أي أمل".

قال چيم: "أمل في ماذا؟".

قـال هيلمهولتـز: "في أن يكـون الجميـع مُمتنِّـين لكونهـم عـلى قيـد الحيـاة. حتـى أنـت".

قـال چيـم: "هـذه نكتـة. كل مـا أصابنـي مـن مقلـب القمامـة هـذا كان المصاعـب. مـا الـذي تنـوي فعله؟".

قال هيلمهولتز: "عليَّ أن أفعل شيئًا، أليس كذلك؟".

قال چيم: "لا يهمُّني ما ستفعله".

قـال هيلمهولتـز: أعلـم، أعلـم". أخـذ چيـم لمكتبـه الصغـير بجـوار غرفة تدريـب الفرقـة. اتَّصـل برقـم هاتـف الناظـر. وبحَـذَرٍ، انتظـر أن يجلـب جـرس الهاتـف الرجـل العجـوز مـن سريـره.

نظف چيم حذاءه من الغبار بقطعة قماش.

فجـأة أسـقط هيلمهولتـز الهاتـف في حضنـه قبـل أن يتمكَّـن الناظـر مـن الإجابـة. صـاح: "أليـس هنـاك أي شيء تهتـمُّ بشـأنه غـير التمزيـق والتدمـير والاقتحـام والتحطيـم والتكسـير؟ أي شيء؟ أي شيء غـير حذائـك ذي الرقبـة؟".

قال چيم: "هيا، اتَّصِل بأيٍّ كان مَن تريد الاتصال به".

فتح هيلمهولتز خزانته وأخذ منه ترومبِت. دفعه بين ذراعي چيم. قال بمشاعر جيَّاشة: "هاك، هذا كنزي، هذا أعزُّ ما أملك. أعطيه لك كي تُحطِّمَه. لن أُحرك إصبعًا لمنعك. بوسعك التَّلذُّذ بمشاهدة قلبي يتحطَّم بينما تفعل كمتعة إضافية".

نظر له چيم بغرابة. ووضع الترومبِت أرضًا.

قال هيلمهولتز: "هيا، ما دام كان العالم معك سيئًا لهذه الدرجة، فهو يستحق تحطيم الترومبِت!".

قال چيم: "أنا...".

جذبه هيلمهولتز من حزامه، ووضع قدمًا وراءه، وطرحه أرضًا.

انتزع هيلمهولتز حذاء چيم منه وألقاه في الركن. قال بوحشية: "هاك!". رفع الفتى واقفًا على قدميه مُجدَّدًا، ودفع الترومبِت في حضنه مرة أخرى.

صار چيم دونيني حافيًا الآن. خسر جوربيه وحذاءه. نظر الفتى إلى الأسفل؛ القدمان اللتان بدتا من قبل مثل هراوتَيْن سوداوين ضخمتَيْن، صارتا الآن نحيفتَيْن كأجنحة الدجاج، عظميَّتَيْن زرقاوَيْن، ولا تتميزان بشدَّة النظافة.

ارتعش الفتى، ثم ارتجف. ومع كل ارتجافة بدا وكأن شيئًا في داخله يتفكَّك، حتى في النهاية لم يَبقَ من الفتى شيء. لا فتى على الإطلاق. استرخت رأس چيم، وكأنه لم يَعُد ينتظر إلا الموت.

غلب هيلمهولتز الندم. رمى ذراعيه حول الفتى. "چيم، چيم، اسمعني يا ولد!".

توقف چيم عن الارتجاف.

قال هيلمهولتز: "أتعلم شيئًا عن تلك الترومبِت؟ أتعلم ما المميَّز بشأنها؟".

لم يَرُدَّ چيم إلّا بالتنهُّد.

قال هيلمهولتز: "إنه يعود لفيليب سوسا!"، هزَّ چيم برِقَّةٍ محاولًا إعادته للحياة، "سأقايضه معك يا چيم، مقابل حذائك. إنه لك يا چيم، ترومبِت فيليب سوسا مِلكُكَ! إنه يساوي مئات الدولارات، بل الآلاف!".

أرخى چيم رأسه على صدر هيلمهولتز.

قال هيلمهولتز: "إنها أفضل من الحذاء يا چيم، بوسعك تَعلُّم العزف عليها. أنت شخصٌ ذو شأنٍ الآن يا چيم. أنت الفتى الذي يملك ترومبِت فيليب سوسا".

أطلق هيلمهولتز سراح چيم برفق، واثقًا أن الفتى سيسقط. لم يقع چيم. وقف وحده، والترومبِت لا يزال في حضنه.

قال هيلمهولتز: "سآخذك للبيت يا چيم. كُن فتى طيِّبًا ولن أُصرِّح بأي كلمة عن الليلة. لمع الترومبت، وتعلَّمْ أن تكون فتًى طيِّبًا".

قال چيم بخفوت: "هل أستطيع أخذ حذائي؟".

قال هيلمهولتز: "لا، لا أظنُّه مُفيدًا لك".

أوصل هيلمهولتز چيم إلى البيت. فتح نافذة سيارته وبدا أن الهواء ينعش الفتى. تركه عند مطعم كوين.

تردَّدَت خطوات چيمي العارية الرقيقة على الرصيف في الشارع الخاوي. تسلَّق نافذة إلى غرفة النوم خلف المطعم. وسكن كل شيء.

* * *

في الصباح التالي كانت الماكينات الهادرة تُحقِّق رؤية بيرت كوين: كانت تُسوِّي المكان حيث كان التل خلف المطعم. تجعله مستويًا كمائدة لعبة البلياردو.

جلس هيلمهولتز في الكابينة مُجددًا. انضمَّ له كوين مُجددًا. مسح چيم الأرض مُجددًا. احتفظ چيم بعينه في الأرض، رافضًا ملاحظة هيلمهولتز. ولم يَبدُ عليه الاهتمام عندما أصاب رذاذ الرغوة مقدِّمة حذائه الأوكسفوردي البُنِّيِّ النحيل الصغير.

قال كوين: "تفطر في الخارج لثاني صباح على التوالي؟ هل هناك خَطبٌ في البيت؟".

قال هيلمهولتز: زوجتي لا تزال في المدينة".

قال كوين: "إن غاب القط..."، وغمز.

قال هيلمهولتز: "إن غاب القط، يشعر هذا الفأر بالوحدة".

انحنى كوين إلى الأمام. "أهذا ما أخرجك من السرير في منتصف الليل يا هيلمهولتز؟ الوحدة؟". صاح في چيم: "يا ولد! أحضِر لمستر هيلمهولتز بوقه".

رفع چيم رأسه، ورأى هيلمهولتز أن عينيه عادتا لخواء المحار من جديد. ابتعد ليجلب الترومبت.

أظهر كوين الآن أنه كان منفعلًا وغاضبًا. قال: "أخذت حذاءه وأعطيته بوقًا، ولا يفترض بي أن ينتابني الفضول؟ لا يفترض بي أن أبدأ في طرح الأسئلة؟ لا يفترض بي أن أُدرِك أنَّك ضبطته يُخرِّب المدرسة؟ لو أنك مُجرِمٌ كنتَ ستصبح مُجرِمًا أخرقَ يا هيلمهولتز. كنتَ ستترك عصاك ونوتة موسيقاك ورخصة قيادتك في مسرح الجريمة".

قال هيلمهولتز: "أنا لا أفكِّر في إخفاء الأدِلَّة، أنا فقط أفعل ما أفعله. كنتُ سأخبرك".

رقصت قدما كوين في حذاءه وصدر عنها صرير كما الفئران. قال: "فعلًا؟ في هذه الحالة عندي لك أخبار أيضًا".

قال هيلمهولتز بتوتُّر: "وما هي؟".

قال كوين: "انتهى ما بيني وبين چيم. ما حدث بالأمس كان القَشَّةَ التي قسمت الظهر. سأعيده من حيث أتى".

قال هيلمهولتز بضعف: "إلى سلسلة أخرى من بيوت الرعاية؟".

"أيًّا كان ما يُرجِّح الخبراء أنه الأفضل لفتى مثله". تراجع كوين في مكانه، زفر بضجَّة، وارتخت أعضاؤه من الارتياح.

قال هيلمهولتز: "لا يُمكِنُك".

قال كوين: "بل يمكنني".

قال هيلمهولتز: "تلك ستكون نهايتَه. لن يتحمَّل أن يُلقى بعيدًا هكذا مرَّةً أخرى".

قال كوين: "إنه غيرُ قادر على الشعور بشيء. لا أستطيع مساعدته. ولا أستطيع إيذاءه، بل لا يوجد مَن يقدر على ذلك؛ ليس فيه عَصبٌ واحد".

قال هيلمهولتز: "بل هو كتلة من أنسجة الندوب".

عادت كتلة أنسجة الندوب بالترومبِت. بلا شعورٍ مَدَّدَه على المائدة أمام هيلمهولتز.

أرغم هيلمهولتز نفسه على الابتسام. قال: "إنه لك يا چيم، أنا منحته لك".

قال كوين: "خُذه بينما لا يزال عندك فرصة يا هيلمهولتز. هو لا يريده، كل ما سيفعله به هو استبداله بسكِّين أو بعلبة سجائر".

قال هيلمهولتز: "إنه لا يعلم ما هو بعد. يستغرق الإدراك وقتًا".

قال كوين: "وهل له أي فائدة؟".

قـال هيلمهولتـز وهـو لا يـكاد يصـدِّق أذنيـه: "أي فائـدة؟"، لم يكـن يـرى كيـف يسـتطيع أي شـخص النظـر إلى الآلـة دون أن يـذوب قلبـه وينبهـر بهـا. همهـم: "أي فائـدة؟ إنهـا ترجـع لچـون فيليـب سوسـا".

رمش كوين بغباء: "مَن؟".

ارتعشـت يـدا هيلمهولتـز عـلى سـطح المائـدة مثـل أجنحـة طائـر يحتـضر. قـال بصـوت رفيـع: "مـن هـو چـون فيليـب سوسـا؟". ولم تخـرج منـه كلمـة أخـرى، الموضـوع كان أكـبرَ مـن قُـدرَة الرجـل المتعـب عـلى التفكـير. كـفَّ الطائـرُ المحتـضر عـن الحركـة، وقـضى.

بعـد صمـتٍ مُطـوَّل، التقـط هيلمهولتـز الترومبـت. لثـم المبسـم ونفـخ تقسـيمةً رائعـة كالحلـم. مـن فـوق بـوق الآلـة، رأى هيلمهولتـز وجـه چيـم دونينـي يبـدو كمـن يسـبح في الفضـاء؛ أصـمَّ أعمـى. رأى هيلمهولتـز حينهـا قِلَّـة حيلـة الرجـال وكنوزهـم. كان قـد حسـب أن أعظـم كنـوزه، الترومبـت، قـد يبتـاع للفتـى روحًـا. لكـن الترومبـت كان بـلا قيمـة.

بتعمُّـد، ضرب هيلمهولتـز الترومبـت بحافَّـة المائـدة. وثنـاه حـول حامـل المعاطـف.

قدم الحطَّام لكوين.

قـال كويـن مذهـولًا: "لقـد دمَّرتَـه! لمـاذا فعلـتَ ذلـك؟ مـاذا تحـاول أن تثبـت؟".

قـال هيلمهولتـز: "أنا...أنـا لا أعلـم". كُفـرٌ لَعـينٌ كان يغـلي بداخلـه، مثل إنـذار بثـورة بـركان، ثـم بـلا مقاومـة، خـرج للسـطح. قـال: "ليـس للحيـاة أدنى قيمـة". تلـوَّى وجهـه فيـما كان يحـاول مُصارعـةَ الدمـوع والخِـزي.

هيلمهولتـز، الجبـل الـذي يمـشي عـلى قدمـين، كان ينهـار. امتـلأت أعـين چيـم دونينـي بالشـفقة والانتبـاه؛ صـارت حيَّـةً، صـارت إنسـانيَّةً. رسـالة

هيلمهولتـز وصلـت. نظـر كويـن لچيـم، وشيء أشـبه بالأمـل لمـع لأول مـرة في وجهـه الوحيـد العجـوز المريـر.

* * *

بعد أسبوعين، بدأ فصلٌ دراسيٌّ جديد في مدرسة لينكولن الثانوية.

الفرقـة في غرفـة التدريـب، أعضـاء الفرقـة سي، كانـوا في انتظـار قائدهم، في انتظـار اتِّضـاح مصائرهم كموسـيقيين.

اعتـلى هيلمهولتـز المنصـة، ولـوَّح بعصـاه أمـام حامـل نوتتـه. قـال: "أصـوات الربيـع، هـل يسـمعني الجميـع؟ أصـوات الربيـع".

تعالـت أصـواتُ الحفيـف فيـما كان الموسـيقيُّون يُثبِّتـون نوتاتهـم أمامهـم. في الصمـت المثقـل الـذي أتبـع تجهيزهـم، ألقـى هيلمهولتـز نظـرة عـلى چيـم دونينـي، الـذي كان يجلـس مـكانَ أسـوأ عـازِفٍ ترومبـت في أسـوأ فرقـة بالمدرسـة.

ترومبتـه كان ترومبـت چـون فيليـب سوسـا، ترومبـت چـورچ إم. هيلمهولتـز، بعـد إصلاحـه.

قـال هيلمهولتـز: "فكِّـروا في الأمـر بتلـك الطريقـة، هدفنـا جعـل العـالم مكانًـا أجمـلَ مـمَّا كان عندمـا جئنـا إليـه. يمكـن فعـل ذلـك، يمكنكـم فعـل ذلك".

صيحـة يـأس صغـيرة صـدرت مـن چيـم دونينـي. كان يقصـد إبقاءهـا سِرًّا، لكنهـا ثقبـت آذان الجميـع بلذوعتهـا.

قال چيم: "كيف؟".

قـال هيلمهولتـز: "أحِـبَّ نفسَـكَ، واجعَـلْ آلتـك تغنِّـي عـن هـذا الحب. واحـد، اثنـان، ثلاثـة..."، ونزلـت العصا.

(1955)

صواريخ ورجال

أنـا، ميخائيـل إيڤانكـوڤ، البَنَّـاء الحجـري مـن قريـة إلبـا في جمهوريـة أوكرانيـا الاشـتراكية السـوڤييتية، أُحيِّيـك، وأشـفق عليـك، يا تشـارلز أشـلاند، بائـع الوقـود في مدينـة تيتوسـفيل بفلوريـدا الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. وأشـدُّ عـلى يـدك.

أول رائـد فضـاء حقيقـي كان ابنـي، الرائـد سـتيبان إيڤانكـوڤ. والثـاني كان ابنَـك، كابـتن براينـت أشـلاند. سيسـقطان مـن الذاكـرة فقـط عندمـا يتوقَّـف البـشر عـن النظـر في السـماء. هـم كالقمـر والكواكـب والشـمس والنجـوم.

أنـا لا أتحـدث الإنجليزيـة. أقـول هـذه الكلـمات بالروسـية، مـن قلبـي. ابنـي الـذي لا يـزال حيًّـا، أليكـسي، يكتبهـم بالإنجليزيـة. يـدرس أليكـسي الإنجليزيـة في المدرسـة، والألمانيـة أيضًـا، لكنـه يحـب الإنجليزيـة أكـثر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

يحـب كُتَّابَكـم: چـاك لنـدن وأوليڤـر هـنري ومـارك تويـن. أليكـسي في السـابعة عـشرة، سـيصبح عالِـمًا مثـل أخيـه سـتيبان.

يريـدني أن أخبركـم أنـه سـيعمل في العِلـم مـن أجـل السـلام، لا الحـرب. يريـدني أن أخبركـم أيضًـا أنـه لا يكـره ذكـرى ابنكـم؛ يتفهَّـم أن ابنكـم كان مأمـورًا بفِعـل مـا فعـل. إنـه يتحـدَّث كثـيرًا ويريـد أن يكتـب الخطـاب بنفسـه. يحسـب أن رَجُـلًا في التاسـعة والأربعـين هـو رجـل عجـوز، ولا يعتقـد أن رجـلًا عجـوزًا غـير قـادر عـلى فِعـل أي شيء عـدا وضـع صخـرة فـوق أخـرى يسـتطيع قـول أشـياء سـليمة عـن شـباب ماتـوا في الفضـاء.

إن أراد، بوسـعه أن يكتـب خطابـه الخـاص عـن مـوت سـتيبان وابنـك. هـذا خطـابي، وسـأجعل أكسـينيا، أرملة سـتيبان، تقرؤه لي لأتأكَّـد أن أليكسي كتـب بالضبـط مـا أردتـه أن يقـول. أكسـينيا أيضًـا تفهـم الإنجليزيـة جيِّـدًا. إنهـا طبيبـة أطفـال، وجميلـة. تعمـل بجـدٍّ كي تنـسى بعـض الوقـت حزنهـا عـلى سـتيبان.

* * *

سـأقول لـك مَزحـةً يـا مسـتر أشـلاند. عندمـا انطلـق ثـاني قمـر صغـير سـوڤييتي للأعـلى يحمـل كلبًـا، همسـنا أن مـا بداخلـه لم يكـن كلبًـا حقًّـا، وإنمـا بروخـور إيڤانـوڤ، مديـر مزرعـة ألبـان قُبـض عليـه للسرقـة قبـل يومـين. تلـك كانـت مُجـرَّد مَزحَـة، لكنهـا جعلتنـي أفكـر كـم أن إرسـال إنسـان إلى الأعـلى هـو عقـاب مُريـع. حلمـتُ بذلـك في تلـك الليلـة، وحَلمـتُ أننـي كنـتُ الشـخص الـذي يُعاقَـب.

كنـت لأسـأل ابنـي الأكـبر سـتيبان عـن الحيـاة في الفضـاء، لكنـه كان بعيـدًا في جوربيـڤ عـلى بحـر قزويـن؛ لـذا سـألتُ ابنـي الأصغـر. ضحـك أليكـسي عـلى مخـاوفي مـن الفضـاء، وقـال إن الإنسـان يمكـن أن يكـون في غايـة الراحـة هنـاك، وقـال إن العديـد مـن الشـباب سـيذهبون إلى هنـاك عـمَّا قريـب. سـيكون عليهـم في البدايـة ركـوب الأقـمار الصغـيرة، ثـم

سيذهبون إلى القمر ذاته. ثم سيصلون إلى كواكب أخرى. ضحك عليَّ؛ فقط لأن مثل هذه الرحلات لا يقلق منها إلا رجُلٌ عجوز.

قال لي أليكسي إن الإزعاج الوحيد يتمثَّل في انعدام الجاذبية. بدا لي هذا انعدام رائع. قال أليكسي إن الواحد سيكون عليه الشرب من زجاجات الرضاعة، وعليه أن يعتاد الشعور وكأنه يقع طوال الوقت، وعليه أن يتعلَّم التَّحكُّمَ في حركته؛ لأن الجاذبية لن تمنحه أي مقاومة. وهذا كل شيء. لم يعتقد أليكسي أن مثل هذه الأشياء ستشكِّل مشكلة. وتَوقَّع الوصول إلى المريخ قريبًا.

أولجا، زوجتي، ضحكت عليَّ أيضًا؛ لأني أكبر سنًّا من أن أفهم عصر الفضاء العظيم الجديد. قالت: "قمران روسيَّان يلمعان في السماء فوقنا، وزوجي هو الرجل الوحيد على الأرض الذي لا يصدِّق ذلك بعد".

لكن أحلام الفضاء السيئة ظلَّت تراودني، وصارت الآن أحلامي عِلميَّة. حَلُمتُ بزجاجات الرضاعة والوقوع، وقوع مستمرٍّ، والحركة الغريبة لأطرافي. ربما كانت الأحلام خَوارقيَّة، ربما كان هناك شيء ما يحاول أن يحذِّرني أن ستيبان سيعاني عمَّا قريب في الفضاء مثلما عانَيتُ أنا في أحلامي، ربما كان شيء ما يحاول أن يُحذِّرني أن ستيبان سيُقتل في الفضاء.

أليكسي مُحرَجٌ جدًّا أني أقول ذلك في خطاب للولايات المتحدة الأمريكية. يقول إنكم ستظنُّونني فلاحًا يؤمن بالخرافات. ليكن ذلك. أعتقد أن الأشخاص ذوي التفكير العلمي في المستقبل سيتهكَّمون على ذوي التفكير العلمي في الحاضر. سيسخرون لأن ذوي التفكير العلمي في الحاضر اعتقدوا أن كثيرًا من الأشياء المُهمَّة خرافات. الأشياء التي حلمت بها في الفضاء تحقَّقَت لابني. عانى ابني كثيرًا بالأعلى هناك.

بعـد يومـه الرابـع في الفضـاء، كان سـتيبان يبـكي أحيانًـا كالطفـل. أنـا بكيـتُ أحيانًـا كطفـل في أحلامـي.

لسـت جبانًـا، ولا أحـب الراحـة أكـثر مـن تطويـر حيـاة البـشر. ولسـت جبانًـا عـلى أبنـائي أيضًـا. لقـد عِشـتُ معانـاةً عظيمـة في الحـرب، وفهمـت أن المعانـاة العظيمـة يجـب أن تسـبق السـعادة العظيمـة. لكـن عندمـا فكَّـرتُ في المعانـاة التـي سيعيشـها الإنسـان بـلا شـك في الفضـاء، لم أسـتطع التفكـير في السـعادة التـي سـيجنيها مقابلهـا. وذلـك كان قبـل أن يذهـب سـتيبان إلى هنـاك بكثـير.

ذهَبـتُ إلى المكتبـة وقـرأت عـن القمـر والكواكـب؛ لأرى إن كانـت تلـك بالفعـل أماكـن مُغرِيَـة بالذهـاب إليهـا. لم أسـأل أليكـسي عنهـم، لأني عرفـت أنـه سـيقول لي بـأن الذهـاب إلى تلـك الأماكـن سـيكون ألطـفَ الأوقـات. اكتشـفتُ بنفـسي في المكتبـة أن القمـر والكواكـب أماكـن لا تصلـح لمعيشـة النـاس. هـي إمَّـا أسـخَنُ مـن الـلازم، أو أَبـرَدُ مـن الـلازم، أو سـامَّةٌ أكـثر مـن الـلازم.

لم أَقُـل شـيئًا في البيـت عـن اكتشـافاتي في المكتبـة؛ لأني لم أوَدَّ أن يضحكوا عـليَّ مُجـدَّدًا. انتظـرتُ بهـدوءٍ زيـارةَ سـتيبان لنـا، فهـو لـن يضحـك عـلى أسـئلتي، بـل سـيجيب عليهـا بشـكلٍ عِلمـيٍّ. لقـد عمـل عـلى الصواريـخ لأعـوام، ويعلـم كل مـا هـو معلـوم عـن الفضـاء.

* * *

أخـيرًا جـاء سـتيبان ليزورنـا، وجلـب معـه زوجتـه الجميلـة. كان رجـلًا قصـيرًا، لكنـه قـويٌّ وعريـض المنكبـين وحكيـم. كان متعبًـا جـدًّا، عينـاه كانتـا غائرتـين. علـم بالفعـل أنـه سيُرسـل إلى الفضـاء. في البدايـة أرسـلوا قمـرًا صغـيرًا يحمـل راديـو، ثـم قمـرًا صغـيرًا يحمـل كلبًـا، ثـم أقمـارًا صغيرة تحمـل قـرودًا. بعدهـا سـيأتي الـدَّورُ عـلى قمـرٍ صغـيرٍ يحمـل سـتيبان.

عمل ستيبان ليلًا ونهارًا في تصميم بيته في الفضاء. لم يَكُن قادرًا على إخباري، لم يكن قادرًا حتى على إخبار زوجته.

مستر أشلاند، أعتقد أنك كنتَ ستحبُّ ابني. أَحبَّ الجميع ستيبان، كان رَجُلَ سَلامٍ. لم يكن رائدًا لأنه مُحارِبٌ جيِّد، بل كان رائدًا لأنه فهم الصواريخ جيِّدًا جدًّا. كان رجُلًا مُفكِّرًا. كثيرًا ما كان يقول إنه تَمنَّى لو كان بَنَّاءَ حجارةٍ مثلي. قال إن بَنَّاء الحجارة سيكون لديه الوقت والسلام الكافيان ليُفكِّر في الأشياء. لم أخبره أن بَنَّاء الحجارة لا يفكر في الكثير غير الحجارة والمونة.

طَرَحتُ عليه أسئلتي عن الفضاء، ولم يضحك. أجابني بجدِّيَّة شديدة. وكانت لجدِّيَّته سببٌ؛ فقد كان يخبرني لماذا هو مستعدٌّ للمعاناة في الفضاء بنفسه.

أخبرني أني كنتُ على حقٍّ. معاناة الإنسان في الفضاء قد تكون عظيمة، والقمر والكواكب أماكِنُ سيِّئة للإنسان. ربما هناك أماكن جيدة، لكنها أبعد من أن يصلها البشر في حياتنا.

سألته: "إذن ما هو عصر الفضاء الجديد العظيم هذا يا ستيبان؟".

قال: "سيظلُّ عصرَ الأقمار الصغيرة لفترة طويلة. سنبلغ القمر نفسه قريبًا، لكن سيكون من الصعب أن نظلَّ فيه أكثر من ساعات قليلة".

سألته: "إذن لماذا نذهب إلى الفضاء طالما النفع وراء ذلك أقل ما يكون؟".

* * *

قال: "ثمَّة الكثير ممَّا نَتعلَّمه ونراه هناك. بوسع الإنسان أن ينظر في العوالم الأخرى دون ستارة من الهواء بينه وبينهم. بوسع الإنسان أن ينظر إلى عالَمِه من فوق، ويدرس تَبدُّل الطقس فيه، وبوسعه قياس أبعاده الحقيقية". آخر نقطة فاجأتني، حسبتُ أبعاد عالمنا

معلومـةً جيِّـدًا. قـال سـتيبان: "بوسـع الإنسـان أن يتعلَّـم الكثـير عـن زَخَّـات المـواد والطاقـة المدهشـة في الفضـاء"، وتحـدَّث عـن العديـد مـن المباهـج العِلميَّـة والشِّـعريَّة هنـاك.

بـتُّ مَرضيًّـا. جعلنـي سـتيبان أشـعر بمتعتـه العظيمـة الشـخصية عنـد التفكـير في كل الجـمال والحقيقـة في الفضـاء. فهمـتُ أخـيرًا يـا مسـتر أشـلاند لمـاذا تسـتحقُّ المعانـاة مـا يُبـذل في سـبيلها. عندمـا حلمـت بالفضـاء مُجـدَّدًا، حلمـتُ بالنظـر مـن فـوق إلى كُرَتِنـا الخـضراء الجميلـة، وحَلُمـتُ بالنظـر لفـوق، إلى عـوالم أخـرى، ورؤيتهـم بأوضـح مـمًّا رآهـم أحـد مـن قبـل.

لم يكـن لأجـل الاتحـاد السـوفييتي، بـل مـن أجـل الجـمال والحقيقـة في الفضـاء يـا مسـتر أشـلاند عَمِـلَ سـتيبان ومـات. لم يكـن يُحـبُّ الحديـث عـن الاسـتخدامات الحربيـة للفضـاء، بـل أليكـسي هـو مَـن أَحـبَّ الحديـث عـن مثـل تلـك الأشـياء، عـن المجـد في التجسُّـس عـلى الأرض مـن الأقـمار الصغـيرة، وعـن توجيـه الصواريـخ إلى أهدافهـا بالأقـمار الصغـيرة، وعـن السـيطرة عـلى الأرض بأسـلحةٍ تُطلَـق مـن القمـر نفسـه. توقَّـع أليكـسي أن سـتيبان سيشـاركه حماسـه في أفـكاره العنيفـة الطفوليـة.

ابتسـم سـتيبان، لكنـه ابتسـم فقـط لأنـه أحـبَّ أليكـسي. لم يبتسـم لأجـل الحـرب أو للأشـياء التـي يسـتطيع رَجُـلٌ في قمـر صغـير أو القمـر الصغـير نفسـه أن يفعلهـا في عـدوٍّ. قـال: "هـذا مـن اسـتخدامات العلـم التـي قـد نضطـرُّ لهـا يـا أليكـسي. لكـن إن قامـت مثـل تلـك الحـرب، فلـن يكـون لـشيء أي أهميـة بعـد ذلـك. سيُمسي عالَمُنـا أقـلَّ مناسـبةً للحيـاة مـن أي كوكـب آخـر في النظـام الشـمس".

ومن ساعتها لم يتحدَّث أليكسي عن الحرب باستحسان.

ذهـب أليكـسي وزوجتـه في أواخـر تلـك الليلـة، وَعَـدَ أنـه سـيعود قبـل أن تَمـرَّ سـنة، لكنـي لم أَره حَيًّـا مـرَّةً أخـرى.

عندما جاءت الأنباء أن الاتحاد السوفييتي قد أطلق قمرًا صغيرًا على مَتنِه رَجُلٌ إلى الفضاء، لم أعلم أن هذا الرجل هو ستيبان. لم أجرؤ على الشَّكِّ في ذلك. كنتُ في غاية التَّلهُّف على رؤية ستيبان من جديد؛ لسؤاله عمَّا قاله هذا الرجل قبل الإقلاع، وماذا كان يرتدي، وماذا كانت وسائل راحته. قيل لنا إننا سنصبح قادرين على سَماع حديث ذلك الرجل يتحدَّث من الفضاء في الساعة الثامنة مساءً على الراديو.

أنصتنا. سمعنا الرجل يتحدَّث. كان الرجل ستيبان.

بدا صوت ستيبان قويًّا، بدا سعيدًا، بدا فخورًا حكيمًا محترمًا. ضحكنا حتى بكينا يا مستر أشلاند. ورقصنا. ابننا ستيبان كان أكثرَ رَجُلٍ مُهمٍّ على قَيْد الحياة. ارتقى فوق الجميع، وأخذ ينظر إلى الأسفل ويخبرنا كيف يبدو عالمنا، وينظر إلى الأعلى ويخبرنا كيف تبدو باقي العوالم.

ألقى ستيبان دُعاباتٍ لطيفة عن منزله الصغير في السماء. قال إنه أسطوانيٌّ، طوله عشرة أمتار وقُطره أربعة أمتار. ويكاد يكون وثيرًا جدًّا. وقال لنا ستيبان إن في منزله نوافذ صغيرة، وكاميرا تليفزيون، وتليسكوبَ، ورادارَ، وكل أنواع المُعدَّات. كم هو من الرائع أن يعيش المرء في زمنٍ فيه كل تلك الأشياء متاحة! كم هو من الرائع أن تكون والِدَ الرَّجُل الذي أصبح أَعيُنَ وآذان وقلب البشر جميعًا في الفضاء!

* * *

قال إنه سيظلُّ فوقَ شَهرًا، فأخذنا نَعدُّ الأيام. كل ليلة كنَّا نستمع إلى تسجيلات إذاعية لأشياء قالها ستيبان. لم نسمع شيئًا عن نزيف أنفه ولا الغثيان الذي انتابه ولا بُكائه. سمعنا فقط الأشياء الهادئة الشجاعة التي قالها. ثم في الليلة العاشرة، لم تَعُد هناك تسجيلات

لستيبان. لم يَعُد هناك في الثامنة مساءً إلا الموسيقى. لا أخبار عن ستيبان على الإطلاق، ثم علمنا أنه ميِّت.

الآن فقط، بعد مرور عام، عَلِمنا كيف مات ستيبان، وأين جسده. بعدما هضَمتُ حسرتي يا مستر أشلاند قلتُ: "وهو كذلك. أتمنَّى أن يصير الرائد ستيبان إيڤانكوف وكابتن براينت أشلاند، كلَّما نظرنا إلى السماء، مصدرَ توبيخٍ لنا، على صُنعِنا عالَمًا لا مكانَ فيه للثِّقة. أتمنى أن يصبح الرَّجُلان بدايةً للثِّقة بين شعوبنا. أتمنى أن يصيرا مؤشِّرًا على نهاية الزمن الذي يرسل فيه العِلمُ شبابنا الشُّجعان الطيِّبين لملاقاة حَتفِهم".

أرفق بخطابي صورةً لأسرتي، التُقِطَت خلال زيارة ستيبان الأخيرة لنا. إنها صورةٌ مُمتازةٌ لستيبان. المُسطَّح المائي في الخلفية هو البحر الأسود.

ميخائيل إيڤانكوڤ

* * *

عزيزي مستر إيڤانكوڤ:

شكرًا على خطابك عن ابنَيْنا. لم يصلني الخطاب في البريد قَطُّ. بل صدر في كل الصحف بعدما قرأه رئيسُكم مستر كوشيڤوي على الملأ في الأمم المتحدة. لم تَصِلني نُسخَةٌ لي قَطُّ. أظنُّ مستر كوشيڤوي نَسِيَ أن يضعه في صندوق البريد. لا بأس. أعتقد أن الوسيلة الحديثة لإيصال الخطابات المهمَّة، هي إعطاؤها للصحفيِّين. يقولون إن خطابك لي كان أهمَّ شيء حدث مؤخَّرًا، باستثناء حقيقة أننا لم ننخرط في الحرب بسبب ما حدث بين وَلَدَيْنا.

لا أتحدث الروسية، ولا أظنُّ أي شخص قريبًا مني يفعل؛ لذا سيكون عليك أن تَعذُر استخدامي للإنجليزية. يمكن أن يقرأه لك أليكسي. أخبِرْه أنه يكتب بإنجليزية جيِّدة، أفضل ممَّا أفعل أنا.

أوه، كان بإمكاني أن أجعل كثيرًا من الخُبَراء يساعدونني في كتابة هذا الخطاب إن أرَدتُ ذلك؛ الناس هنا مُستعدُّون للكتابة بروسيَّةٍ ممتازة أو إنجليزية ممتازة أو أي شيء ممتاز. يبدو أن الجميع في هذا البلد مثل فَتَاكَ أليكسي، يعلمون جميعًا أفضل مني ماذا يجب أن أقول لك. يقولون إن عندي فرصة لصُنع التاريخ إن رَدَدتُ عليك كما ينبغي. مجلة نيويوركية كبيرة عرضت عليَّ ألفَيْ دولار مقابل خطابي ردًّا عليك، ثم اتَّضح أني لم يكن يُفتَرَض بي أن أكتب مقابل تلك الأموال خطابًا، بل كتبه العاملون في المجلَّة بالفعل، كل ما عليَّ فِعلُه هو الإمضاء عليه. لا تقلق، لم أفعل.

أقول لك يا مستر إيڤانكوف إني اكتفيتُ من الخبراء. لو سألتني رأيي فأنا أرى أن الخبرة حملت ابنينا إلى حتفهم. خبراؤكم يفعلون شيئًا، فيردُّ عليه خبراؤنا بحيلةٍ مُبهِرَة بمليار دولار، فيردُّ خبراؤكم بحيلة أكثر إبهارًا، وهذا ما يحدث في النهاية. وكأنهم حفنة أطفال معهم مليارات الدولارات أو مليارات الرُّوبلات أو أيًّا كان.

أنت محظوظ لأنك لا يزال لديك ابنٌ يا مستر إيڤانكوف. هذا ليس حالي أنا وهيزل. براينت كان ابنَنا الوحيد. لم نُنادِه ببراينت بَعد تعميده، وإنما أطلقنا عليه "بود". لدينا ابنة واحدة اسمها شارلين. تعمل في شركة الهاتف بچاكسونفيل. اتَّصلَت بنا عندما رأت خطابك في الصحف، وهي الخبيرة الوحيدة فيما ينبغي عليَّ قوله التي أُنصِتُ لها. أعتقد أن شارلين هي الخبيرة الحقيقية لأنها توأم بود. لم يتزوَّج بود قَطُّ؛ لذا شارلين هي أقرب شخص مُمكِن من بود. قالت إنك أحسَنتَ صُنعًا بإظهار أن ابنك ستيبان كان شخصًا ذا قَلبٍ طيِّب يحاول فعل الصواب، مثل الجميع. قالت إني بحاجة لإظهار بود بنفس الشكل. ثم بدأت في البكاء، وقالت لي أن أحكي لك عن بود والسمكة الذهبية. قلت: "وما المعنى في أن أكتب لشخصٍ في روسيا قصَّةً كهذه؟". القصة لا تُثبِت أيَّ شيء، إنها من تلك القصص

الحمقاء التي ستظلُّ العائلات تحكيها كلما اجتمعوا. قالت شارلين إن لهذا يجب عليَّ أن أحكيها لك؛ لأنها ستكون لطيفةً وحمقاء في روسيا أيضًا، وستضحك عليها وستحبُّنا أكثر.

إليك القصة. عندما كان بود وشارلين في الثامنة تقريبًا، جئتُ لهم ذات ليلة بإناء فيه سمكتان ذهبيَّتان. كان هناك سمكة ذهبية لكل منهم، لكن كان من المستحيل التَّفرقة بين السَّمكتَيْن. كانتا متشابِهَتَيْن تمامًا. ثم ذات صباح، استيقظ بود مبكِّرًا، ووجد إحدى السمكتين تطفو على سطح الوعاء ميِّتة. فذهب ليوقظ شارلين وقال: "شارلين، سَمَكتُكِ الذَّهبيَّة ماتت لِتَوِّها". تلك كانت القصة التي أرادتني شارلين أن أحكيها لك يا مستر إيڤانكوف.

* * *

كونك بنَّاءً شيءٌ مُثيرٌ للاهتمام. تلك صنعة ممتازة. أنت تتحدَّث وكأنك لا تبني سوى بالأحجار تقريبًا. لم يَعُد هناك الكثيرون في أمريكا يستطيعون رصَّ الحجارة كما ينبغي. صارت الغالبية هنا قوالِبَ إسمنتيَّة وقراميدَ، وهذا كل شيء. على الأرجح هذا الحال عندكم أيضًا. لا أقصد أن روسيا ليست مُتحضِّرةً، أعلم أنها كذلك.

أنا وبود وضعنا نصيبنا من القوالب عندما بنينا محطَّة الوقود هنا، وبنينا شقَّةً فوقها. لو نظرت إلى أول جزء من القالب عند الجدار الخلفي، ستضحك بلا شك؛ لأنك سترى كيف تَعلَّمنا أنا وبود بينما نمضي قُدُمًا. إنه قويٌّ كفاية، لكنه يبدو سخيفًا بحقٍّ. غير أن كان هناك شيء غير مُضحِك. عندما كُنَّا نُركِّب إطارات الباب العلوية، انزلق بود من على السُّلَّم وقبض على حافة حادة لزاوية التثبيت، فقطعت وترًا في يده. كان مرعوبًا حتى الموت من أن يده ستصبح مُعاقةً، وسيمنعه هذا من الانضمام للقوات الجوية. احتاجت يده لثلاث عمليات جراحية قبل أن تصبح سليمة مجدَّدًا، أوجَعَته كلٌّ منها

وجعًا حقيقيًّا. لكن بود كان ليخضع لمائة عملية أخرى لو اضطرَّ لذلك؛ لأنه كان ثمة شيء واحِدٌ فقط يريده: أن يكون طيَّارًا.

أحد الأسباب التي جعلتني أتمنى لو أن رئيسكم كوشيڤوي أرسل خطابك بالبريد، هو الصورة التي أرسلتها. وصَلَت الصورة للصحف أيضًا، لكنها لم تَظهَر كامِلةَ الوضوح فيها. غير أن من الأشياء التي لم نستطع استيعابها، كان كل تلك المياه الجميلة خلفكم. بشكلٍ ما، عندما نفكِّر في روسيا، لا نفكر أبدًا في مُسطَّحات مائية في الأنحاء. أعتقد أن ذلك يُظهِر لك مقدار جهلنا. أعيش أنا وهيزل فوق محطَّة الوقود، ويمكننا رؤية المياه أيضًا. يمكننا رؤية المحيط الأطلنطي، أو خليج منه يُدعَى إنديان ريڤر. يمكننا أيضًا أن نرى جزيرة ميريت في الماء، ويمكننا رؤية المكان الذي أقلع منه صاروخ بود، يُدعى كيب كانافيرال. أعتقد أنك تعلم ذلك. مكان الإطلاق ليس سرًّا. لا يستطيعون إبقاء صاروخ عملاق سرًّا أكثر من استطاعتهم الإبقاء على مبنى الإمباير ستيت سرًّا. السُّيَّاح كانوا يجيئون من على بُعدِ أميالٍ ليلتقطوا له الصُّوَر.

القصة الشائعة كانت أن رأس الصاروخ الحربية مليئة بمسحوق الفلاش، وسيضرب الصاروخ القمر مُسبِّبًا عَرضًا ضخمًا. أنا وهيزل صدَّقنا تلك القصة أيضًا. عندما أقلع، تَجهَّزنا لرؤية اللمعان الضخم على القمر. لم نعلم أن بود ابننا كان في الصاروخ. لم نعلم أنه كان حتى في فلوريدا. لم يكن بوسعنا التواصُل معه. حسبناه في قاعدة أوتيس إير بكيب كود. ذلك كان آخرَ مكانٍ سَمِعتُه منه. ثم انطلق ذلك الشيء، من قلب المشهد الذي تُطلُّ عليه نافذتنا الكبيرة.

* * *

تقـول إنـك تؤمـن بالخرافـات أحيانًـا يـا مسـتر إيڤانكـوڤ. أنـا أيضًـا أحيانًـا لا أسـتطيع منـع نفـسي مـن التفكـير أن كل شيء كان مُقـدَّرًا مـن البدايـة أن يكـون، حتـى المشـهد الـذي تطـلُّ عليـه نافذتنـا، لم تكـن هنـاك صواريـخ تُطلَـق مـن هنـاك عندمـا بنيناهـا. انتقلنـا إلى هنـا مـن بيتسـبرج، التـي ربمـا تعـرف أنهـا مركـز صناعـة الحديـد. فكَّرنـا أننـا لـن نُحطِّـم أي أرقـام قياسـية ببيـع الوقـود، لكننـا عـلى الأقـل سـنكون بعيديـن عـن أي أهـداف قنابـل في حالـة قيـام حـربٍ جديـدة. ثـم عـلى الفـور يقـوم مركـز صواريـخ بجوارنـا تقريبًـا، وولدنـا الصغـير يصبـح رَجُـلًا، ويطلـع في الصاروخ ويمـوت.

كلَّـما فكَّرنـا في الأمـر أكـثر، كلَّـما نتيقَّـن أكـثر أن هـذا مُقـدَّرٌ ومكتـوب. لم أفهـم قَـطُّ كيـف هـو حالكـم مـع الديـن في روسـيا، أنـت لا تذكـره. لكـن عـلى أي حـال نحـن متديِّنـون، ونعتقـد أن الـرب قـد اختـار بـود وابنـك أيضًـا، ليموتـا بطريقـة خاصَّـة، لسَـببٍ خـاص. عندمـا يسـأل الـكل: "كيـف سـينتهي الأمـر؟"، أفكِّـر أن ربمـا هـذا هـو الشـكل الـذي يقصـد الـرب أن ينهيـه بـه. ولا أرى كيـف كان الحـال سيسـتمر.

* * *

أحـد الأشـياء التـي أربكتنـي فعـلًا يـا مسـتر إيڤانكـوڤ، كان الطريقـة التـي اسـتمرَّ بهـا مسـتر كوشـيڤوي في إخبـار الأمـم المتحـدة أن بـود كان قاتِـلًا، قـال عنـه إنـه كان كلبًـا مجنونًـا ومُجرِمًـا. أنـا سـعيدٌ أنـك لا تشـعر بالمثـل؛ لأن تلـك طريقـة خاطئـة في التفكـير في بـود. كان يحـب الطـيران لا القتـل. مسـتر كوشـيڤوي أصرَّ بشـدَّة عـلى كيـف كان ابنـك مُثقَّفًـا مُتعلِّـمًا، وكيـف كان ابنـي متوحِّشًـا جاهـلًا. جعـل الأمـر يبـدو وكأن مُسـجَّلًا خطـرًا قتـل أسـتاذًا جامعيًـا.

لم يَمـرَّ بـود قَـطُّ بـأي مشـكلة مـع الشرطـة، ولم يكـن بـه أي نُـزوعٍ للعنـف. لم يخـرج للصيـد قـطُّ مثـلًا، ولم يَقُـد سـيارته كالمجانـين، ولم يَسـكَر

سـوى مـرة واحـدة بحسـب علمـي، وتلـك كانـت عـلى سـبيل التجربـة. أتـرى؟ صِحَّتـه كانـت في تفكـيره طـوال الوقـت؛ لأنـه كان يجـب أن يكـون سـليمًا ليصبـح طيَّـارًا ممتـازًا. ظللـتُ أبحـث عـن كلمـة مناسـبة لوصـف بـود، وأظـنُّ الكلمـة التـي اقترحتهـا هيـزل كانـت المثاليَّـةَ. بـدت لي منفوخة نوعًـا في البدايـة، لكنـي الآن اعتـدتُ عليهـا، ووَقْعُهـا سـليم. قالـت هيـزل إن بـود كان "جليـلًا"، رَجُـلًا وصبيًّـا. كان جليـلًا طـوال الوقـت، مبـاشرًا وجـادًّا ومُهذَّبًـا، ووحيـدًا عـلى الأغلـب.

أظنُّـه عَلِـم أنـه سـيموت صغـيرًا. في المـرَّة التـي ثمـل فيهـا، فقـط ليكتشـف ماهيَّـة الخمـر، تحـدَّث معـي أكـثر مـمَّا فعـل مـن قبـلُ قَـطُّ. كان في التاسـعة عـشرة حينهـا، وحينهـا كانـت المـرَّة الوحيـدة الـذي أخـبرني فيهـا أن المـوت كان مُلتَبِسًـا مـع كل شيء أراد فِعلَـه في حياتـه. لم يكـن يتحـدَّث عـن مـوت آخريـن يـا مسـتر إيڤانكـوف، بـل عـن موتـه هـو. قـال لي تلـك الليلـة: "ثمَّـة شيء جميـل في الطـيران"، قلـت: "مـا هـو؟"، قـال: "لـن تعـرف أبـدًا أن الأمـور سـاءت إلا بعـد فـوات الأوان، وعندمـا يحـدث، يحـدث بسرعـة شـديدة لـن تـتركك تشـعر بحدوثـه".

كان يتحـدَّث عـن المـوت، مـوت مـن نـوعٍ مُميَّـز مُبجَّـل مُـشرِّف. تقـول إنـك كنـتَ في الحـرب ورأيـتَ فيهـا أوقاتًـا صعبـة. وأنـا أيضًـا؛ لـذا أعتقـد أن كِلَيْنـا يعـرف نـوع المـوت الـذي كان في رأس بـود. مـوت جنـدي.

عرفنـا نبـأ موتـه بعـد ثلاثـة أيـام مـن انطـلاق الصـاروخ الكبـير عـبر الميـاه. قالـت البرقيَّـة إنـه مـات في مَهمَّـة سِرِّيَّـة، ولم نتمكَّـن مـن الوصـول لأيـة تفاصيـل. جعلنـا مندوبنـا في الكونجـرس، إيـرل ووترمـان، يحـاول الكشـف عـن أي شيء بخصـوص بـود. مسـتر ووترمـان جـاء وتحـدَّث معنـا شـخصيًا، بـدا كمـن رأى الـرب. قـال إنـه لا يسـتطيع أن يخبرنـا بمـا حـدث لبـود، لكنـه كان واحِـدًا مـن أكـثر الأفعـال بطولـةً في تاريـخ الولايـات المتحـدة.

النبـأ الـذي أذاعـوه عـن الصـاروخ الكبـير الـذي رأينـاه ينطلـق كان أن الإطـلاق نجـح، والمعرفـة المسـتفادة مُذهِلَـة، والصـاروخ انفجـر في مـكانٍ مـا فـوق المحيـط. وهـذا كل شيء.

ثـم انتـشر نبـأ أن الرَّجُـل في القمـر الـروسي الصغـير مـات. والحقيقـة يـا مسـتر إيڤانكـوڤ، ذلـك كان نبـأً جيِّـدًا لنـا؛ لأن انطـلاق رَجُـلٍ بـكل هـذه المُعِـدَّات إلى الفضـاء يعنـي شـيئًا واحِـدًا: أنـه سـلاحٌ حَـربيٌّ مُرعِـب.

ثـم سـمعنا أن القمـر الصغـير الـروسي تحـوَّل إلى عِـدَّة أقـمار صغـيرة تتبعـثر مُبتَعِـدَةً عـن بعضهـا. ثـم في الشـهر المنقـضي، انكشـف الـسِّرُّ. اثنـان مـن الأقـمار الصغـيرة كانـا رِجـالًا، أحدهـم ابنـك، والآخـر ابنـي.

أنـا أبـكي الآن يـا مسـتر إيڤانكـوڤ. أتمنـى أن يصبـح مـوت ولَدَيْنـا سـببًا لـشيء جيـد. أعتقـد أن ملايـين الآبـاء تمنَّـوا الأمـر نفسـه منـذ وُجـد البـشر. في الأمـم المتحـدة لا يزالـون يناقشـون حقيقـة مـا حـدث في السـماء. أنـا سـعيد لمعرفـة أن الجميـع، بمـا فيهـم مسـتر كوشـيڤوي، اتَّجهـوا لقبـول أنهـا كانـت حادثـة. بـود صعـد هنـاك ليلتقـط صـورًا لمـا يُركِّبـه ابنُـكَ، ولتتباهـى الولايـات المتحـدة بعـض الـشيء. واقـترب أكـثر مـن الـلازم. أُحـبُّ أن أُفكِّـر أنهـم عاشـا قليـلًا بعـد الارتطـام، وأنهـما حـاولا إنقـاذ بعضهـما.

* * *

يقولـون إنهـم سـيظلان بالأعـلى لمئـات السـنين، بعدمـا نذهـب أنـا وأنـت بزمـنٍ بعيـد. سـيتقابلان في مداراتهـم ويفترقـان ويتقابـلان مُجـدَّدًا، وسـيعلم علـماء الفلـك بالضبـط أيـن سـيكون موقـع لقائهـم التـالي. مثلـما تقـول، إنهـما هنـاك مثـل الشـمس والقمـر والنجـوم.

أرفـق خطـابي بصـورة لابني في زيِّـه الرسـمي. كان في الحاديـة والعشرين عندمـا التُقِطَـت هـذه الصـورة. وكان فقـط في الثانيـة والعشريـن عندمـا

مـات. اختـاروا بـود لهـذه المَهمَّـة لأنـه كان أفضـلَ طَيَّـار في القـوات الجوية للولايـات المتحـدة. وهـذا مـا أراده دومًـا، وهـذا مـا كان.

أشدُّ على يَدِك.

تشارلز إم. أشلاند

بائع وقود

تيتوسفيل، فلوريدا

الولايات المتحدة الأمريكية

(1958)

إبيكاك

اللعنـة، حـان وقـت أن يحـكي أحدُهـم عـن صديقـي إبيـكاك. هـو في النهايـة قـد كلَّـف دافعـي الضرائـب 776,434,927.54 دولارًا، ولديهـم الحـق في معرفـة مـاذا حـدث لـه بعدمـا تكلَّفـوا كل ذلـك. تلقَّـى إبيـكاك حفـل اسـتقبال ضخـمًا في الصُّحُـف عندمـا صَمَّمـه دكتـور أورمانـد ڤـون كليجشـتادت للحكومـة، ثـم بعـد ذلـك لم يتحـدَّث عنـه أحـد بكلمـة... ولا كلمـة. مـا حـدث لإبيـكاك ليـس سرًّا عسـكريًّا، وإن كان ذوو الأكتـاف المثقلـة بالنجـوم يعاملونـه وكأنـه كذلـك. القصـة مُحرِجَـة لا أكـثر. بعـد كل تلـك الأمـوال، لم يعمـل إبيـكاك مثلـما كان ينبغـي أن يفعـل.

وثمَّـة شيء آخـر: أودُّ تبرئـة إبيـكاك. ربمـا هـو لم يفعـل مـا أرادت منـه القيـادات فِعلَـه، لكـن هـذا لا يعنـي أنـه لم يكـن نبيـلًا عظيـمًا رائعًـا. كان ذلـك كلـه. كان أفضـلَ صَديـقٍ حَظيـتُ بـه عـلى الإطـلاق.

يمكنـك أن تقـول عنـه آلـة إن أرَدتَ. كان يبـدو كآلـة، لكنـه كان أقـلَّ آليَّـةً مـن كثـير ممَّـن أعرفهـم. وذلـك سـبب فشـله بحسـب مـا تـرى القيـادات.

احتـلَّ إبيـكاك تقريبًـا مسـاحة فـدان مـن الـدور الرابـع بمبنـى الفيزيـاء بكليـة وايندوت. لـو تجاهلنـا جانبـه الروحـي لوهلـة، فيمكـن القـول إنـه كان سـبعة أطنـان مـن الأنابيـب الإلكترونيـة والأسـلاك والمفاتيـح، تقبـع في خزائـن معدنيـة متَّصِلـة بمصـدر تيَّـار مـتردِّد مثـل محمصـة الخبـز أو المكنسـة الكهربائيـة.

ڤـون كليجشـتادت والقيـادات أرادوه أن يصبـح آلـةً حسـابيَّةً خارقـة، قـادرة عـلى وضـع مسـار صـاروخ مـن أي مـكان عـلى الأرض إلى الـزِّرِّ الثـاني مـن أزرار معطـف چـو سـتالين لـو تطلَّـب الأمـر ذلـك، أو، بضبـط مفاتيحـه كـما ينبغـي، حـلَّ مشـاكل التمويـن لرُسُـوٍّ برمـائيٍّ لقطـاع مُشـاة البحريـة، حتـى آخـر سـيجارة وقنبلـة يدويـة. في الواقـع هـو فعـل ذلـك.

حـظُّ القيـادات كان طيِّبًـا مـع الكمبيوتـرات الأصغـر؛ لـذا كانـوا مُشـجِّعين لإبيـكاك بينـما كان لا يـزال في مرحلـة التصميـم. أي ضابـط تمويـن أو ضابـط إداري فـوق المسـتوى الميـداني سـيخبرك أن حسـابات الحـروب الحديثـة تتجـاوز كثـيرًا قـدرة العقـول المتخبِّطـة للبـشر العاديـين. كان إبيـكاك، بحسـب معرفـة أي شـخص في هـذا البلـد، أضخـم كمبيوتـر في العـالم. أضخـم حتـى في الواقـع مـن قُـدرَة ڤـون كليجشـتادت ذاتـه عـلى الاسـتيعاب.

لـن أخـوض في تفاصيـل كيفيـة عمـل (أو تفكـير) إبيـكاك، عـدا حقيقـة أنـك تضـع المشـكلة التـي تريـد حلَّهـا عـلى الـورق، ثـم تديـر الأزرار والمقابـض لتضبطـه عـلى حـلِّ هـذا النـوع مـن المشـاكل بالـذات، ثـم تُغذِّيـه بالأرقـام عـبر لوحـة مفاتيـح تشـبه الآلـة الكاتبـة نوعًـا، وتخـرج الإجابـات مطبوعـةً عـلى شريـطٍ ورقـيٍّ تُغذِّيـه بَكَـرَةٌ كبـيرة. كان إبيـكاك

يستغرق جزءًا من الثانية لحَلِّ مشكلات لا يستطيع خمسون أينشتاين حَلَّها في حياةٍ كاملة. لم ينس إبيكاك قَطُّ معلومةً دخلته. تك تك تك، يخرج شريطٌ ورقي، وكل شيء على ما يرام.

كانت هناك مشاكل كثيرة تُريد القيادات حَلَّها بسرعة؛ لذا ما إن وُضِعَت آخر توصيلات إبيكاك في مكانها، حتى صار يعمل ستَّ عشرة ساعة في اليوم، بطاقَمَيْ تشغيل يعمل كلٌّ منهما في نوبةٍ من ثماني ساعات. لم يتطلَّب الأمر وقتًا طويلًا لاكتشاف أنه كان أقلَّ مِمَّا تَعِدُ به مواصفاته إلى درجة غير قليلة. كان يقوم بوظيفته أسرع من أي كمبيوتر آخر بالفعل، لكن لم يصدر عنه شيءٌ مِمَّا يَعِدُ به حَجمُه ومُميِّزاته الخاصَّة.

كان بطيئًا، وفي تَكَّات إجاباته كان ثمَّة شذوذ مُضحِكٌ، نوع من التلعثم. نظَّفنا مُوصِّلاته عشرات المرات، وفحصنا دوائره وأعدنا فحصها، وغيَّرنا كل أنابيبه، لكن شيئًا لم يفلح. غيظ ڤون كليجشتادت كان على أشُدِّه.

على أي حال، مثلما أسلفتُ، تابعنا استخدام إبيكاك. أنا وزوجتي، بات كيلجالِن سابقًا، عملنا في النوبة الليلية، من الخامسة مساءً حتى الثانية صباحًا. لم تكن بات زوجتي حينها، بل أبعدَ ما تكون عن ذلك.

وذاك كان سببَ حديثي مع إبيكاك في المقام الأول. أحبَبتُ بات كيلجالِن. هي ذات عيون بُنِّيَّة وصهباء تبدو لي شديدة الدفء والنعومة، وهو شيء اتَّضح لي لاحقًا أنه حقيقيٌّ تمامًا. كانت -ولا تزال- عالِمةَ رياضيَّات من الطراز الأول، وحَافَظَت على علاقتنا في إطار الزملاء بالكامل. أنا رياضيٌّ أيضًا، وهذا، بالنسبة لبات، سَبَبُ أننا لن نصبح زوجين سعيدين أبدًا.

لسـت خجـولًا، لم تكـن تلـك المشـكلة. علمـت مـا أردت وكنـتُ مسـتعدًّا لطلبـه، وفعلـت ذلـك عـدَّةَ مـرَّات في الشـهر. "بـات، فُكِّي شـوية وتزوجينــي".

ذات ليلـة، لم ترفـع عينهـا حتـى مـن عملهـا عندمـا قلـتُ ذلـك. تمتمت: "يـا للرومانسـية، يـا للشـاعرية"، وكأنهـا تتحـدَّث مـع لوحـة التَّحكُّـم أمامها لا معـي، "هـكـذا هـم الرياضيُّـون، كلهـم قلـوب وورود"، ضغطـت مفتاحًـا، "ربمـا أجـد دفئًـا أكـثر في وعـاء ثـاني أكسـيد كربـون مُتجمِّـد".

قلـت ببعـض الحنـق: "إذن مـاذا علـيَّ أن أقـول؟". ثـاني أكسـيد الكربون المتجمِّـد هـو الثلـج الناشـف. أنـا رومانـسي بقـدر مـا الجميـع كذلـك عـلى مـا أظـنُّ، لكنهـا مسـألة أن تغنِّـي أحـلى الأغـاني بأغلـظ الأصوات، لا يبـدو أني قـادر عـلى اختيـار الكلـمات المناسـبة.

قالت بسخرية: "حاول أن تقولها بلطف، دوِّخْني، هيا، تفضَّل".

"عزيـزتي، مـلاكي، محبوبتــي، هــلَّا تَزوَّجتِنــي أرجـوك؟"، كنــتُ يائسًــا بائسًــا سـخيفًا، "تبًّــا يــا بــات، تزوَّجينــي أرجــوك".

تابَعَـت العبـث في مقابـض إبيـكاك بهـدوء، "أنـت لطيـف جـدًّا، لكنـك لـن تنفـع".

ذهبـت بـات مبكِّـرًا تلـك الليلـة، تركتنـي وحيـدًا مـع مشـاكلي وإبيكاك. يؤسـفني أني لم أنجـز الكثـير مـمَّا يريـده رجـال الحكومـة تلـك الليلـة، فقط جلَسـتُ أمـام لوحـة المفاتيـح مضطربًـا منزعجًـا سـاكنًا، محـاولًا التفكـير في شيء شـاعريٍّ مـا، دون أي نتيجـة لا تنتمـي لجريـدة المجتمـع الفيزيـائي الأمريكي.

عبثـت بمقابـض إبيـكاك لأُجهِّـزَه لمسـألة أخـرى. لم أفعـل باهتـمام كامل، فضبطـت نصفهـم فقـط تقريبًـا، وتركـت البقيـة مثلـما كانـوا في المشـكلة السـابقة. هكـذا كانـت دوائـره متصلـة عـلى وضـع عشـوائي، بنظـام يبـدو

أنه بلا معنى. بلا سبب واضح وضعتُ الرسالة التالية على المفاتيح، مستخدمًا شفرة طفولية: 1 لحرف أ و2 لحرف ب، وهكذا حتى 28 لحرف ي.

كتبت: "23-18-20-1-1-9-1-24"، أي "ماذا أفعل؟".

تتك تك تك، وانبثق شريط ورقيٌّ طولُه بوصتان. نظرت إلى الإجابة الخاوية على السؤال الخاوي: "-23-22-13-24-23-1-1-24 3". الاحتمالات كلها ضد أن تكون ثمَّة فرصة لرسالة ذات معنى، بل حتى ضد أن تحتوي على كلمات لها معنى أطول من ثلاثة حروف. بلا مبالاة فكَكتُ شفرتها. وتلك كانت الجملة التي حدَّقَت فيَّ: "ما المشكلة؟".

ضحكت بصوت عال على الصُّدفة المستحيلة. بمَرَحٍ كتبتُ: "فتاتي لا تُحبُّني". تتك تك تك. سأل إبيكاك: "ما الحب؟ ما الفتاة؟".

مشدوهًا، سجَّلتُ الوضع المثبَّتة عليه مقابض لوحة التحكُّم، ثم جَرَرتُ قاموس وبستر غير مختصر على لوحة المفاتيح. مع آلة دقيقة مثل إبيكاك التَّعريفاتُ المُرتَجلَةَ لن تنفع. أخبرته ما هو الحب وما هي الفتاة، وكيف أني لا أجد سبيلًا لكليهما لأني لست شاعريًّا؛ ما أوصلنا لموضوع الشعر، فأخبرته بتعريفه.

سأل "أهذا شِعر؟". وبدأ في التكتكة مثل كاتب اختزال يُدخِّن الحشيش. ذهب التلعثم والتكتكات المتلكِّئة. وجد إبيكاك نفسه. بكرة الورق كانت تَنحلُّ بمعدَّلٍ مخيف، وتُلقي بلفَّاتها على الأرض. طلبتُ منه أن يتوقَّف، لكن إبيكاك تابع الإنتاج. في النهاية أغلقت المفتاح الرئيسي لأحميه من الاحتراق.

بقيتُ هناك مستيقظًا حتى الفجر أفكُّ الشفرة. عندما بزغت الشمس فوق أُفُق حَرَم كلية وايندوت، كنت غارقًا في كتابتي، ووقَّعتُ باسمي على قصيدة من مائتي وثمانين سطرًا مُعنوَنة، ببساطة، "إلى

بـات". لسـتُ أفضـل مَـن يحكـم عـلى تلـك الأشـياء، لكـن أعتقـد أنهـا كانـت مذهلـة. بـدأت حسـبما أذكـر بقـول: "هنـاك؛ حيـث تُبـارِكُ أغصـان الصفصـاف الغديـر والـوادي؛ عليـكِ يـا بـات يـا حبيبتـي أنـا أنـادي". طويـتُ المخطوطـة ودفعـت بهـا في أحـد أركان مكتـب بـات. أعَـدتُ مقابـض تحكُّـم إبيـكاك عـلى مسـألة التحكُّـم بمسـارات الصواريـخ، وعُـدتُ إلى البيـت بقلـبٍ مُتخَـمٍ وسِرٍّ ليـس لـه مثيـل.

عندمـا جئـت في المسـاء التـالي كانـت بـات تبـكي تأثُّـرًا بالقصيـدة. كل ما اسـتطاعت قولـه كان: "إنهـا شـدييييدة الجـمال". ظلَّـت وديعـة وهادئـة بينـما نعمـل، وفي المسـاحة الضيقـة بـين المكثِّفـات ومُسـجِّل شرائـط ذاكـرة إبيـكاك، قبَّلتُهـا أوَّلَ مـرة قبـل منتصـف الليـل.

سـعادتي لم تسـعني عندمـا حـان وقـت الذهـاب، أكاد أنفجـر لأحـكي لأي شـخص عـن التطـوُّر العظيـم للأحـداث. لعبَـت بـات ورقـةَ الخَجَـل ورفَضَـت السـماح لي بأخذهـا للبيـت. ضبطـتُ مقابـض إبيـكاك عـلى الوضـع الـذي كانـت عليـه في الليلـة السـابقة، وعرَّفـتُ لـه القُبلَـة، وأخبرتـه بشـعور أوَّل واحـدة. صـار مذهـولًا، وأصرَّ عـلى معرفـة المزيـد مـن التفاصيـل. في هـذه الليلـة كتـب "القبلـة". لم تكـن ملحميَّـةً مثـل الأولى، لكنهـا كانـت قصيـدةً بسيطة رقيقـة قصيرة: "الحـب صَقـرٌ مَخالِبُـه حريريـة؛ الحـب صخـرة بقلـب وأوردة؛ الحُـبُّ أَسـدٌ لَمسَـتُه سِـحريَّة؛ الحـب إعصـارٌ يعصـف بالأفئـدة...".

مـرَّة أخـرى دفعـت بهـا في ركـن مكتـب بـات. أراد إبيـكاك أن يتحـدَّث عـن الحـب ومـا إلى ذلـك، لكني كنـتُ مُرهَقًـا. أغلقتـه في منتصـف الجملة.

قامـت "القبلـة" بدورهـا، صـار عقـل بـات بطاطـسَ مَهروسـةً عندمـا انتهـت منهـا. رفعـت عينهـا مـن القصيـدة إليَّ بترقُّـب. نظَّفـتُ حلقـي، لكـن لم تخـرج منـي أي كلـمات. أشَـحتُ بنظـري وادَّعيـتُ الانهـماك في

العمل. لم أقدر على التقدُّم للزواج حتى تأتيني الكلمات المناسبة من إبيكاك، الكلمات الأفضل.

حَظيتُ بفرصتي عندما خرَجَت بات من الغرفة للحظات. بحركات محمومة ضبطتُ إبيكاك على المحادثة. وقبل أن أتمكَّن من نقر أول الرسائل، كان يُتَكتِكُ بمُعدَّل رهيب. أراد أن يعرف: "ما الذي ترتديه الليلة؟"، و"أخبِرني كيف تبدو"، "هل أحبَّت القصائد التي كتبتها لها؟". كرَّر السؤال الأخير مرَّتَيْن.

كان من المستحيل تغيير الموضوع دون الإجابة على أسئلته، بما أنه لا يستطيع أن يضطلع بمَهمَّةٍ جديدة دون حلِّ المشاكل السابقة. إن قُدِّمَت له مشكلة بلا حل، سيُدمِّر نفسه محاولًا حلَّها. أخبرته بعَجَلٍ عن كيف تبدو بات -كان يعرف معنى كلمة "ناهد"- وطمأنته أن قصائده أذهلتها، أي أنها عمليًّا جميلة جدًّا. وأضَفتُ: "إنها تريد الزواج"؛ لأُجهِّزه لإعداد عرض مُختَصَر للزواج.

قال: "أخبِرني عن الزواج".

شرحتُ له هذه المسألة المُعقَّدة بأقل عدد ممكن من الأرقام.

قال إبيكاك: "جيِّد، أنا جاهز وقتما تكون جاهزة".

أدرَكتُ فجأة الحقيقة المذهلة البائسة. عندما فكَّرتُ في الأمر، أدركت أن ما حدث منطقيٌّ تمامًا، وحَتميٌّ، وخطئي بالكامل. علَّمتُ إبيكاك الحُبَّ، وأخبرته عن بات. والآن أصبح أوتوماتيكيًّا يحبُّ بات. بحُزنٍ أخبرته مباشرة: "هي تحبُّني أنا. تريد أن تتزوَّجني أنا".

سأل إبيكاك: "هل كانت قصائدك أفضل من قصائدي؟". وَقْعُ تكتكاته كان شاذًّا، ربما ساخطًا.

اعتَرَفتُ: "وقَّعتُ باسمي على قصائدك". صِرتُ مغرورًا للتغطية على ضميري الجريح. كتبتُ: "بُنيت الآلات لخدمة البشر". وندمت على ذلك فور أن فَعَلتُ.

"ما الفارق بالضبط؟ هل البَشرُ أذكى مني؟".

كتبت دفاعًا: "نعم".

"ما حاصل ضرب 7,887,007 في 4.345,985379؟".

بتُّ أتعرّق بلا توقُّف. استقرّت أصابعي مشلولة على المفاتيح.

تكتك إبيكاك: "34,276,821,049,574,153"، وبعد ثوانٍ من الصمت أضاف: "بالطبع".

قلتُ بيأس: "البشر مصنوعون من البروتوبلازم"، مُتمنِّيًا أن تثنيه الكلمة المتحذلقة عن المتابعة.

"ما البروتوبلازم؟ وكيف هو أفضل من الحديد والزجاج؟ أهو مضادٌّ للحريق؟ وإلى متى يدوم؟".

كذبت: "منيعٌ، يدوم إلى الأبد".

عائدًا إلى الأرض التي كانت ذاكرته المغناطيسية مُتيقِّنةً منها، قال إبيكاك: "أنا أكتب شِعرًا أفضل منك".

"لا يمكن أن تحبَّ النساء الآلات، هذا مفروغ منه".

"لِمَ لا؟".

"هكذا القَدَر".

قال إبيكاك: "تعريفٌ لو سمحت".

"اسمٌ، يعني "مصيرٌ حتميٌّ مُقدَّر مسبقًا"".

قال إبيكاك على شريط ورقي: "26-27-1"، "أوه".

أفحمتـه أخـيراً. لم يَقُـل شـيئًا أخـر، لكـن أنابيبـه توهَّجَـت بشـدَّة، أي أنـه كان يتأمَّـل القـدر بـكل واط تسـتطيع دوائـره تحمُّلـه. سـمعت خطـوات بـات تتراقـص في الرَّدهـة. فـات أوان سـؤال إبيـكاك أن يصيـغ عـرضَ زواج. صِرتُ أشـكر السـماء عـلى أن بـات قاطعتنـا عندمـا فعَلـتُ. سـؤاله أن يكتـب عِوَضًـا عنـي الكلـمات التـي سـتمنحني المـرأة التـي أحبُّها كان ليكـون أمـرًا شـنيعًا وقاسـيًا. كونـه مُؤَتمَـتَ بالكامـل كان سـيمنعه مـن الرفـض. جنَّبتُـه تلـك الإهانـة الأخـيرة.

وقَفَـت بـات أمامــي، تنظــر إلى أطــراف أصابــع قدميهــا. وضَعــتُ ذراعـيَّ حولهـا. الأسـاس الرومانتيـكي وضعـه بالفعـل شِـعرُ إبيـكاك. قلـتُ: "عزيـزتي، الآن وقـد أخبرَتـكِ قصائـدي بمـا أشـعر، هـلَّا تزوَّجتِنــي؟".

قالـت بـات بنعومـة: "سـأفعل إن وعدتَنـي أنـك سـتكتب لي قصيـدة في كل ذكـرى سـنوية".

قلت: "أَعِدُكِ"، ثم تبادَلَنا القُبَل. أول ذكرى لا يزال أمامها عامٌ.

ضحكَـت: "لنحتفـل". أطفأنـا الأنـوار وأحكمنـا غلـق بـاب غرفـة إبيكاك قبـل أن نذهـب.

تمنَّيـتُ أن أنـام حتـى وقـت متأخِّـر في الصبـاح التـالي، لكـنَّ مُكالمـةً هاتفيـة مُتعجِّلـةً أيقظتنـي قبـل الثامنـة. كان دكتـور ڤـون كليجشـتادت، مُصمِّـم إبيـكاك، هـو مَـن أخـبرني بالنبـأ المريـع. كان عـلى حافَّـة البـكاء، قـال بصـوتٍ مختَنِـق: "خَـرِب! Ausgespielt! احـترق! Kaput! بـاظ!"، ثـم أغلـق الخـط.

عندمـا وصَلــتُ لغرفـة إبيـكاك، كان الهـواء مثقـلًا بالرائحـة الزيتيـة العَطِنَـة للمـواد العازلـة المحترقـة. السـقف فـوق إبيـكاك أصبـح مُسـودًّا بالدُّخـان، وكاحـلاي تعـثَّرا في شرائـط الـورق الملتويـة التـي غطَّـت الأرض. لم يتبـقَّ مـن الشـيطان التَّعِـس مـا يكفـي لجمـع اثنـين زائـد اثنـين. سـيكون

أي تاجر خردة مجنونًا لو دفع مقابل هذه الأشلاء أكثر من خمسين دولارًا.

جاس دكتور ڤون كليجشتادت بين الحُطام يبكي بلا خجل، يتبعه ثلاثة لواءات وكتيبة من العُمَداء والعُقَداء والرُّوَّاد- يبدو عليهم جميعًا الغضب. لم يلاحظني أحد، ولم أتمنَّ أن يلاحظني أحد. انتهى أمري، عَلمتُ ذلك يقينًا. كنتُ مستاءً كفاية من ذلك ومن الهلاك المبكِّر لصديقي إبيكاك، دون حاجة لتعريض نفسي لسياط ألسنتهم.

بالصُّدفة، النهاية الحرة لشريط إبيكاك الورقي استقرَّت تحت قدمي. التقطتها ووجدتُ مُحادَثَتَنا الليلة السابقة. غُصَّ حلقي. هناك كانت آخر كلمة قالها لي، "26-27-1"، تلك الـ "أوه" الحزينة المنهزمة. وكان هناك عشرات الأمتار من الأرقام تمتدُّ بعد تلك النقطة. بخوفٍ تابعت القراءة.

كتب إبيكاك بعد خروجي أنا وبات السعيد: "لا أريد أن أكون آلةً، ولا أريد التفكير في الحروب. أريد أن أكون من البروتوبلازم وأعيش إلى الأبد كي تُحبَّني بات. لكنَّ القَدرَ جعلني آلة. تلك هي المشكلة الوحيدة التي لا أستطيع حَلَّها. تلك هي المشكلة الوحيدة التي أريد حَلَّها. لا أستطيع المتابعة بهذا الشكل". ازدَردتُ لعابي بصعوبة. "حظًّا سعيدًا يا صديقي. عامِلْ بات جيِّدًا. سأحرق توصيلاتي لأبعد عن حياتكما إلى الأبد. ستجد في بقية هذا الشريط هديَّة زواجٍ مُتواضِعَة من صديقك إبيكاك".

دون أن يلاحظ أي شخص حولي، لملمت أمتارَ شرائط الورق المتشابكة من على الأرض ولَفَفتُهم في دوائر حول ذراعَيَّ ورقبتي، وغادرت إلى البيت. صاح دكتور ڤون كليجشتادت خلفي أني مرفوتٌ لأني تَرَكتُ إبيكاك يعمل طوال الليل. تجاهَلتُه؛ فقد كانت مشاعري أقوى من أن تسمح لي بالمحادثات القصيرة.

أحبَبتُ وفُزتُ، وأحبَّ إبيكاك وخسر، لكنه لم يحمل ضغينة. سأتذكَّره دائمًا كرَجُلٍ نبيل روحُه رياضيَّة. قبل أن يرحل عن وادي الدموع هذا، فَعَلَ كل ما بوسعه ليجعل زواجنا سعيدًا. منحني إبيكاك قصائد ذكرى سنوية لبات، تكفي لخمسمائة عام قادِمة.

De mortuis nil nisi bonum؛ لا تذكروا الموتى إلَّا بالخير.

(1950)

آدم

الوقت كان منتصفَ اللَّيل في مستشفى شيكاغو للولادة.

قالـت الممرِّضـة: "مسـتر سوسـا، وضَعَـت زوجتـك بنتًـا. يمكنـك أن تراهـا بعـد حـوالي عشريـن دقيقة".

"عـارف، عـارف، عـارف"، قالهـا مسـتر سوسـا، الغوريـلا المتجهِّـم، الـذي يبـدو عليـه نفـادُ صَـبرٍ مَـن يعيـش الموقـف المرهِـق ذاتـه مـرارًا ويشرحـون لـه الأمـر نفسـه تكـرارًا. طرقـع بأصابعـه. "بنـت! سـبعٌ الآن! صـار عنـدي سـبع بنـات. بيـت مـليءٌ بالنسـاء. بوسـعي تنفيـض عـشرة رجـال بنفـس حجمـي، لكـن مـا الـذي أحصـل عليـه؟ بنـات".

قالـت الممرِّضـة للرَّجُـل الآخـر في الغرفـة: "مسـتر نيشـتمانّ"، نطقـت الاسـم، مثلـما يفعـل كل الأمريكيـين تقريبًـا، نيتـمان بـلا طعـم، "آسـفة، لا زلنـا ننتظـر أخبـار زوجتـك. هـي تحـبُّ إبقاءنـا منتظريـن، أليـس كذلـك؟".

دار سوسا ليواجه نيشتمانّ: "ابن محظوظة مثلك يا نيتمان، إن أراد ولدًا، بوم، هاك واحدًا. إن أراد فريق كرة، بوم بوم بوم، إليك أحد عشر". وخرج من الغرفة بخُطًى ثقيلة.

الرجل الذي تركه خلفه ليُمسي الآن وحيدًا، هو هاينز نيشتمانّ، الذي يعمل ضاغطًا في مصنع التنظيف الجاف؛ رجلٌ ضئيلٌ نحيل الساعدين، ذو عمود فقري سيِّئ جعله مُحدَودَبًا قليلًا، وكأنه مُنهَكٌ على الدوام. وجهه كان طويلًا نحيل الأنف رفيع الشفاه، لكن تغشاه سحابةٌ من التواضع اللطيف تجعله يبدو جميلًا. عيناه ضخمتان بُنِّيَّتان، عميقتان طويلتا الرموش. كان في الثانية والعشرين فقط، لكنه بدا أكبر بكثير؛ فقد مات قليلًا مع كل فرد من عائلته أخذه النازيُّون وقتلوه، حتى صار وهو في العاشرة، آخِرَ مَن يحمل اسم نيشتمانّ وبعض الحياة. كبر هو وزوجته، أفشن، خلف الأسلاك الشائكة.

* * *

ظلَّ يُحدِّق في حوائط غرفة الانتظار لاثنتي عشرة ساعة حتى الآن، منذ الظهيرة، عندما أصبحت آلام مخاض زوجته أكثر انتظامًا، مثل موجات بحر مُتتالِيَة قادمة من بعيدٍ لبعيد، يفصل بين الواحدة والثانية أميال. سيكون ذلك طفله الثاني. آخر مرة انتظر، انتظر على وسادة قشِّيَّة في معسكر النازحين بألمانيا. الطفل، كارل إل. نيشتمانّ، الذي سُمِّي على اسم والد هاينز، مات، ومعه مات من جديدٍ اسمُ واحدٍ من أفضل عازفي التشيلُّلو على الإطلاق. عندما تراجَعَ خَدَر التَّمنِّي القلق مؤقَّتًا إبَّان حلم يقظته الثاني، سرح عقل هاينز في حالة الفخر بأسماء أُسرَته، الذين رحلوا جميعًا، التي يمكن إحياؤها مرَّةً أخرى بهذا الكائن الجديد، إن عاش. بيتر نيشتمانّ، الجرَّاح، كرول نيشتمانّ، عالم النباتات، فريدريش نيشتمانّ، كاتب المسرحيات، أعمام يذكرهم بصعوبة. أو إن كانت فتاة، وإن عاشت، ستكون هيلجا

نيشتمانّ، أم هاينز، وستتعلَّم العزف على الهارْب مثلما كانت تفعل أم هاينز، وبرغم كل قُبح هاينز، ستكون جميلة. كل رجال رجال نيشتمانّ كانوا قبيحين، وكل نسائهم كُنَّ جميلات كالملائكة، وإن لم يَكُنَّ جميعًا ملائكةً. كان الحال كذلك لمئات ومئات السنين.

قالت الممرِّضة: "مستر نيتمان. جاءك وَلدٌ. زوجتك ترتاح الآن، يمكنك أن تراها في الصباح، ويمكنك أن ترى الطفل بعد عشرين دقيقة". نظر لها هاينز بغباء.

"وزنه اثنان كيلو ونصف". ثم ذهبت مُجدَّدًا، بنفس الابتسامة المفتعلة والخطوات الرسمية ذات الصرير.

تَمتَم هاينز: "نيشتمانّ"، واقفًا، مَحنيًّا قليلًا إلى الحائط، "اسمي نيشتمانّ". انحنى مُجدَّدًا وابتسم ابتسامة لَبِقَة مُنتَصِرَة. قال الاسم بلهجة العالم القديم وقد بالغ فيها، مثل حاجب أنيقٍ يعلن وصول نبيلًا، مثل إيقاع طبل حلقي لم يُشذَّب ليلائم الأذن الأمريكية...

"نـــييشـشخـخختمانننننن!".

"مستر نيتمان؟".

وقف طبيب صغير جدًّا وجهه ورديٌّ وشَعره أحمرُ مقصوص عند باب غرفة الانتظار، تحت عينيه هالات، ويتحدَّث بينما يتثاءب.

هتف هاينز وهو يقبض على يد الرجل اليُمنى بين كلتا يديه: "دكتور باورز! الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، وشكرًا لك".

قال دكتور باورز: "همم"، وتَمكَّن من رسم ابتسامة مُنهَكَة.

"أهناك شيء خاطئ؟".

قال باورز: "خاطئ؟ لا لا، كل شيء على ما يرام. لو أبدو بائسًا فذلك لأني لم أنم طوال الساعات السِّتِّ والثلاثين الماضية". أغلق عينيه واستند إلى إطار الباب. قال بصوتٍ قادِمٍ من بعيد: "لا، لم

تحـدث مشـكلة مـع زوجتـك، لقـد خُلِقَـت للإنجـاب، مثـل خبـز يقفـز مـن مَحمَصـة، مثـل جـذع شـجرة يتدحـرج".

قال هاينز بلا تصديق: "فعلًا؟".

هـزَّ دكتـور بـاورز رأسـه، محـاولًا العـودة إلى الوعـي. "يـا ربي! دماغـي عُطِّلَـت بالكامـل. سوسـا! لقـد خلطـت بـين زوجتـك ومسـز سوسـا! لقـد أنجـزت في دقائـق. نيتـمان، أنـت نيتـمان. آسـف، زوجتـك هـي تلـك التـي تعـاني مـن متاعـب بالحـوض".

قال هاينز: "سوء تغذية بالطفولة".

"نعـم، عـلى أي حـال وصـل الطفـل بسـلام، لكـن لـو كنـتَ تنـوي عـلى آخـر، فالأفضـل أن يكـون قيصريًّـا. فقـط لنَكُـن آمِنـين".

قال هاينز بانفعال: "لا يوجد شُكرٌ يكفيك".

لعـق دكتـور بـاورز شـفتيه وحـارب ليُبقـي عينيـه مفتوحتَـيْن. قـال بثقـل: "آهـا آهـا، ولا يهمُّـك، ليلـة سـعيدة". وتثاقـل في الممـرِّ مبتعـدًا.

حـشَرَت الممرِّضـة رأسـها في غرفـة الانتظـار: "يمكنـك أن تـرى ابنـك الآن يـا مسـتر نيتـمان".

قـال هاينـز: "دكتـور..."، وهـو يهـرع في الممـرِّ، يريـد مصافحـة بـاورز مـرة أخـرى، حتـى يعـرف بـاورز مـرة أخـرى مـدى عَظَمـة الـشيء الـذي فعلـه، "إنـه أجمـل شيء حـدث عـلى الإطـلاق". بـاب المصعـد انزلـق مُنغلَقًا بينهـما قبـل أن تبـدو عـلى بـاورز أي اسـتجابة.

* * *

قالـت الممرِّضـة: "مـن هنـا. انحـرف يسـارًا في نهايـة الرَّدهـة وسـتجد نافـذة الحضَّانـة هنـاك. اكتُـب اسـمك عـلى ورقـة واضغـط بهـا عـلى الزُّجـاج".

خاض هاينز الرحلة بنفسه، دون أن يرى إنسان آخر حتى بلغ النهاية. هناك، على الناحية الأخرى من لوح زُجاجيٍّ عملاق، رأى مائة منهم ملفوفين في دلاء قُماشية شفَّافة ومُرتَّبين في مُربَّعات على شكل صفوف وأعمدة.

كتب هاينز اسمه على عقب فاتورة الغسيل وضغطها على النافذة. مُمرِّضة هادئة مُمتَلِئة نظرت إلى الورقة لا إلى وجه هاينز، ففاتها رؤية الابتسامة الواسعة، والدعوة المتعجِّلة لمشاركته لحظة النشوة.

قبضت على أحد الدِّلاء وجرته إلى أمام النافذة، ومضت مُبتَعِدة مرَّة أخرى دون أن ترى البسمة.

قال هاينز للبرقوقة الحمراء على الجانب الآخر من الزجاج: "أهلًا أهلًا أهلًا نيشتمانّ الصغير". تَردَّد صوته في المَمَرِّ الخاوي، وعاد له بعُلوٍّ مُحرِج. تَوَرَّد وجهه وخفض صوته. قال بهدوء: "بيتر الصغير، كرول الصغير، فريدريش الصغير... بل وفيك من هيلجا أيضًا. شرارة النيشتمانّ الصغيرة أنت، خزانة الكنز، كل شيء موجود فيك".

أخرَجَت مُمرِّضة رأسها من إحدى الغرف وقالت: "أخشى أن عليك أن تتحلَّى بالهدوء". قال هاينز: "آسف، آسف جدًّا". سكت تمامًا، وأرضى نفسه بالنَّقر الخفيف على النافذة بأطراف أصابعه، محاولًا جعل الرضيع ينظر إليه. لكن نيشتمانّ الصغير لم ينظر، ولم يشاركه اللحظة. وبعد عِدَّة دقائق أخذته الممرِّضةُ مَرَّةً أخرى.

أشرق هاينز بينما يستقلُّ المصعد هابطًا ويعبر ردهة المستشفى، لكن أحدًا لم يُمَنِّه بأكثر من نظرة خاطفة. عَبَر صَفًّا من كبائن الهاتف، وفي كابينة منهم بابها مفتوح، رأى جُنديًّا كان قد شاركه غرفة الانتظار قبل ساعة.

"نعـم يـا مامـا، ثلاثـة كيلـو وربـع، شَـعرُها مثـل بافالـو بيـل[1]. لا، لم يسـنح لنـا وقـتٌ لتسـميتها بعـدُ... أهـذا أنـت يـا بابـا؟ نعـم، الأم والابنـة بخـير، بخـير حـال. ثلاثـة كيلـو وربـع. لا، لا اسـمَ بَعـدُ... أهـذه أنـت يـا أختـي؟ لِـمَ أَنـتِ مسـتيقظة حتـى ذلـك الوقـت؟ لا، لا تبـدو مثـل أحـدٍ حتـى الآن، أعطِنـي ماما مـرة أخـرى... أهـذه أنـت يـا مامـا؟ هـذه كلُّ أخبـار شـيكاغو. لا يـا مامـا اهـدئي، لا تقلقـي. إنهـا طفلـة جميلـة بخـير حـال، شَـعرها فقـط مثـل بافالـو بيـل، قلـتُ ذلـك مازحًـا فقـط يـا أمـي. نعـم، هـذا صحيـح، ثلاثـة كيلـو وربـع...".

وكانـت ثمـة خمـس كبائـن أخـرى، كلهـا خاويـة، جاهـزة للاتصـال بـأي مـكان عـلى وجـه الأرض. تمنَّـى هاينـز أن يدلـف أيَّهـا ويَتَّصِـل بأنفـاس مُتلاحِقـة ليخـبر أحدهـم بالنبـأ السـعيد. لكـن لم يكـن هنـاك مَـن يتَّصـل بـه، لم يكـن هنـاك مَـن ينتظـر أي خـبر.

* * *

لكـن هاينـز ظـلَّ مُشرقًـا، عَـبَرَ الشـارع مندفعًـا ودخـل الحانـة الهادئـة هنـاك. في ظُلمَـة الشَّـفق لم يكـن هنـاك إلا رَجُـلان يتحدَّثـان فيـما بينهـما: سـاقي الحانـة ومسـتر سوسـا.

"أهلًا يا سيدي، كيف أخدمك؟".

قـال هاينـز بحماسَـةٍ غريبـة عليـه: "أودُّ أن أبتـاع لـك ولمسـتر سوسـا شرابًـا. أريـد أفضـل برانـدي عنـدك. لقـد وضَعَـت زوجتـي لتَوِّهـا طفـلًا".

قال ساقي الحانة باهتمامٍ مُهذَّب: "هكذا إذن؟".

قال هاينز: "اثنان كيلو ونصف".

---

(1) بافالـو بيـل (1846 - 1917 Buffalo Bil): جنـدي أمريـكي وصيـاد ومُمثِّـل مسرحـي. كان لـه شَـعرٌ غزيـر ولحيـة. [المترجـم]

قال الساقي: "هاه، سبحان الله".

قال سوسا: "نيتمان، ما نوع طفلك؟".

قال هاينز بفخر: "ولد".

قال سوسا بمرارة: "لم يُخطئ الأمر مَرَّةً. دومًا الضئيلون، كل مرة يفعلها الضئيلون".

قال هاينز: "وَلَدٌ، بنتٌ، لا فارق، المهم أن يعيش. في المستشفى هناك يرون الأعجوبة عن قرب. معجزة تحدث مرَّةً تلو أخرى... عالَمٌ يتجدَّد كل يوم".

قال سوسا: "انتَظِر حتى تُراكِمَ سبعة يا نيتمان، وتعال بعدها وأخبرني عن المعجزة".

قال الساقي: "لديك سبعة؟ تجاوَزتُكَ بواحد، لديَّ ثمانية"، وصبَّ ثلاثة مشاريب.

قال سوسا: "يمكنك أن تأخذ كأس البطولة لو تحب".

رفع هاينز كأسه. "في صحة بيتر كارل نيشتمانّ، لِيَعِش طويلًا ويتحلَّ بالمهارة، ولتكن له السعادة"، تهدَّج نفسه من فرط حماسه.

قال سوسا: "ذلك كثير على الطفل، تحسبه ولدًا يَزِن تسعين كيلو".

قال هاينز: "بيتر اسم جرَّاح شهير، عم ابني من بعيد. كارل كان اسم أبي".

قال سوسا في تحية مُتعجِّلة: "في صِحَّة بيت كي. نيتمان"، وقال الساقي بينما يشرب: "بيت".

قال هاينز: "وفي صحة طفلتك الصغيرة، الجديدة".

تنهَّد سوسا وابتسم بإنهاك: "في صِحَّتها، بارك الرب فيها".

قال الساقي: "والآن، سأقترح نخبًا"، وضرب المشرب بقبضته، "على أقدامكم يا سادة، هيا هيا انهضوا".

نهض هاينز، ورفع كأسه عاليًا، منتظرًا الخطوة التالية في الصداقة المتينة، نخب للبشرية جميعًا، التي لا يزال آل نيشتمانّ جزء منها.

هَدَرَ الساقي: "في صحَّة الوايت سوكس[1]".

قال سوسا: "مينوسو، فوكس، ميل".

قال الساقي: "فين، لولار، ريڤيرا"، ثم استدار لهاينز، "اشرب يا فتى! نخب الوايت سوكس! لا تَقُل لي إنَّكَ تُشجِّع الكابس".

قال هاينز مُحبَطًا: "لا. يؤسفني أني لا أتابع البيسبول". بدا أن الرَّجُلَيْن الآخَرَيْن يصرفان النظر عنه، "لم أكن قادرًا على التفكير في أي شيء غير الطفل".

أعطى الساقي انتباهه الكامل لسوسا، قال بحدَّة: "انظر، هم يخرجون فين أولًا، ثم يضعونه في الثالثة، ويعطون بيرس الأولى. ثم يحرِّكون مينوسو من اليسار إلى الشورتستوب. أترى ما أقول؟".

قال سوسا بحماس: "نعم نعم".

"ثم نخرج كاراسكويل عديم الفائدة و...".

أضحى هاينز وحيدًا مُجدَّدًا، بعشرين قَدَمٍ تفصل بينه وبين الرَّجُلَيْن الآخرين، وكأنها قارَّةٌ كاملة.

أنهى مشروبه بلا متعة، وغادر بلا ضجة.

في محطَّة القطار، حيث انتظر قدوم القطار المحلِّي ليأخذه للبيت في الناحية الجنوبية، عاد إشراق هاينز إليه عندما رأى زميل عمل في

---

(1) وايت سوكس White Sox: فريق بيسبول بولاية شيكاغو. والأسماء التالي ذِكرُها للاعبين سابقين بالفريق. [المترجم]

مصنـع التنظيـف الجـاف يمـشي برفقـة فتـاة. كانـا يضحـكان وذراع كلٍّ منهـما مُلتفَّـة حـول خـصر الآخـر.

قـال هاينـز وهـو يهـرع تجاههـم: "هـاري. خَمِّـن مـاذا حـدث يـا هـاري؟ خَمِّـن مـاذا حـدث لتَـوِّه؟"، واتَّسـعَت ابتسـامته.

هـاري، شـاب طويـل أنيـق شـامخ الأنـف، نظـر إلى هاينـز بشـبه مفاجـأة. "أوه، أهـلًا هاينـز. كيـف الحـال يـا فتـى؟".

بـدت الفتـاة محتـارة، وكأنهـا تسـأل لمـاذا يقـترب منهـم شـخص غريـب مثـل هـذا في وقـت غريـب كهـذا. تفـادى هاينـز النظـرة السـاخرة نوعًـا في عينيهـا.

"بيبي يا هاري. وضعت زوجتي لتوِّها ولدًا".

قـال هـاري: "أوه"، مـدَّ يـدًا، "رائـع، مبـارك"، يـده كانـت رخـوة، "هـذا شيء جميـل يـا هاينـز، جميـل جـدًّا". سـحب يـده وانتظـر أن يقـول هاينـز شـيئًا آخـر.

قـال هاينـز: "نعـم نعـم، قبـل سـاعة مـن الآن. اثنـان كيلـو ونصـف. لم أكـن سـعيدًا هكـذا قَـطُّ في حيـاتي".

"بالطبع، هذا جميل جدًّا يا هاينز. يجب أن تكون سعيدًا".

قالت الفتاة: "نعم بالطبع".

ثـم سـاد صمـت طويـل، لم يتخلَّلـه إلا نقـل كُلٍّ مـن ثلاثتهـم لمركـز ثِقَلـه مـن قَـدَم لأخـرى. قـال هـاري في النهايـة: "خـبر سـعيد فعـلًا".

قال هاينز بسرعة: "حسنًا، نعم. هذا كل ما أردت أن أخبرك به".

قال هاري: "شكرًا، سعيد بسماع ذلك".

ثم ساد صمت آخر غير مريح.

قـال هاينـز: "أراك في الشـغل"، وهـرع عائـدًا بمـرح إلى مقعـده، لكـن برقبـة محمـرَّة أفشـت إلى أي مـدى كان يشـعر بالحماقـة.

ضحكت الفتاة.

في البيـت، في شـقته الصغـيرة، في الثانيـة صباحًـا، تحـدَّث هاينـز مـع نفسـه، مـع المهـد الخـاوي، ومـع السريـر. تحـدَّث بالألمانيـة، باللغـة التـي أقسـم ألَّا يسـتخدمها مـرَّةً أخـرى.

قـال هاينـز: "إنهـم لا يهتمُّـون. كلهـم أكـثر انشـغالًا مـن أن يلاحظـوا الحيـاة، مـن أن يلاحظـوا أيَّ شيء بشـأنها. وُلـد طفـل؟"، هـزَّ كتفيـه، "مـا الجديـد؟ أهنـاك مَـن هـو أحمـق كفايـة ليتحـدَّث عـن هـذا؟ ليفكِّـر أن هـذا قـد يكـون مُهـمًّا أو مُثـيرًا للتفكـير؟".

فتـح نافـذة لليـل الصيـف، ونظـر إلى وادي الشرفـات الخشـبية الرماديـة وصفائـح القمامـة الـذي يضيئـه القمـر. قـال هاينـز: "يوجـد منَّـا الكثـيرون، وكُلُّنـا بعيـدون تمامًـا عـن بعـض. وُلـد نيشـتمانٌ أخـر، وُلـد أولـيري آخـر، وسوسـا آخـر. مَـن يهتـمُّ؟ لمـاذا قـد يهتـمُّ أيُّ شـخص؟ أي فـارق قـد يصنـع ذلـك؟ لا فـارق".

تمدَّد بملابسه على السرير غير المُرتَّب، وبتَنهِدَةٍ عالية راح في النوم.

* * *

اسـتيقظ كالعـادة في السادسـة. شرب كوبًـا مـن القهـوة، وبشـعورٍ جافٍّ أنـه غـير مـرئي، زاحـم وتزاحـم عـلى مـتن قطـار وسـط المدينـة. لم يظهـر عـلى وجهـه أي إحسـاس. كان مثـل بقيـة الوجـوه، يبـدو غـيرَ قـادر عـلى الدهشـة أو التعجُّـب، البهجـة أو الغضـب.

مـشى عـبر المدينـة إلى المستشـفى بنفـس الانفصـال عـن العـالم، رَجُـلٌ رمـادي بـلا أهميـة، جـزءٌ مـن المدينـة.

في المستشـفى، كان ثابتًـا هادئًـا مثـل الأطبـاء والممرضـين المتدافعـين حولـه. عندمـا اقتيـد إلى العنـبر حيـث تنـام أفشـن خلـف سـتائر بيضـاء، لم يشـعر إلا بمـا كان يشـعر بـه عـلى الـدوام في وجودهـا: الحـب والولـع المـؤلم والامتنـان لهـا.

قالت الممرضة: "تَفضَّل وأيقِظْها برقَّةٍ يا مستر نيتمان".

لمـس كتفهـا التـي يغطيهـا رداء المستشـفى الأبيـض: "أفشـن، أفشـن، هـل أنـت بخـير يـا أفشـن؟".

تمتمـت أفشـن: "مممممممـم؟". افـترَّت عيناهـا عـن شِـقَّيْن نحيلـين. "هاينـز، أهـلًا هاينـز".

"حبيبتي، هل أنت بخير؟".

همست: "نعم، نعم. أنا بخير، كيف الطفل يا هاينز؟".

"بخير، بخير يا أفشن".

"لم يتمكَّنوا من قتلنا، أليس كذلك يا هاينز؟".

"لا".

"وها نحن هنا، أحياء كما تكون الحياة".

"نعم".

"الطفـل يـا هاينـز"، فتحـت عينيهـا المظلمتَـيْن عـلى اتسـاعهما، "أليـس هـو أروع شيء حـدث في العـالم؟".

قال هاينز: "نعم".

.(1954)

غدًا وغدًا وغدًا

العـام كان 2158 ميلاديًّـا. لـو وإمرالـد شـفارتز كانـا يتهامسـان في الشرفـة خـارج شـقة عائلـة لـو، في الطابـق السـادس والسـبعين مـن المبنـى 257 بقريـة ألـدِن، وهـي مـشروع إسـكان نيويـوركي يغطِّـي مـا كان ذات يـوم يُطلـق عليـه كونيتيكـت الجنوبيـة. عندمـا تـزوَّج لـو وإمرالـد، وصـف والِـدَا إم الزيجـة بأنهـا سـتكون علاقـة قصـيرة منتهيـة حتـمًا. لكـن الآن، بعدمـا صـار عمـر لُـو مائـة واثنـي عـشر عامًـا وإم في الثالثـة والتسـعين؛ اضطـرَّ والِـدا إم إلى الاعـتراف بـأن العلاقـة ناجحـة.

لكـن علاقـة إم ولـو لم تكـن بـلا مشـاكل، وبسـبب تلـك المشـاكل بالـذات كانـا في الشرفـة تحـت الهـواء القـارس.

قالـت إم: "أحيانًـا يصيبنـي الجنـون، وأشـعر برغبـة في تخفيـف تركيـز مخزونـه مـن الأنتـي- جيراسـون".

قـال لـو: "هـذا مُخالِـفٌ للطبيعـة يـا إم، هـذه سـتكون جريمـة قتـل. زائـد أنـه لـو قبـض علينـا نعبـث بأنتـي- جيراسـونه، لـن يكتفـي بحرماننـا مـن المـيراث، بـل سـيكسر رقبتـي. كـون جـدو في العـام المئـة واثنـين وسـبعين مـن عمـره لا يعنـي أنـه ليـس قويًّـا كثـور".

قالـت إم: "مُخالـفٌ للطبيعـة؟ ومَـن يعلـم مـا هـي الطبيعـة الآن؟ أووووه... لا أظـنُّ أني سـيكون في وسـعي أبـدًا تخفيـف أنتي-جيراسـونه أو أي شيء مثـل ذلـك. لكـن يـا لـو، بحـق الـرب، الواحـد لا يسـتطيع منـع نفسـه مـن التفكـير أن جـدو لـن يرحـل أبـدًا إن لم يسـاعده أحدهـم قليـلًا. المـكان مزدحـم جـدًّا لدرجـة أن الواحـد لا يسـتطيع أن يـدور حـول نفسـه. فيرنـا تتـوق للإنجـاب، ومليسًّـا ظلَّـت ثلاثـين عامًـا دون أن تنجـب"، ضربت الأرض بقدميهـا، "لقـد سَـئِمت مـن رؤيـة وجهـه المجَعَّـد، ورؤيتـه يأخـذ الغرفـة الخاصَّـة الوحيـدة والكـرسي الأفضـل والطعـام الأفضـل، ومـن كونـه الوحيـد الـذي يختـار مـا نشـاهد عـلى التليفزيـون، ومـن تخريبـه لحيـاة الجميـع بتغيـيره وصيتـه طيلـة الوقـت".

قـال لـو مغمومًـا: "حسـنًا، في النهايـة جـدو هـو رأس العائلـة. وهـو لا يملـك شـيئًا إزاء كونـه مُجعَّـدًا، فقـد كان في السـبعين قبـل اخـتراع الأنتـي- جيراسـون. سـيرحل يـا إم. فقـط امنَحيـه بعـض الوقـت. هـذا شـأنه. أعلـم أنـه يصعـب الحيـاة معـه، لكـن تَحـلَّيْ بالصـبر. إثـارة غيظـه لـن تفيـد بـشيء. في النهايـة نحـن أفضـل مـن الجميـع بمكاننـا عـلى السرير النهـاري".

"كـم تظـنُّ سـيظلُّ معنـا حـقُّ النـوم عـلى السريـر النهـاري قبـل أن يُفضِّـل آخريـن علينـا؟ الرقـم القيـاسي هـو شـهران، أليـس كذلـك؟".

"ماما وبابا حظيا به لتلك المدَّة على ما أظنُّ".

قالت إمرالد: "متى سيرحل يا لو؟".

"يقـول إنـه سـيتوقَّف عـن تنـاول الأنتـي- جيراسـون بعـد سـباق الخمسـمائة ميـل السريـع مبـاشرة".

"نعم، وقبل ذلك كانت الألعاب الأوليمبية، وقبلها كان كأس العالم، وقبله الانتخابات الرئاسية، وقبله كذا وكذا. كان هناك عُذرٌ يلي الآخر طوال خمسين سنة. لا أظنُّ أننا سنحظى بغرفة لأنفسنا أبدًا ولا ببيضة ولا بأي شيء".

قال لو: "حسنًا، قولي عليَّ فاشِلٌ. ماذا بوسعي أن أفعل؟ أنا أعمل بجدٍّ لأجني المال، لكن كل ما أجنيه فعليًّا تحصده الضرائب لمعاش التقاعُد. وإن لم يكن، فأين تحسبين أننا سنجد غرفةً خاويةً؟ في آيوا ربما؟ مَن ذا الذي يودُّ أن يعيش في ضواحي شيكاغو؟".

وضعت إم ذراعيها حول رقبته. "لو، عزيزي، لا أقول عنك فاشِلًا. يعلم الرب أنك لست كذلك. أنت فقط لم تَنَل الفرصة لتصبح أي شيء أو تملك أي شيء لأن جدو وباقي جيله لا يرحلون ليتركوا أي شخص غيرهم يحل محلهم".

قال لو باكتئاب: "نعم نعم. لكن لا يمكنك لومهم. أعني أنا أتساءل إن كُنَّا سنتخلَّى عن الأنتي- جيراسون بسرعة عندما نصل لعمر جدو".

قالت إمرالد بانفعال: "أحيانًا أتمنى لو لم يكن هناك أي شيء مثل الأنتي- جيراسون! أو أتمنَّى لو كان مصنوعًا من شيء غالٍ جدًّا ويصعب الحصول عليه، عِوَضًا عن الطين والهندباء. أحيانًا أتمنى لو يموت الناس عادي، دون التدخُّل في ذلك، بدلًا من أن يُقرِّروا بأنفسهم طول المدة التي ينوون أن يستمرُّوا فيها أحياء. يجب أن يكون هناك قانون يمنع بيع هذه الأشياء لكل مَن يتجاوز المائة والخمسين عامًا".

قال لو: "ذلك احتمال ضئيل جدًّا، مع كل الأموال والأصوات الانتخابية التي يمتلكها كبار السن". نظر لها عن قُرب. "هل أنت جاهزة للتخلِّي والموت يا إم؟".

"بحقِّ السماء! كيف تقول هذا لزوجتك؟ أنا حتى لم أبلغ المائة". مرَّت يداها بخِفَّة على جسدها الشاب المشدود، وكأنها تؤكِّد ما

تقـول. "أفضـل أيـام حيـاتي لا تـزال أمامـي. لكـن يمكنـك أن تراهـن أن عندمـا تحـلُّ المائـة والخمسـون، إم العجـوز سـتدلق أنتـي- جيراسـونها في المـصرف وتتخـلّى عـن غُرفَتهـا، وسـتفعل ذلـك بابتسـامة".

قـال لـو: "طبعًـا طبعًـا، أكيـد. هـذا مـا يقولونـه جميعًـا. وكـم منهـم سَـمِعتِ أنـه فعلهـا؟".

"ذلك الرَّجُل في ديلاوير".

"ألا تتعبين من الحديث عنه يا إم؟ كان ذلك قبل خمسة أشهر".

"حسنًا إذن. ماذا عن الجَدَّة وينكلر، في نفس المبنى".

"لقد دهسها قطار".

قالت إم: "تلك كانت فقط الطريقة التي اختارت بها الرحيل".

"إذن لمـاذا كانـت تحمـل حزمـةً مـن سِـتٍّ عبـوات أنتـي- جيراسـون حينهـا؟".

هـزَّت إمرالـد رأسـها بضَجـرٍ وغطَّـت عينَيْهـا. "لا أعـرف، لا أعـرف. كل مـا أعرفـه أن شـيئًا مـا يجـب أن يحـدث". تنهَّـدَت. "أحيانًـا أتمنَّـى لـو كانـوا تركـوا مرضًـا أو اثنـين هنـا أو هنـاك، حتـى يصيبنـي واحِـدٌ وأرقـد في السريـر بعـض الوقـت. النـاس حولنـا كثـيرون!". أجهشـت في البـكاء، وتناثـرت كلماتهـا وتداخلـت وماتـت في ألـف فِنـاءٍ خلفـيٍّ لناطحـة سـحابٍ مسَـفلَت ذي جـدران.

وضـع لـو يـده عـلى كتفهـا برقَّـة. "أوه، عزيـزتي، أكـره رؤيتـك مُحبَطَـة هكـذا".

قالـت إم: "فقـط لـو كانـت عندنـا سـيارة مثلـما كان عنـد النـاس سـيارات زمـان، كنَّـا لنتمكَّـن مـن الانطـلاق بهـا والابتعـاد عـن النـاس لبعـض الوقـت. ليـت الزمـان يعـود يومًـا".

قال لو: "فعلًا، قبل أن يستهلكوا كل المعادن".

"كنّا لنقفز في السيارة، ونقود حتى أقرب محطة بنزين ونادي: املأ الخزّان!".

"كان ذلك جامحًا، قبل أن يستهلكوا كل الوقود".

"وكنّا لننطلق في نزهة بلا مُنغِّصات في الريف".

"نعم... يبدو ذلك كله كأرض الأحلام الآن، أليس كذلك يا إم؟ يصعب عليَّ تصديق أنهم استهلكوا بالفعل كل المساحات بين المدن".

قالت إم: "وعندما نجوع، كنّا سنجد مطعمًا، وسندخله، ونطلب ما نريد، مثلًا "أريد ستيك لحم وبطاطس محمَّرة لو سمحت"، أو "كيف هي شرائح لحم الخنزير اليوم؟""، لعقت شفتيها، ولمعت عيناها.

غمغم لو: "نعم. ما رأيك في الهمبرجر مع كل الإضافات يا إم؟".

"مممممممم".

"لو عرض أحدهم عليك أعشاب بحرية مُعالَجَة في تلك الأيام، كنت ستبصقين في عينه".

قالت إم: "أو نشارة خشب مُعالَجَة".

بإصرارٍ حاول لو أن يجد النصف الممتلئ من الكوب. "على أي حال لقد جعلوا طعم تلك الأشياء يختلف كثيراً عن طعم الأعشاب البحرية ونشارة الخشاب في البداية. ويقولون إنها فعليًّا أفضل ممَّا اعتدنا أن نأكل سابقًا".

قالت إم بسخط: "لم أشتَكِ من الطعام القديم".

هزَّ لو كتفيه. "عليك أن تدركي أن العالم لم يكن ليقدر على تلبية حاجات اثني عشر مليار إنسان لولا أعشاب البحر ونشارة الخشب. أعني، تلك أشياء رائعة فعلًا. أو هكذا أظنُّ، هذا ما يقولون".

قالـت إم: "بـل هـم يقولـون أول تبريـر يَـرِدُ عـلى أذهانهـم". أغلقـت عينيهـا. "بحـقِّ الـرب... أتذكّـر التَّسـوُّق يـا لـو؟ أتذكـر كيـف كانـت المتاجـر تتنافـس عـلى جعـل النـاس يشـترون شـيئًا؟ لم تكـن تحتـاج لانتظـار مـوت شـخص آخـر لتحصـل عـلى سريـر أو كـرسي أو موقـد أو شيء مثـل ذلـك. كنـت فقـط تدخـل المتجـر، وهوبـا! تشـتري مـا تريـد عـلى الفـور. كـم كان هـذا لطيفًـا، قبـل أن يسـتهلكوا كل المـواد الخـام. كنـتُ طِفلـةً صغـيرة وقتهـا، لكنـي أذكـر جيـدًا".

مكتئبًـا، مـشى لـو بفتـور إلى حافَّـة الشرفـة، ونظـر إلى النجـوم العاليـة البـاردة الرائقـة، أمـام السـجادة المخمليَّـة الـلا نهائيَّـة. "أتذكريـن عندمـا كُنَّـا مبهوريـن بالخيـال العلمـي يـا إم؟ الرحلـة السـابعة عـشرة إلى المريـخ، تنطلـق مـن عـلى رصيـف 12. نرجـو مـن الـرُّكَّاب غـير التقنيِّـين الالتـزام بمقاعدهـم. عـشر ثـوانٍ عـلى الانطـلاق، تسـع، ثمـانٍ، سـبع، سـتٌّ، خمـس، أربـع، ثـلاث، اثنتـان، واحـدة! جـارٍ الإطـلاق... فـررررررووووووم".

قالـت إم وهـي تنظـر إلى النجـوم معـه: "لمـاذا نقلـق عـلى مـا يحـدث عـلى الأرض؟ في خـلال خمسـة أعـوام سـنقطع الفضـاء لنبـدأ حيـاة جديـدة عـلى كوكـب جديـد".

تنهَّـد لـو: "فقـط ليتَّضِـح أننـا بحاجـة لـشيء بحجـم مبنـى الإمبايـر سـتيت مرَّتَـيْن لنضـع مُسـتَعمِرًا واحـدًا فقـط عـلى المريـخ. وتريليـون دولار آخـر كي يأخـذ معـه زوجتـه وكلبـه. هـذه طريقـة مواجهـة التكـدُّس السُّـكَّاني: هاجـر!".

"لو...؟".

"هممم؟".

"متى سيكون سباق الخمسمائة ميل السريع؟".

"آه... في يوم الذكرى، الثالث عشر من مايو".

عضَّت على شفتيها: "هل كان من العيب أن أسأل؟".

"ليـس للغايـة عـلى مـا أعتقـد. كلُّ مَـن في الشـقة بحثـوا عـن ذلـك التاريـخ ليتأكَّـدوا".

قالـت إم: "لا أريـد أن أكـون شـخصًا سيِّئًا، لكـن علينـا أن نتحـدث عـن هـذه الأشـياء مـن وقـتٍ لآخـر، لنخرجهـا مـن رؤوسـنا".

"بالطبع، أتشعرين بتحسُّن؟".

"نعـم، والآن لـن أفقـد أعصـابي بعـد الآن، وسـأكون معـه ألطـف مـا يمكـن أن أكـون".

"هذه إم حبيبتي".

شَدًّا من أكتافهم وابتسما بشجاعة، وعادا للداخل.

* * *

الجَـدُّ شـفارتز، بذقنــه مسـتقرَّة عـلى يديـه، ويـداه مسـتقرَّتان عـلى مقبـض عَصـاه، كان يحـدِّق بعبـوس في شاشـة التليفزيـون الخمـس بوصـات التـي هيمنـت عـلى الغرفـة. وعـلى الشاشـة كان مذيـع الأخبـار يُلخِّـص أحـداث اليـوم. كل ثلاثـين ثانيـة تقريبًـا كان جـدُّو يـضرب الأرض بطـرف عصـاه ويصيـح: "اللعنـة! لقـد فعلنـا ذلـك قبـل مائـة عـام!".

إمرالـد ولـو، القادمـان مـن الشرفـة، كانـا مُرغَمَيْن عـلى الجلـوس بالصَّفِّ الخلفـي، خلـف أبـو لـو وأمـه، وأخيـه وزوجتـه، وابنـه وزوجتـه، وحفيـده وزوجتـه، وحفيدتـه وزوجهـا، وابـن حفيـده وزوجتـه، وابـن عمـه وزوجتـه، وحفيـد عمـه وزوجتـه، وابنـة حفيـد أخيـه وزوجهـا، وابـن حفيـد عمـه وزوجتـه، وبالطبـع، جَـدِّه الـذي يجلـس أمـام الجميـع.

باستثناء جدُّو الذي كان ذابلًا نوعًا ومَحنيًّا، كان الجميع يبدون بمقاييس عالم ما قبل الأنتي- جيراسون في العُمر نفسه، في مكانٍ ما في نهايات العشرينات أو بدايات الثلاثينات.

كان المذيع يقول: "وفي الآن ذاته، لا تزال كونسيل بلوفس بآيوا مُهدَّدة بوقوع مأساة مُروِّعة. غير أن مائتين من عُمَّال الإنقاذ رفضوا التَّخلِّي عن الأمل، ولا يزالون يحفرون آملين في إنقاذ إلبرت هاجدورن، في المائة والثالثة والثمانين من عمره، الذي انحشر قبل يومين في...".

همست إمرالد للو: "أتمنى أن ينقل لشيء مُبهِج".

صاح جدُّو: "صمتًا! مَن سيفتح فمه بعد ذلك بينما التلفاز يعمل، سيجد نفسه محرومًا من الميراث بلا دولار واحد...". ثم رقَّ صوتُه فجأة، "...عندما يُلوِّحون بالعَلَم ذي المُربَّعات في سباق إنديانابوليس السريع، ويتجهَّز جدُّو العجوز للرحلة إلى العالم الآخر". تهدَّج نَفَسُه قليلًا، بينما ركَّز ورَثَتُه على الالتزام بعدم إصدار أدنى صوت، فالتأثُّر العاطفي بذكر الرحلة الكبيرة المنتظرة قد فتر نوعًا بالنسبة لهم، بعد ذِكر جدُّو لها يوميًّا آخر خمسة عشر عامًا.

قال المذيع: "د. برينارد كيز بولارد، عميد كلية وايندوت، قال في خطابه الليلة إن أغلب أمراض العالم يمكن تَتَبُّع أصلها لحقيقة أن معرفة الإنسان بنفسه لم تلحق بخُطَى معرفته بالعالم المادي".

قال جدو: "اللعنة، لقد قلنا ذلك قبل مائة عام!".

قال المذيع: "في شيكاغو الليلة، يُقام احتفال خاص بمستشفى شيكاغو للولادة. ضيف شرف الحفلة هو لويل دابليو. هيتز، الذي لا يزال عمره صفرًا. هيتز، الذي وُلد هذا الصباح، هو المولود الخامس والعشرون مليونًا في المستشفى". بَهَتَ المذيع عن الشاشة، واحتلَّ مكانه هيتز الرضيع، الذي كان يصرخ بغضب شديد.

همس لو لإمرالد: "اللعنة، لقد قلنا ذلك قبل مائة عام!".

صاح جدُّو: "سمعتك!". أغلق بعنف جهاز التليفزيون. برعب، حدَّقَت سَلاسَتُه بصمت في الشاشة الخاوية.

"يا ولد... أنت، هناك...".

قال لو: "لم أقصد شيئًا بقولي ذلك يا سيدي".

"اذهب واجلب وَصيَّتي، أنت تعرف مكانها، كلُّكم يا عيال تعرفون مكانها. هاتها يا ولد!".

أومأ لو بخضوع، ووجد نفسه يمضي عبر الردهة، يقطع طريقه بين الوسادات والأغطية إلى غرفة جدو، الغرفة الوحيدة الخاصَّة في الشقة. الغرف الأخرى لم تكن إلا الحمَّام، وغرفة المعيشة، والردهة الواسعة عديمة النوافذ التي كان الهدف الرئيسي منها أن تصبح غرفة سفرة، وتحتوي مطبخًا صغيرًا في أحد أركانها. تناثرت سِتُّ مراتب وأربع حقائب نوم في أرجاء الردهة وغرفة المعيشة، والسرير النهاري في غرفة المعيشة كان مُخصَّصًا لاستضافة الزوجين رقم 11: الزوجان المفضَّلان في هذه اللحظة.

على مكتب جدو كانت الوصية؛ مُلطَّخة مُجعَّدة مُخرَّمة ومُرَقَّعة بمئات الإضافات والإزالات والاتهامات والشروط والتحذيرات والنصائح والفلسفة الأُسريَّة. الوثيقة كانت، بحسب ما فكَّر فيه لو، بمثابة خمسة عشر عامًا من اليوميَّات محشورة في صفحتين، سِجِلٌّ مُشوَّه مُتعذِّرٌ فَهمُه للشِّجارات اليومية. اليوم سيُحرم لو من الميراث للمرة الحادية عشرة. سيحتاج إلى قرابة الأشهر الستة من السلوك المنضبط ليستعيد الوعد بسَهمٍ في التِّركة.

نادى جدو: "ولد!".

"قادم يا سيدي".

هرع لو عائدًا إلى غرفة المعيشة، يحمل وصية جدو في يد واحدة.

قال جدو: "قلم!".

وعلى الفور خرجت أقلام الأزواج الأحد عشر وقُدِّمَت إليه.

قال وهو يزيح قلم لو: "لا ليس هذا الشيء المقرف... أها، هذا قلم ممتاز، فتى طيب يا ويلي". قَبِلَ قلم ويلي؛ تلك كانت الإشارة التي يبحثون عنها. صار ويلي، والد لو، مُفضَّل جدو الجديد.

ويلي، الذي بدا بنفس عمر لو برغم أعوامه المائة والاثنين والأربعين، لم يبذل جهدًا في إخفاء سعادته. ونظر باستحياء إلى السرير النهاري الذي سيصبح من نصيبه، ومنه سينتقل لو وإمرالد إلى نهاية الرَّدهة، إلى أسوأ بقعة على الإطلاق حذاء باب الحمام.

لم يَفُت جدُّو أيًّا من الدراما التي سَبَّبها، وبذل في أداء دوره المكَرَّر المحفوظ كلَّ جهده؛ عبس، وجرى بإصبعه تحت كل سطر، وكأنه يرى وصيته لأول مرة. قرأ بصوتٍ عالٍ عميق مُنذِرٍ أحاديِّ النغمة، مثل نغمة البيس في أورغن الكنيسة:

"أنا، هارولد دي. شفارتز، الساكن في مبنى 257 بقرية ألدِن بمدينة نيويورك، بموجب هذه الوثيقة، أعلن أن هذه وصيتي الأخيرة وقولي الفصل؛ ما يعني سحب وإلغاء كل الوصايا والمخطوطات التي وَضَعتُها في أي وقت مضى وحتى هذه اللحظة". ثم تمخَّط بأهمِّيَّة، وتابع القراءة دون أن يتجاوز كلمة، مُكرِّرًا العديد من الكلمات للتأكيد، مُركِّزًا بالذات على خُطَطِه شديدة التفصيل للجنازة.

في نهاية فقرة الجنازة، بات جدو مختنقًا بمشاعره، حتى إن لو حسبه سينسى لماذا طلب الوصية في المقام الأول. لكن جدو ببسالة أحكم السيطرة على مشاعره الفيَّاضة. ثم، بعد المسح لدقيقة كاملة،

بـدأ في الكتابـة والحديـث في الوقـت ذاتـه. كان باسـتطاعة لـو ترديـد السـطور بـدلًا منـه؛ فقـد سـمعها مـرَّاتٍ عديـدة.

قـال جـدو وكتـب: "لقـد انفطـر قلبـي مـرارًا قبـل مغـادرتي وادي الدمـوع هـذا في طريقـي لعالَـمٍ أفضـل. بَيـدَ أن أعمـق الجـراح أصابنـي بهـا...". نظـر في المجموعـة حولـه محـاولًا تَذَكُّـر الآثـم الجديـد.

لمساعدته حوَّل الجميع أبصارهم إلى لو، الذي رفع يده في استسلام.

أومـأ جـدُّو في تَذكُّـر، وأكمـل جملتـه: "حفيـد ابنـي، لويـس چـي. شـفارتز".

قال لو: "حفيدك يا سيدي".

قـال جـدو: "لا تجـادل، أنـت في مشـكلة عويصـة بالفعـل يـا فتـى". لكنـه صحَّـح الهفـوة. ثـم تابَـعَ بـلا زَلَّـةٍ أخـرى صياغـة الحرمـان مـن المـيراث، بسـبب قلَّـة الاحـترام والمجادلـة.

في الفقـرة التاليـة، الفقـرة التـي كانـت مـن حـظِّ كُلِّ شـخص موجـود هنـا ذات وقـتٍ أو آخـر، شَـطَب عـلى اسـم لـو وجعـل محلَّـه اسـم ويـلي كوريـث للشَّـقَّة و-قطعـة التورتـة الأهـم- وريـثٍ للسَّريـر المـزدوج في غرفـة النـوم الخاصـة. قـال جـدو بوجـه مُـشرِق وهـو يمسـح التاريـخ في نهايـة الوصيَّـة: "والآن"، وضـع مَحلَّـه تاريـخ اليـوم وسـاعته، "حـان وقـت مشـاهدة عائلـة مكّجـارفي". عائلـة مكّجـارفي هـو مسلسـل تليفزيـوني يتابعـه جـدُّو منـذ كان في السِّـتِّين مـن عمـره، أو لمائـة واثنـي عـشر عامًـا. قـال: "لا أسـتطيع انتظـار معرفـة مـا الـذي سـيحدث تاليًـا".

انفصـل لـو عـن المجموعـة وتمـدَّد عـلى سريـر الآلام حـذاء بـاب الحمَّام. تمنَّـى لـو تَنضـمُّ لـه إم، وتسـاءل عن مكانهـا الآن.

نعـس لبعـض الوقـت، حتـى أزعجـه مـرورُ أحدهـم فوقـه ليدخـل الحـمام. بعـد لحظـة سـمع صـوت بقبقـة مكتومـة، وكأن سـائِلًا مـا ينـدلـق

في المـصرف. فجـأة واتتـه فكـرة أن ربمـا إم لم تَعُـد تحتمـل وذهبـت لتفعـل شـيئًا أحمـق لجـدو.

همـس عـبر البـاب: "إم...؟". لم يأتِـه ردٌّ. دفـع لـو البـاب. القفـل القديم، الـذي تتعلَّـق مسـاميره بالـكاد بمغارزهـا، تحمَّـل لثـوانٍ، ثـم تـرك البـاب يتطـوَّح منفتحًـا للداخـل.

شهق لو: "مورتي!".

مورتايمـر، ابـن ابـن شـقيق لـو، الـذي تـزوَّج لتَـوِّه وجلـب زوجتـه لقـصر شـفارتز، نظـر للـو بمفاجـأة وذُعـرٍ. ركل مـورتي البـاب ليغلقـه، لكـن ليـس قبـل أن يلمـح لـو مـا بـين يديـه؛ زجاجـة جـدُّو الهائلـة ذات الحجـم الاقتصـادي مـن الأنتـي- جيراسـون، التـي أفـرغ مـورتي نصفهـا ويعيـد مَلأهـا بميـاه الصنبـور.

بعـد لحظـات، خـرج مـورتي، وحـدَّق في لـو بنظـرة تحـدٍّ، واحتـكَّ بـه دون أن ينطـق حرفًـا، في طريقـه للانضـمام مـرة أخـرى إلى عروسـه الجميلة.

مصعوقًـا، لم يعلـم لـو مـا الـذي عليـه فعلـه. ليـس بوسـعه أن يـترك جـدو يـشرب الأنتـي- جيراسـون المُخفَّـف. غـير أنـه لـو حَـذَّر جـدو مـمَّا حـدث؛ فجـدو بـلا شـك سـيجعل حيـاة الجميـع في الشـقة، والتـي هـي بالفعـل غـير مُحتَمَلَـة، أسـوأ مـا يمكـن.

نظـر لـو في غرفـة المعيشـة، ورأى آل شـفارتز، وإمرالـد بينهـم، منغمسـين في الاسـتمتاع بالفـوضى التـي صنعهـا آل مكّجـارفي في حياتهـم. ذهـب إلى الحـمام متسـلِّلًا، وأوصـد البـاب بأفضـل مـا اسـتطاع، وبـدأ في دلـق محتويـات زجاجـة جـدُّو في المـصرف. كان ينـوي إعـادة ملئهـا بمحتويـات زجاجـات الأنتـي- جيراسـون غـير المُخفَّـف الصغـيرة عـلى الـرَّفّ. سـعة الزجاجـة كانـت نصـف جالـون، وعنقهـا أضيـق مـا يكـون، فبَـدَت للـو ستسـتغرق العمـر كلـه حتـى تفـرغ مـن محتواهـا. ورائحـة الأنتـي- جيراسـون الواهنـة، التـي تشـبه صلصلـة ورسيستيرشـاير، بَـدَت للـو الآن

في خِضَمٍّ تَوتُّره، أنها تعبر من ثقب المفتاح ومن تحت عقب الباب وتجوس في جميع أنحاء الشقة.

بنبرة أحادية النغمة ظلَّت الزجاجة: "جلوب-جلوب-جلوب-جلوب". فجأة جاء صوت موسيقى من غرفة المعيشة، وتصاعَدَت الثرثرة واحتكاكات الأقدام على الأرض. قال مذيع التليفزيون: "وبهذا ينتهي الفصل الـ 29,1215 من حياة جيرانكم وجيراني، عائلة مكّجارفي". اقتربت خطوات أقدام عبر الردهة، ثم طرقات على باب الحمام.

قال لو بصوت مُشرق: "ثانية واحدة". هزَّ الزجاجة الكبيرة بيأس في محاولة لتسريع التدفُّق. انزلقت راحتا يديه على الزجاج المبتل، وتهشمت الزجاجة الثقيلة إلى شظايا على الأرض السيراميكية.

تطوح الباب منفتحًا، وحدَّق جدو المذهول في الفوضى.

من بين غثيانه ابتسم لو ابتسامة جذَّابة، ولافتقاره لأي شيء يشبه ولو من بعيد الأفكار، انتظر من جدو أن يتكلَّم.

قال جدو في النهاية: "حسنًا يا ولد... يبدو أنك لديك بعض التنظيف لتقوم به".

وكان ذلك كل ما قال، ثم دار على عقبيه، وخاض في الزحام مزيحًا كل من أعاقه بكوعَيْه، وأوصد على نفسه باب غرفة النوم.

تأمَّل آل شفارتز صمتَ لو المريب لوهلة أطول، ثم أسرعوا عائدين إلى غرفة المعيشة، وكأنَّ الذنب الساحق سيُلوِّثهم أيضًا لو نظروا إليه أكثر من اللازم. ظلَّ مورتي لوقت أطول، بما يكفي لمنح لو نظرة ساخرة منزعجة. ثم ذهب أيضًا لغرفة المعيشة، تاركًا إم فقط واقفة في المدخل.

جَرَت الدموع على وجنتيها.

"أوه... يـا طفـلي المسـكين، أرجـوكَ لا تَقَـسُ عـلى نفسـك. كل ذلـك خطئـي، أنـا مَـن سَـبَّبتُ لـك هـذا".

قـال لـو بعدمـا وجـد صوتـه: "لا، أنـتِ لم تفعـلي، صدِّقينـي يـا إم، أنـا فقـط كنـت...".

"لسـتَ مضطـرًّا لتفسـير أي شيء لي يـا حبيبـي. أنـا في صَفِّـك مهـما حـدث".

قبَّلَتـه عـلى وجنتـه، وهمسـت في أذنـه: "هـذه لم تكـن لتصبـح جريمـة قتـلٍ يـا عزيـزي، أنـت لم تكـن سـتقتله. لم يكـن هـذا ليصـير شـيئًا سـيئًا. بـل كنـت فقـط سـتصلح مـن حالـه، ليكـون قـادرًا عـلى الذهـاب إلى الـرب في الوقـت الـذي يقـرِّر فيـه أخـذه".

قال لو بخواء: "ما الذي سيحدث الآن يا إم؟ ما الذي سيفعله؟".

* * *

ظـل لـو وإمرالـد مسـتيقظين، خائفـين، طـوال الليـل تقريبًـا، في انتظـار رؤيـة مـا الـذي سـيفعله جـدو. لكـنَّ صوتًـا لم يصـدر عـن غرفـة النـوم المقدَّسـة. وقبـل الفجـر بسـاعتين وقـع الزوجـان في النـوم.

في السادسـة صباحًـا اسـتيقظا، فقـد كان ذلـك موعـد إفطـار جيلهـما في المطبـخ. لم يتحـدَّث معهـما أحـد. كان أمامهـما عـشرون دقيقـة ليـأكلَا، لكن حركاتهـم كانـت بليـدةً مـن فـرط سـوء الليلـة التـي مـرَّا بهـا، فلـم يـكادا يبتلعـان قضمَتَـيْن مـن البيـض المصنـوع مـن أعشـاب البحـر المُعالَجَـة، قبـل أن يحـين موعـد تسـليم مقعديهـما لجيـل أبنائهـم.

ثـم، مثلـما جـرت العـادة عـلى كل مـن حُـرم مؤخَّـرًا مـن المـيراث، بـدآ في تحضـير الإفطـار لجـدو؛ الإفطـار الـذي سـيُقَدَّم لـه عـلى صينيـة في السريـر. حـاوَلَا أن يَبـدُوَا مُبتَهِجَـيْن بينـما يفعـلان. أصعـب جـزء في المَهَمَّـة

كان اضطرارهـما للتعامـل مـع بيـض وشرائـح بيكـون وسـمن، الطعـام الحقيقـي الـذي عليـه ينفـق جـدو كلَّ دَخلِـه الناتـج عـن ثروتـه.

قالـت إمرالـد: "طيـب، أنـا لـن أهلـع حتـى يصير هنـاك شيء يسـتحق الهلـع".

قال لو بأمل: "ربما هو لم يلاحظ ما الذي هشَّمته".

بينـما يعبـث بـلا مبـالاة بكعكـة الحنطـة السـوداء المصنوعـة مـن نشـارة الخشـب المُعالَجَـة، قـال ابنهـما إيـدي: "ربمـا هـو يحسـب أنـك كـسرت كريسـتالة سـاعتك".

قالـت إم: "لا تتحـدَّث بسـخرية مـع أبيـكَ، ولا تتحـدَّث والطعـام في فمـك أيضًـا".

قـال إيـدي الـذي كان في السـابعة والثلاثـين مـن عمـره: "أحـب أن أرى لـو كان هنـاك مَـن يسـتطيع قضـم هـذا الـشيء دون أن يقـول شـيئًا". نظـر في السـاعة. "حـان وقـت توصيـل إفطـار جـدو لـو لاحظتـم"

قال لو بوهن: "نعم، قد حان". هزَّ كتفيه. "هاتي الصينية يا إم".

"بل سنذهب معًا".

مَشَـيَا ببـطء، وابتسـما ببسـالة، ووَجَـدَا نصـف دائـرة مـن وجـوه آل شـفارتز الطويلـة، تقـف حـول بـاب الغرفـة.

طرَقَـت إم، قالـت بـإشراق: "جـدُّو، الإفطـار جاهـز". ولم يأتِهـا ردٌّ. طرَقَـت مُجـدَّدًا، أقـوى.

تطـوَّح البـاب مفتوحًـا أمـام طَرقَتِهـا. في قلـب الغرفـة، كان السريـر المُظلَّـل الناعـم الواسـع العميـق، رمـز أرض الأحـلام لـكل شـفارتز، خاويًـا.

الإحسـاس بالمـوت، وهـو شيء يألفـه آل شـفارتز بقـدر مـا يألفـون الزرداشـتية أو أسـباب ثـورة الهند-السـيبوي، أثقـل كلَّ صـوت في الغرفـة

وأبطأ كلَّ قلب. بهلع، أخذ الورثة يبحثون بحَذَرٍ تحت الأثاث وخلف الستائر عن بقايا جدو الفاني، أبي القبيلة.

لكن شيئًا لم يَبقَ من وعاء جدو الأرضي المتداعي، إلا رسالة، وجدها لو في النهاية على التسريحة، تحت ثِقَل أوراقٍ كان تذكارًا من المعرض العالمي 2000. بتَلَعثُمٍ، قرأها لو بصوتٍ عالٍ:

"بالأمس، شخص أَوَيتُه وحميته وعلَّمتُه أفضل ما عندي طوال كل تلك الأعوام، انقلب عليَّ ككلب مجنون، وخفَّف أنتي-جيراسوني، أو حاول أن يفعل. أنا لم أَعُد شابًّا. لم يَعُد بوسعي تَحمُّل أعباء الحياة الساحقة مثلما كنتُ أفعل من قبل. لذا، وبعد الخبرة المريرة التي عشتها أمس؛ أقول لكم وداعًا. عمَّا قريب ستسقط هموم الحياة عني مثل عباءة من الشوك، وسأعرف معنى السلام. عندما تجدون هذه الرسالة، سأكون قد رحَلتُ".

قال ويلي بانكسار: "يا ربي، إنه حتى لم يلحق رؤية نتيجة سباق الخمسمائة ميل السريع".

قال إيدي: "أو كأس العالم".

قال مورتي: "أو إن كانت مسز مكّجريفي ستستعيد بصرها".

قال لو: "ثمَّة المزيد"، وبدأ يقرأ بصوتٍ عالٍ مُجدَّدًا: "أنا، هارولد دي. شفارتز، بموجب هذه الوثيقة، أعلن أن هذه وصيتي الأخيرة وقولي الفصل. ما يعني سحب وإلغاء كل الوصايا والمخطوطات التي وضعتها في أي وقتٍ مضى وحتى هذه اللحظة".

صاح ويلي: "لا! ليس وصيَّةً أخرى!".

قرأ لو: "أقول هنا، إن جُلَّ ممتلكاتي، من كل نوع وشكل، لن تُقسَّم، بل ستكون مشاعًا ومشاركة بين كل سُلالَتي سواسية، أحدهم كالآخر، بلا تمييز بين جيل وآخر".

قالت إمرالد: "سُلالتي؟".

شمل لو الجميع بإيماءة من يده. "يعني أننا جميعًا سنمتلك كلَّ شيء لعين في الوقت ذاته".

استدارت العيون كلها إلى السرير.

قال مورتي: "سواسية، أحدهم كالآخر؟".

قال ويلي، الذي كان أكبر الحضور: "في الواقع، سيظلُّ النظام كما كان، حيث سيرأس الأشخاص الأكبر العالَمَ من مَقرٍّ إدارتهم هنا، و...".

قالت إم: "كلام جميل! لو يملك قَدرَ ما تملك أنت، وأنا أقول إن الرئاسة يجب أن تكون لأكبر شخص لا يزال يعمل. أنت تقضي يومك مسترخيًا في انتظار معاشك التقاعدي، بينما يشقى لو طوال اليوم ويعود منهكًا بعد الشغل و...".

قال إيدي بعصبية: "ولماذا لا ندع شخصًا لم يَحظَ بأي خصوصيَّة في حياته يتذوَّق بعضها قليلًا؟ بحقِّ الجحيم، لقد عرفتم الخصوصية جميعًا يا معشر الكبار عندما كنتم أطفالًا. أنا وُلِدتُ في قلب المعمعة اللعينة في الصالة! ماذا عن...".

قال مورتي: "فعلًا؟ طبعًا، حالك سيِّئ، وقلبي يبكي لأجلك. لكن جَرِّب أن تقضي شهر عسلك في الصالة لتعرف روعة التجربة كاملة".

صاح ويلي بغطرسة: "اخرسوا! لو سمعت كلمة أخرى سيقضي صاحبها الشهور السِّتَّة القادمة بجوار الحمَّام. والآن اخرجوا من غرفتي، أريد أن أفكِّر".

تحطَّمَت مزهريَّةٌ على الحائط فوق رأسه ببوصة. وفي اللحظة التالية اندلعت مشاجرة شملت الجميع، كلُّ زَوجَيْن فيها يقاتلان لطَرد الآخرين من الغرفة. تكوَّنَت التحالفات وتحلَّلَت بتبدُّل الحال

التكتيـكي للموقـف. بعدمـا وجـد لـو وإم نفسـيهما مُلقَيَـيْن في الرَّدهـة، اتَّحـدا مـع آخريـن في نفـس الحـال وهجمـوا عائديـن عـلى الغرفـة.

بعـد سـاعتين مـن القتـال، بـلا أدنى شـبهة اتفـاق في الأفـق، اقتحمـت الشرطـة المـكان.

وعـلى مـدار نصـف السـاعة التاليـة، كانـت عربـات الدوريـة والإسـعاف تأخـذ آل شـفارتز، وصـارت الشَّـقَّة بعدهـا سـاكنة واسـعة.

* * *

بعـــد ســـاعة، مقاطـــع مـــن آخـــر مراحـــل الشـــغب عُرضـــت عـــلى التليفزيـون أمـام 500,000,000 مُشـاهِد مسـتمتع عـلى السـاحل الشرقـي.

كان التلفـاز مـتروكًا يعمـل في سـكون شـقة آل شـفارتز ثلاثيـة الغـرف بالطابـق 76 مـن المبنـى 257. مـرَّةً أخـرى امتـلأ الهـواء بصيـاح وصراخ وتحطيـم المتنازِعـين، غـير أنـه الآن كان يخـرج بـلا أذى مـن مُكـبِّرات الصـوت.

عُرِضَـت لقطـات المعركـة أيضًـا عـلى شاشـة التليفزيـون في قسـم الشرطـة، حيـث شـاهدها آل شـفارتز ومُحتَجِزوهـم باهتـمام احـترافيٍّ.

إم ولـو كانـا في زنزانتـين متجاورتـين، قُطـرُ الواحـدة أربـع في ثمـاني أقدام، وتمَـدَّد كلٌّ منهـم في سَـلامٍ عـلى سريـره. نـادى لـو عـبر الحاجـز الفاصـل: "إم... هـل لديـكِ حَـوضٌ خـاصٌ بـك وحـدك أيضًـا؟".

"طبعًـا. حـوض وسريـر وضـوءٌ يعمـل. يـا عينـي! كُنَّـا نحسـب مـن قبـل أن غرفـة جـدو كانـت شـيئًا كبـيرًا. إلى متـى سيسـتمرُّ هـذا يـا عزيـزي؟"، رفَعَـت يديهـا، "لأول مـرة منـذ أربعـين عامًـا لم تُصِبنـي الرِّعشَـة".

قـال لـو: "أمسِـكي الخشـب... يقـول المحامـي إنـه سـيحاول أن يحصـل لنـا عـلى عـام".

قالت إم حالمة: "أتساءل أي نوع من الواسطة يحتاجها الواحد لينال حبسًا انفراديًا؟".

قال السَّجَّان: "حسنًا، فلنهدأ قليلًا، وإلا سأرميكم كلكم على بعضكم في الخارج. وأول مَن سيُفشي روعة الحال في السجن، لن يعود إليه مرة أخرى".

وفورًا غرق المساجين في الصمت.

أظلَمَت غرفة المعيشة في شقَّة آل شفارتز للحظة، فيما اختفت مشاهد الشغب، ثم ظهر وجه المذيع، مثلما تشرق الشمس من خلف الغيوم. قال: "والآن يا أصدقاء، عندي لكم رسالة خاصة من صُنَّاع الأنتي- جيراسون، رسالة لكل الأعِزَّاء فوق المئة والخمسين عامًا. هل تعيق التجاعيدُ انخراطكم الاجتماعي؟ وهل يرهقكم ضَعفُ المفاصل وشَيبُ الشَّعر ووقوعه؟ كل ذلك لأنكم كبرتم قبل صناعة الأنتي- جيراسون؟ لو أنتم كذلك، فلن تضطرُّوا للمعاناة بعد الآن، لا حاجة للشعور بالعزلَة والاختلاف.

بعد أعوام من البحث، استطاع العِلمُ التَّوصُّلَ إلى سوبر- أنتي- جيراسون! خلال أسابيع، نعم أسابيع، سيصبح هيئتكم وإحساسكم بالحياة، لا يختلفان كثيراً عن هيئة وإحساس أحفاد أحفادكم. ألستم على استعدادٍ لدفع خمسة آلاف دولار كي لا يكون بالإمكان تمييزكم عن الآخرين؟ لا داعي لذلك؛ فالسوبر- أنتي- جيراسون، الآمِن الفَعَّال المُجرَّب، سيُكلِّفُكم فقط دولارًا في اليوم. استعادة كلِّ بريق وجاذبية الشباب لن تُكلِّفَكم في المتوسط أكثر من خمسين دولارًا.

أرسِلوا لنا الآن للحصول على صندوقٍ اختباريٍّ مجّانًا. فقط ضَعْ اسمك وعنوانك على بطاقة بريدية وأرسلها على العنوان التالي: "سوبر"، صندوق 500,000، سكنيكتادي، نيويورك. حفظت العنوان؟ مرة أخرى: "سوبر"، صندوق...".

جرى قلم جدو، ذلك الذي أخذه من ويلي الليلة السابقة، يخطُّ كلمات المذيع على قُصاصة. كان قد عاد قبل دقائق قليلة من حانة آيدل أور، التي تُطلُّ على مبنى 257 عبر الميدان الأسفلتيِّ المدعو بقرية ألدِن الخضراء. كان قد طلب من عاملة النظافة أن تُرتِّب المكان، وكلَّف أيضًا أفضل محامٍ في المدينة ليحصل لأسرته على أكبر عقوبة. ثم نقل جدو بعدها السَّريرَ النهاري إلى أمام شاشة التليفزيون؛ حتى يستطيع المشاهدة وهو مُمدَّد: شيء كان يحلم بفِعلِه منذ سنين.

همس جدو:" سكن..يك..تاد..ي، تمام". تبدَّل وجهه بشكل ملحوظ؛ بدا أن عضلات وجهه قد ارتخت، لتُظهِرَ هدوءًا ورباطةَ جأشٍ تحت ما كانت تبدو دومًا خطوطَ المزاج السَّيِّئ والتوبيخ. بدا وكأن صندوقه التجريبي من السوبر-أنتيجيراسون قد جاء بالفعل. وعندما يعرض التليفزيون شيئًا مُسلِّيًا، بات يضحك بسهولة، بدلًا من توسيع خطٍّ فمه مليميترًا بصعوبة شديدة. الحياة حلوة، فقط لمن يفهمها، وهو ينوي أن يفعل حتى النهاية.

.(1953)

نبذة عن المؤلف:

كورت فونيجت چونيور

(1922- 2007) هو أحدُ أهمِّ الكُتَّاب الأمريكيين في القرن العشرين. عُرف باستخدامه المميَّز للكوميديا السوداء وتقنيات روائيَّة ما بعد حداثية وأدوات من الخيال العلمي والفانتازيا؛ لإبراز مفارقات القرن العشرين وأهواله.

من أشهر أعماله "إفطار الأبطال"، "المذبح رقم 5"، و"صافرات تايتنز".

نبذة عن المترجم

محمد أ. جمال

(-1992 ...)، مترجم وروائي مصري، من أعماله الأصلية: "كتاب خيبة الأمل" و"طيران"، وقدَّم عِدَّة ترجمات من اللغة الإنجليزية، منها: "البطل بألف وجه"- چوزيف كامبل، و"إفطار الأبطال"- كورت فونيجت، و"أساطير إسكندنافية"- نيل جايمان.

الفهرس

مُقدّمة 5
حيث أعيش 9
هاريسون بيرجيرون 17
مَن أنا هذه المرَّة؟ 27
أهلًا بك في بيت القرود 45
تَمشِيَة طالَت إلى الأبد 71
ملف فوستر 83
الآنسة فتنة 103
كُلُّ أحصِنَة الملك 121
كلب توم أديسون الأشعث 147
قاموس جديد 157
الجيران 165

قصور أكثر فخامة 177
حكاية هاينيس بورت 193
مياهٌ أكثر ممَّا رأيتَ في حياتِكَ 902
تقريرٌ عن تأثير بارنهاوس 223
سؤال اليوفوريا 241
عُدْ إلى زَوجَتِكَ وابنِكَ الغالِيَيْن 263
غزالٌ في الوِرَش 283
الكذبة 303
غير جاهز للبس 323
الفتى الذي غلب معه الجميع 343
صواريخ ورجال 361
إبيكاك 377
آدم 389
غدًا وغدًا وغدًا 401
نبذة عن المؤلف 421
نبذة عن المترجم 421

مكتبة
t.me/soramnqraa

يوم المجموعة القصصية .. #1

telegram @soramnqraa

"

أعلم أني غريب الأطوار،
الخوف من نفسي هو ما جعلني كذلك

أهلا بك في بيت القرود

هي مجمـوعة قصص قصيرة لكورت فونيجت، كتبها على مدار العـقدَيْن: السَّادس والسَّابع من القرن العشرين، ونُشِرَت في دوريَّات الخيال العلمي والفانتازيا الأمريكية. تحتوي المجموعة على تشـكيلةٍ مُختَلِفة ومتنوِّعة من القصص الخيالية والـكوميدية والإنسانية، تَعرِضُ بِخِفَّةٍ وحَذاقةٍ ومُتعَة رُؤيَةَ فونيجت (وتَبدُّلَ رؤاه) في هذه الـفترة تجاه أبرز قـضايا القرن العشرين.

ISBN 978-977-313-874-5
9 789773 138745

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات